



عناصر الموضوع

المجلد التاسع عشر

مفهوم السياسة

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل كلمة سياسة مشتقة من الفعل ساس يسوس بمعنى: دبر أمور الناس، يقال: سست الرعية سياسة: أمرتهم ونهيتهم، وساس الأمر سياسة: قام به[(١)].

وسوسه القوم: جعلوه يسوسهم، وسوس الرجل أمور الناس: إذا ملك أمرهم.

والسياسة: القيام على الشيء بما يصلحه، وهي فعل السائس، يقال: يسوس الدواب إذا قام عليها وراضها، والوالي يسوس رعيته، وسوس له أمرًا، أي: روضه وذلله[(٢)].

وكلمة السياسة لم ترد في القرآن الكريم مطلقًا، وإنما ورد ما يدل عليها، كالملك، والتمكين والاستخلاف، حيث وردت هذه المفردات في سور المائدة والأعراف ويوسف والقصص وغيرها.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال ابن نجيم رحمه الله: السياسة هي القانون الموضوع لرعاية الآداب، والمصالح، وانتظام الأحوال[(٣)].

وقيل: السياسة هي: استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجي في العاجل والآجل[(٤)].

وقيل هي: حياطة الرعية بما يصلحها لطفًا أو عنفًا[(٥)].

وقال البجيرمي: السياسة هي: إصلاح أمور الرعية، وتدبير أمورهم[(٦)].

وقال النبهاني: السياسة: رعاية شؤون الناس داخليًا وخارجيًا، وتعني نظام الحكم وجهاز الدولة، وتعني علاقة الناس وعلاقة الأمة بغيرها من الأمم، وهو ما اصطلح على تسميته بالسياسة الداخلية والخارجية[(٧)].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ٦/ ١٠٧.
(٢) انظر: المصدر السابق ٦/ ٤٢٩-٤٣٠.
(٣) انظر: البحر الرائق ٥/ ٧٦.
(٤) انظر: الكليات، الكفوي ص٥١٠، حاشية ابن عابدين ٤/ ١٥.
(٥) انظر: طلبة الطلبة ص٣٠٢.
(٦) انظر: حاشية البجيرمي على شرح منهج الطلاب ٢/ ١٧٨.
(٧) انظر: مفاهيم سياسية لحزب التحرير ص٥.

ويقول عبدالوهاب خلاف: إن علم السياسة الشرعية يبحث فيه عما تدبر به شؤون الدولة الإسلامية من القوانين والنظم التي تتفق مع أصول الإسلام[1].

وقد اختلفت التعريفات المعاصرة للسياسة، فعرفها المعجم القانوني بأنها: أصول أو فن إدارة الشئون العامة[2].

وعرفها معجم اللغة العربية المعاصرة بعدة تعريفات بناء على المقصود منها، أشهرها التعريف لها بالمعنى العام أنها: (سلوك الحكومات والدول ومواقفها تجاه القضايا الداخلية والقضايا المتعلقة بالدول الأخرى)[3].

(١) انظر: النظم الإسلامية، حسين الحاج ص٤٤.
(٢) انظر: موقع المعجم القانوني.
(٣) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٢/ ١١٣٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الملك:

الملك لغة:

الميم واللام والكاف أصلٌ صحيح يدل على قوةٍ في الشيء وصحة. يقال: أملك عجينه، أي: قوى عجنه وشده. وملكت الشيء: قويته[١].

وملك وأملك، وملك ملكًا وإملاكًا وتمليكًا: اشتقاق ذلك من الملك، وهو القوة والشدة.

والمَلِك: هو المتصرف بالأمر والنهي في الجمهور، وذلك يختص بسياسة الناطقين، ولهذا يقال: ملك الناس، ولا يقال: ملك الأشياء[٢].

والمَلِك: اسم لكل من يملك السياسة ، إما في نفسه، وذلك وبالتمكين من زمام قواه وصرفها عن هواها، وإما في غيره، سواء تولى ذلك أو لم يتول، على ما تقدم[٣].

الملك اصطلاحًا:

هو حكم الناس وأمرهم ونهيهم وقيادتهم في أمورهم.

الصلة بين الملك والسياسة:

الملك فيه معنى السيطرة، والسياسة جزء منه لا تنفك عنه، بل إن الملك لا بد أن يتسم بالسياسة الحكيمة في أمور البلاد وشؤونها، ولو أن الملك لم يكن ملمًا بجوانب السياسة لم يكن موفقًا ولا مسددًا في ملكه، فالسياسة جزء من الملك، وكل ملك لا بد لقيامه من السياسة الشرعية.

٢ الحكم:

الحكم لغة:

مشتق من الفعل: حكم يحكم حكمًا، بمعنى قضى وفصل، والحكم: القضاء في الشيء بأنه كذا أو ليس بكذا سواءٌ لزم ذلك غيره أم لا[٤].

الحكم اصطلاحًا:

لا يختلف عن المعنى اللغوي؛ إذ الحكم في الاصطلاح: «القضاء بالشيء بأنه كذا أو

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٨١.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٧٢، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٤/ ١٢٥.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٧٢.
(٤) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص١٦٧، تاج العروس، الزبيدي ٣١/ ٥١٠.



ليس بكذا، سواء ألزمت ذلك غيرك أو لم تلزمه»[1].

الصلة بين الحُكم والسياسة:

الحكم يشمل عموم شؤون البلاد سواءً كان قضاءً أو غيره، فالحاكم يسوس أمور الناس وهو مسؤول عنهم، إلا أن العلاقة بين الحكم والسياسة، أن الحكم أخص من السياسة، والسياسة تشمله وغيره، ويمكن القول: إن كل حكم من السياسة، وليست كل سياسة حكمًا. والله أعلم.

٣ الإمامة:

الإمامة لغة:

مصدر: أم القوم وأم بهم بمعنى: تقدمهم، والإمام ما ائتم به من رئيسٍ وغيره، والجمع أيمةٌ[2].

الإمامة اصطلاحًا:

«رياسة عامة تتضمن حفظ مصالح العباد في الدارين»[3]. والإمامة ترادف مصطلح الخلافة، ويقال لولي أمر المسلمين العام: خليفة أو إمام، قال النووي: «يجوز أن يقال للإمام: الخليفة والإمام وأمير المؤمنين»[4].

الصلة بين الإمامة والسياسة:

لا شك أن الخلافة والولاية من أسس السياسة الشرعية، والخليفة والوالي لا بد أن يكون على دراية بالسياسة الشرعية؛ لتوقف أمور البلاد ومصالح العباد عليها. وعلى ذلك فالخلافة والولاية أعم من السياسة.

---

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٢٦.
(٢) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ١٠/ ٥٧٢.
(٣) الكليات، الكفوي ص٢٦٧.
(٤) روضة الطالبين، النووي ١٠/ ٤٩.

قواعد السياسة في القرآن

ذكر الله تعالى في كتابه قواعد السياسة الشرعية ومقوماتها، كالتشريع والعدل والشورى والأمانة والحرية والطاعة، ونتناول في هذا المبحث قواعد السياسة في النقاط الآتية:

أولًا: التشريع حق لله تعالى:

لما كان هذا الكون مخلوقًا مملوكًا لله تعالى، والملك الحقيقي يستلزم حق الانفراد بالتصرف، والبشر جزء من هذا الملك، لما كان الأمر كذلك: فإنه ليس من حق أي أحد غير الله أن يتصرف في ملك الله بشيء مهما يكن ذلك الشيء، إلا أن يأذن الله له بذلك التصرف[(١)].

وحيث إن الله هو خالقنا ورازقنا والمنعم علينا بجلائل النعم ودقائقها، فليس لنا أن نحكم لأنفسنا بالإباحة أو التحريم، إلا أن نعلم أن الله حكم لنا بها، وإلا كنا مشرعين على الله بغير علم ولا إذن منه[(٢)].

قال الله تعالى في حكاية قول يوسف عليه السلام: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

والمراد بالتشريع: هو ما شرعه الله لعباده من العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات ونظم الحياة في شعبها المختلفة، لتنظيم علاقة الناس بربهم، وعلاقاتهم بعضهم ببعض، وتحقيق سعادتهم في الدنيا والآخرة[(٣)].

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورى: ١٣].

وأصل لفظة ﴿شَرَعَ﴾ أي: جعل طريقًا واسعة، وكثر إطلاقه على سن القوانين والأديان، فسمي الدين شريعة، فـ(شرع) هنا مستعار للتبيين[(٤)].

المقصود من ذلك أصول الديانة وأسس التشريع التي لا تختلف فيها الشرائع[(٥)].

فتبين هذه الآية أن الله أرسل الرسل، وأنزل الكتب لبيان الحق من الباطل، وبيان ما اختلف فيه الناس، وأن الواجب على الناس اتباع ما أنزل إليهم من ربهم، ورد ما تنازعوا فيه إلى الكتاب والسنة، وأن من لم يتبع ذلك كان منافقًا، وأن من اتبع الهدى الذي جاءت به الرسل فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذلك حشر أعمى ضالًا شقيًا معذبًا، وأن الذين فرقوا دينهم قد برئ

(١) انظر: العقيدة الإسلامية وأسسها ص٢٥٣.
(٢) انظر: المصدر السابق ص٢٥٤.

(٣) انظر: تاريخ التشريع الإسلامي، مناع القطان ص١٣-١٤.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ٢٥/ ١١٨.
(٥) انظر: التحرير والتنوير ٦/ ٢٠٧، فتح القدير ٤/ ٧٥٤.

الله ورسوله منهم[1].

وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

أي: يتصرف في خلقه بما يشاء من أمره، لا يشركه أحد كما لا يشركه أحد في خلقه[2]؛ لأن الخلق والأمر لله لا لغيره، وفي هذا تذكير من شأنه إيصالهم إلى إفراد الله تعالى بالعبادة[3].

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

ويفهم من هاتين الآيتين الكريمتين أنه لا يجوز التحاكم إلى غير كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وقد أوضح تعالى هذا المفهوم موبخًا للمتحاكمين إلى غير كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم مبينًا أن الشيطان أضلهم ضلالًا بعيدًا عن الحق[4]، بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

وأشار إلى أنه لا يؤمن أحد حتى يكفر بالطاغوت[5].

وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

قال ابن كثير: أي: هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، من تحريم ما حرموا عليهم، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل الميتة والدم والقمار، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة، التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم، من التحليل والتحريم، والعبادات الباطلة، والأقوال الفاسدة[6].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

قال مجاهد وغيره: نزلت فيمن أراد التحاكم إلى الطاغوت[7]. ورجحه الطبري، لأنه أشبه بنسق الآيات[8].

وهذا نص في تكفير من لم يرض بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم[9].

---

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٥/ ٣٠٧.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٤٥٢.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٥٨.
(٤) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٢٤٤.
(٥) انظر: المصدر السابق.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم ٧/ ١٩٨.
(٧) انظر: البحر المحيط ٣/ ٢٩٦.
(٨) انظر: جامع البيان ٨/ ٥٢٤.
(٩) انظر: مفاتيح الغيب ١/ ١٤٨٢.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

هذا إنكار من الله عز وجل، على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد التحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية: أنها في رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما، فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد. وذاك يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف. وقيل: في جماعة من المنافقين، ممن أظهروا الإسلام، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية. وقيل: غير ذلك، والآية أعم من ذلك كله، فإنها ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هاهنا[(١)].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

أي: لا تقدموا خلاف الكتاب والسنة[(٢)].

وهذه الآية أصل في ترك التعرض لأقوال النبي صلى الله عليه وسلم، وإيجاب اتباعه والاقتداء به[(٣)].

ولا يخفى أن في ارتضاء حكم غير الله، رفض شريعة الله والتحاكم إليه، وقد سمى الله كل حكم يخالف حكمه بأنه حكم الجاهلية.

قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

ويحسن هنا الإشارة إلى سن القوانين الوضعية والأحكام العرفية والتحاكم إليها دون شرع الله، وهي مسألة الحكم بغير ما أنزل الله تعالى، وهناك فرق بين حق التشريع وبين مخالفة تشريع الله أو حكم الله.

فأما الأول (والذي له تعلق بتوحيد الربوبية) فإن الشرك في الربوبية إما أن يكون شركًا أكبر، أو شركًا أصغر، فإن كان الأمر راجعًا إلى الجحود والاستحلال (أي: الاعتقاد) فإن صاحبه مشرك شركًا أكبر ولو وافق حكمه حكم الله، وأما ما كان دون الاعتقاد فيكون دون ذلك.

وأما مخالفة حكم الله المتعلق بتوحيد الألوهية فلا يكون شركًا[(٤)]، وإنما هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، أو آثم بصغيرته.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٤٦.
(٢) انظر: الوجيز، الواحدي ٢/ ١٠١٥.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١٩٩.
(٤) هناك فرق بين صرف العبادة لغير الله، وبين مخالفة حكم الله وشرعه، فالأول يكون مشركًا شركًا أكبر، والثاني يأثم بفعله ويفسق، ولو عد شركًا للزم من ذلك التكفير بالذنوب والمعاصي، وهو أشد من قول الخوارج: في التكفير بالكبيرة، والله أعلم.

والفرق بين استحلال القلب والفعل، أن الاستحلال القلبي يكون صاحبه كافرًا، وأما الاستحلال العملي فيكون صاحبه فاسقًا.

والله تعالى ذكر أن الحكم بغير ما أنزل سبحانه منه ما يكون كفرًا، ومنه ما يكون ظلمًا، ومنه ما يكون فسقًا. والله أعلم.

ثانيًا: العدل:

العدل في اللغة: القصد في الأمور، وهو خلاف الجور، وهو أيضًا: ما قام في النفوس أنه مستقيم[1].

والمقصود فيه: المساواة بين الناس أو بين أفراد أمة، في تعيين الأشياء لمستحقها، وفي تمكين كل ذي حق من حقه، بدون تأخير، فهو مساواة في استحقاق الأشياء، وفي وسائل تمكينها بأيدي أربابها، فالأول هو العدل في تعيين الحقوق، والثاني هو العدل في التنفيذ.

فالعدل وسط بين طرفين هما: الإفراط في تخويل ذي الحق حقه، أي: بإعطائه أكثر من حقه، والتفريط في ذلك، أي: بالإجحاف له من حقه، وكلا الطرفين يسمى جورًا.

ويطلق لفظ العدل الذي هو التسوية، على تسوية نافعة يحصل بها الصلاح والأمن، ثم توسعوا في هذا الإطلاق حتى صار يطلق على إبلاغ الحق إلى ربه، ولو لم يحصل اعتداء ولا نزاع[2].

والعدل أشرف أوصاف الملك وأقوم لدولته ؛ لأنه يبعث على الطاعة ويدعو إلى الألفة ، وبه تصلح الأعمال وتنمو الأموال، وتنتعش الرعية وتكمل المزية، وقد أمر الله عز وجل به الخلق وحثهم عليه[3].

والعدل يدخل في جميع المعاملات، وهو حسن في الفطرة، لأنه كما يصد المعتدي عن اعتدائه، كذلك يصد غيره عن الاعتداء عليه، كما قال تعالى: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

وإذ قد كان العدل بهذه الاعتبارات تجول في تحديده أفهام مخطئة، تعين أن تسن الشرائع لضبطه على حسب مدارك المشرعين ومصطلحات المشرع لهم، على أنها معظمها لم يسلم من تحريف لحقيقة العدل في بعض الأحوال، فإن بعض القوانين أسست بدافع الغضب والأنانية، فتضمنت أخطاء فاحشة ، مثل القوانين التي يمليها الثوار بدافع الغضب على من كانوا متولين الأمور قبلهم، وبعض القوانين المتفرعة عن تخيلات وأوهام، كقوانين أهل

---

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٠٣٠، المصباح المنير، الفيومي ص٢٠٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ١٦٢-١٦٣.

(٣) انظر: المنهج المسلوك في سياسة الملوك ١/ ٢٤٢.

الجاهلية والأمم العريقة في الوثنية[1].

وقد نصت آيات القرآن الكريم في غير موضع على بيان مكانة العدل وأهميته وآثاره على الفرد والمجتمع، وما يحققه من منافع دنيوية وأخروية، ومن ذلك ما يلي:

١ . العدل أساس الحكم بين الناس.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

هذا وقد ذكر بعض المفسرين أنه ما قامت السموات والأرض إلا بالعدل، فالعدل قوام الأمور وروحها، وبفقده تفسد الأمور كلها ويختل الميزان لكل شيء.

والحكم بالعدل من لازمه معرفة العدل في كل أمر من الأمور، فإن فهمت الأمة حقيقة العدل وعرفت حدوده وضعت كل شيء في موضعه، وكان المتولون للولايات هم الكمل من الرجال والأكفاء للأعمال، فجرت تدابيرهم وأفعالهم على العدل والسداد، متجنبين للظلم والفساد، ترقت الأمة وصلحت أحوالها، وتمام ذلك في الآية الأخرى التي أمر الله فيها بطاعة ولاة الأمور، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩][2].

ومعنى ﴿أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾: أي تحكموا بالإنصاف والسوية، إذا قضيتم بين من ينفذ عليه أمركم، أو يرضى بحكمكم، ولأن الحكم وظيفة الولاة، قيل: الخطاب لهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ أي: نعم شيئًا يعظكم به، أو نعم الشيء الذي يعظكم به. والمخصوص بالمدح محذوف، وهو المأمور به من أداء الأمانات، والعدل في الحكومات[3].

وقد اختلف أهل التأويل فيمن عني بهذه الآية على أقوال.

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك عندي، قول من قال: هو خطاب من الله لولاة أمور المسلمين بأداء الأمانة إلى من ولوا أمره في فيئهم وحقوقهم، وما ائتمنوا عليه من أمورهم، بالعدل بينهم في القضية، والقسم بينهم بالسوية. يدل على ذلك ما وعظ به الرعية في: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

فأمرهم بطاعتهم، وأوصى الراعي بالرعية، وأوصى الرعية بالطاعة[4].

وقد أجمع العلماء على أنه يجب على الحاكم أن يحكم بالعدل لهذه الآية، وقوله

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ٤/ ١٦٣.

(٢) انظر: القواعد الحسان في تفسير القرآن ص١٠٧-١٠٨.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٢٠٥.

(٤) جامع البيان ٨/ ٤٩٢.

تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1] [ص: ٢٦].

وقد جمع في هذه الآية ما يتصل بالتكاليف فرضًا ونفلًا، وما يتصل بالأخلاق والآداب: عمومًا وخصوصًا[2].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ رواه ابن جرير[3].

٢. العدل قرين الصفات الحسنة.

ورد في القرآن ما يؤكد على ارتباط العدل بغيره من الصفات الحسنة ، كالإحسان إلى الخلق والعطف عليهم.

قال سبحانه: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

العدل: هو الإنصاف، والإحسان إلى الناس. وعن ابن عباس: العدل: التوحيد، والإحسان: أداء الفرائض. وقيل غير ذلك[4].

والإحسان: هو معاملة بالحسنى ممن لا يلزمه إلى من هو أهلها. والحسن: ما كان محبوبًا عند المعامل به، ولم يكن لازمًا لفاعله، وأعلاه ما كان في جانب الله تعالى[5].

وهو فوق العدل، وذاك أن العدل: هو أن يعطي ما عليه، ويأخذ ماله. والإحسان: أن يعطي أكثر مما عليه، ويأخذ أقل مما له. فالإحسان زائد على العدل، فتحرى العدل واجب، وتحرى الإحسان ندب وتطوع.

وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

ولذلك عظم الله تعالى ثواب المحسنين، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقال: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١][6].

٣. ضرورة الصلح بين المتخاصمين بالعدل.

قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب ٦/ ٤٣٩.
(٢) انظر: المصدر السابق ١٢/ ١٤١.
(٣) انظر: جامع البيان ١٧/ ٢٨٠.
(٤) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ٣٧.
(٥) انظر: التحرير والتنوير ١٣/ ٢٠٥.
(٦) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص١١٩.

﴿يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

فجعل الفيء إلى أمر الله غاية للمقاتلة، أي: يستمر قتال الطائفة الباغية إلى غاية رجوعها إلى أمر الله، وأمر الله هو ما في الشريعة من العدل والكف عن الظلم، أي: حتى تقلع عن بغيها. وأتبع مفهوم الغاية ببيان ما تعامل به الطائفتان بعد أن تفي الباغية بقوله: ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ والباء للملابسة، والمجرور حال من ضمير ﴿فَأَصْلِحُوا۟﴾. والعدل: هو ما يقع التصالح عليه بالتراضي والإنصاف، وأن لا يضر بإحدى الطائفتين، فإن المتالف التي تلحق كلتا الطائفتين، قد تتفاوت تفاوتًا شديدًا فتجب مراعاة التعديل.

فيجب العدل في صورة الإصلاح، فلا يضيعوا بصورة الصلح منافع عن كلا الفريقين، إلا بقدر ما تقتضيه حقيقة الصلح من نزول عن بعض الحق بالمعروف. ثم أمر المسلمين بالعدل بقوله: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾ أمرًا عامًا، تذييلًا للأمر بالعدل الخاص في الصلح بين الفريقين، فشمل ذلك هذا الأمر العام أن يعدلوا في صورة ما إذا قاتلوا التي تبغي[(١)].

٤ . العدل مطلوب مع العدو والصديق.

أمر الله تعالى المرء بالعدل في جميع أحواله، مع عدوه وصديقه، وأن لا يحمله البغض على الحيف والظلم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

قال الأمين الشنقيطي رحمه الله: فانظر: ما في هذه الآيات من مكارم الأخلاق، والأمر بأن تعامل من عصى الله فيك بأن تطيعه فيه[(٢)].

ومرجع تفاصيل العدل إلى أدلة الشريعة، فالعدل هنا كلمة مجملة جامعة، وهي بإجمالها مناسبة إلى أحوال المسلمين حين كانوا بمكة، فيصار فيها إلى ما هو مقرر بين الناس في أصول الشرائع، وإلى ما رسمته الشريعة من البيان في مواضع الخفاء، فحقوق المسلمين بعضهم على بعض من الأخوة والتناصح، قد أصبحت من العدل بوضع الشريعة الإسلامية[(٣)].

فنهاهم أولًا أن تحملهم البغضاء على ترك العدل، ثم استأنف فصرح لهم بالأمر بالعدل تأكيدًا وتشديدًا، ثم استأنف، فذكر لهم وجه الأمر بالعدل، وهو قوله: ﴿هُوَ

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٠١-٢٠٢.

(٢) انظر: أضواء البيان ٣/ ٥٠.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٢٠٥.

﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: العدل أقرب إلى التقوى، وأدخل في مناسبتها، أو أقرب إلى التقوى لكونه لطفًا فيها. وفيه تنبيه عظيم على أن وجود العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله، إذا كان بهذه الصفة من القوة، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين، الذين هم أولياؤه وأحباؤه؟[1].

٥. العدل صفة الأنبياء والمرسلين.

قال تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥].

أمر الله نبيه أن يؤمن بجميع الكتب المنزلة، وأن يعدل بين الناس كلهم، فيعطي كل ذي حق حقه، ويمنع كل مبطل عن باطله؛ فإن القسط والعدل في جميع أمور الدين والدنيا فيما جاء به، وهو المقصود بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥][2].

هذا ولو نظرنا إلى القوانين التي تحكم حياة الناس لوجدنا أن (أعلى القوانين هي الشرائع الإلهية، لمناسبتها لحال من شرعت لأجلهم، وأعظمها شريعة الإسلام، لابتنائها على أساس المصالح الخالصة أو الراجحة، وإعراضها عن أهواء الأمم والعوائد الضالة، فإنها لا تعبأ بالأنانية والهوى، ولا بعوائد الفساد، ولأنها لا تبنى على مصالح قبيلة خاصة، أو بلد خاص، بل تبنى على مصالح النوع البشري وتقويمه وهديه إلى سواء السبيل، ومن أجل هذا لم يزل الصالحون من القادة يدونون بيان الحقوق ؛ حفظًا للعدل بقدر الإمكان وخاصة الشرائع الإلهية، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]. أي: العدل.

فمنها المنصوص عليه على لسان رسول البشرية، ومنها ما استنبطه علماء تلك الشريعة ، فهو مدرج فيها وملحق بها)[3].

ثالثًا: الشورى:

الشورى من أسمى مبادئ الإسلام، حيث أمر به القرآن والسنة، وذلك نظرًا لما يحققه من عدالة وتوازن في أمور الحكم والسياسة وغيرهما، وقد عرفها الراغب الأصفهاني بأنها: استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض[4].

وقال ابن العربي أنها: الاجتماع على أمرٍ ليستشير كل واحد منهم صاحبه، ويستخرج ما عنده[5].

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٦٤٧.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ٢٩٤.
(٣) التحرير والتنوير ٤/ ١٦٣.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٧٠.
(٥) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٣٨٩.

وعرفها بعض المعاصرين بأنها: تبادل الآراء في أمر من الأمور لمعرفة أصوبها وأصلحها، لأجل اعتماده والعمل به[1].

والمشترك في هذه التعريفات وغيرها، هو دورانها حول معنى تقليب وجهة النظر واستنباط الرأي لتحقيق غايات نافعة للأمة.

وخلاصة القول: إنها استطلاع للرأي من أهل الخبرة فيه، بهدف الوصول لأقرب الأمور للحق.

والشورى مشروعة في الشريعة الإسلامية على جهة الإجمال، في حق الحاكم، وفي حق عامة المسلمين، وهي أصل من أصول الحكم في الشريعة الإسلامية، وركن هام من أركان قيام الدولة الإسلامية، حيث اتفق العلماء على مشروعيتها، استنادًا إلى الأدلة القرآنية، وأدلة السنة النبوية القولية والفعلية، الدالة على مشروعيتها والدائرة بين الوجوب والاستحباب.

وأهم ما يجب على الإمام المشاورة في كل مالا نص فيه عن الله ورسوله، ولا إجماعًا صحيحًا يحتج به، أو ما فيه نص اجتهادي غير قطعي، ولا سيما أمور السياسة والحرب المبنية على أساس المصلحة العامة، وكذا طرق تنفيذ النصوص في هذه الأمور، إذ هي تختلف باختلاف الزمان والمكان. فهو ليس حاكماً مطلقاً كما يتوهم الكثيرون، بل مقيد بأدلة الكتاب والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين العامة وبالمشاورة.

ولو لم يرد في الشورى إلا وصف للمؤمنين بقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

وقوله لرسوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] لكفى، فكيف وقد ثبتت في الأخبار والآثار قولًا وعملًا[2].

قال ابن عطية: والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب. هذا ما لا خلاف فيه[3].

وفي قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قال القرطبي في هذه الآية: أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بهذه الأوامر التي هي بتدريج بليغ؛ وذلك أنه أمره بأن يعفو عنهم ما له في خاصته عليهم من تبعة؛ فلما صاروا في هذه الدرجة أمره أن يستغفر فيما لله عليهم من تبعة أيضًا، فإذا صاروا في هذه الدرجة صاروا أهلًا للاستشارة في الأمور[4].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

(١) انظر: مناهج الشريعة الإسلامية ص٢/ ١٢٨.

(٢) الخلافة ص٣٨.

(٣) انظر: المحرر الوجيز ١/ ٥٦٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٢٤٩.

والمشاورة هنا في شؤون الأمة ومصالحها، وقد ذكرها الله تعالى في معرض المدح والثناء، واشترطها في أمر العائلة فقال: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: ٢٣٣].

فشرع بهاته الآيات المشاورة في مراتب المصالح كلها: وهي مصالح العائلة، ومصالح القبيلة أو البلد، ومصالح الأمة. وتدل هذه الآية على جلالة موقع المشورة، لذكرها مع الإيمان وإقامة الصلاة، كما تدل على أننا مأمورون بها[(١)].

والمشاورة من الأمر القديم وخاصة في الحرب، فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تعبد الشمس: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢].

لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم، وحزمهم فيما يقيم أمرهم، وإمضائهم على الطاعة لها، بعلمها أنهم إن لم يبذلوا أنفسهم وأموالهم ودماءهم دونها، لم يكن لها طاقة بمقاومة عدوها، وإن لم يجتمع أمرهم وحزمهم وجدهم، كان ذلك عونًا لعدوهم عليهم، وإن لم تختبر ما عندهم، وتعلم قدر عزمهم لم تكن على بصيرة من أمرهم، وربما كان في استبدادها برأيها وهن في طاعتها، ودخيلة في تقدير أمرهم، وكان في مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريده من قوة شوكتهم، وشدة مدافعتهم[(٢)].

وهذه الآية مكية، وقد نزلت قبل قيام الدولة المسلمة في المدينة، مما يوحي بأن وضع الشورى أعمق في حياة المسلمين من مجرد أن تكون نظامًا سياسيًا للدولة، فهو طابع أساسي للأمة كلها[(٣)].

أسباب الشورى:

يمكن إجمال أسباب الشورى ودوافعها في ما يلي:

١. تطبيق الشورى امتثالا لأمر الله عز وجل.
٢. تطبيق الشورى تحقيقا لمصلحة الأمة الإسلامية.
٣. تطبيق الشورى للتقريب بينه وبين الصحابة الأجلاء.
٤. تطبيق الشورى للكشف عن رجاحة عقل صحابته الأجلاء وإبداء محاسنهم.
٥. تطبيق الشورى بهدف تأليف القلوب وغرس الاقتداء في نفوس أتباعه.
٦. تطبيق الشورى لاستخراج خبرات الغير في الوقائع المختلفة والاستفادة منها.

وأشير هنا إلى مسألتين من أهم مسائل

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٦٨-٢٦٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ١٢٩-١٣٠.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١٦٠.

الشورى بإيجاز:

١ . حكم الشورى في حق الحاكم.

اختلف العلماء في حكم الشورى في حق الحاكم، هل هي واجبة عليه أم سنة؟ على قولين:

القول الأول: أن الشورى في حق الحاكم واجبة عليه وجوبًا عينيًا، وقد كانت واجبة على النبي صلى الله عليه وسلم على الرغم من استغنائه عنها بالوحي.

وهو قول جمهور الفقهاء والأصوليين والمفسرين وغيرهم، ونصوصهم وافرة في هذا الصدد[١].

القول الثاني: أن الشورى في حق النبي فقط صلى الله عليه وسلم واجبة دون غيره من الحكام.

وهو مروي عن الحسن البصري وسفيان الثوري، وعللا ذلك بأنه إنما أمر بها ليقتدي به غيره وتشيع في أمته ، وذلك فيما لا وحي فيه[٢].

٢ . حكم الشورى في حق عامة الناس.

لا تخلو أمور الناس من أن تكون أمورًا ذات أهمية كبيرة ، أو أمورًا دونها في الأهمية، وعلى كلٍ فقد ذكر الإمام النووي أن التشاور في الأمور المهمة مستحب في حق الأمة بإجماع العلماء[٣].

وتختلف أمور الناس حسب درجاتها وأهميتها من شخص لآخر، فقد يستشير المرء في أمور الزواج من حيث الإقدام على التزوج بامرأة معينة، أو تزويج ابنته لشخص معين، ومن ذلك الاستشارة في الإقدام على بعض الأعمال والوظائف، والتجارات ونحوها من أمور الناس.

وهنا يفرق بين أمرين: أولهما: أن طلب المشورة من الغير مستحبة، والثاني: أن تقديم المشورة ممن طلبت منه واجبة، وذلك في تقديري جريًا على أن إلقاء السلام على الغير سنة، ورده فرض، وجريًا على استحباب طلب النصيحة من الغير، ووجوب تقديمها ممن طلبت منه.

ويؤيد هذا ما روي عن جابر بن عبد الله مرفوعًا قال: **(إذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه)**[٤].

رابعًا: الأمانة:

عن أبي هريرة قال: (بينما النبي صلى الله عليه وسلم في مجلس يحدث القوم، جاءه

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥٦٥، الجامع لأحكام القرآن ٤/ ١٦١، أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٢٦٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٤/ ١٤٩.

(٣) شرح صحيح مسلم ٤/ ٦٧.

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب المستشار مؤتمن، ٢/ ١٢٣٣، رقم٣٧٤٧.
وصحح إسناده الحافظ في تغليق التعليق ٣/ ٢٥٣.

أعرابيٌّ فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث، فقال بعض القوم: سمع ما قال، فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال: أين أراه السائل عن الساعة؟ قال: ها أنا يا رسول الله، قال: (فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قال: كيف إضاعتها؟ قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة)[(١)].

قال ابن الجوزي: «(إذا وسد الأمر إلى غير أهله) أي: أسندت الولاية والإمارة»[(٢)].

فيجب على الإمام من النصح لرعيته كالذي يجب عليهم له، فعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (كلكم راعٍ فمسئولٌ عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راعٍ وهو مسئولٌ عنهم)[(٣)].

وعن معقل بن يسارٍ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من أميرٍ يلي أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة)[(٤)].

ولا شك أن أمانة الحكم والسياسة من أعظم الأمانات وأهمها، لتعلقها بقيام الدين، وتحكيم شرع الله تعالى وتنفيذه وحراسته، ورفع المظالم ورد الحقوق.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

وقد جمع لفظ الأمانة ليعم به كل ما يمكن أن يؤتمن الإنسان عليه[(٥)]. باعتبار تعدد أنواعها وتعدد القائمين بالحفظ تنصيصا على العموم[(٦)].

والأمانة: هي الشيء المؤتمن عليه، ومراعاتها القيام عليها لحفظها إلى أن تؤدى. والأمانة أيضًا المصدر، والمؤدى هو العين المؤتمن عليه، أو القول إن كان المؤتمن عليه لا المصدر[(٧)].

«والأداء: الدفع والتوفية، ورد الشيء أو رد مثله فيما لا تقصد أعيانه، ومنه أداء الأمانة وأداء الدين، أي: عدم جحده»[(٨)].

والأمانات يدخل فيها أشياء كثيرة، من أجلها: الولايات الكبيرة والصغيرة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من سئل علمًا وهو مشتغل في حديثه فأتم حديثه ثم أجاب السائل، ١/ ٣٣، رقم ٥٩.

(٢) انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين ١/ ١٠٠٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق، وقوله: عبدي وأمتي، ٢/ ٩٠١، رقم ٢٤١٦.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، ١/ ٨٨، رقم ٣٨٣.

(٥) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٤٥٧.

(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٤.

(٧) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٣٦٧.

(٨) التحرير والتنوير ٢/ ٥٨٦.

والمتوسطة، الدينية والدنيوية. فقد أمر الله أن تؤدى الأمانات إلى أهلها بأن يجعل فيها الأكفاء لها، وكل ولاية لها أكفاء مخصوصون. فهذا الطريق الذي أمر الله به في الولايات من أصلح الطرق لصلاح جميع الأحوال، فإن صلاح الأمور بصلاح المتولين والرؤساء فيها، والمدبرين لها والعاملين عليها، فيجب تولية الأمثل فالأمثل: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

فصلاح المتولين للولايات الكبرى والصغرى عنوان صلاح الأمة وضده بضده[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

«ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه عرض الأمانة، وهي التكاليف مع ما يتبعها من ثواب وعقاب على السماوات والأرض والجبال، وأنهن أبين أن يحملنها وأشفقن منها، أي: خفن من عواقب حملها أن ينشأ لهن من ذلك عذاب الله وسخطه، وهذا العرض والإباء، والإشفاق كله حق، وقد خلق الله للسماوات والأرض والجبال إدراكًا يعلمه هو جل وعلا، ونحن لا نعلمه، وبذلك الإدراك أدركت عرض الأمانة عليها، وأبت وأشفقت، أي: خافت»[2].

وقال تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨].

فالنصح والأمانة متلازمان، والنصح دليل على الأمانة، ولذلك قرنا في أكثر من موضع، منها قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ [يوسف: ١١][3].

خامسًا: الحرية:

الحرية في نظر الإسلام ضرورة من الضرورات الإنسانية، وتكليف شرعي واجب، سواء كانت هذه الحرية متعلقة برق العبودية، أو الاعتقاد والدين، أو غير ذلك. وهذا المبدأ الإسلامي ظاهر في كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، إلا أن الإسلام قد وضع له ضوابطَ وشروطًا.

والناظر في مفهوم الحرية في الإسلام يجد له وضوحًا وتكاملًا وسماحة، لا تصل إليها مفاهيم الفلسفات التي تصدت للحرية، فالحرية في الإسلام هي: التحرر من قيود الوثنية، واستعباد الإنسان للإنسان، وحرية الكلمة، وحرية الضمير، وهو ما جمعته هذه الآية من القرآن: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ فهي حرية الاعتقاد والقول والتفكير. وكما دعا

(١) القواعد الحسان في تفسير القرآن ص١٠٧.

(٢) أضواء البيان ٦/ ٢٥٨.

(٣) انظر: البحر المحيط ٥/ ٢٨٥.

الإسلام إلى تحرير الفكر دعا إلى تحرير الجسم، وذلك بمحاربة الرق[1].

والإسلام قد ضمن جميع الحريات للإنسان، ففي بقاء اليهود في الدولة الإسلامية إقرار لمبدأ حرية الاعتقاد والدين. والنبي صلى الله عليه وسلم قد جاور اليهود في المدينة وساكنهم وخالطهم وعاملهم، والأدلة على ذلك كثيرة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥] دليل على جواز نكاح الكتابية بالشروط المعتبرة، فإن ذلك يتضمن إقرارًا لمبدأ الحرية الدينية.

والإسلام لا يكره أحدًا على عقيدة، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

قال ابن عاشور: «وتعقيب آية الكرسي بهذه الآية، بمناسبة أن ما اشتملت عليه الآية السابقة من دلائل الوحدانية وعظمة الخالق وتنزيهه عن الشوائب ما كفرت به الأمم، من شأنه أن يسوق ذوي العقول إلى قبول هذا الدين الواضح العقيدة، المستقيم الشريعة، باختيارهم دون جبر ولا إكراه، ومن شأنه أن يجعل دوامهم على الشرك بمحل السؤال: أيتركون عليه أم يكرهون على الإسلام، فكانت الجملة استئنافًا بيانيًا».

«ونفي الإكراه خبر في معنى النهي، والمراد: نفي أسباب الإكراه في حكم الإسلام، أي: لا تكرهوا أحدًا على اتباع الإسلام قسرًا، وجيء بنفي الجنس لقصد العموم نصًا، وهو دليل واضح على إبطال الإكراه على الدين بسائر أنواعه، لأن أمر الإيمان يجري على الاستدلال، والتمكين من النظر، وبالاختيار»[2].

كما أن اجتهاد العلماء واختلافهم على مر العصور، وفي جميع الفنون، ونبذهم للتقليد إقرار لمبدأ الحرية العلمية والفكرية.

والحرية السياسية واحدة من حريات الإسلام، وتقوم على الشورى، غير أن الإسلام يعطي للحرية ضوابطها وتحفظاتها التي تضمن حرية الغير. وحرية العقيدة حيث لا إكراه في الدين، تعني كفالة الإسلام لحرية عقائد أهل الكتاب، وهو بهذا يدعو إلى الحرية من قيود العبودية الفكرية والجسدية.

ويكفل الإسلام لأتباعه الحرية الاقتصادية كحرية التملك، وحرية التنقل (التبادل التجاري أو التجارة الدولية)، وحرية التعاقد، ولكن شريطة أن لايكون ذلك في شيء محرم، كالربا أو الاحتكار أو بيع الخمور ونحو ذلك.

(١) انظر: قضايا العصر ومشكلات الفكر تحت ضوء الإسلام، أنور الجندي ص١٧٦-١٧٧.

(٢) التحرير والتنوير ٢/ ٤٩٩.

سادسًا: الطاعة:

قال الراغب الأصفهاني: الطوع: الانقياد، ويضاده الكره، قال تعالى: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١]. ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]. والطاعة مثله، لكن أكثر ما تقال في الائتمار لما أمر، والارتسام فيما رسم، قال: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ [النساء: ٨١]. ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ [محمد: ٢١] أي: أطيعوا، وقد طاع له يطوع وأطاعه يطيعه، قال: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٦]. وقوله في صفة جبريل عليه السلام: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١][1].

كما وردت لفظة «الطاعة» مقرونةً بلفظة أخرى هي: «السمع» فيقال: السمع والطاعة، وسمعنا وأطعنا، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥][2].

والمراد بالطاعة هنا: الاستجابة والانقياد لما يأمر به وينهى عنه ولي الأمر، وذلك بامتثال الأمر والنهي دون منازعة ومعارضة، سواء أمر بما يوافق الطبع، أو لم يوافقه بشرط أن لا يأمر بمعصية[3].

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ٣١٠.
(٢) انظر: من قواعد النظام السياسي في القرآن ص٦.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٢٦١، مرقاة المفاتيح، الملا علي القاري ٧/ ٢٢٥.

وقد وردت الآيات الآمرة بطاعة الله ورسوله في أربعة عشر موضعًا، منها ما يلي: قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

«ولا شك عند أحد من أهل العلم أن طاعة الله ورسوله المذكورة في هذه الآيات ونحوها من نصوص الوحي، محصورة في العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم»[4].

قال الإمام الطبري: فإذا كان معلوما أنه لا طاعة واجبة لأحد غير الله أو رسوله أو إمام عادل، وكان الله قد أمر بقوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩][5].

ومن ضوابط الطاعة: الطاعة بالمعروف، قال الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أربابا من دون الله»، وقال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقولون: قال أبو بكر وعمر، وقال الإمام أحمد: عجبت لقوم عرفوا

(٤) أضواء البيان ٧/ ٣٠٤.
(٥) انظر: جامع البيان ٨/ ٥٠٣.

الإسناد وصحته ويذهبون إلى رأي سفيان، والله يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.

وعن عدي بن حاتم أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]. فقلت له: (إنا لسنا نعبدهم، قال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ فقلت: بلى، قال: فتلك عبادتهم)[١][٢].

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، ١٠/ ٥/ ٢٧٨، رقم ٣٠٩٥.
قال الترمذي: حسن غريب.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٧/ ٨٦١، رقم ٣٢٩٣.

(٢) انظر: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، ابن حسن ص١٣٤.

مقاصد السياسة في القرآن

ذكر الله عز وجل في كتابه المقاصد العامة للسياسة الشرعية، والتي حرص على إيضاحها والعناية بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ عليها قوام الشرع والدين، وهي المقاصد التي بعث من أجلها الرسل وأنزلت الكتب، وشرعت الشرائع، ونبين هذه المقاصد في النقاط الآتية:

أولًا: حراسة الدين:

وحراسة الدين تتم بأمرين[٣]:

الأول: حفظ الدين.

الثاني: تنفيذ أحكام الدين، وإقامة حدوده.

وذلك بغرض قطع الخصام بين المتنازعين، وصون محارم الله تعالى عن الانتهاك، وحفظ حقوق عباده من الإتلافِ والاستهلاك حتى تعم النصفة، فلا يتعدى ظالمٌ، ولا يضعف مظلومٌ.

وأزيد الأمر إيضاحا فأقول: إن الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا كما ذكره الماوردي[٤].

وحفظ الدين يعني: إبقاء حقائقه ومعانيه ونشرها بين الناس كما بلغها رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار عليها صحابته

(٣) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته ٨/ ٤٦٦.

(٤) انظر: الأحكام السلطانية ص٣.

الكرام، ونقلوها إلى الناس من بعده، وعلى هذا لا يجوز أي تبديل أو تحريف في هذه الحقائق والمعاني ، لأن التحريف والتبديل يدخلان في نطاق الابتداع المذموم في دين الله، ولا يجوز التردد أبدًا في منع التبديل والتحريف بحجة حق الفرد في إبداء الرأي وحرية الفكر والاجتهاد»[1].

وقد أجمع سلف الأمة على وجوب حفظ الدين على أصوله المستقرة، فإن نجم مبتدعٌ، أو زاغ ذو شبهة عنه، أوضح له الحجة، وبين له الصواب، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود، ليكون الدين محروسًا من خللٍ، والأمة ممنوعة من زللٍ[2].

ومن أعظم أصول الشريعة وقواعد الملة: حفظ الدين وصيانته والذب عنه، وسنة الله تعالى الصراع بين الحق والباطل، والإسلام والكفر، والمعروف والمنكر، وقد قيض الله في كل زمان بقايا من أهل العلم، يحيون كتاب الله، ويحمون دينه. وقوام الدين يكون بالعلم والجهاد في سبيل الله.

قال الله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

ونزلت هذه الآية في الحث على غزوة تبوك، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من الطائف وغزوة حنين، أمر بالجهاد لغزو الروم، وذلك في زمان عسرة من البأس، وجدب من البلاد، وشدة من الحر، حين أخرقت النخل، وطابت الثمار، فعظم على الناس غزو الروم، وأحبوا الظلال والمقام في المساكن والمال، وشق عليهم الخروج إلى القتال، فلما كان ذلك من تثاقل الناس، أنزل هذه الآية[3].

«ولايخفى ما في هذه الآية الكريمة من التشديد في الخروج إلى الجهاد على كل حال»[4]، «فالضمير في ﴿ٱنفِرُوا۟﴾ عام للذين استنفروا فتثاقلوا، وإنما استنفر القادرون، وكان الاستنفار على قدر حاجة الغزو، فلا يقتضي هذا الأمر توجه وجوب النفير على كل مسلم في كل غزوة، ولا على المسلم العاجز لعمى أو زمانة أو مرض، وإنما يجري العمل في كل غزوة على حسب ما يقتضيه حالها وما يصدر إليهم من نفير»[5].

وقال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨].

ووجه الإضافة في قوله: ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ وكان القياس: حق الجهاد فيه،

(١) انظر: أصول الدعوة ص٢٢١.
(٢) انظر: الأحكام السلطانية ص٢٢.

(٣) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص٢٥١.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ١٤٥.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ١٠٣.

أو حق جهادكم فيه، كما قال: ﴿وَجَٰهِدُوا فِي ٱللَّهِ﴾: أن الإضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص، فلما كان الجهاد مختصًا بالله، من حيث إنه مفعول لوجهه ومن أجله، صحت إضافته إليه[1].

والآيات النازلة في القتال على ثلاثة أنواع:

أحدها: آيات أمرت بقتال الدفاع، كقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[التوبة: ٣٦].

وقوله: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ١٩٤].

وهذا قتال ليس للإكراه على الإسلام، بل هو لدفع غائلة المشركين.

الثاني: آيات أمرت بقتال المشركين والكفار ولم تغي بغاية، فيجوز أن يكون إطلاقها مقيدًا بغاية آية: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ﴾ [التوبة: ٢٩]. وحينئذ فلا تعارضه آية: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

الثالث: ما غيي بغاية ، كقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

والله أعلم[2].

وقال ابن عباس ومجاهد وغيره في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

معنى الآية: قاتلوا الذين هم بحالة من يقاتلكم، ولا تعتدوا في قتل النساء والصبيان والرهبان وشبهه، وقال قوم: المعنى: لا تعتدوا في القتال لغير وجه الله، كالحمية وكسب الذكر[3].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

أخبر تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة، أنهم إن ارتد بعضهم فإن الله يأتي عوضًا عن ذلك المرتد بقوم من صفاتهم الذل للمؤمنين، والتواضع لهم ولين الجانب، والقسوة والشدة على الكافرين، وهذا من كمال صفات المؤمنين، وبهذا أمر

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٧٥.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٣/ ٥٠٠-٥٠١.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٢٤٨، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢١٣.

الله نبيه صلى الله عليه وسلم، فأمره بلين الجانب للمؤمنين، بقوله: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

وأثنى تعالى على نبيه باللين للمؤمنين في قوله: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩][1].

وفي الآية تحذير للمؤمنين من أعدائهم في الدين، وتجنيبهم أسباب الضعف فيه، فأقبل على تنبيههم إلى أن ذلك حرص على صلاحهم في ملازمة الدين والذب عنه، وأن الله لا يناله نفع من ذلك، وأنهم لو ارتد منهم فريق أو نفر، لم يضر الله شيئًا، وسيكون لهذا الدين أتباع وأنصار وإن صد عنه من صد، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾ [الزمر: ٧][2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

«والمقصد منه التحذير، لأنه لما ذكر حرص المشركين على رد المسلمين عن الإسلام، وعقبه باستبعاد أن يصدر ذلك من المسلمين، أعقبه بالتحذير منه، وجيء بصيغة ﴿يَرۡتَدِدۡ﴾ وهي صيغة مطاوعة، إشارة إلى أن رجوعهم عن الإسلام إن قدر حصوله، لا يكون إلا عن محاولة من المشركين، فإن من ذاق حلاوة الإيمان لا يسهل عليه رجوعه عنه، ومن عرف الحق لا يرجع عنه إلا بعناء، ولم يلاحظ المفعول الثاني هنا؛ إذ لا اعتبار بالدين المرجوع إليه، وإنما نيط الحكم بالارتداد عن الإسلام إلى أي دين، ومن يومئذ صار اسم الردة لقبًا شرعيًا على الخروج من دين الإسلام، وإن لم يكن في هذا الخروج رجوع إلى دين كان عليه هذا الخارج»[3].

والثاني مما تتم به حراسة الدين: تنفيذ أحكام الدين.

وذلك بتنفيذ الأحكام بين المتشاجرين، وقطع الخصام بين المتنازعين، حتى تعم النصفة، فلا يتعدى ظالمٌ، ولا يضعف مظلومٌ[4].

وإقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك، وتحفظ حقوق عباده من إتلافٍ واستهلاك[5].

---

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤١٥.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٣٤.
(٣) التحرير والتنوير ٢/ ٣١٤-٣١٥.
(٤) انظر: الأحكام السلطانية، الماوردي ص٢٢.
(٥) انظر: الأحكام السلطانية ص٢٢، غياث الأمم، الجويني ص١٦١.

ثانيًا: إصلاح حياة الناس:

من أسمى الغايات التي جاء بها القرآن الكريم إصلاح الأمة على جميع المستويات، سواءً كان إصلاحًا للكفار بدعوتهم إلى الإسلام والهدى، أو إصلاحًا للمؤمنين بتزكية نفوسهم وتقويم أخلاقهم. بل إن المهمة الأولى التي جاء بها الأنبياء هي إصلاح حياة الناس في جميع مناحي الحياة.

ولا شك أن القرآن قد جمع جوانب الإصلاح في حياة الناس على أكمل الوجوه، فمن ذلك:

١. الاستخلاف على الناس.

في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

قاله موسى لأخيه عند العزم على الصعود إلى الجبل للمناجاة، ومعنى ﴿ٱخْلُفْنِي﴾ أي: كن خلفًا عني وخليفة، وهو الذي يتولى عمل غيره عند فقده، فتنتهي تلك الخلافة عند حضور المستخلف، فالخلافة وكالة، وفعل (خلف) مشتق من الخلف بسكون اللام وهو ضد الأمام، لأن الخليفة يقوم بعمل من خلفه عند مغيبه، والغائب يجعل مكانه وراءه.

٢. إصلاح حياة الناس والبعد عن المفسدين.

قد جمع موسى عليه السلام وصيته ملاك السياسة بقوله: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فإن سياسة الأمة تدور حول محور الإصلاح، وهو جعل الشيء صالحًا، فجميع تصرفات الأمة وأحوالها يجب أن تكون صالحة، وذلك بأن تكون الأعمال عائدة بالخير والصلاح لفاعلها ولغيره، فإن عادت بالصلاح عليه ويضده على غيره لم تعتبر صلاحًا، ولا تلبث أن تؤول فسادًا على من لاحت عنده صلاحًا، ثم إذا تردد فعل بين كونه خيرًا من جهة، وشرًا من جهة أخرى، وجب اعتبار أقوى حالتيه، فاعتبر بها إن تعذر العدول عنه إلى غيره مما هو أوفر صلاحًا، وإن استوى جهتاه ألغي إن أمكن إلغاؤه وإلا تخير، وهذا أمر لهارون جامع لما يتعين عليه عمله من أعماله في سياسة الأمة.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ تحذير من الفساد بأبلغ صيغة، لأنها جامعة بين النهي والنهي عن فعل تنصرف صيغته أول وهلة إلى فساد المنهي عنه، وبين تعليق النهي باتباع سبيل المفسدين.

والاتباع أصله المشي على خلف ماش، وهو هنا مستعار للمشاركة في عمل المفسد، فإن الطريق مستعار للعمل المؤدي إلى الفساد، والمفسد من كان الفساد صفته، فلما تعلق النهي بسلوك طريق المفسدين،

كان تحذيرًا من كل ما يستروح منه مآل إلى فساد، لأن المفسدين قد يعملون عملًا لا فساد فيه، فنهي عن المشاركة في عمل من عرف بالفساد، لأن صدوره عن المعروف بالفساد كاف في توقع إفضائه إلى فساد ، ففي هذا النهي سد ذريعة الفساد، وسد ذرائع الفساد من أصول الاسلام، وقد عني بها مالك بن أنس وكررها في كتابه واشتهرت هذه القاعدة في أصول مذهبه.

فلا جرم أن كان قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ جامعًا للنهي عن ثلاث مراتب من مراتب الإفضاء إلى الفساد: وهو العمل المعروف بالانتساب إلى المفسد، وعمل المفسد وإن لم يكن مما اعتاده، وتجنب الاقتراب من المفسد ومخالطته.

وقد أجرى الله على لسان رسوله موسى، أو أعلمه، ما يقتضي أن في رعية هارون مفسدين، وأنه يوشك إن سلكوا سبيل الفساد أن يسايرهم عليه، لما يعلم في نفس هارون من اللين في سياسته، والاحتياط من حدوث العصيان في قومه، كما حكى الله عنه في قوله: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وقوله: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [طه: ٩٤].

فليست جملة ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ مجرد تأكيد لمضمون جملة ﴿وَأَصْلِحْ﴾ تأكيدًا للشيء بنفي ضده مثل قوله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل: ٢١].

لأنها لو كان ذلك هو المقصد منها لجردت من حرف العطف، ولاقتصر على النهي عن الإفساد فقيل: وأصلح لا تفسد، نعم يحصل من معانيها ما فيه تأكيد لمضمون جملة ﴿وَأَصْلِحْ﴾[1].

٣. المهمة الأولى للرسل إصلاح حياة الناس.

قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

ومعنى ﴿وَأَصْلَحَ﴾: أي فعل الصلاح، وهو الطاعة لله فيما أمر ونهى، لأن الله ما أراد بشرعه إلا إصلاح الناس، كما حكى عن شعيب: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

ولما بين شعيب عليه السلام لقومه حقيقة عمله، وكان في بيانه ما يجر الثناء على نفسه، أعقبه بإرجاع الفضل في ذلك إلى الله فقال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [هود: ٨٨].

فسمى إرادته الإصلاح توفيقًا، وجعله من الله لا يحصل في وقت إلا بالله، أي: بإرادته وهديه، فجملة ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿أُرِيدُ﴾.

والتوفيق: جعل الشيء وفقا لآخر، أي:

(١) انظر: التحرير والتنوير ٨/ ٢٧٢.

طبقًا له، ولذلك عرفوه بأنه خلق القدرة والداعية إلى الطاعة[1].

وفي قول الملائكة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠].

يحتمل أنهم علموا ذلك من تسميته خليفة، لأن الخلافة تقتضي الإصلاح وقهر المستخلف عليه، وهو يستلزم أن يصدر منه فساد، إما في ذاته بمقتضى الشهوة، أو في غيره من السفك، أو لأنها مجلي الجلال كما أنها مجلي الجمال، ولكل آثار، والإفساد والسفك من آثار الجلال، وسكتوا عن آثار الجمال، إذ لا غرابة فيها، وهم على كل تقدير ما قدروا الله تعالى حق قدره، ولا يخل ذلك بهم ففوق كل ذي علم عليم[2].

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨٢].

«في هذه الآية دليل على الحكم بالظن، لأنه إذا ظن قصد الفساد وجب السعي في الصلاح، وإذا تحقق الفساد لم يكن صلحًا، إنما يكون حكمًا بالدفع، وإبطالًا للفساد وحسمًا له»[3].

وقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

وقوله: ﴿فَأَصْلِحُوا۟﴾ (يدل على وجوب الاصلاح عند التنازع بين المسلمين)[4].

ومحمل الإصلاح العدل كما في قوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

لم يبين هنا هل المراد بالناس المسلمون دون الكفار أو لا؟ لكنه أشار في مواضع أخر أن المراد بالناس المرغب في الإصلاح بينهم هنا، المسلمون خاصة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ فتخصيصه المؤمنين بالذكر يدل على أن غيرهم ليس كذلك كما هو ظاهر، وكقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١][6].

قال ابن كثير رحمه الله نقلًا عن الرازي: النميمة على قسمين: تارة تكون على وجه التحريش بين الناس، وتفريق قلوب

(١) انظر: المصدر السابق ٦/ ١٠٨، ١١/ ٣١٦.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ١/ ٢٢٢.
(٣) الجامع أحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٨٢.
(٤) أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٢/ ٣٨٢.
(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٣٦٨.
(٦) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٣٠٧.

المؤمنين، فهذا حرام متفق عليه. فأما إن كانت على وجه الإصلاح بين الناس، وائتلاف كلمة المسلمين، كما جاء في الحديث: (ليس الكذاب من ينم خيرًا)[(١)]، أو يكون على وجه التخذيل والتفريق بين جموع الكفرة، فهذا أمر مطلوب كما جاء في الحديث: (الحرب خدعةٌ)[(٢)]، وكما فعل نعيم بن مسعود في تفريقه بين كلمة الأحزاب وبين قريظة، جاء إلى هؤلاء ونمى إليهم عن هؤلاء، ونقل من هؤلاء إلى أولئك شيئًا آخر، ثم لأم بين ذلك ، فتناكرت النفوس وافترقت[(٣)].

وفي قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

هذا تقرير لما ألزمه من تولى الإصلاح بين من وقعت بينهم المشاقة من المؤمنين، وبيان أن الإيمان قد عقد بين أهله من السبب القريب والنسب اللاصق، ما إن لم يفضل الأخوة ولم يبرز عليها، لم ينقص عنها ولم يتقاصر عن غايتها، والمعنى: ليس المؤمنون إلا إخوة، وأنهم خلص لذلك متمحضون، قد انزاحت عنهم شبهات الأجنبية، وأبى لطف حالهم في التمازج والاتحاد أن يقدموا على ما يتولد منه التقاطع، فبادروا قطع ما يقع من ذلك إن وقع واحسموه[(٤)].

٤ . النهي عن الإفساد في الأرض.

نهى الله تعالى عن الإفساد في الأرض فقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

أي: لا تفسدوا فيها بعدما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء وأتباعهم العاملين بشرائعهم، أو بعد إصلاح أهلها[(٥)].

وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا﴾ لفظ عام يشمل دقيق الفساد وجليله، وكذلك الإصلاح عام، والمفسرون نصوا على أن الإشارة إلى الكفر بالفساد، وإلى النبوءات والشرائع بالإصلاح[(٦)].

«والفساد: خروج الشيء عن الحالة اللائقة به والصلاح مقابله، والفساد في الأرض هيج الحروب، والفتن المستتبعة لزوال الاستقامة عن أحوال العباد، واختلال أمر المعاش والمعاد، والمراد بما نهوا عنه:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس، ٢/ ٩٥٨، رقم ٢٥٤٦، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم الكذب وبيان ما يباح منه، ٤/ ٢٠١١، رقم ٢٦٠٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير ، باب جواز الخداع في الحرب، ٣/ ١٣٦١، رقم ١٧٣٩.

(٣) انظر: مصنف عبدالرزاق، رقم ٩٧٣٧، ٥/ ٣٦٧، الفتاوى الكبرى، ابن تيمية ٦/ ١٠٦، إعلام الموقعين، ابن القيم ٣/ ٢٤٠.

(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٣٦٩.

(٥) انظر: المصدر السابق ٢/ ١٢١.

(٦) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٩٣.



ما يؤدي إلى ذلك من إفشاء أسرار المؤمنين إلى الكفار، وإغرائهم عليهم، وغير ذلك من فنون الشرور»[1].

ومعنى الإفساد: هو ما ينبغي تركه مما هو مضرة، وأن الإصلاح ضده: وهو ما ينبغي فعله مما فعله منفعة، وإن جهل المعاني التي جعلها الله إفسادًا، والمعاني التي جعلها الله إصلاحًا[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾ [النساء: ١٢٨].

يحتمل أن تكون صيغة: ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ مستعملة في التحريض على الصلح، أي: إصلاح أمرهما بالصلح وحسن المعاشرة، فنفي الجناح من الاستعارة التمليحية، فالمراد الصلح بمعنى: إصلاح ذات البين، والأشهر فيه أن يقال: الإصلاح. والمقصود الأمر بأسباب الصلح، وهي: الإغضاء عن الهفوات، ومقابلة الغلظة باللين، وهذا أنسب وأليق بما يرد بعده من قوله: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ﴾ [النساء: ١٣٠].

والتعريف في قوله: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾ تعريف الجنس وليس تعريف العهد، لأن المقصود إثبات أن ماهية الصلح خير للناس، فهو تذييل للأمر بالصلح والترغيب فيه[3].

٥ . مقاصد الإصلاح التي جاء بها القرآن.

المقاصد الأصلية التي جاء بها القرآن وبينها، والتي لها تعلق بالإصلاح، تبلغ بالاستقراء ثمانية أمور ، كما ذكرها ابن عاشور رحمه الله[4]:

الأول: إصلاح الاعتقاد وتعليم العقيدة الصحيح.

وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق، لأنه يزيل عن النفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل، ويطهر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك والدهرية وما بينهما، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ [هود: ١٠١] فأسند لآلهتهم زيادة تتبيبهم، وليس هو من فعل الآلهة، ولكنه من آثار الاعتقاد بالآلهة.

الثاني: تهذيب الأخلاق.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم: ٤].

ولما سئلت عائشة رضي الله تعالى عنها عن خلقه صلى الله عليه وسلم قالت: كان خلقه القرآن[5].

---

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٤٣.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٧٥.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٢٦٧.
(٤) انظر: المصدر السابق ١/ ٣٧.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة

وفي الحديث الذي رواه مالك في الموطأ بلاغًا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بعثت لأتمم حسن الأخلاق)[1].

وهذا المقصد قد فهمه عامة العرب، بله خاصة الصحابة.

الثالث: التشريع وهو الأحكام خاصة وعامة.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨].

ولقد جمع القرآن جميع الأحكام جمعًا كليًا في الغالب، وجزئيًا في المهم. قال الشاطبي: لأنه على اختصاره جامع، والشريعة تمت بتمامه، ولا يكون جامعًا لتمام الدين إلا والمجموع فيه أمور كلية[2].

الرابع: سياسة الأمة.

وهو باب عظيم في القرآن، القصد منه صلاح الأمة وحفظ نظامها، كالإرشاد إلى تكوين الجامعة بقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] وقوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦] وقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

الخامس: القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم.

قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]

السادس: التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين.

وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها، وذلك علم الشرائع وعلم الأخبار.

السابع: المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير.

وهذا يجمع جميع آيات الوعد والوعيد، وكذلك المحاجة والمجادلة للمعاندين، وهذا باب الترغيب والترهيب.

الثامن: الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول.

المسافرين، باب جامع صلاة الليل، ١/ ٥١٢، رقم ٧٤٦.

(١) أخرجه مالك في الموطأ من رواية يحيى الليثي رقم ١٦٠٩، ٢/ ٩٠٤. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ١١٢.

(٢) انظر: الموافقات ٤/ ١٨١.

إذ التصديق يتوقف على دلالة المعجزة بعد التحدي، والقرآن جمع كونه معجزة بلفظه، ومتحدي لأجله بمعناه.

كما أن من أهم ما يقوم به الإمام لتحقيق الإصلاح في حياة الناس ما يلي:

- حماية البيضة والذب عن الحريم، ليتصرف الناس في المعايش، وينتشروا في الأسفار آمنين، من تغرير بنفس أو مال.
- تقدير العطايا وما يستحق في بيت المال من غير سرفٍ ولا تقتيرٍ، ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.
- استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوض إليهم من الأعمال، ويكله إليهم من الأموال، لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة، والأموال بالأمناء محفوظة[1].

ثالثًا: حفظ وحدة الأمة:

إن من أعظم مقاصد السياسة التي جاء بها القرآن الكريم وحدة الأمة، ونبذ الفرقة والاختلاف، والنصوص القرآنية كثيرة في تجذير مفهوم الأمة في نفوس المسلمين، الذي لا تقف دونه الحدود والتضاريس، ومعيار وحدة الأمة هو الاعتصام بحبل الله تعالى، والتمسك بشرعه ودينه.

ويمكن إجمال عوامل وحدة الأمة التي أرشد إليها الكتاب العزيز فيما يلي: الاعتصام بدين الله تعالى ونبذ الفرقة، وطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وذم الاختلاف والتفرق. كما سيأتي إن شاء الله.

قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

حيث أمر الله في هذه الآية بما فيه صلاح حال الناس في دنياهم، وذلك بالاجتماع على هذا الدين وعدم التفرق ليكتسبوا باتحادهم قوة ونماء. والاعتصام افتعال من عصم، وهو طلب ما يعصم، أي: يمنع.

والحبل: ما يشد به للارتقاء، أو التدلي، أو للنجاة من غرق، أو نحوه، والكلام تمثيل لهيئة اجتماعهم والتفاتهم على دين الله ووصاياه وعهوده، بهيئة استمساك جماعة بحبل ألقي إليهم، منقذ لهم من غرق أو سقوط، وإضافة الحبل إلى الله قرينة هذا التمثيل[2].

والله تعالى يأمر بالألفة، وينهى عن الفرقة، فإن الفرقة هلكة، والجماعة نجاة.

وقوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ يعني: في دينكم كما افترقت اليهود والنصارى في أديانهم.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ١٧٤.

(٢) انظر: المصدر السابق.

ويجوز أن يكون معناه: ولا تفرقوا متابعين للهوى والأغراض المختلفة، وكونوا في دين الله إخوانًا؛ فيكون ذلك منعا لهم عن التقاطع والتدابر[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

نهى الله جل وعلا المؤمنين في هذه الآية الكريمة عن التنازع، مبينًا أنه سبب الفشل، وذهاب القوة، ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: قوتكم[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

أي: «إن هذه شريعتكم شريعة واحدة، ودينكم دين واحد، وربكم واحد، فلا تتفرقوا في الدين»[(٣)]. «وقديمًا كان التحزب مسببًا لسقوط الأديان والأمم، وهو من دعوة الشيطان التي يلبس فيها الباطل في صورة الحق»[(٤)].

وقد ذم الله سبحانه أهل التفرق والاختلاف في الكتاب، الذين يؤمن كل منهم ببعضه دون بعض، كما قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١-٣٢][(٥)].

ووحدة الأمة تكون باجتماع الكلمة على الألفة والتناصر ؛ ليكون للمسلمين يد على من سواهم[(٦)].

رابعًا: تحقيق مقاصد الشريعة:

مقاصد الشريعة الإسلامية تنقسم إلى: عامة وخاصة، فالمقاصد العامة يقصد بها: المعاني والحكم الملحوظة للشارع في

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٠٣.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ١٠٢.
(٣) المصدر السابق ٧/ ٦١.
(٤) التحرير والتنوير ١٨/ ٦٠.
(٥) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ٢٩٣.
(٦) انظر: الأحكام السلطانية ص٤٥.

جميع أحوال التشريع أو معظمها؛ بحيث لا تختص ملاحظاتها في الكون في نوع خاص من أحكام الشريعة[1].

والمقاصد الخاصة: المراد بها الكيفيات المقصودة للشارع لتحقيق مقاصد الناس النافعة، أو لحفظ مصالحهم العامة في تصرفاتهم الخاصة، كي لا يعود سعيهم في مصالحهم الخاصة بإبطال ما أسس لهم من تحصيل مصالحهم العامة إبطالاً عن غفلة، أو استنزال هوى، أو شهوة[2].

والمقاصد ذات تقسيمات متعددة لا يتسع المقام لذكرها، ويمكن الإشارة إليها بإيجاز، فأقول: إن المقاصد من حيث الحاجة إليها تشتمل على ثلاث أشياء: الضروريات، والحاجيات، والتحسينيات.

ومن حيث المحل تجدها قسمين: مقاصد الشارع، ومقاصد المكلف، ومن حيث تعلقها بعموم الأمة وخصوصها تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١. مقاصد عامة: وهي التي تلاحظ في أغلب أبواب الشريعة.

٢. ومقاصد خاصة: وهي التي تتعلق بباب معين، وتشمل مقاصد العائلة، والتصرفات المالية، والعمل والعمال، والقضاء والشهادات والعقوبات، وعقود التبرعات. الخ.

٣. ومقاصد جزئية: والمراد بها علل الأحكام وأسرارها[3].

ولا جرم أن الله تعالى خص الشريعة الإسلامية بوصف الرحمة الكاملة، وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى فيما حكاه خطابًا منه لموسى عليه السلام: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

ففي قوله: ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ إشارة إلى أن المراد رحمة هي عامة، فامتازت شريعة الإسلام بأن الرحمة ملازمة للناس في سائر أحوالهم، وأنها حاصلة بها لجميع الناس لا لأمة خاصة.

فأقيمت شريعة الإسلام على دعائم الرحمة والرفق واليسر، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (بعثت بالحنيفية السمحة)[4].

---

(١) انظر: مقاصد الشريعة، ابن عاشور ص٥١.

(٢) انظر: المصدر السابق ص٥١، ١٤٦.

(٣) انظر: مقاصد الشريعة، ابن عاشور ص ٥١، مقاصد التشريع الإسلامي، نور الدين الخادمي مجلة العدل، عدد ٦ ربيع الآخر ١٤٢١هـ.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٥/ ٢٦٦، رقم

وما يتخيل من شدة في نحو القصاص والحدود، فإنما هو لمراعاة تعارض الرحمة والمشقة، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ فالقصاص والحدود شدة على الجناة ورحمة ببقية الناس.

وأما رحمة الإسلام بالأمم غير المسلمين فإنما نعني به رحمته بالأمم الداخلة تحت سلطانه وهم أهل الذمة، ورحمته بهم عدم إكراههم على مفارقة أديانهم، وإجراء العدل بينهم في الأحكام، بحيث لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم في الحقوق العامة.

هذا وإن أريد بلفظة: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] النوع من أنواع المخلوقات ذات الحياة، فإن الشريعة تتعلق بأحوال الحيوان في معاملة الإنسان إياه وانتفاعه به، إذ هو مخلوق لأجل الإنسان.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٦-٧].

٢٢٣٤٥.

وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٧/ ١٢٥.

وكل ما سبق ذكره من تقسيمات مقاصد وتفريعاتها المختلفة، تخدم جوانب الحياة المختلفة، سواء في مجال الضروريات أو الحاجيات أو التحسينات.

وأكتفي هنا بالإشارة إلى الضروريات الخمس، وما جاء في القرآن الكريم بشأنها من النصوص على هذا النحو:

الأول: حفظ الدين.

حيث شرع الله لإقامته العبادات، وشرع لحفظه الجهاد وعقوبة المرتد، وزجر من يفسد على الناس عقيدتهم[1].

الثاني: حفظ النفس.

شرع الله لإيجادها النكاح، وشرع لحفظها القصاص على من يعتدي عليها، وتحريم إلقاء النفس في التهلكة، ولزوم دفع الضرر عنها[2].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

(١) انظر: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، عبدالكريم زيدان ص٤٢.
(٢) انظر: المصدر السابق.

في هذه الآية تنبيه على الحكمة في شرع القصاص، وإبانة الغرض منه، وخص أولي الألباب مع وجود المعنى في غيرهم ؛ لأنهم المنتفعون به[1].

ومن علم أنه يقتل إذا قتل، يكون ذلك رادعًا له وزاجرًا عن القتل، ولو كان الاثنان لا يقتص منهما للواحد، لكان كل من أحب أن يقتل مسلمًا، أخذ واحدًا من أعوانه فقتله معه، فلم يكن هناك رادع عن القتل، وبذلك تضيع حكمة القصاص من أصلها، مع أن المتماثلين على القتل، يصدق على كل واحد منهم أنه قاتل فيقتل، ويدل له أن الجماعة لو قذفوا واحدًا لوجب حد القذف على جميعهم[2].

ولا شك أن هذا من أعدل الطرق وأقومها، ولذلك يشاهد في أقطار الدنيا قديمًا وحديثًا، قلة وقوع القتل في البلاد التي تحكم كتاب الله، لأن القصاص رادع عن جريمة القتل، كما ذكره الله في الآية[3].

وفيه ارتداع الناس عن قتل النفوس، فلو أهمل حكم القصاص لما ارتدع الناس؛ لأن أشد ما تتوقاه نفوس البشر من الحوادث هو الموت[4].

الثالث: حفظ العقل.

حيث شرع الله لحفظه تحريم الخمر وعقوبة شاربها، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

في هذه الآية دليل على وجوب اجتناب الخمر، وقد أخذ بعض العلماء منها أن الخمر نجسة العين، لأن الله تعالى قال: إنها ﴿رِجْسٌ﴾، والرجس في كلام العرب: كل مستقذر تعافه النفس.

قالوا: ويدل لهذا مفهوم المخالفة في قوله تعالى في شراب أهل الجنة: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]؛ لأن وصفه لشراب أهل الجنة بأنه طهور يفهم منه، أن خمر الدنيا ليست كذلك، والنزاع الفقهي في هذه المسألة شهير[5].

وقد بينت السنة حد شرب الخمر، وهو ثمانون جلدة مع الحرية وأربعون مع الرق[6].

الرابع: حفظ النسب.

شرع الله لإيجاده الزواج، وشرع لحفظه عقوبة الزنى، وحرمة إجهاض المرأة الحامل إلا لضرورة[7].

(١) انظر: أحكام القرآن، الكيا الهراسي ١/ ٥٦.
(٢) انظر: أضواء البيان ، الشنقيطي ١/ ٤١٠.
(٣) انظر: أضواء البيان ٣/ ٣٢.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ٢/ ١٤٣.
(٥) انظر: أضواء البيان ١/ ٤٢٦.
(٦) انظر: زاد المستقنع، الحجاوي ص١٩٥.
(٧) انظر: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، عبدالكريم زيدان ص٤٢.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢].

كما أوجب الله سبحانه العدة صيانة وحفظًا للأنساب.

قال الله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وقال سبحانه: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

الخامس: حفظ العرض.

حيث شرع الله لحفظه عقوبة الزنى والقذف، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

السادس: حفظ المال.

شرع الله لتحصيله أنواع المعاملات من بيع وشراء وشركة ونحو ذلك، وشرع لحفظه حرمة أكل مال الناس بالباطل، أو إتلافه والحجر على السفيه وتحريم الربا، وعقوبة السرقة[1].

قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

كما شرع الله تعالى حد الحرابة، وهو حد قطاع الطريق: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

وما تقدم ذكره من ضروريات الشريعة وكلياتها يصب في مصلحة الأمة من النواحي المختلفة، وخصوصًا الناحية السياسية، إذ إن ضبط هذه المصالح والحفاظ عليها هو تحقيق واضح لمقاصد الشريعة بتقسيماتها المختلفة، وأساس من أسس تماسك الأمة ووحدتها، وسلامة أفرادها ومجتمعاتها من العبث والإتلاف، واستبقاء لصورة الأمة قوية قلبًا وقالبًا أمام نفسها وأمام أعدائها.

---

(١) انظر: المصدر السابق.

خامسًا: دفع العدوان:

من أعظم المهام المنوطة بالإمام رعاية الأمة ودفع العدوان عنها، سواء كان العدوان على ثغور المسلمين، أو كف عدوان بعض المسلمين على المسلمين، ويكون ذلك بما يلي:

- تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا تظفر الأعداء بغرة ينتهكون فيها محرمًا، أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دمًا[(١)].
- جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يسلم، أو يدخل في الذمة ليقام بحق الله تعالى في إظهاره على الدين كله[(٢)].

والعدوان مصدر عدا، بمعنى: اعتدى، وهو نفي عام، أي: لا يؤخذ فرد فرد من أنواعه البتة إلا على من ظلم، ويراد بالعدوان الذي هو الظلم الجزاء[(٣)].

ومن واجبات السياسة في الإسلام دفع العدوان، سواء كان هذا العدوان على بلاد المسلمين، والذي هو جهاد الدفع، أو كان عدونًا من المسلمين بعضهم على بعض.

ومن أمثلة الأول قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

أي: فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك، وقتال المؤمنين، فكفوا عنهم، فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم، ولا عدوان إلا على الظالمين، وهذا معنى قول مجاهد: لا يقاتل إلا من قاتل. أو يكون تقديره : فإن انتهوا فقد تخلصوا من الظلم، وهو الشرك، فلا عدوان عليهم بعد ذلك.

والمراد بالعدوان هاهنا: المعاقبة والمقاتلة، كقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦][(٤)].

وقوله: ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إنما ذلك على وجه المجازاة، والمعنى: افعلوا بهم مثل الذي فعلوا بكم، ولا تقاتلوا إلا من قاتلكم[(٥)].

وقوله: ﴿وَقَٰتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

في هذه الآية نهي عن الاعتداء، وقد ذكر بعض المفسرين أن الاعتداء على ثلاثة أقوال: الأول: قتال من لم يقاتل. والثاني:

---

(١) انظر: الأحكام السلطانية، الماوردي ص٢٢، غياث الأمم، الجويني ص١٢٩.
(٢) انظر: الأحكام السلطانية ص٢٢.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٧٦.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٢٦.
(٥) انظر: جامع البيان ٣/ ٥٧٣-٥٧٤.

أنه قتل النساء والولدان. والثالث: أنه القتال على غير الدين[1]. ولا يمنع أن يكون اللفظ شاملًا للأقوال الثلاثة.

وقد يكون الاعتداء بتعدي حدود الله تعالى، فيجب على الإمام حمايتها ورعايتها، والشريعة جاءت بحماية حقوق الناس، ورعايتها لشؤونهم، أيًا كان هذا الاعتداء حتى بين الزوجين.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ [البقرة: ٢٣١].

صرح تعالى في هذه الآية الكريمة بالنهي عن إمساك المرأة مضارة لها؛ لأجل الاعتداء عليها بأخذه ما أعطاها؛ لأنها إذا طال عليها الإضرار افتدت منه؛ ابتغاء السلامة من ضرره[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾ [النساء: ١٤].

والتعدي هو: مجاوزة الحد الذي حده الله فيها، وقد جاء ذلك بعد أحكام المواريث، وذكر أنصباء الوارث، والنظر في أموال الأيتام، وبيان عدد ما يحل من الزوجات، فناسب أن يذكر عقيب هذا كله التعدي، الذي هو مجاوزة ما شرعه الله من هذه الأحكام إلى ما لم يشرعه، وجاء قوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ عقيب قوله: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٢].

ثم وعد من أطاع بالجنة، وأوعد من عصا وتعدى حدوده بالنار[3]، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

في هذه الآية نهي عن استحلال المحرمات، وذلك بالاعتداء على حقوق الناس، وهو أشد الاعتداء، أو على حقوق الله تعالى في أمره ونهيه دون حق الناس، كتناول الخنزير أو الميتة. ويعم الاعتداء في سياق النهي جميع جنسه مما كانت عليه الجاهلية من العدوان، وأعظمه الاعتداء على الضعفاء كالوأد، وأكل مال اليتيم، وعضل الأيامى، وغير ذلك[4].

وقال تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

«أي: من تجاوز شرع الله بعد القود، وأخذ الدية بقتل القاتل، بعد سقوط الدم، أو بقتل غير القاتل، وكانوا في الجاهلية يفعلون ذلك، ويقتلون بالواحد الاثنين والثلاثة والعشرة، وقيل: المعنى: من قتل بعد أخذ الدية، وقيل: بعد العفو، وقيل: من أخذ الدية بعد العفو عنها.

والأظهر القول الأول لتقدم العفو، وأخذ المال، والاعتداء وهو: تجاوز الحد، يشمل ذلك كله»[5].

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢٥١.
(٢) انظر: أضواء البيان ١/ ١٤٩.
(٣) انظر: البحر المحيط ٢/ ٦١.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ٥/ ١٩٢.
(٥) البحر المحيط ٢/ ١٧.

«وهذا تفريع عن حكم العفو ؛ لأن العفو يقتضي شكر الله على أن أنجاه بشرع جواز العفو، وبأن سخر الولي للعفو، ومن الشكر ألا يعود إلى الجناية مرة أخرى، فإن عاد فله عذاب أليم، وقد فسر الجمهور العذاب الأليم بعذاب الآخرة»[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

والعدوان هنا إما أن يكون أعم من الإثم، وإما أن يكون نوعًا آخر، وإما أن يكون العدوان فى مجاوزة حدود المأمورات، واجبها ومستحبها، ومجاوزة حد المباح، وإما أن يكون فى ذلك مجاوزة حد التحريم أيضًا؛ فإنها ثلاثة أمور: مأمور به، ومنهى عنه، ومباح[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ [النساء: ٣٠].

في هذه الآية نهي عن أن يقتل الرجل غيره، فالضميران فيه على التوزيع، إذ قد علم أن أحدًا لا يقتل نفسه فينهى عن ذلك، وقتل الرجل نفسه داخل في النهي، لأن الله لم يبح للإنسان إتلاف نفسه كما أباح له صرف ماله[(٣)].

(١) التحرير والتنوير ٢/ ١٤٢.
(٢) انظر: مجموع فتاوى، ابن تيمية ٣/ ١٩١.
(٣) انظر: التحرير والتنوير ٤/ ١٠١.

سمات النظام السياسي في القرآن

يتسم النظام السياسي في القرآن الكريم بسمات عامة، تجعله في منزلة لا يصل إليها أي نظام سياسي آخر في الشرق أو الغرب، ومن أبرز هذه السمات ما يلي:

١ . رباني.

مصدر الشريعة الإسلامية هو الله تعالى، فهي وحيه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم باللفظ والمعنى وهو القرآن، أو بالمعنى دون اللفظ وهو السنة، فهي بهذا الاعتبار تختلف اختلافًا جوهريًا عن جميع الشرائع الوضعية، لأن مصدر هذه الشرائع البشر، ومصدر الشريعة الإسلامية رب البشر.

وينبني على ذلك أن أحكام النظام السياسي في الإسلام معصومة من التناقض، فهي خالية من معاني الجور والنقص والهوى، لأن صانعها هو الله، والله له الكمال المطلق الذي هو لوازم ذاته، بخلاف القوانين الوضعية التي لا تنفك عن هذه المعاني؛ لأنها صادرة عن الإنسان، والإنسان لا يخلو من معاني الجهل والجور والنقص والهوى وما إلى ذلك.

وكذلك مما ينبني عليها أيضًا أن لأحكام النظام السياسي الإسلامي هيبة واحترامًا في نفوس المؤمنين بها حكامًا كانوا أو محكومين، لأنها صادرة عن الله، ومن ثم

فلها صفة الدين. وما له هذه الصفة من حقه أن يحترم ويطاع طاعة اختيارية تنبعث من النفس وتقوم على الإيمان، ولا يقسر عليها الإنسان قسرًا. وفي هذا أعظم ضمان لحسن تطبيق القانون الإسلامي من الجميع، وعدم الخروج عليه ، ولو مع القدرة على هذا الخروج[1].

والثوابت في هذه الشريعة من أظهر الأدلة على ربانيتها، وأنها من عند الله عز وجل، حيث إنها لا تقبل التعديل أو التبديل أو التغيير أو التعارض والاختلاف، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

فالقرآن لا يشتمل على كلام يوجب الريبة في أنه من عند الحق رب العالمين، من كلام يناقض بعضه بعضًا، أو كلام يجافي الحقيقة والفضيلة، أو يأمر بارتكاب الشر والفساد، أو يصرف عن الأخلاق الفاضلة، وانتفاء ذلك عنه يقتضي أن ما يشتمل عليه القرآن إذا تدبر فيه المتدبر، وجده مفيدًا اليقين بأنه من عند الله[2].

وقال الفراء: أظن أن القرآن سمي من القرائن، وذلك أن الآيات يصدق بعضها بعضًا[3].

وحيث خلا هذا الكتاب عن التناقض علمنا أنه من عند الله[4].

وقال القرطبي: «إنه ليس من متكلم يتكلم كلامًا كثيرًا إلا وجد في كلامه اختلاف كثير؛ إما في الوصف واللفظ؛ وإما في جودة المعنى، وإما في التناقض، وإما في الكذب. فأنزل الله عز وجل القرآن وأمرهم بتدبره؛ لأنهم لا يجدون فيه اختلافًا في وصف ولا ردًا له في معنى، ولا تناقضًا ولا كذبًا فيما يخبرون به من الغيوب وما يسرون»[5].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

أوضحت هذه الآية أن المشرعين غير ما شرعه الله إنما تصف ألستهم الكذب، لأجل أن يفتروه على الله، وأنهم لا يفلحون، وأنهم يمتعون قليلًا ثم يعذبون العذاب الأليم، وذلك واضح في بعد صفاتهم من صفات من له أن يحلل ويحرم[6].

٢ . أخلاقي.

أمر الله تعالى في كتابه بجملة من مكارم الأخلاق والفضائل والمحاسن، منها: العدل، والإحسان، وإيتاء ذي القربى،

(١) انظر: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، عبدالكريم زيدان ص٣٥.
(٢) انظر: التحرير والتنوير ١/ ٢٢١.
(٣) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٥/ ٢٧٨.
(٤) انظر: المصدر السابق ١٠/ ٣٣٢.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ٥/ ١٨٧.
(٦) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٥٣.

والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، والتفضل بالإحسان، والصفح والعفو، والوفاء بالعهد، وعدم نقض الميثاق، والصبر، والأمر بالعمل الصالح، والنهي عن الظلم، والآيات في ذلك أكثر من أن يستوعبها هذا المجال.

ونصوص القرآن العديدة في شأن اليتيم، زادت على العشرين موضعًا[(١)].

قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

في هذه الآية أمر بمراعاة مكارم الأخلاق ومداراة الناس، والمعنى: استعمال العفو، وقبول ما سهل من أخلاق الناس، وترك الاستقصاء عليهم في المعاملات، وقبول العذر ونحوه[(٢)]. قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(أثقل شيءٍ في ميزان المؤمن خلقٌ حسنٌ)**[(٣)]. وروى ابن عمر أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم: **أي المؤمنين أفضل؟ فقال: (أحسنهم خُلُقًا)**[(٤)].

وقد جمعت هذه الآية مكارم الأخلاق، لأن فضائل الأخلاق لا تعدو أن تكون عفوًا عن اعتداء ، فتدخل في: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾، أو إغضاء عما لا يلائم فتدخل في: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، أو فعل خير واتسامًا بفضيلة فتدخل في: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾.

وهذا معنى قول جعفر بن محمد: في هذه الآية أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها، وهي صالحة لأن يبين بعضها بعضًا، فان الأمر بأخذ العفو يتقيد بوجوب الأمر بالعرف، وذلك في كل ما لا يقبل العفو والمسامحة من الحقوق، وكذلك الأمر بالعرف يتقيد بأخذ العفو ، وذلك بأن يدعو الناس إلى الخير بلين ورفق[(٥)].

فجعل الله تعالى أصل شريعته إكمال ما يحتاجه البشر من مكارم الأخلاق في نفوسهم، ولا شك أن الرسول صلى الله عليه وسلم أكبر مظهر لما في شرعه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨]. وأمره أن يقول: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣].

فكما جعل الله رسوله صلى الله عليه وسلم على خلق عظيم، جعل شريعته لحمل الناس على التخلق بالخلق العظيم بمنتهى

(١) انظر: المصدر السابق ٨/ ٥٦٤.
(٢) انظر: أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٢/ ١٤١.
(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الشهادات، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها التي من كان متخلقا بها كان من أهل المروءة التي هي شرط في قبول الشهادة على طريق الاختصار، ١٠/ ١٩٣، رقم ٢٠٥٧٨. وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ١٤.
(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، ٢/ ١٤٢٣، رقم ٤٢٥٩. وحسنه الألباني في صحيح وضعيف الترغيب والترهيب ٣/ ١٦٤.
(٥) انظر: التحرير والتنوير ٨/ ٤٠١.

الاستطاعة. وبهذا يزداد وضوحًا معنى التمكن الذي أفاده حرف الاستعلاء في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

فهو متمكن منه الخلق العظيم في نفسه، ومتمكن منه في دعوته الدينية[١].

قال القرطبي: تضمنت هذه الآية قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات، فقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين. ودخل في قوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار. وفي قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة[٢].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

«لبيان ما في ذلك الأمر من الصلاح ترويضًا على التخلق بذلك الخلق الكريم، وهو أن تكون النفس مصدرًا للإحسان، ولما كانت الآثار الصالحة تدل على صلاح مثارها. وأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالدفع بالتي هي أحسن، أردفه بذكر بعض محاسنه، وهو: أن يصير العدو كالصديق، وحسن ذلك ظاهر مقبول، فلا جرم أن يدل حسنه على حسن سببه»[٣].

وهذا من جملة حسن الأدب في الخدمة في حق صحبتك مع الله؛ تحلم مع عباده لأجله، ومن جملة حسن الخلق في الصحبة مع الخلق ألا تنتقم لنفسك، وأن تعفو عن خصمك[٤].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

وهذه الشرائع من أصول الدين، التي أمر الله بها في كل شريعة، لاشتمالها على المصالح العامة، في كل زمان ومكان، فلا يدخلها نسخ، كأصل الدين[٥].

وقد أمر الله بالإحسان في آيات كثيرة

(١) انظر: المصدر السابق ٢٩/ ٦١.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢١٩.
(٣) التحرير والتنوير ٢٥/ ٥٨.
(٤) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٧/ ١٤٣.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٧.

منها: قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

وحض الله في كتابه على العفو ، فقال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

قال الأمين الشنقيطي: «فانظر: ما في هذه الآية من الحض على مكارم الأخلاق من الأمر بالعفو والنهي عن نسيان الفضل»[(١)].

«والعفو أقرب إلى صفة التقوى من التمسك بالحق؛ لأن التمسك بالحق لا ينافي التقوى ، لكنه يؤذن بتصلب صاحبه وشدته، والعفو يؤذن بسماحة صاحبه ورحمته، والقلب المطبوع على السماحة والرحمة، أقرب إلى التقوى من القلب الصلب الشديد، لأن التقوى تقرب بمقدار قوة الوازع، والوازع شرعي وطبيعي، وفي القلب المفطور على الرأفة والسماحة لين يزعه عن المظالم والقساوة، فتكون التقوى أقرب إليه لكثرة أسبابها فيه»[(٢)].

وقال سبحانه: ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

وفي الحقوق العامة أوامر ونواهي، عبادات ومعاملات، جاءت آيات الوصايا العشر، التي قال عنها ابن مسعود رضي الله عنه: من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمة فليقرأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

فهذه الآية تعرف بالوصايا العشر، والتي هي جامعة لأبواب الخير، وموصدة لأبواب الشر، فصارت هذه السورة بحق جامعة لأصول الرسالة[(٣)]، حيث ذكر الله تعالى فيها مبادئ الأخلاق العامة التي يصلح بها المجتمع الإسلامي، والذي يبين أن النظام السياسي في الإسلام اهتم بجانب الأخلاق وحفظ الحقوق ورعايتها اهتمامًا ظاهرًا.

ومن ذلك: بر الوالدين، ورعاية حق الأولاد والإحسان إليهم، والنهي عن قتلهم خشية الفقر، والنهي عن الفواحش، والنهي

(١) انظر: أضواء البيان ٣/ ٥٠.
(٢) التحرير والتنوير ٢/ ٤٤٣.
(٣) انظر: أضواء البيان ٩/ ٩٦.

عن قتل النفس المحرمة إلا بالحق.

٣. كامل وشامل.

تناول كتاب الله عز وجل قضايا الناس والمجتمعات، سواء كانت المتعلقة بالعبادات أو المعاملات أو المناكحات أو العلاقات السياسية أو القضايا الاجتماعية أو محاسن الاخلاق ونحو ذلك.

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وبين ذلك في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

فلا شك أن القرآن فيه بيان كل شيء، والسنة كلها تدخل في آية واحدة منه، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[1] [الحشر: ٧].

والسنة والإجماع والقياس والاجتهاد مستندة إلى تبيين الكتاب، فمن ثم كان تبيانًا لكل شيء[2].

والقرآن أنزله الله تعالى كتابًا لصلاح أمر الناس كافة، رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم.

قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية.

فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتزكيتها، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد، لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر.

وأما الصلاح الجماعي فيحصل أولًا من الصلاح الفردي، إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه، وهناك شيء زائد على ذلك وهو ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض، على وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات ومواثبة القوى النفسانية، وهذا هو علم المعاملات، ويعبر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنية.

وأما الصلاح العمراني فهو أوسع من ذلك إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرف الجماعات والأقاليم بعضهم مع بعض على وجه يحفظ مصالح الجميع، ورعي المصالح الكلية الإسلامية، وحفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها، ويسمى هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع.

وصار مجموع التشريع الحاصل بالقرآن والسنة، كافيًا في هدي الأمة في عبادتها، ومعاملتها، وسياستها، في سائر عصورها،

(١) انظر: أضواء البيان ٢/ ٤٢٨.
(٢) انظر: الكشاف ٢/ ٥٨٦.

بحسب ما تدعو إليه حاجاتها، فقد كان الدين وافيًا في كل وقت بما يحتاجه المسلمون[(١)].

والله عز وجل نص على بعض الأحكام، وأجمل القول في بعضها، وأحال على الأدلة في سائرها بقوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

فبين النبي صلى الله عليه وسلم ما أجمله الله في كتابه، كما أمره، حيث يقول: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[النحل: ٤٤].

فما أحل صلى الله عليه وسلم، أو حرم، ولم يوجد في القرآن نصًا، فهو مما بين من مجمل القرآن، أو علمه بما نصب من الأدلة فيه[(٢)].

فما ترك القرآن شيئًا من أمر الدين إلا وقد دلنا عليه؛ إما دلالة مبينة مشروحة، وإما مجملة، يتلقى بيانها من الرسول صلى الله عليه وسلم، أو من الإجماع، أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب.

فصدق خبر الله بأنه ما فرط في الكتاب من شيء إلا ذكره، إما تفصيلًا وإما تأصيلًا.

وقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[(٣)] [المائدة: ٣].

وقوله: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من تحليل وتحريم، ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات، وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور على الجلية، وعن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقات، فلهذا كان: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلالة إلى السداد، ويبتغون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد[(٤)].

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤].

وهذا الكمال والشمول للشريعة الإسلامية، يفيد الأمة في مجالات السياسة المختلفة من وجوه:

أولها: أن الشمول ينسحب أثره على مناحي الحياة السياسية في جميع مراحلها، بدءًا من ضوابط اختيار الحاكم، ومرورًا بمنهجه في الحكم، وانتهاء بحالات عزله

(١) انظر: التحرير والتنوير ١/ ٣٦ ٥/ ٣١.
(٢) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ١/ ٤٤٣.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٢٧٠-٢٧١.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٢٧.

أو انعزاله.

وثانيها: أن الشمول ينفي عن الشريعة تهمة النقص والقصور التي يحاول أعداء الإسلام اتهام الشريعة بها، أو الترويج لها، لا سيما إذا استطاع المسلمون أن يبينوا أوجه الكمال والشمول هذه.

وثالثها: أن الشمول والكمال ينبع عن ربانية مصادر الشريعة، وخلوصها من تهمة استفادتها من أي نظام آخر، سواء كان قانونيًا أو اقتصاديًا أو سياسيًا، فلم تتأثر الشريعة الإسلامية بشريعة فارس ولا الروم، ولا بحكم الصين أو الهند أو غير ذلك من الدول المحيطة بالدولة الإسلامية إبان نزول الوحي، أو إقامة الدولة في المدينة النبوية.

٤ . محقق للمساواة.

جاءت الشريعة بمبدأ المساواة بين الناس بغض النظر عن اختلافهم في اللون أو الجنس أو اللغة، وجعلت أساس التفاضل بينهم العمل الصالح.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهذا المبدأ جاءت به الشريعة في وقت كانت العصبية للجنس والقبيلة هي الأساس في المجتمع، وفي تمايز الناس وتفاضلهم. والحكمة في جعله بني آدم شعوبًا وقبائل، هي التعارف فيما بينهم، فالتعارف هو العلة المشتملة على الحكمة، لقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾.

فيعرف بعضهم بعضًا، ويتميز بعضهم عن بعض لا لأجل أن يفتخر بعضهم على بعض ويتطاول عليه، فاتضح من هذا أن الفضل والكرم إنما هو بتقوى الله لا بغيره من الانتساب إلى القبائل[1].

والله تعالى قد علق محبته لخلقه على وصف التقوى والإيمان والإحسان، كقوله: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة: ٢٢٢].

وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

إلى غير ذلك من الآيات.

ونفى محبته من وصف الاعتداء والكفر والظلم، كقوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

---

(١) انظر: أضواء البيان ٣/ ٤٥ /٧/ ٤١٧.

وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

إلى غير ذلك من الآيات.

٥ . العالمية.

الشريعة الإسلامية عامة لجميع البشر في كل زمان ومكان.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

وهي باقية لا يلحقها نسخ ولا تغيير ؛ لأن الناسخ يجب أن يكون بقوة المنسوخ أو أقوى منه، فلا ينسخ الشريعة وهي تشريع من الله إلا تشريع آخر من الله سبحانه، وحيث إن الشريعة الإسلامية خاتمة الشرائع ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، لقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

فلا يتصور أن ينسخها أو يغيرها شيء.

وعموم الشريعة وبقاؤها وعدم قابليتها للنسخ والتبديل كل ذلك يستلزم عقلًا أن تكون قواعدها وأحكامها على نحو يحقق مصالح الناس في كل عصر ومكان، ويفي بحاجاتهم ولا يضيق بها ولا يتخلف عن أي مستوى عال يبلغه المجتمع، وهذا كله متوفر في الشريعة الإسلامية ؛ لأن الله تعالى وهو العليم ؛ إذ جعلها عامة في المكان والزمان وخاتمة لجميع الشرائع، جعل الله قواعدها وأحكامها على نحو يجعلها صالحة لكل زمان ومكان، وهذا ما يدل عليه واقع الشريعة ومصادرها وطبيعة مبادئها وأحكامها وما ابتنت عليه هذه الأحكام، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

والرحمة تتضمن رعاية مصالح العباد ودرء المفاسد عنهم[(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ هذه الآية الكريمة فيها التصريح بأنه صلى الله عليه وسلم رسول إلى جميع الناس، وصرح بذلك في آيات كثيرة ، كقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾.

وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ

(١) انظر: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، عبدالكريم زيدان ص٣٩-٤٠.

﴿مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

وقيد في موضع آخر: عموم رسالته ببلوغ هذا القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وصرح بشمول رسالته لأهل الكتاب مع العرب بقوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ [آل عمران: ٢٠].

إلى غير ذلك من الآيات[١].

وهذه الآيات وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته، صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث[٢].

وما بعث نبيًا في أمة إلا أن يكون بلغتهم، فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص محمد بن عبد الله رسول الله بعموم الرسالة إلى سائر الناس[٣]، كما ثبت في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أعطيت خمسًا لم يعطهن أحدٌ من الأنبياء قبلي وذكر منها: (وكان النبي يبعث إلى قومه خاصةً وبعثت إلى الناس كافةً)[٤].

وهو ما يفيده العموم في كلمة (للناس) في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٤١].

وقوله: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠].

وقوله سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

هذه الآية الكريمة تدل على عموم رسالته صلى الله عليه وسلم للأسود والأحمر والجن والإنس، لدخول الجميع في قوله تعالى: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[٥].

قال الطيبي: مدار هذه السورة على كونه صلى الله عليه وسلم مبعوثًا إلى الناس كافة، ينذرهم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولهذا جعل براعة استهلالها ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، وذكر بدائع من صنعه تعالى، جمعًا بين الاستدلال والتذكير، وأعقب ذلك بتثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم على دعوته ومقاومته الكافرين[٦].

ويظهر في رسالة النبي صلى الله عليه

---

(١) انظر: أضواء البيان ٢/ ٤١.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٦.
(٣) انظر: المصدر السابق ٤/ ٤٧٧.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التيمم، ١/ ١٢٨، رقم ٣٢٨، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، ٢/ ٦٣، رقم ١١٩١.
(٥) انظر: أضواء البيان ٦/ ٣.
(٦) انظر: التحرير والتنوير ١٩/ ٦.

وسلم شمول البعثة في قوله: ﴿لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾، وعموم الرحمة في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧].

هذا وعالمية الشريعة الإسلامية تمثل ثراء كبيرًا في مجال السياسة الداخلية والخارجية، وأبرز مظاهر هذا الثراء في تقديري ما يلي:

أولًا: أن عالمية الإسلام أعون للحاكم على تنفيذ تعاليم الشرع وتحكيم شرع الله عز وجل في دولته، مما لا يتأتى معه مجال للنقد أو الاعتراض من الدول غير الإسلامية.

ثانيًا: أن هذه السمة (العالمية) تفتح آفاقًا للتعاون المثمر بين الدول الإسلامية المختلفة، حيث يكون الهدف والتشريع واحدًا.

(١) انظر: روح المعاني ١/ ٥٤.

نماذج قرآنية من السياسة

جعل الله عز وجل كتابه العظيم دليلًا للسالكين وهداية للراغبين، قال سبحانه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

فمن تأمله وتدبره وعمل بما فيه وجد بغيته وضالته. وقد ذكر الله تعالى في كتابه نماذج سياسية من أنبياء الله تعالى وغيرهم، حتى تكون قصصهم عبرة لأولي الألباب، ومن هذه النماذج قصة نبي الله داود وسليمان ويوسف عليهم الصلاة والسلام، وكذلك قصة ذي القرنين، وملكة سبأ، وهو ما سأتناوله في النقاط الآتية:

أولًا: دواد وسليمان عليهما السلام:

جمع الله تعالى النبوة والحكم في بيت واحد لداود وسليمان عليهما السلام، وهذه نعمة كبيرة غير مسبوقة في بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا﴾ [سبأ: ١٠].

فذكر الله عز وجل في هذه الآية الكريمة أنه آتى داود منه فضلًا تفضل به عليه، وبين هذا الفضل الذي تفضل به على داود في آيات أخر، كقوله: ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

آتى الله داود الملك الذي كان بيد طالوت والحكمة، أي: النبوة، ﴿وَعَلَّمَهُ

﴿مِمَّا يَشَاءُ﴾ أي: مما يشاء الله من العلم الذي اختصه به صلى الله عليه وسلم [(١)].

وقوله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥].

وقوله: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

إلى غير ذلك من الآيات.

قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦].

بين الله سبحانه في هذه الآية وراثة سليمان لدواد وتميزه بالنعم الأخرى واتساع ملكه، فورث من داود نبوته وعلمه وملكه دون سائر أولاده، وكان لداود عليه السلام تسعة عشر ابنًا، ولذا قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل: ١٦][(٢)].

وقد اتصف ملك داود وسليمان عليهما السلام بالقوة والعدل والحكمة، قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ عبارة عامة لجميع ما وهبه الله تعالى من قوة وجند ونعمة، ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ قال ابن عباس وغيره: هو فصل القضاء بين الناس بالحق وإصابته وفهمه[(٣)].

وذكر الله عز وجل أنه أعطى داود ملكًا وسلطانًا لم يكن لآبائه، وفي ذلك إيماء إلى أن شأن محمد صلى الله عليه وسلم سيصير إلى العزة والسلطان، ولم يكن له سلف ولا جند، فقد كان حال النبي صلى الله عليه وسلم أشبه بحال داود عليه السلام.

وفي ذلك الإيماء إلى التحذير من الضجر في ذات الله تعالى، واتقاء مراعاة حظوظ النفس في سياسة الأمة، إبعاده لرسوله صلى الله عليه وسلم عن مهاوي الخطأ والزلل، وتأديبًا له في أول أمره وآخره، مما أن يتلقى بالعذل. وكان داود أيضًا قد صبر على ما لقيه من حسد «طالوت» ملك إسرائيل إياه على انتصاره على جالوت ملك فلسطين[(٤)].

وقد حصلت بعض الوقائع في بني إسرائيل أبرزت ذكاء سليمان عليه السلام وحكمته، ومن ذلك ما يلي:

أولًا: واقعة الغنم التي نفشت في الحرث: قوله تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٦٩.
(٢) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ١٩٣.
(٣) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٤/ ٣٤.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١٢٧.

﴿مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩].

وكان داود ملكًا نبيًا يحكم بين الناس فوقعت هذه النازلة، وكان ابنه إذ ذاك قد كبر وكان يجلس على الباب الذي يخرج منه الخصوم، وكانوا يدخلون إلى داود من باب آخر، فتخاصم إليه رجل له زرع، دخلت حرثه غنم رجل فأفسدت عليه، فرأى داود دفعها إلى صاحب الحرث، فخرجا على سليمان، فشكى صاحب الغنم فجاء سليمان فقال: يا نبي الله، إني أرى ما هو أرفق بالجميع، أن يأخذ صاحب الغنم الحرث يقوم عليه ويصلحه حتى يعود كما كان، ويأخذ صاحب الحرث الغنم في تلك المدة ينتفع بمرافقها من لبن وصوف ونسل، فإذا عاد الحرث إلى حاله، صرف كل مال صاحبه إليه، فرجعت الغنم إلى ربها والحرث إلى ربه، فقال داود: وفقت يا بني وقضى بينهما بذلك[1].

وفي الآية قرينتان على أن حكمهما كان باجتهاد لا بوحي، وأن سليمان أصاب، فاستحق الثناء باجتهاده وإصابته، وأن داود لم يصب فاستحق الثناء باجتهاده، ولم يستوجب لومًا ولا ذمًا بعدم إصابته. كما أثنى على سليمان بالإصابة في قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ وأثنى عليهما في قوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فدل قوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا﴾ على أنهما حكما فيها معًا، كل منهما بحكم مخالف لحكم الآخر، ولو كان وحيًا لما ساغ الخلاف.

ثم قال: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ فدل ذلك على أنه لم يفهمها داود، ولو كان حكمه فيها بوحي لكان مفهمًا إياها كما ترى، فقوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا﴾ مع قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ قرينة على أن الحكم لم يكن بوحي بل باجتهاد، وأصاب فيه سليمان دون داود بتفهيم الله إياه ذلك.

والقرينة الثانية: هي أن قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ يدل على أنه فهمه إياها من نصوص ما كان عندهم من الشرع، لا أنه أنزل عليه فيها وحيًا جديدًا ناسخًا؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ أليق بالأول من الثاني، كما ترى[2].

وقدم سليمان في الذكر على داود لتوفر علمه، وتأخر ذكر داود لتشريفه بذكر كتابه، وإبرازه في جملة مستقلة له بالذكر ولكتابه، فما فاته من التقديم اللفظي حصل به التضعيف من التشريف المعنوي[3].

وقد أوتي سليمان الحكمة، وسخر له أهل الصنائع والإبداع ، فاستكملت دولة إسرائيل في زمانه عظمة النظام والثروة

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٣٠٦.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ١٧٠.

(٣) انظر: البحر المحيط ٣/ ٤١٣.

والحكمة والتجارة فكان في قصتهما مثل.

وكانت تلك القصة منتظمة في هذا السلك الشريف، سلك إيتاء الفرقان والهدى والرشد والإرشاد إلى الخير والحكم والعلم.

وكان في قصة داود وسليمان تنبيه على أصل الاجتهاد وعلى فقه القضاء، فلذلك خص داود وسليمان بشيء من تفصيل أخبارهما، أي: وآتينا داود وسليمان حكما وعلما إذ يحكمان إلى آخره، فـ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ متعلق بـ ﴿ءَاتَيْنَا﴾ المحذوف، أي: كان وقت حكمهما في قضية الحرث مظهرًا من مظاهر حكمهما وعملهما.

وهذه الآية أصل في اختلاف الاجتهاد، وفي العمل بالراجح، وفي مراتب الترجيح، وفي عذر المجتهد إذا أخطأ الاجتهاد، أو لم يهتد إلى المعارض؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ في معرض الثناء عليهما[1].

ثانيًا: واقعة المائة نعجة:

إذ تسور على داود محرابه رجلان متخاصمان، ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ [ص: ٢٢].

فقال أحدهما: إن هذا أخي له تسع وتسعون من النعاج، وليس عندي إلا نعجة واحدة، فطمع فيها وقال: أعطنيها، وغلبني بحجته.

وسأله أن يعطيه نعجته، ولما رأى منه تمنعًا اشتد عليه بالكلام وهدده، فأظهر الخصم المشتكي أنه يحافظ على أواصر القرابة، فشكاه إلى الملك. وبهذا يتبين أن موضع هذا التحاكم طلب الإنصاف في معاملة القرابة؛ لئلا يفضي الخلاف بينهم إلى التواثب، فتنقطع أواصر المبرة والرحمة بينهم.

وقد علم داود من تساوقها للخصومة، ومن سكوت أحد الخصمين، أنهما متقاربان على ما وصفه الحاكي منهما، أو كان المدعى عليه قد اعترف، فحكم داود بأن سؤال الأخ أخاه نعجته ظلم؛ لأن السائل في غنى عنها، والمسؤول ليس له غيرها، فرغبة السائل فيما بيد أخيه من فرط الحرص على المال، واجتلاب النفع للنفس بدون اكتراث بنفع الآخر. وهذا ليس من شأن التحاب بين الأخوين، والإنصاف منهما فهو ظلم، وما كان من الحق أن يسأله ذلك، أعطاه أو منعه، ولأنه تطاول عليه في الخطاب، ولامه على عدم سماح نفسه بالنعجة، وهذا ظلم أيضًا[2].

فقال داود: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٧/ ٨٥، ١٧/ ٨٧.

(٢) المصدر السابق ٢٣/ ١٣٥.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [ص: ٢٤].

قال ابن كثير رحمه الله: قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثا لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس - ويزيد وإن كان من الصالحين - لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يرد علمها إلى الله عز وجل، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضًا[١].

وفي قول الهدهد لسليمان عليه السلام: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢].

تنبيه لسليمان بأن في مخلوقات الله ممالك وملوكًا تداني ملكه، أو تفوقه في بعض أحوال الملك، جعله الله مثلًا له، كما جعل علم الخضر مثلًا لموسى عليه السلام، لئلا يغتر بانتهاء الأمر إلى ما بلغه هو.

وفيه استدعاء لإقباله على ما سيلقى إليه، لأهمية هذا المطلع في الكلام، فإن معرفة أحوال الممالك والأمم من أهم ما يعنى به ملوك الصلاح، ليكونوا على استعداد بما يفاجئهم من تلقائها، ولتكون من دواعي الازدياد من العمل النافع للمملكة، بالاقتداء بالنافع من أحوال غيرها، والانقباض عما في أحوال المملكة من الخلل، بمشاهدة آثار مثله في غيرها[٢].

وكان من منهج سليمان عليه السلام في حكمه فيما يتعلق بشأن ملكة سبأ مايلي:

- التثبت في قبول الأخبار، وهو قول سليمان للهدهد: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧].
- دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته، ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم؛ لأن سليمان عليه السلام لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه، وإنما صار صدق الهدهد عذرا لأنه أخبر بما يقتضي الجهاد، وكان سليمان عليه السلام حبب إليه الجهاد، وقد قبل عمر رضي الله عنه عذر النعمان بن عدي ولم يعاقبه، ولكن للإمام أن يمتحن ذلك إذا تعلق به حكم من أحكام الشريعة[٣].
- ومن منهجه كذلك: إرساله الكتب والرسل لغير المسلمين ودعوتهم، قال تعالى: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ [النمل: ٢٨].
- أمره بالتولي حسن أدب ليتنحى حسب ما يتأدب به مع الملوك، بمعنى: وكن قريبًا حتى ترى مراجعتهم. وقال ابن

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٧/ ٦٠.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٩/ ٢٤٨.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٢٦.

زيد: أمره بالتولي بمعنى الرجوع إليه؛ أي: ألقه وارجع. ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٨][١]. فأرسل سليمان عليه السلام الهدهد بكتابه ليلقيه إليها، فجمعت قومها وقالت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ۝٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ۝٣١﴾ [النمل: ٢٩-٣٠-٣١].

- ومن حكمة بلقيس كونها لم تذكر من ألقى إليها الكتاب، وما ذاك إلا لتعلم أصحابها أن لها اتصالًا إلى أمور لا يعلمون طريقها. وفي ذلك سياسة منها أورثت الحذر منها في أهل مملكتها وخواص مدبريها، وبهذا استحقت التقديم عليهم. وتأكيد الجملة للاعتناء بشأن الحكم[٢].

- وفي هذه الآية دليل على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة، ودعائهم إلى الإسلام، وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر وإلى كل جبار[٣].

ولا يدل قوله: ﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾ على جواز أن تكون المرأة ملكة ؛ لأن ذلك كان من فعل قوم بلقيس، وهم كفار، فلا حجة في ذلك[٤].

وفي صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى قال: (**لن يفلح قومٌ ولوا أمرهم امرأةً**)[٥].

وكذلك كان، فإنهم لم يستقم لهم أمر، والفلاح الفوز بالمطلوب والتدبير يحتاج إلى كمال الرأي، ونقص المرأة مانع، وفي الحديث دليل على أن المرأة لا تلي الإمارة ولا القضاء ولا عقد النكاح[٦].

ثانيًا: يوسف عليه السلام:

اصطفى الله تعالى نبيه يوسف للنبوة، وتعرض عليه السلام لمحن وابتلاءات عدة منذ صغره، وكان لهذه المحن أثرها في تكوين شخصيته وحنكته السياسية والإدارية، مما صار به بعد ذلك إلى تولي مقاليد الأمور في مصر ، فسار فيها على أطيب وجه وأحسنه.

وقد قال الله تعالى عن يوسف عليه السلام مبينًا صفاته التي اتصف بها: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي

---

(١) انظر: المصدر السابق ١٣/ ١٢٧.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٩/ ١٩٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ١٢٧.
(٤) انظر: البحر المحيط ٧/ ٦٤.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي ، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إى كسرى وقيصر ٤/ ١٦١٠، رقم ٤١٦٣.
(٦) انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي ١/ ٣٢٥.

﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

هذا إخبار عن اصطفاء يوسف عليه السلام للنبوة، ذكر هنا في ذكر مبدأ حلوله بمصر لمناسبة ذكر منة الله عليه بتمكينه في الأرض، وتعليمه تأويل الأحاديث.

والأشد: القوة. وفسر ببلوغه ما بين خمس وثلاثين سنة إلى أربعين.

وإنما جعل بلوغ الأشد علة، لأنه أقوى أطوار الإنسان وأجلى مظاهر مواهبه في الجسم والعقل، وهو الجانب الأهم، فجعل «الأشد» كأنه الغاية المقصودة من تطويره، والأشد: سن الفتوة واستجماع القوى.

والحكم والحكمة مترادفان، وهو: علم حقائق الأشياء والعمل بالصالح واجتناب ضده. وأريد به هنا النبوة ، كما في قوله تعالى في ذكر داود وسليمان عليهما السلام: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ والمراد بالعلم علم زائد على النبوة.

وتنكير ﴿وَعِلْمًا﴾ للنوعية، أو للتعظيم.

والمراد: علم تعبير الرؤيا، كما سيأتي في قوله تعالى عنه: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾[1] [يوسف: ٣٧].

وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦].

ويكنى بالتمكين عن الإقدار وإطلاق التصرف، لأن صاحب المكان يتصرف في مكانه وبيته، ثم يطلق على التثبيت والتقوية والاستقلال بالأمر. ويقال: هو مكين بمعنى ممكن، فعيل بمعنى مفعول. قال تعالى: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

فهو كناية، أو هو مجاز مرسل مرتب على المعنى الكنائي. والتمكين في الأرض تقوية التصرف في منافع الأرض والاستظهار بأسباب الدنيا، بأن يكون في منعة من العدو، وفي سعة في الرزق وفي حسن حال، قال تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٨٤].

وقال: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الحج: ٤١].

فمعنى مكنه: جعله متمكنًا، ومعنى مكن له: جعله متمكنًا لأجله، أي : رعيًا له، مثل حمده وحمد له[2].

ولما تبينت له براءة يوسف وتحقق في القصة أمانته، وفهم أيضًا صبره وعلو همته، عظمت عنده منزلته، وتيقن حسن خلاله[3].

قال ابن العربي في أحكامه: قوله: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾: أي: متمكن مما أردت، أمين على ما ائتمنت عليه من شيء؛ أما أمانته فلظهور براءته، وأما مكانته فلثبوت عفته ونزاهته[4].

ولما فهم يوسف عليه السلام من الملك أنه عزم على تصريفه والاستعانة بنظره، قال:

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٢/ ٤٤، ١٧/ ١٤٦.

(٢) انظر: المصدر السابق ٦/ ٢٠.
(٣) انظر: الجواهر الحسان ٢/ ٢٤٣.
(٤) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٥٨.

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥].

لما في ذلك من مصالح العباد، وطلب يوسف للعمل إنما هي حسبة منه عليه السلام في رغبته في أن يقع العدل، وجائز أيضًا للمرء أن يثني على نفسه بالحق، إذا جهل أمره، و﴿خَزَآئِنِ﴾: لفظ عام لجميع ما تختزنه المملكة من طعام ومال وغيره[١].

فدلت الآية على جواز أن يطلب الإنسان عملًا يكون له أهلًا[٢].

وفي هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر، والسلطان الكافر، بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فعل لا يعارضه فيه، فيصلح منه ما شاء؛ وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره، فلا يجوز ذلك.

قال الماوردي: فإن كان المولي ظالما فقد اختلف الناس في جواز الولاية من قبله على قولين: أحدهما: جوازها إذا عمل بالحق فيما تقلده؛ لأن يوسف ولي من قبل فرعون، ولأن الاعتبار في حقه بفعله لا بفعل غيره. الثاني: أنه لا يجوز ذلك؛ لما فيه من تولي الظالمين بالمعونة لهم، وتزكيتهم بتقلد أعمالهم.

قال الماوردي: والأصح من إطلاق هذين القولين أن يفصل ما يتولاه من جهة الظالم على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما يجوز لأهله فعله من غير اجتهاد في تنفيذه، كالصدقات والزكوات، فيجوز توليه من جهة الظالم، لأن النص على مستحقه قد أغنى عن الاجتهاد فيه، وجواز تفرد أربابه به قد أغنى عن التقليد.

والقسم الثاني: ما لا يجوز أن يتفردوا به ويلزم الاجتهاد في مصرفه، كأموال الفيء، فلا يجوز توليه من جهة الظالم؛ لأنه يتصرف بغير حق، ويجتهد فيما لا يستحق.

والقسم الثالث: ما يجوز أن يتولاه لأهله، وللاجتهاد فيه مدخل كالقضايا والأحكام، فعقد التقليد محلول، فإن كان النظر تنفيذًا للحكم بين متراضيين، وتوسطًا بين مجبورين جاز، وإن كان إلزام إجبار لم يجز[٣].

ومن مقومات الحكم والسياسة التي يمكن أن نستخلصها من قصة نبي الله يوسف عليه السلام ما يلي:

أولًا: طلبه للإمارة حين وجد نفسه كفئًا لها، ولم يكن في عصره من هو مثله. وذلك أن الملك لما تبينت له براءة يوسف مما نسب إليه، وتحقق في القصة أمانته، وفهم أيضًا صبره وجلده، عظمت منزلته عنده وتيقن حسن خلاله، فقال: ﴿ائْتُونِي

(١) انظر: الجواهر الحسان ٢/ ٢٤٣.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٩/ ١٤١.
(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٥٠.

بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾[1] [يوسف: ٥٤]، فقال يوسف عليه السلام: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

أي: أمين أحفظ ما تستحفظنيه، عالم بوجوه التصرف، وصفا لنفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبة الملوك ممن يولونه، وإنما قال ذلك؛ ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى، وإقامة الحق وبسط العدل، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد، ولعلمه أن أحدًا غيره لا يقوم مقامه في ذلك، فطلب التولية ابتغاء وجه الله ، لا لحب الملك والدنيا[2].

ثانيًا: أدار شؤون البلاد في المراحل الحرجة، وذلك بالادخار من الرخاء للشدة والعسر لليسر.

قال تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٧- ٤٩].

وذلك أن أرض مصر لا يبقى فيها الطعام عامين، فعلمهم حيلة يبقى بها من السنين المخصبة إلى السنين المجدبة، وهي أن يتركوه في سنبله غير مدروس، فإن الحبة إذا بقيت في غشائها انحفظت ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي: لا تدرسوا منه إلا ما يحتاج إلى الأكل خاصة[3].

وفي هذا دليل على أنه ينبغي للحاكم مراعاة الحالة الاقتصادية للناس والبلاد، والادخار في أيام الرخاء لأيام الشدة.

ثالثًا: تعامله في قضية الصواع بحكمة وذكاء في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٢].

إلى قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

وصواع الملك: إناء كان يشرب به ويكال به، ويقال له: الصاع، ويذكر ويؤنث[4].

وتعد هذه الآية أصل في الجعالة، وذلك أن يوسف عليه السلام أمر عماله أن يخبئوا الصاع في متاع أخيه، وفي ذلك أيضًا دليل على جواز الحيل المشروعة.

رابعًا: عفوه وصفحه في قضيته مع إخوته مع قدرته ومكانته، وتعامله معهم بالحكمة

(١) انظر: المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٤.
(٢) انظر: الكشاف ٢/ ٤٥٥.
(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٧٣٧.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٩٠.

واللين والكياسة. قال تعالى: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

رابعًا: ذو القرنين:

وهو رجل آتاه الله من القوة والملك ما جعله يجوب أقطار الأرض ويصل إلى مواقع غريبة، وقد اختلف المفسرون في شخصيته، فذهب بعضهم إلى أنه الإسكندر[١].

وقد بلغ ملكه إلى أقصى المغرب وإلى أقصى المشرق وإلى أقصى الشمال، بدليل أن يأجوج ومأجوج قوم من الترك يسكنون في أقصى الشمال، وهذا الذي بلغه ملك هذا الرجل هو نهاية المعمور من الأرض، ومن بلغ ملكه إلى هذا الحد ليس إلا الإسكندر، فوجب القطع أن المراد بذي القرنين هو الإسكندر بن فيلفوس اليوناني المقدوني[٢].

ولم يتجاوز القرآن ذكر هذا الرجل بأكثر من لقبه المشتهر به، إلى تعيين اسمه وبلاده وقومه ؛ لأن ذلك من شؤون أهل التاريخ والقصص، وليس من أغراض القرآن، فكان منه الاقتصار على ما يفيد الأمة من هذه القصة عبرة حكمية أو خلقية[٣].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ١٠٥، مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ١٣٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣١.
(٢) انظر: المصادر السابقة.
(٣) انظر: التحرير والتنوير ١٥/ ١٢١.

قال الله تعالى عن ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤].

وقد آتاه الله من كل شيء يحتاج إليه في الوصول إلى أغراضه ﴿سَبَبًا﴾ أي: طريقًا موصلًا إليه، والسبب ما يتوصل به إلى المقصود، من علم أو قدرة أو آلة، فأراد بلوغ المغرب ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٥].

يوصله إليه حتى بلغ، وكذلك أراد المشرق ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ وأراد بلوغ السدين ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ وأصل السبب الحبل، ثم توسع فيه حتى صار يطلق على ما يتوصل به إلى المقصود[٤].

وسياسة ذي القرنين تتمثل لنا من خلال قصته في سورة الكهف في الآتي:

أولًا: كان مثالًا للحاكم المجتهد والقائم بالعمل بنفسه لما يتطلبه الأمر، في الانتقال من موضع لآخر، بحثًا عن إسعاد الآخرين، وتتبعًا لأحوال الناس، واستثمارًا للقوة التي منحه الله تعالى إياها. وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ [الكهف: ٨٥-٨٦].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ [الكهف: ٨٩-٩٠].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ [الكهف: ٩٢-٩٣].

(٤) انظر: البحر المحيط ٦/ ١٥١.

ثانيًا: حرص على إنصاف المظلوم من الظالم، ومنع الفساد في الأرض، وذلك ببناء السد ليحجز يأجوج ومأجوج عن الناس، ولا يجعل لهم طريقًا إليهم.

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤].

ثالثًا: أراد من قومه أن يكونوا متعاونين معه، وأشركهم في العمل واستعان بهم، فلم يجعلهم شعبًا متواكلًا يعتمد على قوة غيره، وذلك في قوله: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥].

رابعًا: اعترافه بنعمة الله عليه، وثناؤه عليه، بقوله: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٩٥].

خامسًا: أنه بين معالم سياسته بوضوح في هؤلاء القوم ، وذلك في قوله: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦].

فكان الرد ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٨٧].

فالله تعالى مَكَّنَه منهم وحَكَّمَه فيهم، وأظفره بهم، وخَيَّرَه: إن شاء قتل وسبى، وإن شاء مَنَّ أو فدى، فعرف عدله وإيمانه في قوله: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي: من استمر على كفره وشركه بربه ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ قيل: بالقتل، وقيل: غير ذلك. وقوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: شديدًا بليغًا وجيعًا أليمًا. وفيه إثبات المعاد والجزاء.

وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ أي: تابعنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: في الدار الآخرة عند الله عز وجل، ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ قال مجاهد: معروفًا[1].

فبين معالم سياسته في حكمهم أن من يستحق العقوبة يعاقب عقابًا دنيويًا، ولا يغنيه ذلك عن عقاب الآخرة.

خامسًا: ملكة سبأ:

ويظهر السياق القرآني أبرز ملامح السياسة عند ملكة سبأ في ما يلي:

- حكمة بلقيس في التعامل مع كتاب نبي الله سليمان.
- مشورتها مع كبار رجال مملكتها ورفض منطق القوة الغير متكافئة. قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢]
- محاولتها رشوة نبي الله سليمان عليه السلام بالهدايا، ورفضه لذلك. قال تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٩٣.

﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٥-٣٦]. حيث علمت أنه لا طاقة لها بمواجهة سليمان عليه السلام وعداوته وقتاله، كما علمت أن الهدايا تقع موقعًا بالغًا في قلوب الناس، فأرسلت إليه بهدايا من نفائس الأموال، من أجل أن يكف عنهم، وانتظرت رأيه في ذلك، فردها سليمان عليه السلام وقال: ما آتاني الله من الملك والحكم والنبوة والمال خيرٌ مما آتاكم، ولم يقبلها هداياها.

- رضوخها لدعوة نبي الله سليمان عليه السلام ودخولها في دينه. قال تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]. وقال سبحانه من قول الهدهد عن ملكة سبأ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣].

وسبأ: هم حمير، وهم ملوك اليمن[(١)].

واسم ملكة سبأ: بلقيس بنت الشيرح، وقيل: شراحيل بن ذي حدن بن اليشرح بن الحرث بن قيس بن صفى بن سبأ بن يشخب بن يعرب بن قحطان. وكان أبو بلقيس الذي يسمى الشيرح، ويلقب بالهدهاد، ملكًا عظيم الشأن، وكان يملك أرض اليمن كلها[(٢)].

﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ من متاع الدنيا ما يحتاج إليه الملك المتمكن، ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أي: سرير تجلس عليه، عظيم هائل مزخرف بالذهب، وأنواع الجواهر واللآلئ[(٣)].

وكان لها قصر عظيم، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة، وتغرب من مقابلتها، فيسجدون لها صباحًا ومساءً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤].

ويمكننا استنباط معالم السياسة الرشيدة في النماذج القرآنية من خلال ما سبق فيما يلي:

١. اتصاف الملك بالقوة والعدل والحكمة.
٢. الحذر من مراعاة حظوظ النفس في سياسة الأمة.
٣. إن العلم والحكمة مطلبان مهمان، بهما يكون قوام الملك والسداد في السياسة ورعاية الأمة.
٤. كان في قصة نبي الله داود وسليمان عليهما السلام تنبيه على أصل الاجتهاد، وعلى فقه القضاء، وهي كذلك أصل في اختلاف الاجتهاد، والعمل بالراجح،

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٢٠١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٨٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٦/ ١٨٦-١٨٧.

وفي مراتب الاجتهاد، وعذر المجتهد إذا أخطأ الاجتهاد.

٥. عدم الاغترار بالملك والسلطان ، وذلك في قول الهدهد لسليمان عليه السلام: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢]. فهو تنبيه لسليمان بأن في مخلوقات الله تعالى ممالك وملوكًا تداني ملكه أو تفوقه في بعض أحوال الملك.

٦. إن معرفة أحوال الممالك والأمم من أهم ما يعنى به ملوك الصلاح، ليكونوا على استعداد بما يفاجئهم من تلقائها.

٧. ومن مقومات السياسة الرشيدة: التثبت في قبول الأخبار، فيجب على الإمام أن يقبل عذر رعيته، ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم.

٨. إرسال الكتب والرسل إلى غير المسلمين وتبيلغهم الدعوة، ودعائهم إلى الإسلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿اذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٢٨]. وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر وغيرهم.

٩. جواز طلب الإمارة لمن وجد نفسه كفئًا لها، ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى، وإقامة الحق وبسط العدل، ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا.

١٠. ينبغي للحاكم مراعاة الحالة الاقتصادية للناس والبلاد، والادخار في أيام الرخاء لأيام الشدة.

١١. جواز الحيل المشروعة للتوصل إلى الحق.

١٢. العفو والصفح مع القدرة والسلطان.

١٣. اجتهاد الحاكم في تتبع أحوال الناس، والقيام بما يحتاجونه ويطلبونه، ودفع الظلم عنهم.

١٤. الاعتراف بنعمة الله تعالى والثناء عليه، وأن الملك والتمكين بيد الله تعالى.

١٥. مشاورة أهل الحل والعقد فيما يتعلق بأمور الأمة ومصالح العباد.

١٦. إن الرشاوى سبب في فساد الدين والحكم والممالك.

العلاقة السياسية بين الدول

العلاقة السياسية بين الدول لها أهمية كبيرة في الإسلام، حيث أولاها عناية واضحة من خلال نصوص الكتاب والسنة، وقد اهتم الرسول صلى الله عليه وسلم بها في حياته، وسار على نهجه الخلفاء الراشدون من بعده.

وأشير هنا إلى هذه العلاقة على النحو الآتي:

أولًا: الدول الإسلامية:

بالنظر إلى العلاقة السياسية بين الدول الإسلامية نجد أنها تتمثل في بعض آيات الكتاب العزيز، منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ﴾ [التوبة: ٧١].

هذه الموالاة: هي المؤازرة، والمعاونة، واتصال الأيدي[١].

والولاء والتوالي: أن يحصل شيئان فصاعدًا حصولًا ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد، والولاية النصرة، والولاية تولي الأمر[٢].

ومقتضى هذه الولاية بين الدول الإسلامية، التعاون والتناصر على جميع المستويات، وفي شتى المجالات، سواء كان تعاونًا اقتصاديًا أو علميًا أو طبيًا أو غير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].

كما أن من مقتضى الولاية بين الدول الإسلامية، التناصر فيما بينهم، والتعاون العسكري والدفاعي عن بلدان المسلمين، فالمسلمون كالجسد الواحد، والجهاد إنما يجب -إذا داهم العدو المسلمين- على أهل تلك البلدة، فإن عجزوا فمن حولهم، وهكذا قال ابن قدامة: (ومن حضر الصف من أهل فرض الجهاد، أو حضر العدو بلده، تعين عليه)[٣].

فالجهاد فرض عين في موضعين:

أحدهما: إذا التقى الزحفان وهو حاضر.

والثاني: إذا نزل الكفار بلد المسلمين، تعين على أهله النفير إليهم.

هذا في أهل الناحية ومن بقربهم، أما البعيد على مسافة القصر، فلا يجب عليه،

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٦٣٦، الجواهر الحسان، الثعالبي ٢/ ١١٢.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٣٣.

(٣) المقنع ص ٨٦.

إلا إذا لم يكن دونهم كفاية من المسلمين. فمفهوم قوله: (أو حضر العدو بلده) أنه لا يلزم البعيد. وهو صحيح، إلا أن تدعو حاجة لحضوره، كعدم كفاية الحاضرين للعدو، فيتعين أيضًا على البعيد[1].

وفي روضة الطالبين: الجهاد الذي هو فرض عين، إذا وطىء الكفار بلدة للمسلمين، أو أطلوا عليها ونزلوا بابها قاصدين ولم يدخلوا، صار الجهاد فرض عين، وعن ابن أبي هريرة وغيره أنه يبقى فرض كفاية، والصحيح الأول، فيتعين على أهل تلك البلدة الدفع بما أمكنهم[2].

وبهذا يتبين لنا أن علاقة المسلمين بعضهم ببعض تقوم على الولاء والنصرة والمعاونة، ومن صور التعاون المعاصرة التي حرصت عليها الدول الإسلامية: الدفاع المشترك، والتعاون السياسي والحربي، ونحو ذلك.

ثانيًا: الدول غير الإسلامية:

يمكن استنباط جوانب العلاقة السياسية بين الدول غير الإسلامية من خلال الآيات الآتية:

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم أسس المعاهدات والمواثيق للدولة الإسلامية في علاقاتها سواء مع الدول الإسلامية الأخرى أو الدول غير الإسلامية، والمسلمون عاهدوا الله في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم عدة عهود:

أولها: عهد الإسلام.

ومنها: عهد المسلمين عندما يلاقون الرسول صلى الله عليه وسلم وهو البيعة، أن لا يشركوا بالله شيئًا، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصونه في معروف، وهو عين العهد الذي ذكره القرآن في سورة الممتحنة عند ذكر بيعة النساء المؤمنات، كما ورد في الصحيح أنه كان يبايع المؤمنين على مثل ذلك.

ومنها: بيعة الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم في موسم الحج سنة ثلاث عشرة من البعثة قبل الهجرة، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلًا التقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الموسم في العقبة، ومعهم العباس بن عبد المطلب، فبايعوا على أن يمنعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يمنعون نساءهم وأبناءهم، وعلى أنهم يأوونه إذا هاجر إليهم.

وقد تقدم هذه البيعة بيعتان:

(١) انظر: الإنصاف، المرداوي ١٠/ ١٥.
(٢) انظر: روضة الطالبين، النووي ١٠/ ٢١٤.

إحداهما: سنة إحدى عشرة من البعثة، بايعه نفر من الخزرج في موسم الحج.

والثانية: سنة اثنتي عشرة من البعثة، بايع اثنا عشر رجلًا من الخزرج في موسم الحج بالعقبة ليبلغوا الإسلام إلى قومهم.

ومن المواثيق: ميثاق بيعة الرضوان في الحديبية تحت الشجرة سنة ست من الهجرة، وفي كل ذلك واثقوا على السمع والطاعة في المنشط والمكره[1].

وقال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨-٩].

فيه دليل على جواز التصدق على أهل الذمة دون أهل الحرب، ووجوب النفقة للأب الكافر الذمي، وأما الحربي فيجب قتله[2].

وفيه نص صريح على عدم النهي المذكور في خصوص من لم يعادوهم في الدين[3].

وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

فقال الربيع بن أنس: أول آية نزلت في الإذن بالقتال في المدينة، وقال آخرون: نزلت هذه الآية في صلح الحديبية، فإنه صلى الله عليه وسلم لما انصرف من صلح الحديبية إلى المدينة، حين صده المشركون عن البيت، صالحهم على أن يرجع عامه القابل، ويخلو له مكة ثلاثة أيام، فلما كان في العام القابل، تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لعمرة القضاء، وخافوا أن لا تفي لهم قريش، وأن يصدوهم عن البيت ويقاتلونهم، وكره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قتالهم في الشهر الحرام في الحرم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ يعني: قريشًا الذين صالحوهم، ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ فنبذوا في الحرم بالقتال[4].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧].

جيء في نهيهم عن البطر والرئاء بطريقة النهي عن التشبه بالمشركين، إدماجًا للتشنيع بالمشركين وأحوالهم، وتكريهًا للمسلمين تلك الأحوال؛ لأن الأحوال الذميمة تتضح مذمتها، وتنكشف مزيد الانكشاف إذا كانت من أحوال قوم مذمومين عند آخرين، وذلك أبلغ في النهي، وأكشف لقبح المنهي عنه. فنهوا عن أن يشبهوا حال المشركين في

(١) انظر: التحرير والتنوير ٥/ ٥٤.
(٢) انظر: أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٢/ ٤٠٩.
(٣) انظر: أضواء البيان ٨/ ٨١.
(٤) انظر: أحكام القرآن، الكيا الهراسي ١/ ٨٠.

خروجهم لبدر إذ خرجوا بطرًا ورئاء الناس، لأن حق كل مسلم أن يريد بكل قول وعمل وجه الله، والجهاد من أعظم الأعمال الدينية[1].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٥٦].

والمعاهدة في هذه الآية المسالمة وترك الحرب، وأجمع المتأولون أن الآية نزلت في بني قريظة، وهي بعد تعم كل من اتصف بهذه الصفة إلى يوم القيامة[2]. والقاعدة: أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

أباح الله لرسوله صلى الله عليه وسلم إذا توقع من أعدائه غائلة من مكر، أن ينبذ إليهم على سواء، حتى لا يقول المبطل: إنك نقضت العهد بنصب الحرب، ولم ينبذ إلى أهل مكة عهودهم، بل غزاهم نبذًا، لأنهم كانوا نقضوا العهد، لمعاونة هذيل على خزاعة حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم، ولذلك جاء أبو سفيان إلى المدينة يسأل تجديد العهد بينه وبين قريش، فلم يجبه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ذلك، فلأجل ذلك لم يحتج إلى النبذ إليهم، إذ كانوا أظهروا نقض العهد بنصب الحرب لحلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم[3].

قال ابن كثير: أذن الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ قد عاهدتهم ﴿خِيَانَةً﴾ أي: نقضًا لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود، ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: عهدهم، ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم، حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي: تستوي أنت وهم في ذلك[4].

وقال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

أمر الله المسلمين بأن لا يأنفوا من السلم، وأن يوافقوا من سأله منهم. والجنوح: الميل، وهو مشتق من جناح الطائر: لأن الطائر إذا أراد النزول مال بأحد جناحيه، وهو جناح جانبه الذي ينزل منه[5].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

قال ابن عباس: إن المشركين أخذوا في نقض عهودهم التي بينهم وبينه صلى الله عليه وسلم، فأمر الله تعالى نبيه فيمن كان عهده أربعة أشهر، أن يقره إلى مضي

(١) انظر: التحرير والتنوير ٩/ ١٢٥.
(٢) انظر: المحرر الوجيز ٢/ ٦٢١.
(٣) انظر: أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٢/ ١٦٢.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٧٩.
(٥) انظر: التحرير والتنوير ٩/ ١٤٧.

هذه المدة، وذلك من يوم النحر إلى عشر من شهر ربيع الآخر، ومن كان له من العهد أكثر، أمر أن يحط إلى ذلك، ومن كان أقل، أمر أن يرجع به إلى هذا القدر، ومن لم يكن له عهد، أمر أن يجعل له خمسين ليلة من يوم النحر إلى انسلاخ المحرم، إلا حي من بني كنانة، كان قد بقي من عهدهم تسعة أشهر، فأمر الله تعالى أن يتم عهدهم إلى مدتهم، وهو معنى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

لما كان طلب السلم والهدنة من العدو قد يكون خديعة حربية، ليغروا المسلمين بالمصالحة، ثم يأخذوهم على غرة، أيقظ الله رسوله لهذا الاحتمال، فأمره بأن يأخذ الأعداء على ظاهر حالهم، ويحملهم على الصدق، لأنه الخلق الإسلامي، وشأن أهل المروءة، ولا تكون الخديعة بمثل نكث العهد. فإذا بعث العدو كفرهم على ارتكاب مثل هذا التسفل، فإن الله تكفل للوفي بعهده، أن يقيه شر خيانة الخائنين. وهذا الأصل، وهو أخذ الناس بظواهرهم، شعبة من شعب دين الإسلام، قال تعالى: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ومن أحكام الجهاد عن المسلمين أن لا يخفر للعدو بعهد[2].

وفي الكلام تنويه بمعالي أخلاق المسلمين، وغض من أخلاق أهل الشرك، وأن سبب ذلك الغض الإشراك الذي يفسد الأخلاق، ولذلك قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦] جعلوا قوما لا يعلمون دون أن يقال بأنهم لا يعلمون: للإشارة إلى أن نفي العلم مطرد فيهم، فيشير إلى أن سبب اطراده فيهم، هو نشأته عن الفكرة الجامعة لأشتاتهم، وهي عقيدة الإشراك.

والعلم في كلام العرب، بمعنى: العقل وأصالة الرأي، وأن عقيدة الشرك مضادة لذلك، أي: كيف يعبد ذو الرأي حجرًا صنعه وهو يعلم أنه لا يغني عنه[3].

وقال سبحانه: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

والأسير في دار الإسلام لا يكون إلا مشركًا[4].

فإذا كان الإحسان إلى العدو الحربي الأسير حث عليه القرآن، وشرعه الإسلام، فإن غير الحربي من باب أولى وأحرى.

موضوعات ذات صلة:

الاقتصاد، التمكين، الجهاد، الحضارة، الحرية، الخلافة، الشورى، العدل

(١) انظر: أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٢/ ١٧٢.
(٢) انظر: التحرير والتنوير ٩/ ١٥٠.
(٣) انظر: التحرير والتنوير ١٠/ ٢٧.
(٤) انظر: أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٢/ ٤٢٨.



عناصر الموضوع

مفهوم السير

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (س ي ر) تدل على مضي وجريان[1].

سير: السين والياء والراء أصلٌ يدل على مضي وجريانٍ، يقال سار يسير سيرًا ومسيرًا وتسيارًا ومسيرةً وسيرورةً، وذلك يكون ليلًا ونهارًا، أما السرى فلا يكون إلا ليلًا. والسير الذهاب، وسار القوم يسيرون سيرًا، إذا امتد بهم السير في وجهةٍ توجهوا إليها. والسيرة: الضرب من السير، والسَيرة بالفتح: الكثير السير، والسِيرة بالكسر: السنة والطريقة[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف معناه الاصطلاحي عن معناه اللغوي، لذلك عرفه المناوي بقوله: «السير: المضي في الأرض»[3].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٥٨٠.
(٢) انظر: الصحاح، الجوهري، ص ٥٢٧، لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٣٨٩- ٣٩٠، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ٤١٢، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ص ٤٩٧.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص ٤٢٠.



السير في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سير) في القرآن الكريم (٢٧) مرة، يخص موضوع البحث منها (٢٦) موضعًا[(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤	﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾[القصص:٢٩]
الفعل المضارع	١٠	﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج:٤٦]
الفعل الأمر	٧	﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت:٢٠]
المصدر	٢	﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾[سبأ:١٨]
صيغة المبالغة	٣	﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾[يوسف:١٩]

وجاء السير في الاستعمال القرآني على وجهين[(٢)]:

الأول: المضي في الأرض، ويشمل السفر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾[القصص: ٢٩] أي: مضى بهم وسافر من مدين إلى مصر.

الثاني: المقيت والمبيت ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾[سبأ: ١٨] أي: المقيت والمبيت، بمعنى: أنهم كانوا يقيلون ويبيتون ولا يخافون.

---

(١) ١ انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٣٧٤، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب السين ص٦٥٥-٦٥٦.

(٢) ٢ انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٢٧٨-٢٧٩، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٢/ ٢٤٤-٢٤٥.

الألفاظ ذات الصلة بالسير

١ السعي:

السعي لغة:

وهو لفظ مشترك، يقال: سعى يسعى سعيًا: قصد ومشى وعدا ونم (من النميمة) وكسب[١].

السعي اصطلاحًا:

السعي: «عدوٌ دون الشد، سعى إذا عدا، وسعى إذا مشى»[٢].

الصلة بين السعي والسير:

كلاهما يدلان على المشي والحركة، إلا أن السعي في سرعة وقصد، والسير أوسع من ذلك.

٢ المشي:

المشي لغة:

أصل مادة (م ش ي) تدل على الحركة والنماء والزيادة[٣]، وجاء في اللسان: «المشي: معروف، مشى يمشي مشيًا، والاسم المشية»[٤].

المشي اصطلاحًا:

لا يختلف عن معناه اللغوي، لذا عرفه الراغب بقوله: «المشي: الانتقال من مكان إلى مكان بإرادة»[٥].

السعي لغة:

المشي والسير مترادفان.

٣ الضرب:

الضرب لغة:

قال ابن فارس: «الضاد والراء والباء أصل واحد، ثم يستعار ويحمل عليه. من ذلك

---

(١) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ١٢٩٥.
(٢) لسان العرب، ابن منظور، ١٤/ ٣٨٥.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس،٢/ ٥١١.
(٤) لسان العرب، ابن منظور، ١٥/ ٢٨١.
(٥) المفردات، الراغب، ص ٤٨٩.



ضربت ضربًا، إذا أوقعت بغيرك ضربًا، ويستعار منه ويشبه به الضرب في الأرض تجارة وغيرها من السفر، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١]. ويقولون: إن الإسراع إلى السير ضربٌ»[١].

الضرب اصطلاحًا:

لا يختلف عن معناه اللغوي. قال الراغب: «الضرب في الأرض الذهاب فيها، هو ضربها بالأرجل»[٢].

الصلة بين الضرب والسير:

من معاني الضرب: السير، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٩٤] يعني: إذا سرتم. وقوله في المزمل: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المزمل: ٢٠]. أي: يسيرون في الأرض[٣]. فالضرب في الأرض مرادفٌ للسير فيها.

٤ السياحة:

السياحة لغة:

تدل مادة (س ي ح) على معنى الذهاب في الأرض، جاء في القاموس المحيط: «ساح الماء يسيح سيحًا وسيحانًا: جرى على وجه الأرض، والسيح: الماء الجاري الظاهر، والسياحة بالكسر والسيوح والسيحان والسيح: الذهاب في الأرض»[٤].

السياحة اصطلاحًا:

لا يختلف معناها الاصطلاحي عن معناها اللغوي الدال على الذهاب في الأرض، والسير فيها.

الصلة بين السياحة والسير:

السياحة والسير مترادفان، وقد عبر القرآن الكريم عن الذهاب في الأرض بلفظ (السياحة) وبلفظ (السير)، فقال تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٦٦.
(٢) المفردات، ص ٣٠٣.
(٣) انظر: الوجوه والنظائر في القرآن العظيم، مقاتل بن سليمان، ص ٢٢٢.
(٤) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ٢٢٥.

مجالات السير

باستقراء الآيات الكريمة المتضمنة للسير في الأرض، نجد على أن آيات القرآن ركزت على مجالين حثت فيهما على السير في الأرض:

الأول: يشمل الجانب المادي من هذا الكون، وهو -بلا شك- الأوسع نطاقًا، ويعرف بالسنن الكونية؛ وتعني: نواميس الله سبحانه وتعالى في تسيير هذا الكون وعمارته.

الثاني: خاص بالإنسان؛ وهي السنن أو القواعد الاجتماعية التي تحكم الإنسان في علاقته بهذا الكون وخالقه، وتسمى السنن الاجتماعية.

وسيتم الحديث عنهما في النقاط الآتية:

أولًا: السنن الكونية:

وقد وردت الدعوة إلى السير في الأرض والنظر في السنن الكونية صريحة في موضع واحد، في قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝١٩ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾ [العنكبوت: ١٩-٢٠].

فالآيتان جاءتا اعتراضا في سياق قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه[١]؛ لتخاطب مشركي قريش وكل منكر لليوم الآخر مع وضوح دليله وسنوح سبيله، وفيهما دعوة إلى تأمل سنة الله في بدء الخلق ثم إعادته، وهو أمر مشهود مكرور يتجلى في «كيف يبدئ الله الثمار فتحيًا، ثم تفنى، ثم يعيدها أبدا، وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولدا، وخلق من الولد ولدا، وكذلك سائر الحيوان، أي: فإذا رأيتم قدرته على الإبداء والإيجاد فهو القادر على الإعادة»[٢].

وقد بدأ الخطاب بالاستفهام الإنكاري عن عدم الرؤية؛ «والرؤية يجوز أن تكون بصرية، والاستدلال بما هو مشاهد من تجدد المخلوقات في كل حين بالولادة، وبروز النبات دليل واضح لكل ذي بصر، ويجوز أن تكون الرؤية علمية متعدية إلى مفعولين: أنكر عليهم تركهم النظر والاستدلال الموصل إلى علم كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده؛ لأن أدلة بدء الخلق تفضي بالناظر إلى العلم بأن الله يعيد الخلق»[٣].

«وجيء ﴿يُبْدِئُ﴾ بصيغة المضارع لإفادة تجدد بدء الخلق كلما وجه الناظر بصره في

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٤/ ٥٤٢، المحرر الوجيز، ابن عطية، ٦/ ٦٣٤.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦/ ٣٥١.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٠/ ٢٢٨-٢٢٩.

المخلوقات، والجملة انتهت بقوله: ﴿يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾، وأما جملة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فهي مستأنفة ابتدائية، فليست معمولة لفعل ﴿يَرَوْا﴾؛ لأن إعادة الخلق بعد انعدامه ليست مرئية لهم ولا هم يظنونها ،فتعين أن تكون جملة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ مستقلة معترضة بين جملة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وجملة ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾. و(ثم) للتراخي الرتبي؛ لأن أمر إعادة الخلق أهم وأرفع من بدئه ؛ لأنه غير مشاهد ، ولأنهم ينكرونه ولا ينكرون بدء الخلق»[1].

فالآية الأولى إشارة إلى العلم الحدسي الذي يتم من غير طلب، والاستفهام بـ(كيف) مستعمل في التنبيه ولفت النظر لا في طلب الإخبار، فمظاهر بدء الخلق وإعادته بادية في مشاهد الكون، لا تحتاج إلى تفكير عميق لاكتشافها، ولكن الألفة والعادة تبلد الحس وتصرف العقل عن التأمل، وإذ لم يحصل لهم ذلك العلم الحدسي، فقد دعوا إلى العلم الفكري في الآية الثانية بقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾، بمعنى «إن لم يحصل لكم هذا العلم فتفكروا في أقطار الأرض لتعلموا بالعلم الفكري ، فسيروا في الأرض، أي : سيروا فكركم في الأرض وأجيلوا ذهنكم في الحوادث الخارجة عن أنفسكم لتعلموا بدء الخلق»[2].

وفي الآية انتقال من الإنكار على جاحدي البعث من الاستدلال بما هو بمرأى منهم وفي أنفسهم، إلى الاستدلال بالنظر في كيفية بدء الخلق، «على كثرتهم وتفاوت هيآتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم، ومساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم»[3].

وهذا الاستدلال لا يتم إلا بالسير في الأرض الذي «يفتح العين والقلب على المشاهد الجديدة التي لم تألفها العين ولم يملها القلب ، وإن الإنسان ليعيش في المكان الذي ألفه فلا يكاد يتنبه إلى شيء من مشاهده أو عجائبه؛ حتى إذا سافر وتنقل وساح استيقظ حسه وقلبه إلى كل مظهر في الأرض الجديدة، مما كان يمر على مثله أو أروع منه في موطنه دون التفات أو انتباه. وربما عاد إلى موطنه بحس جديد وروح جديد ليبحث ويتأمل ويعجب بما لم يهتم به قبل سفره وغيبته. وعادت مشاهد موطنه وعجائبها تنطق له بعد ما كان غافلا عن حديثها؛ أو كانت لا تفصح له بشيء ولا تناجيه»[4].

تلك حكمة الأمر بالسير في الأرض،

(١) المصدر السابق ٢٠/ ٢٢٨.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٥/ ٤٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦/ ٣٥٢.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٧٣٠.

وذلك أثرها في الكشف عن سنة الله في بدء الخلق؛ فالسير في الأرض وسيلة جامعة لمختلف الدلائل ينسجم فيها الحس والعقل، وتتناغم فيها المشاهدة والتأمل، وبها يزول تبلد الحس، فيدرك المتأمل ألا خالق إلا الله سبحانه وتعالى، ولا مبتدئا بالخلق سواه، وأن البعث حق ووقوعه لا ريب فيه.

هذا بعض ما ورد في تفسير هاتين الآيتين الكريمتين، ولنا وقفة أخرى نستجلي من خلالها ما تضمنتا من دلائل التفكر في الخلق كمقصد من مقاصد السير في المبحث القادم.

ثانيًا: السنن الاجتماعية:

هذا المجال هو الأوفر حظًا في حديث القرآن الكريم عن السير في الأرض ؛ إذ ورد في اثنتي عشرة آية، ولا عجب فإن صيغة: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ في القرآن الكريم تأتي في سياق السنن الاجتماعية واقترنت بذكر الأمم السابقة، دون السنن الكونية، وهذا ما أشار إليه ابن تيمية بعد استعراضه للآيات التي ورد فيها لفظ «سنة» بقوله: «وهذه السنن كلها سنن تتعلق بدينه وأمره ونهيه ووعده ووعيده، وليست هي السنن المتعلقة بالأمور الطبيعية ، كسنته في الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من العادات»[1].

والسنن الاجتماعية مجالها الكتاب المنزل وما تضمن من أحكام وتشريعات وآيات ونذر، وخاصة تلك الخلاصة المركزة من القصص القرآني الذي يمثل أخبار الأمم السالفة وكيف كانت عاقبتها، ثم ما طلب من هذه الأمة أن تتعلمه من سير الذين خلوا من قبل ، فتتجنب الأخطاء التي وقعوا فيها. أما منهج التعرف على السنن الاجتماعية فهو المنهج الاستقرائي المبني على النظر والتأمل، وقد أشارت إليه آيات كثيرة في القرآن الكريم ، بلغت اثنتي عشرة آية[2].

وهو منهج مبني على السير في الأرض والنظر (بمعنى الاعتبار) كيف كانت عاقبة الذين خلوا من قبل، وقد جاءت هذه الدعوة بصيغة الاستفهام التوبيخي والتعجيبي في سبعة مواضع، أربعة منها بعبارة: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وثلاثة بعبارة: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وبصيغة الأمر: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في بقية الآيات.

وقد تضمنت تلك الآيات الكريمة دعوة صريحة إلى السير في الأرض، سواء أكان السير على حقيقته لما فيه من العون على

(١) جامع الرسائل، رسالة: لفظ السنة في القرآن، المجموعة الأولى، ابن تيمية، ص ٥٢.

(٢) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، فؤاد عبد الباقي، مادة نظر، ص ٨٧٧.

الوقوف على آثار المتقدمين ومعاينتها، كما ذهب إلى ذلك رشيد رضا بقوله: «والسير في الأرض والبحث عن أحوال الماضين وتعرف ما حل بهم هو الذي يوصل إلى معرفة تلك السنن والاعتبار بها كما ينبغي»[1]، أو كان عن طريق مطالعة كتب التاريخ أو الاستماع إلى أخبار الذين خلوا من قبل.

كما أشار إلى ذلك ابن عاشور حين قال: «في الآية دلالة على أهمية علم التاريخ، لأن فيه فائدة السير في الأرض، وهي معرفة أخبار الأوائل، وأسباب صلاح الأمم وفسادها»[2].

ثم نقل عن ابن عرفة قوله: «السير في الأرض حسي ومعنوي، والمعنوي هو النظر في كتب التاريخ بحيث يحصل للناظر العلم بأحوال الأمم، وما يقرب من العلم، وقد يحصل به من العلم ما لا يحصل بالسير في الأرض لعجز الإنسان وقصوره»[3].

وقد حددت آيات السير نطاق النظر في السنن الاجتماعية وهو الأرض، والسبب أنها مسرح الحياة البشرية عليها عاشوا وعليها بنوا وشيدوا، وعليها تركوا آثارهم، فهي مستودع السنن الاجتماعية، وبالسير فيها والنظر إلى آثار الذين خلوا من قبل تحصل العبرة وتتقى أسباب مصارعهم.

ولما كان القصد من السير في الأرض هو النظر نظرة تأمل واعتبار بمصائر القرى الظالمة، وكيف كان عاقبتها حين عتت عن أمر ربها وكذبت رسله؛ فقد ناسب أن تساق كسنن اجتماعية تاريخية ثابتة ومطردة، لا تحابي أمة من الأمم، ولا يستثنى منها أحد، ولذلك جاء الوعيد شديدا لكل من سلك سبيل المكذبين والمجرمين، فتكررت الدعوة إلى النظر والاعتبار بالعاقبة في كل آيات السير -عدا آيتي العنكبوت والحج كما مر بنا- فجاءت على النحو الآتي: تكررت جملة: ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ في ستة مواضع هي: [يوسف: ١٠٩]، [الروم: ٤٢]، [فاطر: ٤٤]، [غافر: ٢١، ٨٢]، [محمد: ١٠].

وعبارة: ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ في موضعين هما: [آل عمران: ١٣٧]، [النحل: ٣٦].

وجملة: ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩]. مرة واحدة.

وجاءت عبارة: ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الروم: ٤٢]. في موضع واحد.

فالسنة الاجتماعية العامة التي تدعو آيات السير للتبصر بها هي: الاعتبار بالمصير المشؤوم الذي آلت إليه الأمم الغابرة، والمعبر عنه بالعاقبة، وتعني آخر الشيء

(١) المنار، محمد رشيد رضا، ٤/ ١٤٢.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٤/ ٩٧.
(٣) المصدر السابق.

ومآله، فقد كان مآلها التدمير وقطع الدابر حتى تكون آية وعبرة، ولم يبق منها سوى الآثار؛ من بيوت خاوية وبئر معطلة وقصر مشيد، ثم طلب من المخاطبين بتلك الآيات أن يتأملوا ويتفكروا ليعتبروا ويتعظوا بعاقبة أولئك الهالكين، فإن السعيد من اعتبر بغيره، والشقي من جعله الله عبرة لغيره، وتلك سنة الله في أخذ القرى وهي ظالمة، فما أغنت عنهم قوة أبدانهم ولا شدة حصونهم لما جاءهم بأس الله الذي لا يرد عن القوم المجرمين، فأصبحوا أثرا بعد عين.

اقتران السير في الأرض بالنظر:

لا ينتفع الإنسان بالسير في الأرض إلا بالنظر في سنن الله في الآفاق والأنفس، وهذا الارتباط بين السير والنظر يدركه كل من يستقرئ الآيات الكريمة التي ورد فيها لفظ السير، قد ذكر مقترنا بالنظر في كل المواضع بصيغ مختلفة.

فما حقيقة النظر الوارد في آيات السير في القرآن الكريم ؟ وما سر ارتباطه به ؟ هذا ما سيبينه هذا المطلب.

لمعرفة حقيقة النظر يحسن بنا بداية الوقوف على معناه اللغوي، فمادة: (ن ظ ر) أصلٌ صحيح يرجع فروعه إلى معنى واحد، هو تأمل الشيء ومعاينته، يقال: نظر إليه ينظر نظرًا، نظرت إلى كذا ، وكذا من نظر العين ونظر القلب، ويقال: نظرت إلى كذا، إذا مددت نظرك إليه، رأيته أو لم تره، ونظرت إذا رأيته وتدبرته، ونظرت في كذا: تأملته. والنظر حس العين، وتأمل الشيء بالعين، والفكر في شيء تقدره وتقيسه، والنظر تقليب البصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، وقد يراد به التأمل والفحص، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

أي: تأملوا، واستعمال النظر في البصر أكثر استعمالا عند العامة ، وفي البصيرة عند الخاصة[(١)].

فالمعنى اللغوي للفظ النظر يدل على نظر حسي يتم بالعين وهو المشاهدة، ونظر معنوي يتم بالقلب وهو التأمل، ومن أئمة اللغة من جمع بين المعاينة والتأمل، وذلك هو النظر المقصود في آيات السير.

أما المعنى الاصطلاحي للنظر، فقد عرفه الراغب بقوله: « النظر تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، وقد يراد به التأمل والفحص، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص ، وهو الروية»[(٢)].

وبين العسكري مدلول النظر بقوله:

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي، ٤/ ٢٣٧، الصحاح، الجوهري، ٢/ ١١٤٨، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٥٦٧، لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ٢١٥ ، تاج العروس، الزبيدي، ١٤/ ٢٤٥.

(٢) المفردات، الأصفهاني، ص ٥١٨-٥١٩.

«النظر بالعين الإقبال بها حيال المرئي، ونظر القلب الإقبال إلى أحوال ما تطلب معرفته ، والنظر بالقلب نظر العلم من جهة الفكر والتأمل لأحوال الأشياء، ألا ترى أن الناظر على هذا الوجه لا بد أن يكون مفكرا؛ إذ المفكر على هذا الوجه سمي ناظرا، وهو معنى غير الناظر والمنظور إليه ، النظر لا يكون إلا مع فقد العلم، ومعلوم أنه لا يصح النظر في الشيء ليعلم إلا وهو مجهول»[١] .

فما ذكر في القولين كتعريفٍ اصطلاحي للنظر لم يختلف كثيرًا عما ذكره أصحاب المعاجم اللغوية، وبذلك يتفق معنى النظر لغة واصطلاحًا.

أما معنى النظر -المرتبط بالسير- في استعمال القرآن الكريم، فله عدة وجوه، حددها بعضهم في ثلاثة هي: النظر بالعين، والإمهال والتأخير، والرحمة[٢] .

ويهمنا الأول منها، وأوصلها آخرون إلى أربعة أوجه هي ما ذكر آنفا، يضاف إليها معنى: التفكر والاعتبار[٣]، وهي إضافة مهمة جدًا، وسعت من دائرة النظر لتشمل المعنيين الحسي والمعنوي.

فمعنى النظر المرتبط بالسير لم يتغير لغة واصطلاحا وفي استعمال القرآن الكريم، فقد بقي يدور حول معنيين متكاملين هما: الرؤية والمشاهدة بالعين، والتأمل والاعتبار بالقلب.

أما عن سر اقتران السير بالنظر، فإن المتأمل في سياق الآيات الكريمة يستطيع إدراك ذلك بوضوح، فقد جعل الله جل وعلا «النظر سببا عن السير في قوله: ﴿فَانْظُرُوا﴾، فكأنه قيل: سيروا من أجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين»[٤] .

فالدعوة إلى السير ليست مقصودة لذاتها، بل هي مقرونة بهدف هو النظر والتأمل للعظة والاعتبار كما ذكرنا مرارًا، فمن سار في الأرض ومر على آثار الذين خلوا من قبل، ولم يقلب بصره فيها، ويتأمل ببصيرته ما فيها من آيات وعبر، فإنه لم يحقق الهدف من السير، وهذا ما حصل مع المشركين بمكة، إذ كان منهم تجار يجوبون الأرض بقوافلهم خاصة في رحلتي الشتاء والصيف، فكانوا يمرون في أسفارهم إلى الشام على ديار ثمود وقوم لوط، وفي أسفارهم إلى اليمن على ديار عاد، يمرون عليها وهم عن آياتها غافلون، فكانوا كما وصفهم الله عز وجل بقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨].

فقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إشارة إلى أن

(١) الأشباه والنظائر، العسكري، ص ٤٨٠ .
(٢) المصدر السابق، ص ٤٨٠-٤٨١ .
(٣) نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص ٥٨٧، قاموس القرآن، الدامغاني، ص ٤٥٩ .
(٤) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٣٢٧.

القوم رأوا تلك الآثار بأعينهم، وحين لم يروها رؤية اعتبار، عدوا ممن لم يرها ؛ إذ المقصود بالنظر الاعتبار وليس مجرد رؤية الآثار.

وقد أحسن مجاهد التعبير عن هذه الحقيقة حين قال: «لكل إنسان أربع أعين عينان في رأسه لدنياه وعينان في قلبه لآخرته، فإن عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه لم يضره عماه شيئا، ومن أبصرت عينا رأسه، وعميت عينا قلبه لم ينفعه نظره شيئا»[(١)].

فلا بد للنظر المرتبط بالسير أن يستند بداية إلى المشاهدة بحس العين، بشرط أن تكون رؤية تأمل واعتبار، أما الاستناد إلى مجرد سماع الأخبار - والتي لا تكون إلا ممن سار وعاين - أو التأمل العقلي الذي يعتمد على القراءة في كتب التاريخ التي دونها من شاهد الآثار، فكلاهما لا يحقق المعنى الدقيق للنظر، «فالمشاهدة تفيد من لم يقرأ علما وتقوي علم من قرأ التاريخ أو قص عليه»[(٢)].

فلا النظر مع الغفلة يجدي، ولا سماع الأخبار وحده يكفي، ولا التأمل العقلي دون سيرٍ يغني، فإذا سار المرء في الأرض ووقف على الآثار، وتأمل ما كان قد سمع من أخبار، وأصبح ما قرأه في كتب التاريخ حقيقة ماثلة للأبصار، يكون قد أخذ بالوجه الأكمل للاعتبار.

قد يقال: يمكن الاستغناء عن السير والسفر إذا توفرت الوسيلة التي تنقل المشاهد والآثار كأنها ماثلة للعيان، شأن البرامج العلمية التي تستخدم كاميرات متطورة جدا في التصوير، فتنقل مشاهد وصورا أكثر دقة، تصحبها تعليقات دقيقة وهادفة، فهذا قد يحقق الغرض من السير نسبيا، ومع ذلك يبقى للسير أهميته، إذ به يتحقق المقصود أكثر من غيره من الوسائل، وقد أشار ابن عاشور إلى ذلك حين بين الحكمة من أمر الله جل ثناؤه بالسير فقال: «وإنما أمر بالسير في الأرض لأن السير يدني إلى الرائي مشاهدات جمة من مختلف الأرضين بجبالها وأنهارها ومحوياتها ، ويمر به على منازل الأمم حاضرها وبائدها ، فيرى كثيرا من أشياء وأحوال لم يعتد رؤية أمثالها، فإذا شاهد ذلك جال نظر فكره في تكوينها بعد العدم جولانا لم يكن يخطر له ببال حينما كان يشاهد أمثال تلك المخلوقات في ديار قومه، لأنه لما نشأ فيها من زمن الطفولة فما بعده قبل حدوث التفكير في عقله اعتاد أن يمر ببصره عليها دون استنتاج من دلائلها حتى إذا شاهد أمثالها مما كان غائبا عن بصره جالت في نفسه فكرة الاستدلال،

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤/ ٤١٩-٤٢٠.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٤/ ٩٧.

فالسير في الأرض وسيلة جامعة لمختلف الدلائل ، فلذلك كان الأمر به لهذا الغرض من جوامع الحكمة»[1].

تلك هي حقيقة النظر الوارد في آيات السير؛ إذ ليس مجرد رؤية بالبصر، بل هو نظر فكر واستدلال، وذلك هو سر ارتباطه به، إذ يمثل الهدف والمقصود، وإلا كان نظر غفلة وإهمال.

مقاصد السير

ليس السير مجرد مرور أو وقوف على الآثار، ولكن السير المعتبر ما كان ذا قصد، فما مقاصد السير في الأرض كما وردت في كتاب الله تعالى؟

سنتحدث عنها في النقاط الآتية:

أولًا: الاعتبار بمآل المؤمنين ومآل المكذبين:

١ . الاعتبار بمآل المؤمنين.

وقد ورد الاعتبار بمآل المؤمنين في قول الله جل ذكره: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧].

قال الطبري: «يعني بقوله تعالى ذكره: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ﴾: قد مضت وسلفت مني في من كان قبلكم -يا معشر أصحاب محمد وأهل الإيمان به- من نحو قوم عاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وغيرهم من سلاف الأمم قبلكم ﴿سُنَنٌ﴾ يعني: مثلًا وسيرًا سرتها فيهم وفيمن كذبوا به من أنبيائهم الذين أرسلوا إليهم، بإمهالي أهل التكذيب بهم، واستدراجي إياهم، حتى بلغ الكتاب فيهم أجلي الذي أجلته لإدالة أنبيائهم وأهل الإيمان بهم عليهم، ثم أحللت بهم عقوبتي، وأنزلت بساحتهم نقمتي،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٠/ ٢٣٠.

فتركتهم لمن بعدهم أمثالا وعبرا»[1].

فالسنة الربانية الثابتة في قوله جل ذكره: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾، هي ألا يمكن للمكذبين بالله ورسله، ولا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا، نعم قد ينتصرون في جولة من الجولات، كما وقع في غزوة أحد، بسبب تخلي المؤمنين عن شرط من شروط النصر، أو لحكمة أرادها الله تعالى، ولكنه انتصار مؤقت، إذ سرعان ما تدور عليهم الدائرة، وتعود سنة الله إلى اطرادها، من أجل ذلك طلب من المؤمنين السير في الأرض والنظر في مآل المكذبين من الأمم السابقة وكيف دمر الله عليهم، فعفت منهم الديار ولم يبق منها سوى الآثار، وقد بدأت الآية بـ﴿قَدْ﴾ الدالة على تأكيد الخبر، وجيء بالفاء السببية في قوله: ﴿فَسِيرُوا﴾، وقيل: شرطية، بمعنى إن شككتم فسيروا[2].

والتعبير بلفظ ﴿كَيْفَ﴾ للاستفهام الدال على تصوير الحال في صورة تدعو إلى العجب والاستغراب، أي: أن عاقبتهم التي انتهوا إليها من تدمير ديارهم، وتعفية آثارهم بعد أن طغوا وبغوا، تثير العجب، وفي إضمار تلك العاقبة تهويل لمصيرهم المشؤوم، وإظهار لبطش الله الشديد.

فمعنى الآية: «قد مضت من قبلكم أحوال للأمم، جارية على طريقة واحدة، هي عادة الله في الخلق، وهي أن قوة الظالمين وعتوهم على الضعفاء أمر زائل، والعاقبة للمتقين المحقين، ولذلك قال: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾؛ أي: المكذبين برسل ربهم وأريد النظر في آثارهم ليحصل منه تحقق ما بلغ من أخبارهم، أو السؤال عن أسباب هلاكهم، وكيف كانوا أولي قوة، وكيف طغوا على المستضعفين، فاستأصلهم الله أو لتطمئن نفوس المؤمنين بمشاهدة المخبر عنهم مشاهدة عيان، فإن للعيان بديع معنى؛ لأن المؤمنين بلغتهم أخبار المكذبين عاد وثمود وأصحاب الأيكة وأصحاب الرس، وكلهم في بلاد العرب يستطيعون مشاهدة آثارهم، وقد شهدها كثير منهم في أسفارهم»[3].

فالسير في الأرض والوقوف على الديار والآثار، والتأمل في عاقبة المكذبين، يسكب في قلوب المؤمنين برد اليقين بصدق وعد الله تعالى ذكره بنصرهم والتمكين لهم، كما مكن للذين من قبلهم، ويذهب ما ظهر عليهم من انكسار نفسي من جراء نكسة أحد. وقد استغني بذكر عاقبة المكذبين عن ذكر مآل المؤمنين من الأمم السابقة،

(١) جامع البيان، الطبري، ٦/ ٧٠.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/ ٢٦٠، فتح القدير، الشوكاني، ص ٢٤٥.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٤/ ٩٧.

لأن التأمل في حال أحد الفريقين يكفي في معرفة حال الفريق الآخر[1]، فالمؤمنون - بلا شك - قد انتصروا ومكنوا في الأرض.

٢. الاعتبار بمآل المكذبين.

وقد ورد في ذلك آيات كثيرة، منها ما جاء صريحا، ومنها ما جاء تلميحا، فقد ورد الاعتبار بعاقبة المكذبين في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ في ثلاثة مواضع هي: [آل عمران: ١٣٧]، [الأنعام: ١١]، [النحل: ٣٦].

اثنان منهما خطاب للكفار، وواحد خطاب للمؤمنين في آية آل عمران كما أسلفنا، «ولكن العمل بموجبه عام»، كما قال أبو السعود[2].

أما ما جاء تلميحًا، فقد ورد بصيغتين متقاربتين:

الأولى: ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وقد وردت هذه الصيغة في: [يوسف: ١٠٩]، [الروم: ٩]، [فاطر: ٤٤]، [غافر: ٢١، ٨٢]، [محمد: ١٠].

والثانية: ﴿فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الروم: ٤٢].

وواضح أن الضمير في تلك الآيات عائد على الكفار والمشركين، سواء ضمير الغائب في قوله: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ في الآيات الست، أو ضمير المخاطب في آية سورة الروم، والمقصود واحد؛ هو دعوتهم إلى السير في الأرض والنظر في عاقبة كفار ومشركي الأمم السابقة، والاعتبار بما آل إليه كفرهم بالله تعالى وتكذيبهم لرسله.

وقد ذكر الله جل وعلا نماذج من جرائم تلك الأمم الهالكة، وما أصابها بسبب ذلك، ليكون عبرة لكفار قريش وغيرهم، وزاجرا لهم ، لعلهم يثوبون إلى رشدهم، ويتوبون إلى ربهم، وأعظم جريمة وظلم اقترفته تلك الأمم الغابرة؛ الشرك بالله عز وجل واتخاذ طواغيت يعبدونها من دونه، نقرأ ذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦].

قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾. يقول تعالى ذكره لمشركي قريش: إن كنتم أيها الناس غير مصدقي رسولنا فيما يخبركم به عن هؤلاء الأمم، الذين حل بهم ما حل من بأسنا، بكفرهم بالله وتكذيبهم رسوله، فسيروا في الأرض التي كانوا يسكنونها، والبلاد التي كانوا يعمرونها، فانظروا إلى آثار الله

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٩/ ١٢.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/ ٥٦٠.

فيهم، وآثار سخطه النازل بهم، كيف أعقبهم تكذيبهم رسل الله ما أعقبهم، فإنكم ترون حقيقة ذلك، وتعلمون به صحة الخبر الذي يخبركم به محمد صلى الله عليه وسلم»[1].

فقد ساق الله تعالى للكفار دليل العقل الذي يدركه كل ذي بصيرة، ولما لم يتبصروا به بسبب قسوة قلوبهم، أحالهم على الدليل المحسوس للبصر، فدعاهم إلى السير في الأرض للوقوف على مصارع الذين حقت عليهم الضلالة، عساهم يعتبرون أو يرعوون حين يرون آثارهم وديارهم وهي خاوية على عروشها، وإلا سيكون ذلك مصيرهم.

ومن نماذج الاعتبار بعاقبة المكذبين ما ورد في سورة الأنعام في قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾ [الأنعام: ١٠ - ١١].

فقد أشارت الآية الأولى إلى ما كان يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم من استهزاء وسخرية كفار قريش، ثم ذكرت أن ذلك دأب كفار الأمم السابقة مع أنبيائهم، تثبيتا وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وختمت بما حل بأولئك المستهزئين، وفي الآية الثانية تهديد ووعيد للمستهزئين من كفار قريش، إن لم يعتبروا بمآل من كان قبلهم، فقيل لهم: «جولوا في بلاد المكذبين رسلهم، الجاحدين آياتي من قبلهم، من ضربائهم وأشكالهم من الناس، ﴿ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ يقول: ثم انظروا كيف أعقبهم تكذيبهم ذلك الهلاك والعطب، وخزي الدنيا وعارها، وما حل بهم من سخط الله عليهم بالبوار، وخراب الديار، وعفو الآثار، فاعتبروا به إن لم تنهكم حلومكم، ولم تزجركم حجج الله عليكم عما أنتم عليه مقيمون من التكذيب، فاحذروا مثل مصارعهم، واتقوا أن يحل بكم مثل الذي حل بهم»[2].

وقد وصفت الآيتان القوم بخلقين ذميمين هما: الاستهزاء والتكذيب، والواحد من هذين الخلقين كافٍ في استحقاق تلك العاقبة.

ثانيًا: النظر في عاقبة المجرمين:

ومن مقاصد السير في القرآن الكريم النظر في عاقبة المجرمين، قد ورد في آية سورة النمل.

وقد جاءت في سياق ذكر إنكار المشركين للبعث، فقال الله تعالى ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۝٦٧ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا

(١) جامع البيان، الطبري، ١٤/ ٢١٦-٢١٧.

(٢) المصدر السابق، ٩/ ١٦٦-١٦٧.

﴿مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝٦٨ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ۝٦٩﴾ [النمل: ٦٧ - ٦٩].

فالآية الكريمة تدعو منكري البعث إلى الاتعاظ بحال المجرمين من الأمم السابقة، وتتوعدهم بأن يصيبهم مثل ما أصابهم، وقد جاء العطف في الأمر بالسير بالفاء التعقيبية، لأن المقام مقام استرشاد للاعتقاد والرجوع عن الغي والعناد وليس مجرد تهديد، وعظم المأمور بنظره بجعله أهلا للعناية به، والسؤال عنه فقال: ﴿كَيْفَ كَانَ﴾، فإنكم إن نظرتم ديارهم، وتأملتم أخبارهم حق التأمل أسرع بكم ذلك إلى التصديق، فنجوتم وإلا هلكتم[1].

هذا مجمل ما ورد صريحا في دعوة كفار قريش ومن شاكلهم للسير في الأرض للاعتبار بعاقبة المكذبين والمجرمين من الأمم الغابرة، خوطبوا به ليعلموا ما حل بالكفرة قبلهم، وليكون لهم رادعا وزاجرا عن التمادي في غيهم وطغيانهم، قبل أن يصيبهم ما أصاب أسلافهم.

بقيت الإشارة إلى ما ورد من نصوص قرآنية تأمر بالسير في الأرض والاعتبار بالذين خلوا، دون وصفهم بالتكذيب أو الإجرام -وإن كانوا كذلك-، وإنما وصفوا بـ: ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ و﴿الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾،

ففي سورة محمد صلى الله عليه وسلم وبخ الله جل ذكره الكافرين الذين سافروا وارتحلوا في بقاع شتى ورأوا ما حل بأقوام مثل عاد وثمود وسبأ وغيرهم، ولم يتعظوا ويعتبروا بعاقبتهم، فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ۝١٠﴾ [محمد: ١٠].

فالآية الكريمة نزلت بالمدينة في أجواء قتال بين المسلمين والكافرين -بدليل تسمية السورة بسورة القتال- وكما دلت الآيات السابقة لهذه الآية، وفيها تحفيز وتحريض للمؤمنين وتوهين الكافرين، ثم أشارت إلى العذاب الذي سلطه على الذين كانوا من قبلهم، وقد عبر عما حل بهم بقوله: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، «والمعنى: دمر الله عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكل ما كان لهم»[2].

وقد عدي فعل (دمر) بحرف الاستعلاء للمبالغة في قوة التدمير[3].

ثم توعد الله تعالى كفار مكة -وأمثالهم في كل مكان وزمان- السالكين لسيرة الهالكين بمثل تلك العواقب الوخيمة والعقوبات الأليمة، فقال: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾.

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٤/ ٢٠٧.

(٢) الكشاف، الزمخشري، ٥/ ٥١٩.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٦/ ٨٨.

«قال ابن عباس: يعني : لكفار قومك يا محمد صلى الله عليه وسلم، مثل ما دمرت به القرى فأهلكوا بالسيف»[1].

وقد دمر الله على الكافرين مرات حتى انتصر الإسلام، «فاستأصل صناديدهم يوم بدر بالسيف، وسلط عليهم الريح يوم الخندق فهزمهم، وسلط عليهم الرعب والمذلة يوم فتح مكة، وكل ذلك مماثل لما سلطه على الأمم في الغاية منه وهو نصر الرسول صلى الله عليه وسلم ودينه، وقد جعل الله ما نصر به رسوله صلى الله عليه وسلم أعلى قيمة بكونه بيده وأيدي المؤمنين مباشرة بسيوفهم وذلك أنكى للعدو»[2].

وفي سور أخرى ذكر الله جل ثناؤه الاعتبار بعاقبة الذين من قبل، وبين أنهم أوتوا قوة وشدة وأثاروا الأرض وعمروها، ولكن ذلك لم يغن عنهم من الله شيئا، حين نزل بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، ليعلم كفار قريش أنهم أهون وأضعف من أولئك الجبارين، وسأسوق أمثلة توضح ما ذكرت.

ففي سورة فاطر ورد قوله جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤].

فقد جاءت هذه الآية بعد أن توعد الله تبارك وتعالى كفار قريش ومن شاكلهم أن يحل بهم عذابه وفق سنته التي لا تتبدل ولا تتحول، بسبب ما ادعوه، ثم أخلفوا الله ما وعدوه، فدعتهم إلى السير في الأرض والنظر في عاقبة الذين من قبلهم كعاد وثمود وقوم لوط وأهل مدين، إذ كانوا يمرون بديارهم في أسفارهم، فقد كانوا أشد منهم قوة، وأطول أعمارا وأكثر أموالا وأقوى أبدانا، فلم يغن عنهم من الله شيئا حين كفروا بالله وكذبوا رسله، فليعتبر مشركو قريش بمآل أسلافهم، فإن الله جلت قدرته الذي أهلك أولئك - على قوتهم وبطشهم - لا يعجزه أن يهلك هؤلاء.

وإذا كانت سورة فاطر لم تصرح بطبيعة القوة التي أوتي الذين خلوا من قبل، فإن سورتي الروم وغافر بينتا ذلك، فقال تعالى في سورة الروم: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم: ٩].

وقال عز وجل في سورة غافر: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً

(١) فتح البيان، القنوجي، ١٣/ ٥٦.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٦/ ٨٨.

﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ۝٢١﴾ [غافر: ٢١].

ففي الآيتين إنذار للكفار بعواقب الأمم الذين كذبوا رسلهم من قبل كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ممن كانوا يمرون على ديارهم في أسفارهم إلى اليمن والشام في رحلتي الشتاء والصيف، فقد أضحت مساكنهم خرابا يبابا، رغم ما أوتوا من صلابة في الأجسام أمكنتهم من قلب الأرض بالحرث لزرع البذور وغيرها، أو حفرها لاستنباط المياه واستخراج المعادن(١).

وعمروها بفنون العمارات بتشييد المباني والحصون، وعلى الجملة فقد كانوا أقوى أجسامًا وأكثر تحصيلًا لأسباب العيش من كفار قريش الذين كانوا يسكنون واديًا غير ذي زرع، فما أثاروا الأرض ولا عمروها.

قال ابن كثير: «أي: كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم -أيها المبعوث إليهم محمد صلوات الله وسلامه عليه- وأكثر أموالًا وأولادًا، وما أوتيتم معشار ما أوتوا، ومكنوا في الدنيا تمكينا لم تبلغوا إليه، وعمروا فيها أعمارًا طوالًا، فعمروها أكثر منكم، واستغلوها أكثر من استغلالكم، ومع هذا لما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا، أخذهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس الله، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال»(٢).

وأختم حديثي عن الاعتبار بعاقبة الذين من قبل بما ورد في موضع آخر من سورة الروم في قوله جل جلاله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤١ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ۝٤٢﴾ [الروم: ٤١- ٤٢].

ففي الآية الأولى بيان لشؤم الذنوب والمعاصي وما أحدثت من فساد في البر والبحر، وقد ذكر المفسرون أقوالا في بيان طبيعة ذلك الفساد، وهي في الجملة آفات وعقوبات يبتلى بها الناس، «كالجدب، والقحط، وقلة الريع في الزراعات والربح في التجارات، ووقوع الموتان في الناس والدواب، وكثرة الحرق والغرق، وإخفاق الصيادين والغاصة، ومحق البركات في كل شيء، وقلة المنافع في الجملة وكثرة المضار»(٣).

وكل ذلك بكسب أيديهم، وتلك الآفات جزء يسير مما يستحق الناس، ولو أذاقهم

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ٢٠٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٣٠٥.

(٣) الكشاف، الزمخشري، ٤/ ٥٨٢.
وانظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٧/ ٣١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٣٢٠

كل سوء عملوه ما ترك على ظهرها من دابة، فهو يصيبهم ببعض أعمالهم لعلهم ينيبوا إلى الحق ويرجعوا إلى التوبة ويتركوا معاصي الله، أما إذا لم يتعظوا بما أصابهم من فساد بما كسبت أيديهم، فإنه سيصيبهم فساد أعظم وأشد، كالذي أصاب الأمم التي أشركت، فجاءت الآية الأخيرة تحث على السير في الأرض للاعتبار بعاقبة الذين من قبل من الأمم التي يعرفها المخاطبون ووقفوا على آثارها وديارها، فقد أهلكها الله جلت قدرته ودمرها وتركها أثرا بعد عين، وسبب تلك العاقبة المفجعة هو شرك الأكثرين منهم، وفي ذلك تعريض بمشركي قريش وتحذير لهم أن يصيبهم ما أصاب الذين من قبل.

ثالثًا: التفكر في الخلق:

حث القرآن الكريم على التفكر في الخلق في آيات كثيرة، وتعددت أساليب الدعوة إليه، فتكون أحيانًا من خلال التذكير بنعم الله وآلائه، وفي أحيان أخرى يأتي الحض على التفكر في معرض بيان الغاية التي من أجلها يضرب الله للناس الأمثال ويقص القصص ويلفت النظر إلى آيات الله المبثوثة في الآفاق والأنفس، وتارة أخرى يكون الأسلوب القرآني في الدعوة إلى التفكير عنيفا شديدا مقرونا في بعض الأحيان بالتهديد والوعيد، وهذه هي الآيات الموجهة لذوي القلوب القاسية الكافرة التي تحتاج لمثل هذا الأسلوب الصارم وفي مثل هذه الآيات تأتي الدعوة إلى التفكر بأسلوب الاستفهام الاستنكاري[1].

وفي معنى التفكر لغة قال ابن فارس: «فكر: الفاء والكاف والراء، تردد القلب في الشيء، يقال: تفكر إذا ردد قلبه معتبرا»[2].

وفي اللسان: «الفكر بالفتح والفكر بالكسر: إعمال الخاطر في الشيء»[3].

وفي القاموس: « الفكر بالكسر ويفتح: إعمال النظر في الشيء»[4].

أما اصطلاحًا فقد عرفه الراغب بقوله: «الفكرة قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتفكر جولان تلك القوة بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان»[5].

وقال عنه الفراهي: «الفكر: هو النظر فيما وراء الشيء، وربما يسمى اعتبارا»[6].

وعرفه أحد الباحثين بقوله: «التفكير في أبسط تعريف له عبارة عن سلسلة من النشاطات العقلية التي يقوم بها الدماغ

(١) انظر: التفكر من المشاهدة إلى الشهود، مالك بدري، ص ٦٣-٦٤.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٣٢٨.
(٣) لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ٦٥.
(٤) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ٤٥٨.
(٥) المفردات، الراغب، ص ٣٩٨.
(٦) مفردات القرآن، عبد الحميد الفراهي، ص ٣٠٢.

عندما يتعرض لمثير يتم استقباله عن طريق واحدة أو أكثر من الحواس الخمس»[(١)].

أما أهميته، فيكفي فيه أنه الملكة التي كرم الله تعالى بها بني آدم وفضلهم على كثير ممن خلق.

قال الغزالي: «إن الله تعالى خلق العقول، وكمل هداها بالوحي، وأمر أربابها بالنظر في مخلوقاته، والتفكر والاعتبار بما أودعه من العجائب في مصنوعاته»[(٢)].

ولابن القيم كلام نفيس في التفكر وأهميته، ومما جاء فيه قوله: «فالخير والسعادة في خزانة مفتاحها التفكر، فإنه لابد من تفكر وعلم يكون نتيجةً للتفكر، وحال يحدث للقلب من ذلك العلم ، فالفكر هو الذي ينقل من موت الغفلة إلى حياة اليقظة، ومن المكاره إلى المحاب ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم ورحبه، ومن مصيبة العمى والصمم والبكم إلى نعمة البصر والسمع والفهم عن الله والعقل عليه، ومن أمراض الشبهات إلى برد اليقين وثلج الصدور.

وبالجملة فأصل كل طاعة إنما هو الفكر، وكذلك أصل كل معصية إنما يحدث من جانب التفكر، فإن الشيطان يصادف أرض القلب خالية فارغة، فيبذر فيها حب الأفكار الردية، فيتولد منها الإرادات والعزوم فيتولد منها العمل، فإذا صادف أرض القلب مشغولة ببذر الأفكار النافعة فيما خلق له وفيما أمر به وفيما هيئ له وأعد له من النعيم المقيم أو العذاب الأليم لم يجد لبذره موضعًا»[(٣)].

وقد جاءت نصوص القرآن الكريم تأمر بالتفكر وتثني على المتفكرين ؛ لأن «التفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار، وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم»[(٤)].

ومجال التفكر واسع يشمل الآيات المشهودة، فكل ما خلق الله عز وجل في السماوات؛ من شمس وقمر وكواكب، وفي الأرض؛ من بحار وأنهار وجبال وحيوان ونبات، وظواهر طبيعية كالسحاب والأمطار والرياح وغيرها.

أما عن ارتباط التفكر في الخلق بالسير كمقصد من مقاصده -وهو ما يعنينا في هذا البحث- فقد ذكر في موضعين:

أحدهما: في سورة العنكبوت في قوله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

(١) تعليم التفكير، فتحي عبد الرحمن جروان، ص ٣٣.

(٢) الحكمة في مخلوقات الله، أبو حامد الغزالي، ص ١٤.

(٣) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، ١/ ٥٤٥-٥٤٦.

(٤) إحياء علوم الدين، الغزالي، ٤/ ٣٨٨.

﴿قَدِيرٌ ۝٢٠﴾ [العنكبوت: ١٩-٢٠].

والآيتان من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة التي ساقها القرآن الكريم لإقامة الحجة على منكري البعث، رغم أن كل ما في الوجود علويه وسفليه يشهد على قدرة الله جل ذكره على الإحياء بعد الموت، فجاءت الآية الأولى كلاما مستأنفا للإنكار على المكذبين بالبعث رغم وضوح دلائله، فلفتت أنظار أولئك الجاحدين إلى ما يرون من مظاهر البدء في الخلق وإعادته في الإنسان والحيوان والنبات بأسلوب محكم رصين، ففي الاستفهام الإنكاري عن عدم الرؤية تعجيب من أمرهم وتوبيخ لهم على بلادة حسهم، وفي الاستفهام بـ﴿كَيْفَ﴾ تنبيه ولفت نظر وليس طلب إخبار، بمعنى: ألم يتأملوا في هذا السؤال؟ أي: في الجواب عنه[١].

وفي مجيء الفعلين ﴿يُبْدِئُ﴾ و﴿يُعِيدُهُ﴾ بصيغة المضارع إفادة لتجدد بدء الخلق وإعادته حيثما وجه الناظر بصره في المخلوقات؛ ففي عالم الإنسان يرون «كيف يستأنف الله خلق الأشياء طفلًا صغيرًا، ثم غلامًا يافعًا، ثم رجلًا مجتمعًا، ثم كهلًا، ثم هو يعيده من بعد فنائه وبلاه، كما بدأه أول مرة خلقًا جديدًا، لا يتعذر عليه ذلك»[٢].

واعتبر ذلك في عالمي الحيوان والنبات، وعلى الجملة فقد «أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء: السماوات وما فيها من الكواكب النيرة؛ الثوابت والسيارات، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وبراري وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في نفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء: كن، فيكون»[٣].

فهذا مما يستدل به على صحة البعث ووقوعه بلا ريب، فإذا كانت تلك قدرة الله تبارك وتعالى على الإبداء والإيجاد، فإن قدرته على الإعادة أيسر، ولذلك ناسب أن يأتي التعقيب بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، أي: «سهل كما كان يسيرا عليه إبداؤه»[٤].

وهذا كقوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

ثم جاءت الآية الثانية لتنقل المنكرين للبعث من عالم الأنفس إلى عالم الآفاق، لتقول لهم: إن كنتم في شك من قدرة الله جل وعلا على بدء الخلق وإعادته، ولم

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٠/ ٢٢٩.

(٢) جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٣٧٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٢٧٠.
(٤) جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٣٧٦.

يكفكم الاستدلال بما هو بمرأى منكم، فدونكم الاستدلال بما هو بعيد عنكم من أحوال إيجاد المخلوقات وتعاقب الأمم، فأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يحثهم على السير في الأرض للنظر كيف بدأ الخلق، فقال عز من قائل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾.

«أي: كيف خلقهم ابتداء على أطوار مختلفة، وطبائع متغايرة، وأخلاق شتى، فإن ترتيب النظر على السير في الأرض مؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين في أقطارها، ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ بعد النشأة الأولى التي شاهدتموها، والتعبير عن الإعادة التي هي محل النزاع بالنشأة الآخرة المشعرة بكون البدء نشأة أولى للتنبيه على أنهما شأن واحد من شئون الله تعالى حقيقة واسما من حيث إن كلًا منهما اختراع وإخراج من العدم إلى الوجود، ولا فرق بينهما إلا بالأولية والآخرية»[(١)].

ثم ختمت الآية ببيان كمال قدرة الخالق تبارك وتعالى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي «إن الله على إنشاء جميع خلقه بعد إفنائه، كهيئته قبل فنائه، وعلى غير ذلك مما يشاء فعله، قادر، لا يعجزه شيء أراده»[(٢)].

الأنموذج الثاني الذي ذكر فيه التفكر في الخلق مقترنًا بالسير ورد في سورة الروم - وقد سبقت الإشارة إلى الآية الثانية منه - في قوله تباركت أسماؤه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم: ٨-٩].

فالآية الأولى دعوة للمكذبين بالبعث إلى التفكر في أنفسهم، وقد ذكر المفسرون في المراد بـ: ﴿فِي أَنفُسِهِم﴾ قولين، فذهب الطبري إلى أنها ذواتهم، فقال: «أولم يتفكر هؤلاء المكذبون بالبعث يا محمد من قومك، في خلق الله إياهم، وأنه خلقهم ولم يكونوا شيئا، ثم صرفهم أحوالا وتارات، حتى صاروا رجالا؛ فيعلموا أن الذي فعل ذلك قادر أن يعيدهم بعد فنائهم خلقا جديدا»[(٣)]، وذكر غيره أن العبارة تحتمل معنيين؛ أحدهما: أن تكون الفكرة في ذواتهم وحواسهم وخلقهم ليستدلوا بذلك على الخالق المخترع، وهو ما ذكره الطبري، والثاني: أن تكون ظرفا للفكرة في خلق

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤/ ٣٣٢.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٣٧٨.
(٣) جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٤٦٤.

السموات والأرض، كأنه قيل: أولم يحدثوا التفكر في أنفسهم، أي: في قلوبهم الفارغة من الفكر[(١)].

ولا تعارض بين القولين، وأيًا ما كان المعنى، فالمنكرون للبعث لم يفكروا في ذواتهم ولا فيما حولهم، لم يفكروا في أنفسهم وهي أقرب شيء إليهم، ليروا عجائب قدرة الله عز وجل في خلقهم، كما في قوله جل جلاله: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات: ٢١].

وعلى هذا التفسير تكون جملة ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ «بدل اشتمال من قوله: ﴿أَنفُسِهِم﴾ إذ الكلام على حذف مضاف، تقديره: في دلالة أنفسهم، فإن دلالة ﴿أَنفُسِهِم﴾ تشتمل على دلالة خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق؛ لأن ﴿أَنفُسِهِم﴾ مشمولة لما في الأرض من الخلق ودالة على ما في الأرض، وكذلك خلق ما في الأرض دال على خلق أنفسهم»[(٢)].

فمعنى الآية الكريمة: «أولم يتفكروا في أنفسهم التي هي أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات، وهم أعلم وأخبر بأحوالها منهم بأحوال ما عداها، فتدبروا ما أودعها الله ظاهرا وباطنا من غرائب الحكم الدالة على التدبير دون الإهمال وأنه لا بد لها من انتهاء إلى وقت يجازيها فيه الحكم الذي دبر أمرها على الإحسان إحسانا وعلى الإساءة مثلها، حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة والتدبير، وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت»[(٣)].

هذا بعض ما ذكره المفسرون في معنى الآية الكريمة إذا قصد بالتفكر في أنفسهم ذواتهم، أما إذا أريد به أن يحدثوا في أنفسهم التفكر في خلق السموات والأرض وما بينهما، فيكون معنى الآية ما ذكر ابن كثير: «يقول الله تعالى منبها على التفكر في مخلوقاته، الدالة على وجوده وانفراده بخلقها، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ يعني به: النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة، والأجناس المختلفة، فيعلموا أنها ما خلقت سدى ولا باطلًا، بل بالحق، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى، وهو يوم القيامة»[(٤)].

---

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٧/ ١١، الكشاف، الزمخشري، ٤/ ٥٦٦، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤/ ٣٥٥، أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ٢٠٠، فتح البيان، القنوجي، ١٠/ ٢٢٩

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢١/ ٥٢.

(٣) الكشاف، الزمخشري، ٤/ ٥٦٦-٥٦٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٣٠٥.

وحين لم يتفكر المنكرون للبعث في آيات الله في الأنفس والآفاق، بسبب تبلد عقولهم وضيق أفقهم، نقلهم السياق إلى حوادث الزمان وعبر التاريخ لعلهم يتأملون سنة الله في إهلاك الظالمين، ويعتبرون بمصارع الغابرين، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ [الروم: ٩].

فقد دعي منكرو البعث في هذا المقام إلى السير، وهو مالم يطلب منهم في الآية السابقة ؛ إذ لا حاجة إلى السير بحضور النفس والسماء والأرض، ولذلك جاء الاستفهام تعجيبًا من غفلتهم وعدم تفكرهم، وأريد به التقريع والتوبيخ.

أما الاستفهام في هذه الآية فلتقرير النفي، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أي: أقعدوا في أماكنهم، ولم يسيروا في الأرض، والمعنى: أنهم ساروا في أقطار الأرض[١]، وشاهدوا في أسفارهم آثار وديار أقوام قد خلوا مثل: عاد وثمود وقوم لوط وأهل مدين، وهي أمم كانت ذات قوة وسطوة، لا تدانيها قوة قريش، أثاروا الأرض بالحرث واستخرجوا خيراتها ومدخراتها، وعمروها بالمباني والحصون والقصور المشيدة، أكثر مما عمرها المشركون في مكة، فقد كان السابقون أطول أعمارا وأقوى أجساما وأكثر تحصيلا لأسباب العيش، ومع ذلك لم تغن عنهم قوتهم من الله شيئا حين نزل بهم عذاب الله وبأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين.

رابعًا: ابتغاء الرزق:

من مقاصد السير كما حددته نصوص القرآن الكريم هو: ابتغاء الرزق، ومعنى الرزق لغة: العطاء وما ينتفع به مما يؤكل أو يلبس، وما يصل إلى الجوف ويتغذى به، وقد يسمى المطر رزقا؛ لأنه سبب الرزق[٢].

«والأرزاق نوعان: ظاهرةٌ للأبدان كالأقوات، وباطنةٌ للقلوب والنفوس كالمعارف والعلوم»[٣].

قال الراغب في بيان معنى الرزق: «الرزق يقال للعطاء الجاري تارة دنيويًا كان أم أخرويًا، وللنصيب تارة، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة، يقال: أعطى السلطان رزق الجند، ورزقت علمًا، والرازق

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤/ ٣٥٢.

(٢) انظر: الصحاح، الجوهري، ١/ ٤٠٤، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ٨٨٦، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ص ٣٧٢.

(٣) لسان العرب، ابن منظور، ١٠/ ١١٥.

يقال لخالق الرزق ومعطيه والمسبب له، وهو الله تعالى»[1].

فالله جل وعلا هو الرازق والرزاق، وقد وصف سبحانه وتعالى ذاته بذلك في كتابه العزيز بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨].

وبين جل ثناؤه أنه وحده رازق كل دابة على وجه الأرض فقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦].

وأكد جل جلاله أن جميع المخلوقات تفتقر إليه في رزقها ولا تستطيع تحمل ذلك، ولولاه ما رزقت، فقال جل ذكره: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [العنكبوت: ٦٠].

والله تبارك وتعالى مالك خزائن الرزق، فمنه وحده يطلب لا من غيره، كما قال الخليل عليه السلام لقومه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون اكتساب الرزق وفق سنة اتخاذ الأسباب، فألهم الحيوانات والطيور أن تتحرك وتتنقل من مكان إلى آخر، وزودها بغرائز وخلق لها أعضاء تمكنها من كسب قوتها، فإذا كانت تلك سنته تعالى في رزق البهائم والعجموات وهي مخلوقات ضعيفة، فإنها في حق الإنسان المكرم أولى، فقد اقتضت سنته في رزق العباد أن يصلهم بأسباب يباشرونها باختيارهم، ويسر لهم تلك الأسباب، ودلهم على مفاتيح الرزق.

منها: «السعي والضرب في الأرض ابتغاء الرزق».

وقد وردت آيات كريمة تحث على السعي في الأرض ابتغاء الرزق، منها قوله جل وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥].

فالآية الكريمة تشير إلى نعمة الله عز وجل على خلقه في تسخير الأرض لهم، فعبر عن ذلك بلفظ: ﴿ذَلُولًا﴾، ثم أمرهم بالمشي في مناكبها، والمعنى: «سافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات»[2].

وقوله: ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ يعني: وكلوا من رزق الله الذي أخرج لكم من مناكب الأرض، ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ يعني: وإلى الله نشركم من قبوركم[3].

(١) المفردات، الراغب، ص ١٩٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ١٧٦.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٣/ ١٢٩.

هذا عن معنى الآية، أما الرزق الذي تمنحه الأرض الذلول وينتفع به الإنسان ويناله بالمشي في مناكبها، فيشمل كل ما أودع الله عز وجل فيها من خيرات ومدخرات وثروات على ظهرها وفي باطنها، فهي منحٌ وعطاءاتٌ سخرها الخالق سبحانه وتعالى للإنسان منةً منه وفضلًا.

ومن الآيات التي تحض على السعي في الأرض ابتغاء الرزق، ما ورد في ختام سورة المزمل في قوله تبارك وتعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ﴾ [المزمل: ٢٠].

فقد ذكرت الآية الكريمة أصحاب الأعذار الذين يشق عليهم قيام ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه ، وهم: المرضى، والضاربون في الأرض، والمجاهدون، فخفف الله عنهم، وكلفهم ما يطيقون، ليقرأوا في صلاة الليل ما تيسر من القرآن، فكانوا سببًا للتخفيف عن الأمة، ونسخ فرض قيام الليل، ويهمنا من هذه الفئات الثلاث؛ الفئة الثانية المذكورة في قوله جل ثناؤه: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾، فهؤلاء يسافرون ويضربون في الأرض للتجارة وطلب المعاش، أو ابتغاء الرزق المعبر عنه بفضل الله، فهم لا يطيقون قيام الليل لما يعانون من المشقة في سعيهم وأسفارهم، وربما كان الليل فرصتهم لأخذ قسط من الراحة والنوم، والاستعداد للغد.

والسفر والضرب في الأرض لكسب الرزق ليس مجرد تجارة وكسب، بل هو فضيلة وطاعة اقترن ذكرها في الآية الآنفة بالجهاد في سبيل الله وهو ذروة سنام الإسلام.

فقد «سوى الله تعالى في هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين المال الحلال للنفقة على نفسه وعياله، والإحسان والإفضال، فكان هذا دليلا على أن كسب المال بمنزلة الجهاد؛ لأنه جمعه مع الجهاد في سبيل الله»[1].

وقد بلغ من أهمية الضرب في الأرض للكسب ونفع الناس، أن أضحت مهنة شريفة تحظى بالتقدير، لذلك حض عليها النبي صلى الله عليه وسلم، فعن الزبير بن العوام رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(لأن يأخذ أحدكم حبله، فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيبيعها، فيكف الله بها وجهه، خير له من يسأل الناس، أعطوه أو منعوه)**[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(الساعي على**

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢١/ ٣٤٩، وانظر: الكشاف، الزمخشري، ٦/ ٢٤٩، مفاتيح الغيب، الرازي، ٣٠/ ١٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، رقم ١٤٧١.

الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار»[(١)].

ومن النماذج التي تحث على السير في الأرض ابتغاء الرزق، ما ورد في سورة الجمعة في قوله تعالى ذكره: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة: ١٠].

قال القرطبي: «يقول: إذا فرغتم من الصلاة فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرف في حوائجكم. ﴿وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ﴾ أي: من رزقه»[(٢)].

وقال ابن كثير: «لما حجر عليهم في التصرف بعد النداء وأمرهم بالاجتماع، أذن لهم بعد الفراغ بالانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله ، وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: في حال بيعكم وشرائكم، وأخذكم وعطائكم، اذكروا الله ذكرا كثيرا، ولا تشغلكم الدنيا عن الذي ينفعكم في الدار الآخرة»[(٣)].

هذا هو المنهج المتوازن الذي يقيمه القرآن الكريم حين يلبي مقتضيات الإنسان في الحياة الدنيا دون أن ينسى نصيبه من الآخرة، ففور انقضاء صلاة الجمعة، يأتي الإذن بالانتشار في الأرض لابتغاء الرزق، فلا رهبانية في الإسلام، ولا مجال للمكث في المساجد بدعوى الانقطاع للعبادة، فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى قوما جلوسا في المسجد في غير وقت الصلاة، فكره منهم ذلك وقال: «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني! فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة»[(٤)].

وقد فقه عراك بن مالك رضي الله عنه هذا المعنى، فكان إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد، فقال: «اللهم، أجبت دعوتك، وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك، وأنت خير الرازقين»[(٥)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل، رقم ٥٣٥٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد، باب فضل الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، رقم ٢٩٨٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٠/ ٤٧٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ١٢٢-١٢٣.

(٤) إحياء علوم الدين، الغزالي، ٢/ ٦٤.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ، رقم ١٨٨٩٧، ١٠/ ٣٣٥٦.

أساليب الحث على السير للتأمل

تعددت وتنوعت أساليب القرآن الكريم في الحث على السير، ولم تكن نمطية، وسبب هذا التنوع تأكيد أهمية موضوع السير، وإثارة انتباه القارئ والسامع.

وسنحاول في هذا المبحث أن نبرز بعض تلك الأساليب في النقاط الآتية:

أولًا: الأمر بالسير:

الأسلوب الأول من أساليب القرآن الكريم في الحث على السير للتأمل هو: الأمر به، وقد تكرر ست مرات بصيغتين:

الأولى: بقوله جل ذكره: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ في موضعين[1].

والثانية: بقوله جل ثناؤه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ في أربعة مواضع[2].

فآية آل عمران خطاب مباشر للمؤمنين تأمرهم بالسير، والفاء سببية، وقيل: شرطية، أي: إن شككتم فسيروا[3].

فقد طلب منهم أن يسيروا في الأرض ليروا نهاية المكذبين، فتطمئن قلوبهم لصدق وعد الله تعالى بنصر المؤمنين وإهلاك الكافرين، وليدركوا أن ما حصل في معركة أحد لم يكن سوى امتحان وتمحيص للصف لتمييز الخبيث من الطيب، وأن العاقبة للمتقين، أما بقية الآيات فخطاب للكفار والمشركين.

وقد اختلف المفسرون في الأمر بالسير؛ هل هو على سبيل الوجوب أم الإباحة؟

فذهب أكثرهم إلى أن الأمر للندب[4]، إذ المقصود الاعتبار لا السفر بحد ذاته، فإذا حصل بغير المسير في الأرض بسماع الأخبار أو قراءة كتب التاريخ، فقد تم المقصود، وإن كان في الوقوف على الآثار ومشاهدة الديار مزيد اعتبار، وذهب الزمخشري إلى التفريق بين الأمر بالسير والنظر: فقال: «معناه: إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع، وإيجاب النظر في آثار الهالكين، ونبه على ذلك بثم، لتباعد ما بين الواجب والمباح»[5].

فالأمر الواجب -في تقدير الزمخشري- هو النظر وليس السير، فإذا حصل السفر لأي غرض، وجب النظر، والحق أن الأمر بالسير لا يقتضي الوجوب، لأن العبرة بالمقصود لا بالسير ذاته، فالمراد بالآيات؛

(١) ورد ذلك في: آل عمران: ١٣٧، والنحل: ٣٦.

(٢) ورد ذلك في: الأنعام: ١١، والنمل: ٦٩، والعنكبوت: ٢٠، والروم: ٤٢.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٥٦٠، فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٢٤٥.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨/ ٣٢٩، المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٣٦٢، مفاتيح الغيب، الرازي، ٩/ ١٣، البحر المحيط، أبو حيان، ٣/ ٦٦.

(٥) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٣٢٨.

إن كنتم في شك مما قيل لكم، فسيروا في الأرض لتقفوا على الحقيقة ماثلة أمامكم ترونها رأي العين، ثم إن في المخاطبين من سار وعاين، وحين لم يتعظ كان كمن لم ير، كل ذلك يرجح أن يكون الأمر بالسير للندب لا الوجوب.

وليس بين ما ذكرنا والأحاديث النبوية الواردة في النهي عن دخول ديار الذين ظلموا أنفسهم تعارض، كما في الحديث الصحيح، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوها عليهم أن يصيبكم ما أصابهم)[1].

وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما مر النبي صلى الله عليه وسلم على الحجر قال: (لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين)، ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي، وهو على الرحل[2].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس عام تبوك، نزل بهم الحجر، عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التي كان يشرب منها ثمود، فعجنوا منها، ونصبوا القدور باللحم، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهراقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا، قال: (إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم)[3].

فاشتراط النبي صلى الله عليه وسلم البكاء عند دخول ديار الذين ظلموا أنفسهم؛ يعني: أن يدخل المسلم تلك الديار متفكرا ومتأملا، مما يهيجه على البكاء خشية أن يصيبه ما أصابهم، وذلك هو معنى الاعتبار، أما أن تتحول مساكن الذين ظلموا إلى مواقع للهو والترفيه، بله الإعجاب والتقديس، فهذا منهي عنه.

ثانيًا: الاستفهام الإنكاري والتقريري:

من أساليب الحث على السير للتأمل؛ الاستفهام؛ ويعرف بأنه: طلب المتكلم من مخاطبه أن يحصل في الذهن ما لم يكن حاصلًا عنده مما سأله عنه[4]، وهو ضربان:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب، رقم ٤٣٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد، باب النهي عن الدخول على أهل الحجر إلا من يدخل باكيا، رقم ٢٩٨٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب نزول النبي صلى الله عليه وسلم الحجر، رقم ٤٤١٩.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٥٩٨٤، ١٠/ ١٩١-١٩٢.

(٤) الأشباه والنظائر في النحو، السيوطي، ٧/ ٤٣.

أحدهما: نفي.

والثاني: إثبات.

فالوارد للنفي يسمى استفهام إنكار، والوارد للإثبات يسمى استفهام تقرير، لأنه يطلب بالأول إنكار المخاطب، وبالثاني إقراره به[1].

وأدوات الاستفهام كثيرة على رأسها الهمزة، وهي الحرف الذي لا يزول عنه إلى غيره، وليس للاستفهام في الأصل غيره، كما ذكر سيبويه[2].

وتمتاز همزة الاستفهام بتقديمها على حروف العطف كالواو والفاء وثم، وكان القياس تأخيرها عن العاطف، إذ لا يجوز أن يؤخر العاطف عن شيء من هذه الأدوات؛ لأن أدوات الاستفهام جزء من جملة الاستفهام، والعاطف لا يقدم عليه جزء من المعطوف، وإنما خولف هذا في الهمزة؛ لأنها أصل أدوات الاستفهام، فأرادوا تقديمها تنبيها على أنها الأصل في الاستفهام، لأن الاستفهام له صدر الكلام[3].

ومما تمتاز به الهمزة عن بقية الأدوات إفادتها معاني بلاغية كثيرة؛ كالإنكار والتقرير والتحقير والتعظيم والتعجيب والتحضيض، ويأتي إفادتها معنيي الإنكار والتقرير في الصدارة.

وحين نستقرئ آيات السير نلاحظ أن أكثرها جاء بأسلوب الاستفهام، فمن مجموع ثلاث عشرة آية في السير نجد سبعًا منها مفتتحة بالاستفهام بالهمزة، يليها الفعل كما هو الأصل في حروف الاستفهام، وجاءت بصيغتين متقاربتين:

الأولى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾[4].

والثانية: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾[5].

وقد أفادت كلها المعنيين الأكثر ورودا وهما: الإنكار والتقرير، وإنكار الشيء يعني كراهته والنفور عن وقوعه، ويأتي الإنكار «لتنبيه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيا بالجواب، إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل لايقدر عليه ، وإما لأنه هم بأن يفعل ما لا يستصوب فعله ، فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ، وإما لأنه جوز وجود أمر لا يوجد مثله ، فإذا ثبت على تجويزه وبخ على تعنته»[6].

ويكون الاستفهام الإنكاري بدخول

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٢/ ٣٢٨.

(٢) الكتاب، سيبويه، ١/ ٩٩.

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٢/ ٣٥٠، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ٣/ ١٤١-١٤٢.

(٤) ورد ذلك في: الروم: ٩، وفاطر: ٤٤، وغافر: ٢١.

(٥) ورد ذلك في: يوسف: ١٠٩، والحج: ٤٦، وغافر: ٨٢، ومحمد: ١٠.

(٦) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص ١٥٢.

همزة الاستفهام على أداة نفي، و«يقتضي أن ما بعده واقع، وأن صاحبه ملوم»[1].

أما الاستفهام التقريري فهو: «حملك المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده ، وحقيقة استفهام التقرير أنه استفهام إنكار، والإنكار نفي، وقد دخل على المنفي، ونفي النفي إثبات»[2].

وسأذكر ثلاثة نماذج مما جاء من أسلوب الاستفهام الإنكاري والتقريري على سبيل التمثيل لا الحصر.

الأنموذج الأول: في قوله جل وعلا: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾ [يوسف: ١٠٩].

فالاستفهام في الآية إنكاري[3]، والغرض منه التوبيخ والتقريع[4]، ثم جاء العطف بالواو والفاء على مقدر يقتضيه المقام والسياق، تلاها لم، وهي حرف نفي وقلب وجزم، ويسيروا: فعل مضارع مجزوم بلم، والواو فاعل عائد على الكفار الذين عاندوا النبي صلى الله عليه وسلم واعترضوا على نبوته، فدعوا إلى السير في الأرض للاعتبار بعاقبة المكذبين للرسل، مع أن في المخاطبين من سار ورأى آثار الذين كانوا من قبل، وكيف خلت منهم الديار، وطواهم الزمان، ومن لم يسافر منهم سمع ممن رأى، فتواترت الأخبار عن أقوام كعاد وثمود وأهل مدين وقوم لوط، وكيف كانت نهايتهم، ولما كان مرورهم بتلك الديار أو سماعهم للأخبار لم يهز قلوبهم القاسية ، ولم يحدث فيها أي تأثير، استحقوا ذلك التوبيخ والتقريع.

الأنموذج الثاني: في قوله جل ثناؤه: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩﴾ [الروم: ٩].

فقد افتتحت الآية بالاستفهام التقريري[5]، وجاء التقرير على النفي، «وأصلها: إما الإنكار بتنزيل المقر منزلة المنكر ليكون إقراره أشد لزوما له، وإما أن تكون للاستفهام فلما دخلت على النفي أفادت التقرير ؛ لأن إنكار النفي إثبات

---

(١) دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبدالخالق عضيمة، ٢/ ٦١٠.

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٢/ ٣٣١-٣٣٣، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ٣/ ٢٣٦-٢٣٧.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٣/ ٦٨.

(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان، ٥/ ٣٤٦.

(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٤/ ٥٦٦، البحر المحيط، أبوحيان، ٧/ ١٥٩، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤/ ٣٥٣.

للمنفي»[1].

والمعنى: ونظروا إلى ما حل بمن كان قبلهم من المكذبين، وأن ذلك لم ينفعهم إذ لم يعتبروا ويتعظوا بما رأوا، ولا يعترض بأن في المخاطبين من لم يسر ؛ «لأن كافة من سار من الناس قد نقلت معارفهم إلى من لم يسر، فاستوت المعرفة وحصل اليقين للكل، وقامت الحجة»[2].

الأنموذج الثالث: ما جاء في سورة غافر في موضعين:

الأول: في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر: ٢١].

والثاني: في قوله تعالى ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [غافر: ٨٢].

فالاستفهام في الآية الأولى تقريري، وفي الثانية إنكاري ، على ما هو شائع في مثله من الاستفهام الداخل على نفي الماضي بحرف (لم)، والتقرير موجه للذين ساروا من قريش ونظروا آثار الأمم الذين أبادهم الله[3].

وفي تكرير الدعوة إلى السير في هذه السورة إنكار على القوم تركهم السير الذي يتوصل به الاعتبار بمصير الأمم الظالمة، وكيف استأصلها الله جلت قدرته رغم ما كانت تتمتع به من قوة وتمكين، يفتقر إليها المخاطبون في الآيتين.

وقد جاءت الدعوة في الآية الأولى عقب آيات التهديد والوعيد، وفي الآية الثانية عقب آيات الامتنان والاستدلال، وفي كلا الموضعين تذكير وتهديد ووعيد، وفي ذلك إشارة إلى أنهم إن لم يكونوا ممن تزعهم النعم عن كفران مسديها كشأن أهل النفوس الكريمة، فليكونوا ممن يردعهم الخوف من البطش كشأن أهل النفوس اللئيمة، فليضعوا أنفسهم حيث يختارون من الخطتين[4].

ثالثًا: أسلوب التلقين:

الأسلوب الثالث من أساليب الحث على السير هو التلقين، وهو لغة: من الفهم، لقنت الكلام بالكسر: فهمته وتلقنته: أخذته، والتلقين: كالتفهيم، وغلامٌ لقِنٌ: سريع الفهم[5].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢١/ ٣٦.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٧/ ١١.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٤/ ١١٩، ٢١٩.
(٤) انظر: المصدر السابق، ٢٤/ ٢١٩.
(٥) انظر: الصحاح، الجوهري، ٢/ ٩٥٤، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٤٨٢، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ١٢٣١.

والمراد من أسلوب التلقين في آيات السير ما ورد مفتتحا بفعل ﴿قُلْ﴾ موجها للنبي صلى الله عليه وسلم يلقنه ربه تعالى حجته على خصومه، ويعلمه كيف يرد على تعنتهم وجحودهم، وقد تكرر هذا الأسلوب في أربعة مواضع بصيغة: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ في: [الأنعام: ١١]، [النمل: ٦٩]، [العنكبوت: ٢٠]، [الروم: ٤٢].

وفيه دليل على أنه لا دخل للنبي صلى الله عليه وسلم في صياغة اللفظ القرآني ، بل هو متبع للوحي يبلغه كما أمره به ربه جل ذكره، «ولتصدير الآيات السابقة بعبارة (قل) مغزى لطيف يفهمه العربي بالسليقة ، وهو توجيه الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وتعليمه ما ينبغي أن يقول، فهو لا ينطق عن هواه بل يتبع ما يوحى إليه، ولذلك تكررت عبارة (قل) أكثر من ثلاثمائة مرة في القرآن؛ ليكون القارئ على ذكر من أن محمدًا صلى الله عليه وسلم لا دخل له في الوحي فلا يصوغه بلفظه، ولا يلقيه بكلامه، وإنما يلقى إليه الخطاب إلقاء فهو مخاطب لا متكلم، حاكٍ ما يسمعه، لا معبر عن شي يجول في نفسه»[1].

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذه المسألة فيما روى البخاري عن زر بن حبيشٍ قال: سألت أبي بن كعبٍ عن المعوذتين فقال: **(سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: قيل لي فقلت، قال أبي: فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم)**[2].

وقد ذكر بعض المفسرين أن الخطاب في الآيات الأربع موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر آخرون أن الخطاب في آية العنكبوت موجه إلى إبراهيم عليه السلام ؛ لأن الآية جاءت في سياق محاججته لقومه[3].

والراجح أنها اعتراض بين كلامين، وأنها أمر لمحمد صلى الله عليه وسلم ، كما ذكر ابن عطية[4].

وقد جاءت أقوال المفسرين متشابهة، فقال الطبري في تفسير آية الأنعام: «قل يا محمد لهؤلاء العادلين بي الأوثان والأنداد، المكذبين بك، الجاحدين حقيقة ما جئتهم به من عندي»[5].

وقال القرطبي: «قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين المستسخرين المكذبين»[6].

وقال ابن كثير في تفسير آية النمل: «قل

---

(١) مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ص ٣٠.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، رقم ٤٩٧٦.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ٣٤، الكشاف، الزمخشري، ٤/ ٥٤٢.

(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٤/ ٦٣٤.

(٥) جامع البيان، الطبري، ٩/ ١٦٦.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨/ ٣٢٩.

يا محمد لهؤلاء المكذبين بالرسل وما جاؤوهم به من أمر المعاد»[1].

وعلى هذا النحو سار أكثر المفسرين واكتفوا ببيان المخاطب بفعل (قل)، دون الإشارة إلى الحكمة من أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتلقين المكذبين ذلك القول، وقلة منهم أشار إلى ذلك؛ مثل أبي السعود الذي ذكر أنه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم[2]، وابن عاشور الذي أشار إلى الحكمة بقوله: «وافتتاحها بالأمر بالقول لأنها واردة مورد المحاورة»[3]، وأبو زهرة الذي بين تلك الحكمة بقوله: «إن الله أمر نبيه أن يخاطبهم هو؛ لأنهم يستهزئون منه صلى الله عليه وسلم ، فكانت المجاوبة منه لهم»[4].

وأضيف إلى ذلك أنها إعراض عن للمشركين، فخطاب الله جل جلاله المباشر تشريفٌ لا يستحقونه، ورفعٌ لمقام النبي صلى الله عليه وسلم وتوكيدٌ لصدق نبوته ردًا على تكذيب المشركين له، وهي في مجملها تلقينٌ له صلى الله عليه وسلم ليأمر كفار قريش بالسير في الأرض والاعتبار بمصير المكذبين من الأمم الهالكة، وإقامةً للحجة عليهم قبل أن يصيبهم ما أصاب الذين من قبل.

رابعًا: الثناء على المتأملين:

فقد ورد الثناء على المتأملين في قوله جل وعلا: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧ - ١٣٨].

وقد سبقت الإشارة إلى أن آية السير في سورة آل عمران خطاب للمؤمنين عقب غزوة أحد، وأنها جاءت لتشد من عزائمهم بعد الذي ألم بهم، ولتبشرهم بسوء عاقبة عدوهم، جريا على سنة الله تعالى في إهلاك المكذبين.

ثم جاءت الآية الثانية تثني عليهم حين خصتهم دون الناس بالتبصر والاهتداء بسنن الله جل ذكره في قوله: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾، فسنن الله عز وجل بيان، أي: دلالة وحجة لإزالة الشبهة، وإيضاح وكشف للحقائق للناس كافة؛ مؤمنهم وكافرهم، تقيهم وفاجرهم، ولكن لا يستفيد ويعتبر منها إلا المتقون، فهي لهم هدًى، أي: دلالة على سبيل الحق، وموعظةٌ، أي: تذكرة للصواب والرشاد[5]، قال صاحب الكشاف: «هذا

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٢٠٨.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ١٧٧.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٧/ ١٤٩.

(٤) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٥/ ٢٤٤٧.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ٧٥.

بيان للناس وإيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه من التكذيب، يعني: حثهم على النظر في سوء عواقب المكذبين قبلهم، والاعتبار بما يعاينون من آثار هلاكهم، وهو زيادة تثبيت وموعظة للذين اتقوا من المؤمنين»[(١)].

ففي الآية الكريمة مدح وثناء للمتقين؛ فهم وحدهم من يهتدي ويتعظ بسنن الله تعالى في أخذ المكذبين، حين يسيرون في الأرض، ويتأملون آثار القرى المدمرة، وكيف كان عاقبة الظالمين، فيتقون أسباب هلاكهم، «فالكلمة الهادية لا يستشرفها إلا القلب المؤمن المفتوح للهدى. والعظة البالغة لا ينتفع بها إلا القلب التقي الذي يخفق لها ويتحرك بها، فالإيمان والتقوى هما اللذان يشرحان القلب للهدى والنور والموعظة والعبرة. وهما اللذان يزينان للقلب اختيار الهدى والنور والانتفاع بالموعظة والعبرة»[(٢)].

هذا عن الثناء على المؤمنين المتأملين في سنن الله تعالى، المهتدين والمتعظين بما فيها من أسباب الهلاك أو التمكين.

خامسًا: ذم غير المتأملين:

وقد ورد ذلك في قوله جل ثناؤه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

فهذه طائفة الغافلين غير المتأملين من الكفار والمشركين الذين ذكرتهم هذه الآية وذمتهم أشد الذم، والسبب أنهم ساروا في الأرض ورأوا آثار وديار الأمم الهالكة كعاد وثمود وأهل مدين وقوم لوط، رأوا ذلك في أسفارهم، ومروا بهم بالليل والنهار، فما حرك فيهم ساكنا، ولا أحدث في قلوبهم هزة، ولا في عقولهم فكرة، فكانوا كالأنعام، بل أضل، فوبخهم الله عز وجل في الآية التي ذكرنا آنفًا.

فقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، يحتمل معنيين: إما أنهم لم يسافروا، فحثوا على السفر ليروا مصارع من أهلكهم الله بكفرهم، ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا، أو أنهم سافروا ورأوا ذلك ولم يعتبروا فجعلوا كأن لم يسافروا ولم يروا، وكلا المعنيين صحيح، فالاستفهام تعجيبي بمن سافروا ورأوا وبمن لم يسافروا؛ وهؤلاء -بلا شك- سمعوا ما حكى من رأوا، وقد ذمت الآية الفريقين، فأنكرت على الذين سافروا ورأوا ولم يتعظوا، فنعت عليهم قلوبهم القاسية بقوله جل وعلا: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾، «وأطلقت القلوب على تقاسيم العقل على وجه المجاز المرسل ؛ لأن القلب هو مفيض الدم- وهو مادة

(١) الكشاف، الزمخشري، ١/ ٦٣١.
(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ١/ ٤٨٠.

الحياة - على الأعضاء الرئيسة وأهمها الدماغ الذي هو عضو العقل. ولذلك قال: ﴿يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ وإنما آلة العقل هي الدماغ ، ولكن الكلام جرى أوله على متعارف أهل اللغة ، ثم أجري عقب ذلك على الحقيقة العلمية ، فقال : «يعقلون بها ، فأشار إلى أن القلوب هي العقل»[(١)].

ومعنى الجملة أن القوم حين لم يعملوا عقولهم فيما رأوا أنزلوا منزلة من لا عقل له، وأما الذين لم يسافروا وسمعوا الأخبار ، ثم لم يتعظوا فنعت عليهم آذانهم الصماء في قوله جل ثناؤه: ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾، فهؤلاء أيضا نالهم الذم ؛ لأنهم لم يستفيدوا من آلة السمع، ولم يردعهم تواتر أخبار الأمم الهالكة، فلم يغن عنهم سمعهم شيئا حين عطلوا مهمتها وهي إدراك المسموعات، لكن حظ من سافر ورأى وسمع الأخبار من الذم أوفر، فليس من رأى كمن سمع.

ثم ختمت الآية الكريمة ببيان حقيقة العمى عند هؤلاء الغافلين، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾، «أي: ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر، ولا تدري ما الخبر»[(٢)].

فليس الخلل في جوارحهم وإنما هو في عقولهم، فما عميت عيونهم عن الإبصار، بل قلوبهم عن الاعتبار.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٧/ ٢٨٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ٤٣٨.

المخاطبون بالسير للتأمل

أشرنا في المباحث السابقة إلى أهمية السير في القرآن، سواء من حيث مجالاته أو مقاصده أو أساليب الحث عليه، وبقي علينا أن نشير إلى الطوائف المعنية بخطاب السير للتأمل، لتكتمل عناصر الموضوع، وتتضح أهميته أكثر. فباستقراء الآيات الواردة في موضوع السير، نجد أنها خاطبت طائفتين: المؤمنون، والمكذبون، وسنحاول تتبع كل طائفة على حدة من خلال مطلبين.

أولًا: مخاطبة المؤمنين:

خوطب المؤمنون ودعوا إلى السير في الأرض في موضعين؛ الأول خطاب خاص بهم في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧].

والثاني خطاب عام، والمؤمنون أولى به، في قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: ٢٠].

فآية سورة آل عمران خطاب صريح للمؤمنين نزلت تواسيهم بعدما أصابهم القرح يوم أحدٍ، وقد جاءت كالتوطئة لما سيأتي من عتاب وذكر لأسباب النكسة التي مني بها المؤمنون في تلك الغزوة، حين ظنوا أنهم ينتصرون لمجرد كونهم على حق وعدوهم على باطل، فأرشدهم الله جل وعلا أن للنصر والهزيمة سننًا ثابتة لا تتبدل ولا تتحول، ولا تحابي أحدا، فقد كانت النكسة بسبب تخليهم عن أسباب النصر، حين خالفوا أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانشغلوا بالغنائم، وقد وصف الله جل ذكره ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فقد كانت الهزيمة مفاجأةً غير منتظرةٍ لدى كثير من المؤمنين الذين ظنوا أنهم منتصرون لا محالة، وحين وقعت، دهشوا لما صارت إليه الأمور، واستغربوا ما وقع، كل ذلك لأنهم لم يفقهوا بعد طبيعة السنن وجديتها وعدم محاباتها، وقد صور القرآن الكريم موقف الاستغراب في قوله جل ثناؤه: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران:

١٦٥].

إن تساؤل المؤمنين بقولهم: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ يكشف عن أن أكثرهم كان يظن أن كونهم على دين الحق سببٌ كافٍ لغلبتهم أينما غزوا وظهورهم على الباطل كيفما كانوا، وربما دفعهم إلى هذا الظن ما شاهدوه يوم بدر من ظهورهم على عدوهم، ونزول الملائكة مددا لهم، وهو ظن يؤدي إلى إفساد أساس الدين القائم على السنن الجارية لا على خوارق العادة، وتعطيل سنة الله في النصر والهزيمة القائمة على أسبابها العادية.

كان جواب القرآن الكريم حاسمًا: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾، فقد انطبقت عليهم سنة الله تعالى في العمل والجزاء، فكانت النتيجة أثرا طبيعيا للعمل، فأنفسهم هي التي أخلت بشروط النصر حين عصت أمر الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي التي دفعتهم إلى الطمع في الغنيمة، وبالجملة فقد عرضوا أنفسهم لسنة الله تعالى التي لا تعرف محاباة ولا استثناءات، فانطبقت عليهم.

وبعد ذلك العتاب الشديد، جاء التوجيه السديد، فطمأن الله جل ثناؤه عباده المؤمنين بأن العاقبة لهم، وأن الدائرة على الكافرين المكذبين، ولكنه لم يسق ذلك في قالب وعظي مباشر، بل أرشدهم إلى عالم السنن التي تحكم أسباب النصر والهزيمة، وردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور، فهم ليسوا بدعا في الحياة، فإذا هم درسوها، وأدركوا مغازيها، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث[1].

وتلك هي النقلة التي رفع القرآن الكريم المؤمنين إلى مستواها، فأصبحوا وحدهم قادرين على الاهتداء والاتعاظ بسنن الله تعالى، وهو المقصود بقوله جل وعلا: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝١٣٨﴾، فالإشارة بقوله: ﴿هَٰذَا﴾ عائدة إلى ما سبق من قوله جل ثناؤه: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ وهو ما اختاره الطبري[2].

أما آية سورة العنكبوت، وإن جاءت في سياق محاججة منكري البعث، فإن ما دعت إليه من السير في الأرض للوقوف على دلائل قدرة الله تعالى في بدء الخلق وإعادته، مما يدعى إليه المؤمنون أيضًا ليزدادوا إيمانًا، ولتطمئن قلوبهم ، كما قال الخليل إبراهيم عليه السلام، ثم إن هذه الآية الكريمة من الآيات التي تدعو إلى اكتشاف سنن الله في الآفاق والأنفس، ويتعين على المؤمنين فقهها والعمل بمقتضاها، إذا أرادوا أن يمكن

---

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٤٧٨.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ٧٥.

لهم في الأرض.

إنها دعوة مفتوحة لكل من يريد أن يكتشف أسرار بدء الخلق؛ ومن إعجاز هذا النص أنه خطاب متجدد يستجيب لكل عصر، ويساير الاكتشافات العلمية، «ذلك أن المخاطبين بهذه الآية أول مرة لم يكونوا مؤهلين لمثل هذا البحث العلمي الذي نشأ حديثا، فلم يكونوا بمستطيعين يومئذ أن يصلوا من ورائه إلى الحقيقة المقصودة به -لو كان ذلك هو المقصود- فلا بد أن القرآن كان يطلب منهم أمرا آخر داخلا في مقدورهم، يحصلون منه على ما ييسر لهم تصور النشأة الآخرة. ويكون المطلوب حينئذ أن ينظروا كيف تبدأ الحياة في النبات والحيوان والإنسان في كل مكان. ويكون السير في الأرض لتنبيه الحواس والمشاعر برؤية المشاهد الجديدة، ودعوتها إلى التأمل والتدبر في آثار قدرة الله على إنشاء الحياة التي تبرز في كل لحظة من لحظات الليل والنهار»[1].

واليوم استطاع العلم الحديث أن يؤكد الكثير من معاني تلك الآية الكريمة، بما أتيح للإنسان من إمكانات علمية، جعلته يرتاد الآفاق برًا وبحرًا وجوًا؛ ليقف في رحلاته تلك على دلائل بدء الخلق في كثير من مظاهر الكون.

وهناك ملمح علمي آخر نستشفه من التعبير بالفعل الماضي في قول الله جل وعلا: ﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾، وهو إشارة إلى إمكانية السير في الأرض والبحث للكشف عن كيفية بدء الخليقة على كوكب الأرض عبر الحفريات.

لقد تفاعل سلف هذه الأمة بإيجابية مع هذه الآية ومثيلاتها، ففقهوا معناها وعملوا بمقتضاها، فساروا في الأرض وضربوا في مناكبها متأملين ومكتشفين سنن الله في الآفاق والأنفس، فأبدعوا واخترعوا ونبغ منهم علماء في مختلف العلوم والفنون، وقدموا للبشرية أنموذجا راقيا من الحضارة شهد بتألقها الأعداء قبل الأصدقاء.

واليوم لا يخفى ما في واقع المسلمين من تقصير في تطبيق هذه الآية ومثيلاتها، حين ركنوا إلى الكسل والأماني، وقعدوا عن السير في الأرض والتأمل في سنن الآفاق والأنفس، وتركوا الساحة لغيرهم يكتشفون مكنونات الكون ويسخرون مدخراته في حياتهم، مما منحهم تفوقًا هائلًا في مجال التكنولوجيا والمعلوماتية، يقف المسلمون إزاءها مشدوهين، لا يسهمون فيها بشيء سوى الاستهلاك بطعم المذلة والمهانة أمام طغيان وجبروت العالم الغربي.

لقد كان المسلمون أحق بهذه الإنجازات انطلاقا من تعاليم كتابهم الذي فتح لهم آفاق

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٧٣٠.

السير في الأرض لاكتشاف سنن الله تعالى في الخلق، وتوجيهها الوجهة الإيمانية التي تسعد البشرية وتمنحها الحياة الطيبة.

ثانيًا: مخاطبة المكذبين:

يمثل خطاب المكذبين من الكفار والمشركين أغلب آيات السير، ويأتي إما مباشرا، أو غير مباشر -وهو الغالب- ويكون بضمير الغيبة مع الاستفهام الإنكاري،أو الخطاب بواسطة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد كشف الله جل شأنه في تلك الآيات مخازي أولئك المكذبين، وهي تدور في مجملها حول جريمتين هما: تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم، وإنكار البعث، وسأذكر كل جريمة على حدة.

أولًا: تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ورد في أربعة مواضع هي: [الأنعام: ١٠-١١]، [يوسف: ١٠٩]، [النحل: ٣٥-٣٦]، [الحج: ٤٢ - ٤٦].

خوطب فيها المكذبون خطابًا شديدًا فيه تهديد ووعيد بمصير مشؤوم ، كالذي طال المكذبين بالرسل من قبل، ولا يتسع المقام لذكرها جميعا، لذلك سأكتفي بعرض أنموذجين فقط.

الأنموذج الأول: نقرؤه في قول الله جلت قدرته: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج: ٤٢ - ٤٦].

فالمقطع تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما ناله من أذى المشركين، وحض له على الصبر على ما يلحقه منهم من السب والتكذيب، يقال له: «لست بأوحدي في التكذيب، فقد كذب الرسل قبلك أقوامهم، وكفاك بهم أسوة »[1].

ثم ذكر ما أصاب أولئك المكذبين بعد الإملاء والاستدراج، فقد أحل الله تعالى بهم عقابه، فأبدلهم بالنعمة محنة، وبالحياة هلاكا، وبالعمارة خرابًا، وقد عرض المقطع مصارع الأقوام في مشهد شاخص مؤثر؛ قرًى مدمرةٌ خاويةٌ، وآبارٌ معطلةٌ مهجورةٌ، وقصورٌ مشيدةٌ خاليةٌ وموحشةٌ، وهي مشاهد تتحدث بالعبر وتنطق بالعظات، رآها وسمع عنها كفار قريش، ولكن لا عبرة ولا موعظة، ومن ثم يأتي السؤال في استنكار وتعجيب من عدم تأثير تلك المشاهد في نفوس أولئك المكذبين، ولكن إذا عرف

(١) الكشاف، الزمخشري،٤/ ٢٠٠.

السبب بطل العجب، فالقوم نزلوا إلى درك من البهيمية، فتعطلت آلات المعرفة لديهم، فلا القلوب تعي ولا الآذان تسمع، ولذلك يرون ولا يدركون، ويسمعون ولا يعتبرون.

الأنموذج الثاني: من خطاب المكذبين بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم يستوقفنا في سورة يوسف في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾ [يوسف: ١٠٩].

فالآية الكريمة رد على اعتراض المشركين على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، واستغرابهم أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم بشرًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٤﴾ [الإسراء: ٩٤].

فبين الله جل ذكره أن إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام من البشر سنة إلهية قديمة، فهل كان الرسل السابقون أمثال: إبراهيم وإسماعيل وموسى وعيسى عليهم السلام، ممن يقر المشركون بنبوتهم إلا بشرًا؟ فلماذا الاستغراب من بشرية خاتمهم صلى الله عليه وسلم؟

ثم توعدهم سبحانه وتعالى بالمصير المشئوم والعاقبة السيئة التي صار إليها الهالكون السابقون الذين اعترضوا على أنبيائهم، وقد رأوا بأعينهم آثارهم وبقايا ديارهم في رحلاتهم وأسفارهم، وهو المقصود بقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾.

فقد ساروا ورأوا ولكنهم لم يتعظوا ولم يعتبروا، إذ كان همهم الدنيا؛ بها شغفوا وعليها تهالكوا وفي ملذاتها انغمسوا، ونسوا حظهم من الآخرة، ولذلك جاءهم الوعيد في قوله جل ذكره: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، وفيها أيضا وعدٌ للمؤمنين الذين اتقوا ربهم بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، وفي الالتفات إلى المشركين بالخطاب بقوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ زيادة توبيخ وتقريع، يقول: «أفلا يعقل هؤلاء المشركون بالله حقيقة ما نقول لهم، ونخبرهم به من سوء عاقبة الكفر، وغب ما يصير إليه حال أهله، مع ما قد عاينوا ورأوا وسمعوا مما حل بمن قبلهم من الأمم الكافرة المكذبة رسل ربها»[(١)].

ثانيًا: إنكار البعث: وقد ورد فيه ثلاثة نماذج هي:

الأنموذج الأول: في قول الله جل وعلا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا

(١) جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٣٨٢.

﴿لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [النمل: ٦٧ - ٦٩].

قال ابن كثير: «يقول الله تعالى مخبرا عن منكري البعث من المشركين: أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظاما ورفاتًا وترابا، ثم قال: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: ما زلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا، وما نرى له حقيقة ولا وقوعًا. وقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: يعنون: ما هذا الوعد بإعادة الأبدان، ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: أخذه قوم عمن قبلهم، من قبلهم يتلقاه بعض عن بعض، وليس له حقيقة. قال الله تعالى مجيبا لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء: ﴿سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: المكذبين بالرسل وما جاؤوهم به من أمر المعاد وغيره، كيف حلت بهم نقم الله وعذابه ونكاله، ونجى الله من بينهم الرسل ومن اتبعهم من المؤمنين، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته»[(١)].

فإنكار هؤلاء المجرمين للبعث وصل حد التبجح، فما يخبرهم به النبي صلى الله عليه وسلم عن البعث والنشور - في اعتقادهم- حديث خرافة حكاه الأولون وسطروه وتلقفه من جاء بعدهم، ولم يقع منه شيء، ولما أمعن الذين كفروا في إنكارهم وعاندوا، أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يحذرهم من عواقب إنكارهم؛ بأن يسيروا في الأرض ويعتبروا بمن كان قبلهم من المكذبين رسل الله، وكيف دمر الله عليهم، فخلت منهم الديار، وتعفت منهم الآثار، وتلك سنة الله في كل مجرم لا يؤمن بالله واليوم الآخر.

الأنموذج الثاني: ورد في قول المولى تبارك وتعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم: ٧ - ٩].

وقد سبق ذكر معاني التفكر في الخلق الواردة في هذه الآيات، فلا حاجة لتكراره، ويهمنا في هذا المقام الإشارة إلى أن المخاطبين بالسير في الأرض منكرون للبعث، بدليل قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾، وقد أنكر الله جل وعلا عليهم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٢٠٨.

غفلتهم، ويوبخهم كما يتضح من الاستفهام الإنكاري الذي تكرر مرتين، ونعى عليهم تعاميهم عن أدلة قدرته على إعادة الخلق المبثوثة في آيات الآفاق والأنفس، أو سنته في أخذ الظالمين الذين رأوا آثارهم وديارهم، فلا هم تبصروا بالأولى، ولا هم اتعظوا بالثانية، فلم يعد ينتظرهم إلا المصير المشؤوم الذي طال أمما ظالمة قبلهم، كانت أقوى وأشد منهم، فما أغنى عنهم ذلك من الله شيئًا.

الأنموذج الثالث: ورد في قول الله جلت قدرته: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [غافر: ١٨ - ٢١].

وليس المقصود بيان معاني هذا المقطع، وإنما سقته لبيان العلاقة بين الأمر بالسير وما سبقه من إنذار بيوم الأزفة، وتعني: يوم القيامة، وسميت بذلك لقربها وضيق وقتها[١].

فالآيات الثلاث الأولى تصوير لمشهد المكذبين يوم القيامة، وما يحيط بهم من كرب شديد حين تبلغ القلوب الحناجر، وقد يئسوا من شفيع يسعى لهم بعدم المؤاخذة بذنوبهم، ويئسوا أيضًا من استطاعة إخفاء شيء من نواياهم أو أدنى حركات أعمالهم على ربهم[٢]، يعرض عليهم هذا المشهد من يوم الحشر الذي يكذب به المشركون كأنه رأي العين.

ولما علم الله جل وعلا جحودهم وعنادهم، نقلهم من إنذارهم بعذاب الآخرة إلى موعظتهم وتحذيرهم من عذاب الدنيا كما حل بأمم أمثالهم، فخاطبهم في الآية الرابعة منكرًا وموبخًا: أولم يسر هؤلاء المقيمون على شركهم بالله، المكذبون رسوله من قريش، في البلاد، فيروا ما الذي كان خاتمة الأمم الذين كانوا من قبلهم، كانوا أشد منهم بطشًا، وأبقى في الأرض آثارًا، فلم تنفعهم شدة قواهم، وعظم أجسامهم، إذ جاءهم أمر الله، وأخذهم بما أجرموا من معاصيه واكتسبوا من الآثام، ولكنه أباد جمعهم، وصارت مساكنهم خاويةً منهم بما ظلموا، وما كان لهم من عذاب الله إذ جاءهم، من واقٍ يقيهم، فيدفعه عنهم[٣].

تلك أهم النماذج من آيات السير في

(١) انظر: المفردات، الراغب، ص ١٣.

(٢) انظر: التحرير والتبوير، ابن عاشور، ٢٤/ ١١٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٣٠٥.

القرآن الكريم التي خوطب بها المكذبون للنبي صلى الله عليه وسلم والمنكرون للبعث، حاولت أن أقف عند دلالاتها ومعانيها، وما تحمل من النذر لكل من يسلك هذا السبيل، فيحل عليه العذاب ، كما حل بالأمم التي كذبت رسلها، فجعلها الله عبرة لمن يعتبر.

موضوعات ذات صلة

الأرض، البصر، التفكر، السعي، المشي





الشجر

عناصر الموضوع

المجلد التاسع عشر

مفهوم الشجر

أولًا: المعنى اللغوي:

الشجر لغة: جمع شجرة، وهي في اللغة ما كان على ساق من نبات الأرض، قال ابن فارس: «الشين والجيم والراء أصلان متداخلان، يقرب بعضهما من بعض، ولا يخلو معناهما من تداخل الشيء بعضه في بعض، ومن علوٍ في شيءٍ وارتفاع؛ فالشجر معروفٌ، الواحدة شجرة، وهي لا تخلو من ارتفاعٍ وتداخل أغصان، ووادٍ شجر: كثير الشجر، ويقال: هذه الأرض أشجر من غيرها، أي: أكثر شجرًا. والشجر: كل نبتٍ له ساقٌ»[١].

وقيل أيضًا: «كل ما كان على ساق من نبات الأرض فهو شجر، أو كل ما تنبت الأرض فهو شجر، فعلى هذا الكلأ والعشب شجر، وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦﴾[الرحمن: ٦]: إن النجم ما ينجم من الأرض مما ليس له ساق، والشجر ما له ساق، كما هو المستفاد من العطف، نعم عطف الجنس على النوع وبالضد مشهور، وما يشعره الشجر من الاختلاط حاصل في العشب والكلأ أيضا»[٢].

ويطلق اسم الشجر على كل ما تنبته الأرض من المرعى، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾[النحل: ١٠].

أي: «ترعون مواشيكم السائمة في ذلك الشجر الذي هو المرعى، والعرب تقول: سامت المواشي، إذا رعت في المرعى الذي ينبته الله بالمطر، وأسامها صاحبها: أي رعاها فيه»[٣].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

وأما تعريف الشجر في الاصطلاح فلا يخرج عن المعنى اللغوي في تعريفه.

ومما تقدم يمكن تعريف الشجر: بأنه كل ما ينبت على وجه الأرض من نبات له ساق صلب يقوم عليه، وتجنى ثماره، ويتصل بالأرض مع بروز ارتفاعه عنها وعلوه على غيره من النبات.

(١) مقاييس اللغة ٣/ ٢٤٦.
(٢) الكليات، الكفوي، ص٥٢٣.
(٣) انظر: الأساليب والإطلاقات العربية، محمود المنياوي، ص٥٠.



الشجر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (شجر) في الاستعمال القرآني (٢٦) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الاسم	٢٦	﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨]

وجاء الشجر في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو الشجر المعروف، وسمي بذلك لأنه لا يخلو من ارتفاع وتداخل أغصان[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٣٧٥.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٥٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ الزَّرع:

الزرع لغةً:

من الفعل زرع، بمعنى: طرح البذر في الأرض، يقال: يزرعه زرعًا وزراعةً: بذره، والاسم الزرع، وجمعه زروع، والزرع: الإنبات، يقال: زرعه الله ، أي : أنبته[1].

الزرع اصطلاحًا:

نفس المعنى اللغوي؛ إذ الزرع في الاصطلاح يعني الإنبات، قال الراغب: «الزرع الإنبات، وحقيقة ذلك تكون بالأمور الإلهية دون البشرية، قال عز وجل ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٤].

فنسب الحرث إليهم، ونفى عنهم الزرع، ونسبه إلى نفسه، وإذا نسب إلى العبد فلكونه فاعلا للأسباب التي هي سبب الزرع،كما تقول : أنبت كذا إذا كنت من أسباب نباته، والزرع في الأصل مصدر، وعبر به عن المزروع، ويقال: زرع الله ولدك، تشبيهًا، كما تقول: أنبته الله»[2].

الصلة بين الزرع والشجر:

الزرع: ما ينبت على غير ساق، والشجر ما له ساق وأغصان، يبقى صيفا وشتاء[3]، ويفرق أيضًا: بأن الزرع موسمي فله مواسم يزرع فيها، وأخرى يحصد فيها.

٢ النبات:

النبات لغة:

نبت: النون والباء والتاء أصل واحد يدل على نماءٍ في مزروع، يقال : نبت، وأنبتت الأرض، ونبت الشجر ، أي: غرسته، وكل ما أنبت الله في الأرض فهو نبتٌ والنبات فعله، ويجري مجرى اسمه، يقال: أنبت الله النبات إنباتًا ونحو ذلك[4].

النبات اصطلاحًا:

«الحي النامي لا يملك فراق منشه ويعيش بجذور ممتدة في الأرض أو في الماء وما

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٨٢٦.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢١٢.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٦٦.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٧٨، لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٩٥.

أخرجته الأرض من شجر ونحوه، وأنبتت الأرض، أي : أخرجت النبات، والبقل نشأ وربا، ويقال: أنبت الله البقل، أخرجه من الأرض فهو منبوت، وأنبت الله الصبي نباتا حسنا»[(١)].

الصلة بين النبات والشجر:

النبات هو كل ما ينبت من الأرض بقدرة الله تعالى دون تدخل البشر، وبذلك يكون النبات أعم من الزرع والغرس والشجر، لأن ما بعد الإنبات يشترك العباد فيه بالغرس والسقي والحفظ وغيره.

النبات أعم من الشجر؛ إذ يشمل الزرع: وهو ما ينبت على غير ساق، والشجر ما له ساق وأغصان.

٣ الحرث:

الحرث لغةً:

مصدر حرث، بمعنى عمل في الأرض، وشقها، وأثارها، وأعدها للزراعة [(٢)]، قال ابن منظور: «العمل في الأرض زرعًا كان أو غرسًا، وقد يكون الحرث نفس الزرع» [(٣)].

الحرث اصطلاحًا:

لا يختلف عن المعنى اللغوي؛ إذ هو: «إلقاء البذر في الأرض، وتهيؤها للزرع، ويسمى المحروث حرثًا »[(٤)].

الصلة بين الحرث والشجر:

من خلال ما سبق يتبين أن الحرث هو ما يقوم به الزارع في الأرض من عملٍ لإنبات النبات والحبوب والأشجار، ويطلق على ما يخرج من تلك الأرض التي حرثت، فالحرث عمل المزارع، أما الشجر فهو ما يحرثه المزارع من النبات مما له ساق وأغصان، والحرث بذلك أخص من الشجر؛ إذ الشجر يشمل الحرث، ويشمل غيره مما ينبته الله عز وجل.

والشجر أخص من وجه؛ إذ الحرث يشمل النبات والحبوب والأشجار.

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٨٩٢.
(٢) انظر: المصدر السابق ١/ ١٦٤.
(٣) لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٨١٩.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص١١٢.

الشجر دليل الوحدانية والقدرة

وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تقرر وحدانية الله تعالى وتنزع عن المسلم كل الشبهات التي قد تطرأ على الأذهان ويثيرها بعض أعداء الإسلام بكل وسيلة لغرض تشكيك المسلم بعقيدته السليمة والتشويش عليه، وتثبت وجود الخالق الواحد الذي خلق الكون، ومن هذه الآيات آيات ذكر فيها الشجر، وهي رد على كل من يدعي شريكًا للباري تعالى دون برهان أو دليل، وتثبت أيضًا قدرة الله تعالى على البعث والإعادة والنشور، وسيتبين ذلك من خلال النقاط الآتية:

أولًا: دليل الوحدانية:

من الآيات التي جاءت تقرر وحدانية الله تعالى في النفوس آيات الشجر، كما في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠﴾ [النمل: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ أي: ما تقدرون أنتم أن تنبتوا شجرها، فمن هو دونكم أشد وأبعد، فكيف أشركتم في العبادة وتسمية الإلهية من هو دونكم في كل شيء؟!، وقوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا إله مع الله[1].

والاستفهام في الآية الكريمة بمعنى الإنكار[2] أي: لا إله مع الله، وهذا يدل على عدم وجود المساواة بين الله تعالى وغيره في الإلوهية والوحدانية.

أي: لم تكونوا تقدرون على إنبات شجرها، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق، المستقل بذلك المتفرد به، دون ما سواه من الأصنام والأنداد، كما يعترف به هؤلاء المشركون، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

أي: هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، وإنما يستحق أن يفرد بالعبادة من هو المتفرد بالخلق والرزق؛ ولهذا قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، أي: أإله مع الله يعبد، وقد تبين لكم ولكل ذي لب مما يعترفون به أيضا أنه الخالق الرازق[3].

يقول الإمام الرازي في تفسير هذه الآية

---

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٨/ ١٢٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ٢٠/ ١٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٢٠٢.

الكريمة: «معناه: ما كنتم لتنبتوا، لأنه تعالى لم يحرم عليهم أن ينبتوا الشجر، إنما نفى عنهم أن يمكنهم إنباتها، فإنه تعالى هو القادر على إنبات الشجر»[(١)].

وإسناد الإنبات إليه سبحانه، لكيلا يظن أحد أن ذلك الإنبات من الأخذ بالأسباب والمسببات، وأنه فعل طبائع الأشياء، ويبين الله تعالى أن ذلك الإنبات منه، وهو فوق الأسباب والمسببات، سبحانه بديع السماوات والأرض، والخالق لكل شيء[(٢)].

وتأتي (كان) للمضي وللتوكيد ،وبمعنى القدرة ، كقوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾، أي ما قدرتم[(٣)].

أما بالنسبة لإنبات الحدائق في الآية الكريمة ففيه إشارتان بيانيتان:

الأولى: أنه عبر بالإنبات للأشجار مع أنه في آيات أخريات كان يضيف الإنبات إلى الزرع ويعبر عن خلق الأشجار، بقوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾[الأنعام: ٩٥].

وذكر الإنبات هنا بالنسبة للحدائق ذات الأشجار الوارفة الظلال؛ لبيان عظيم قدرته في أنه ينبت هذه الدوحات والأشجار العظام، ويتعهد من حال النبات، حتى يصير فيحاء ذات بهجة وزينة، ويسر الناظرين مرآها وثمرها اليانع، وقطوفها الدانية.

الثانية: هي قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾، كان هنا: كان الناقصة، ونفيها معناها نفي الكينونة، أي: ليس في وجود ولا كيان، أن لكم، أي : في قدرتهم، أن تنبتوا شجرها، إنما ينبتها العزيز الرحيم، والخلاق العظيم[(٤)].

وهذا يعني عجز الإنسان التام وعدم قدرته أن ينبت الأشجار مهما بلغ من العلم والمعرفة في فنون الزراعة وحرفتها، فعلى الرغم من قدرته على أن ينبت النبات بوضع البذر في الأرض مع العناية والمداراة إلا أن الإنبات لا يقدر عليه أحد سوى الله تعالى ؛ إذ هو القادر على ذلك.

وفي هذه الآية الكريمة أيضًا رد على شبهات بعض المشككين منها:

أولًا: في الرد على عبدة الأوثان، وأنه سبحانه وتعالى هو الخالق لأصول النعم وفروعها، فكيف تحسن عبادة ما لا منفعة منه البتة.

ثم إنه سبحانه وتعالى نبه على أن هذا الإنبات في الحدائق لا يقدر عليه إلا الله تعالى، لأن أحدنا لو قدر عليه لما احتاج إلى غرس ومصابرة على ظهور الثمرة وإذا كان تعالى هو المختص بهذا الإنعام وجب أن

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٠/ ١٧٥.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، ١٠/ ٥٤٧١.
(٣) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٤/ ٣١١.
(٤) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥٤٧١.

يخص بالعبادة[1].

وبالتأكيد أنه لا يخفى على عبدة الأوثان التي يصنعونها بأيدهم، أن هذه الأوثان عاجزة عن فعل أي شيء فكيف بإنبات الشجر.

ثانيًا: الرد على شبهة أن منبت الشجرة هو الإنسان.

«فإن الإنسان يقول: أنا الذي ألقي البذر في الأرض الحرة وأسقيها الماء وأسعى في تشميسها، وفاعل السبب فاعل للمسبب، فإذن أنا المنبت للشجرة، فلما كان هذا الاحتمال قائما، لا جرم أزال هذا الاحتمال فرجع من لفظ الغيبة إلى قوله: فأنبتنا، وقال: ما كان لكم أن تنبتوا شجرها؛ لأن الإنسان قد يأتي بالبذر والسقي والكرب والتشميس ثم لا يأتي على وفق مراده، والذي يقع على وفق مراده فإنه يكون جاهلا بطبعه ومقداره وكيفيته ، فكيف يكون فاعلا لها»[2].

وبهذا الكلام يتبين عجز الإنسان بل وانعدام قدرته على أن ينبت النبات مهما هيأ له من ظروف ملائمة من ماء وهواء وضوء وتربة صالحة للزراعة ، فيبقى الأمر متعلقًا بقدرة الله تعالى ، فهو القادر عليه وحده، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٤].

ويتضح مما مضى أن الله تعالى هو المختص بالقدرة على خلق الأرض التي فيها هذا الشجر وغيره، واختصاص فعل الإنبات بذاته تعالى، فإنبات الشجر بأنواعه المختلفة والحدائق والبساتين المختلفة الأصناف والألوان، والثمار والروائح، كل ذلك لا يقدر عليه إلا قادر خالق ، وهو الله وحده، لذلك وجب أن يكون هو المختص بالإلوهية والوحدانية.

ثانيًا: دليل القدرة على البعث:

أنكر البعض البعث واستبعد إحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم ، وهؤلاء عرض القرآن الكريم لأقوالهم ورد عليها بشكل قاطع يؤكد أن البعث والنشور من وقائع اليوم الآخر بكل يقين.

ولا شك أن التكذيب بالبعث كان من أكثر شبهات الكافرين وما زالت موجودة إلى وقتنا الحاضر حيث ما زال إلى الآن يوجد من لا يؤمنون ببعث أو نشور أو حساب، ولهذا فقد أطال القران الكريم في الرد على تلك الشبهات وإثبات مسألة البعث وترسيخها في النفوس بأساليب كثيرة ومتنوعة لإقامة الحجة على المخالفين، وفي هذا البحث لسنا بصدد بيان كل ما جاء به القرآن الكريم من دلائل تثبت وجود البعث

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٤/ ٥٦٣.
(٢) المصدر السابق.

وترد على شبهات الكافرين، بل سنقتصر على بيان الدلائل المتعلقة بآيات الشجر التي ارتبط بعضها بقضية البعث والتي ساقها القرآن الكريم لبيان وحسم هذه القضية من الناحية العقلية.

وقد أعطى الله تعالى لنا شواهد ودلائل متنوعة وكثيرة في الدنيا تؤكد إمكان حصول البعث يوم القيامة ، ومن ذلك ما جاء متعلقًا بالنبات عامة من حيث إنباته وإحيائه وإظهاره للوجود، والشجر بصورة خاصة في آياته التي جاءت ترسخ مفهوم البعث في النفوس ، كما في الأدلة الآتية:

أولًا: إخراج النار المتوقدة من الشجر الأخضر.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: ٨٠].

أي: «الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضرًا نضرًا ذا ثمر وينع، ثم أعاده إلى أن صار حطبًا يابسًا، توقد به النار، كذلك هو فعال لما يشاء قادر على ما يريد ، لا يمنعه شيء»[(١)].

ولا شك أن إخراج النار من الشجر الأخضر فيه دليل على الإعادة والبعث.

قال الزركشي: «فعلم سبحانه كيفية الاستدلال برد النشأة الأخرى إلى الأولى والجمع بينهما بعلة الحدوث ، ثم زاد في الحجاج بقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾، وهذا في غاية البيان في رد الشيء إلى نظيره والجمع بينهما من حيث تبديل الأعراض عليهما»[(٢)].

فنبه سبحانه على وحدانيته ودلل على قدرته على إحياء الموات بما يشاهد من إخراج النار من العود الندي الرطب.

ويتضح مما تقدم أن الشجر شاهدٌ من شواهد قدرة الله تعالى، وخلق النار وإيقادها من الشجر الأخضر فيه دليل واضح على البعث وقدرة الله تعالى على الإنشاء والإعادة، وأن القول بالبعث والمعاد وحصول الحشر والنشر غير مستبعد في العقول.

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الواقعة: ٧١-٧٢].

وجه الاستدلال: «أن النار صاعدة والشجرة هابطة، وأيضا النار لطيفة والشجرة كثيفة، وأيضا النار نورانية والشجرة ظلمانية، والنار حارة يابسة والشجرة باردة رطبة، فإذا أمسك الله تعالى في داخل تلك الشجرة الأجزاء النورانية النارية فقد جمع بقدرته بين هذه الأشياء المتنافرة، فإذا لم يعجز عن ذلك ، فكيف يعجز عن تركيب الحيوانات

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٥٩٥.

(٢) البرهان في علوم القرآن، ٢/ ٢٧.

وتأليفها؟! والله تعالى ذكر هذه الدلالة في سورة يس فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾ [يس: ٨٠] [(١)].

وقيل أيضًا: «ووجه دلالة النار على البعث أن النار تكمن في الشجر والحجر، ثم تظهر بالقدح، وتشب بالنفخ، فالحجر والشجر كالقبر، والقدح والنفخ كالنفخة في الصور» [(٢)].

ويبدو أن الكلام الأخير هو الأقرب في تشبيه خروج النار من الشجر الأخضر بالبعث والنشور، ويذكر الإمام الرازي في تفسيره لشجرة النار وجوهًا:

أحدها: أنها الشجرة التي توري النار منها بالزند، والزندة كالمرخ.

وثانيها: الشجرة التي تصلح لإيقاد النار كالحطب، فإنها لو لم تكن لم يسهل إيقاد النار؛ لأن النار لا تتعلق بكل شيء كما تتعلق بالحطب.

وثالثها: أصول شعلها ووقود شجرتها ولولا كونها ذات شعل لما صلحت لإنضاج الأشياء والباقي ظاهر [(٣)].

وفي هذه الآية الكريمة تذكرة لنار القيامة فيجب على العاقل أن يخشى الله تعالى وعذابه إذا رأى النار الموقدة، وتذكرة بصحة البعث، لأن من قدر على إيداع النار في الشجر الأخضر لا يعجز عن إيداع الحرارة الغريزية في بدن الميت [(٤)].

ومما تقدم يتضح بيان قدرة الله تعالى على إيجاد المسببات من غير سبب ظاهر، كخلق النار من الشجر الأخضر الرطب، كما تقدم في الآيتين السابقتين، وإيجاد النار مختص بالله تعالى وحده، وتشبيه إيجاد النار المستخرجة بإيجاد الإنسان، كما خلق آدم عليه السلام من غير أب ولا أم، وتشبيهها أيضا بالبعث والنشور، وكلها راجعة إلى قدرة الله تعالى وعظمته في إخراج الوجود من العدم، وقد ارتبطت الآيتان الكريمتان بدليل استخراج النار من الشجر الأخضر والاستدلال بها على البعث بعد الموت، فإن الله تعالى ألهم الناس استخراج النار من الشجر الأخضر على رغم التنافر بين خاصيتيهما كما مضى سابقا.

ثانيًا: ومن أدلة البعث أيضا إحياء النبات.

وكون إنبات النبات بعد عدمه من براهين البعث ورد في آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٤].

ومعنى الآية الكريمة: أي أفرأيتم البذر

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢/ ٣٥٥.
(٢) انظر: استخراج الجدال من القرآن الكريم، ابن الحنبلي، ١/ ٩٦.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٩/ ٤٢٣.
(٤) المصدر السابق.

الذي تجعلونه في الأرض بعد حرثها، أي : تحريكها وتسويتها أأنتم تزرعونه أي: تجعلونه زرعا، ثم تنمونه إلى أن يصير مدركا صالحا للأكل أم نحن الزارعون له، ولا شك أن الجواب الذي لا جواب غيره هو أن يقال: أنت يا ربنا الزارع المنبت، ونحن لا قدرة لنا على ذلك، فيقال لهم: كل عاقل يعلم أن من أنبت هذا السنبل من هذا البذر الذي تعفن في باطن الأرض قادر على أن يبعثكم بعد موتكم[1].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: ٣٩].

ومن خلال هاتين الآيتين يستدل أنه من قدر على إخراج النار من الشجر الأخضر، والشجرة الباسقة من بذرة صغيرة لا يعجزه عن جمع الأجزاء وتركيب الأعضاء بعد تفرقها وتفتتها، ولا أحد يقدر على فعل ذلك سوى الله تعالى عز وجل.

منافع الشجر

خلق الله تعالى المخلوقات كلها لحكم ومنافع كثيرة ، ومنها الشجر ، فهو يكون غذاءً للإنسان والحيوان على السواء، أو دواءً ومن أغصانه نارًا وظلًا، ومن أخشابه سكنًا ومنافع كثيرة ، كالكتابة وغير ذلك، كما سيتبين من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الثمرة:

جاء في القرآن الكريم ذكر لعدد كبير من الأشجار وثمارها أمثال: «النخيل، والتين، والزيتون، والأعناب، والرطب، والرمان، والموز (الطلح)، والعدس، والبصل، والقثاء» وغيرها، بناءً على أن الشجر قد يطلق على ما له ساق وعلى ما ليس له ساق، كما مضى في التعريف اللغوي للشجر، وكلها لها منافع وفوائد ووظائف، حيث إن أبرز منافع الثمار كونها مصدرًا أساسيًا للغذاء ورزقًا مستمرًا يسد حاجات الإنسان والحيوان، وتعد بذلك قيمة غذائية أساسية من مقومات الحياة شأنها شأن الماء والهواء.

فالثمار لغة: جمع ثمر، والثمر: حمل الشجر، وثمر الشجر، وأثمر: صار فيه الثمر، والثامر: ما خرج ثمره، والمثمر: ما بلغ أن يجنى[2].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، ٧/ ٥٣١.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ١٠٦، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٣٥٩.

واصطلاحًا: اسم لكل ما يستطعم من أحمال الشجر[1].

ولا فرق بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للثمار، والمعنى القريب لها هو كل ما خرج من الأشجار من أحمالها سواء أكان يؤكل أم لا يؤكل، وهي جزء منها، وديمومة بقائها، ويجمع على ثمار وأثمار وثمرات وثمر.

ويأتي لفظ الثمار في القرآن الكريم في آيات كثيرة ومتنوعة، في أربعة وعشرين موضعًا، ومعلوم أن هذه الثمار ترتبط مع الشجر ؛ لأنها حملها وسبب بقائها، ومن هذه الآيات التي ورد ذكرها ما يأتي:

جاء ذكر الثمار بلفظ المفرد في آية واحدة وذلك في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة: ٢٥].

وجاء ذكر الثمار بلفظ (ثمرات) غير المعرفة في أربعة مواضع منها ما يأتي:

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [النحل: ٦٧].

أي: وجعل لكم من ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا[2].

وفي الآية دلالة على امتنان الله تعالى على عباده بثمار هاتين الشجرتين المباركتين التمر والزبيب كونهما رزقا حسنا.

وقوله تعالى: ﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

قال الزمخشري: «النعمة في أن يرزقوا أنواع الثمرات حاضرة في وادٍ يباب[3] ليس فيه نجم ولا شجر ولا ماء، لا جرم أن الله عز وجل أجاب دعوة إبراهيم، فجعله حرما آمنا ﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾، ثم فضله في وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف، وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثمارا، وفي أي بلد من بلاد الشرق والغرب ترى الأعجوبة التي يريكها الله بوادٍ غير ذي زرع، وهي اجتماع البواكير والفواكه المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد»[4].

وجاء ذكر الثمار بلفظ (الثمرات) معرفة في اثني عشر موضعا حسب ترتيب المصحف منها ما يأتي:

قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ

(١) الكليات، الكفوي ص٣٢٣.

(٢) تفسير يحيى بن سلام، ١/ ٧٢.

(٣) أي: خراب.
انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ١٤٥.

(٤) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٥٦٠.

﴿فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦﴾ [البقرة: ١٢٦].

لقد ذكرت الثمرات في هذه الآيات معرفة، وإن كان في آيات أخرى قد جاء لفظ الثمرات غير معرف ، كما ذكرناها في سورة النحل والقصص وفاطر وفصلت، وكونها غير معرفة، لكونه يفيد التبعيض.

وجاء كذلك بلفظ الجمع بصيغة (ثمره) في أربعة مواضع منها ما يأتي:

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٩٩﴾ [الأنعام: ٩٩].

وقوله تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١﴾ [الأنعام: ١٤١].

ويتضح من الآيات السابقة أن لفظ الثمار جاء في القرآن الكريم في مواضع متعددة ومتنوعة ، وهي تدل على معنى واحد كونها تمثل أحمال الأشجار، وتعد الأشجار وثمارها أصل الحياة، فهي مستمرة ومتجددة، ومنافعها كثيرة ومتعددة ، فهي نعمة من الله تعالى على عباده حيث سخر كل الأشجار وثمارها لخدمة الإنسان من الغذاء والدواء وغيرها من المنافع، وزينة تتمتع بها الأبصار من حيث تنوع أشكالها وألوانها وروائحها في الدنيا والآخرة، إضافة إلى المنافع الأخرى التي سوف يأتي ذكرها لاحقًا، والثمار هي حصيلة الزرع، ولا يمكن أن يستمر الزرع في الحياة دون وجود الثمار، وتعد قيمة مادية ومعنوية لجهد الإنسان وعمله في الحياة، لذا ينبغي للمؤمن أن يراعي حق الله تعالى فيها بما أوجبه عليه من فرض الزكاة، كما قال تعالى: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

ويجدر بنا هنا أن نعطي مثالاً من القرآن الكريم في بيان منافع الشجر ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ ٢٠﴾ [المؤمنون:

٢٠].

فالشجرة المذكورة في الآية هي شجرة الزيتون بإجماع المفسرين[(١)].

ومعنى الآية الكريمة: وأنشأنا لكم شجرة الزيتون التي تنبت في هذا الجبل بتلك البقعة المباركة، وتثمر زيتونًا تصنع منه الزيوت التي يدهن بها، وتتخذ إداما للآكلين[(٢)].

أي: «تنبت بنباتٍ وثمرٍ فيه الدهن ، وهو الزيت، فجاء في هذه الآية إطلاق الدهن مرادًا به النبات والثمر الذي يوجد في داخله الدهن، وهذا من إطلاق الحال في الشيء وإرادة محله، إذ الذي ينبت هي الفروع والورق والثمرات التي يوجد فيها الدهن، وفائدة هذا المجاز الإيجاز، وتوجيه نظر المخاطبين لما في شجرة الزيتون من دهن عظيم النفع للناس، كي يولوا زيت الزيتون اهتمامًا خاصًا، ويشكروا نعمة الله عليهم به»[(٣)].

وقد أكدت السنة النبوية فوائد شجرة الزيتون بأحاديث كثيرة ، منها ما جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين نعمة الزيتون حين قال عليه الصلاة والسلام: (كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه من شجرة مباركة)[(٤)].

أي: إجعلوه إدامًا لخبزكم ولطعامكم، وادهنوا به أجسامكم.

ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد علم ما بهذه الشجرة من فوائد جمة جعلت منها شجرة مباركة ، لذلك أشاد بها وحث الناس عليها لما فيها من بركة في الغذاء والدواء.

وأما فوائد الزيتون من الناحية العلمية والطبية فسيأتي ذكرها لاحقًا إن شاء الله تعالى في المبحث الثامن في لمسات إعجازية في الشجر.

ثانيًا: إيقاد النار:

ذكرنا فيما مضى أن خلق النار وإيقادها من الشجر الأخضر فيه دليل الوحدانية والبعث، وفي هذا المطلب ستتطرق إلى ما يخص إحدى منافع الشجر كونه مصدرًا أساسيًا للحصول على النار التي لا تستغني

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٢١، النكت والعيون، الماوردي، ٤/ ٥٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٢/ ١١٤، مدارك التنزيل، النسفي، ٢/ ٤٦٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ١٨، أوضح التفاسير، ١/ ٤١٣، أضواء البيان، ٥/ ٣٣٠.

(٢) تفسير المراغي، ١٨/ ١٥.

(٣) البلاغة العربية، عبد الرحمن بن حسن حبنكة، ٢/ ٢٧٩.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٦٠٥٥، ٢٥/ ٤٥١، والترمذي في سننه، أبواب الأطعمة، باب ما جاء في أكل الزيت، ٤/ ٢٨٥، رقم ١٨٥١.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٢٩، رقم ٤٤٩٨.

عنها البشرية إطلاقا، حيث ترتبط فائدتها في أغراض متعددة ، منها الحصول على الطاقة، والدفء، والاستضاءة، والطهي، وما إلى ذلك، فكله يعتمد على النار التي مصدرها الشجر الأخضر.

وبذلك تعد نعمة وجود النار وإيقادها من الشجر من أبرز النعم التي من الله تعالى بها على عباده حين خلق لهم النار المتقدة من الشجر الأخضر الرطب ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [يس: ٨٠].

ومعنى ذلك أن القرآن الكريم قد ربط بين النار والشجر الأخضر وجعل منها إعجازًا علميًا قائمًا إلى يوم القيامة ، ودعا البشرية إلى التفكر بخلق النار وإيقادها من الشجر الأخضر بقوله ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠].

يقول صاحب الظلال في تفسيره لهذه الآية: «والمشاهدة الأولية الساذجة تقنع بصدق هذه العجيبة التي يمرون عليها غافلين، عجيبة أن هذا الشجر الأخضر الريان بالماء، يحتك بعضه ببعض ، فيولد نارا ثم يصير هو وقود النار بعد الاخضرار، والمعرفة العلمية العميقة لطبيعة الحرارة التي يختزنها الشجر الأخضر من الطاقة الشمسية التي يمتصها، ويحتفظ بها ، وهو ريان بالماء ناضر بالخضرة التي تولد النار عند الاحتكاك، كما تولد النار عند الاحتراق، هذه المعرفة العلمية تزيد العجيبة بروزا في الحس ووضوحا، والخالق هو الذي أودع الشجر خصائصه هذه، والذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، غير أننا لا نرى الأشياء بهذه العين المفتوحة ولا نتدبرها بذلك الحس الواعي، فلا تكشف لنا عن أسرارها المعجبة، ولا تدلنا على مبدع الوجود، ولو فتحنا لها قلوبنا لباحت لنا بأسرارها، ولعشنا معها في عبادة دائمة وتسبيح»[1].

ويتضح مما مضى بيان عظمة الخالق في استخدام الشجر الأخضر للنار على الرغم من أن الشجر الأخضر يحوي على الماء الذي يطفئ النار، وهذا يعني أن الشجر بصفته نبات هو أصل النار والوقود ، سواء أكان بصورة خشب أم زيت أم غاز إلى غير ذلك، وأن من أبرز منافع الشجر المتعددة الحصول على النار المتوقدة التي يستعملها الإنسان في الإنارة والطهي والتدفئة ونحو ذلك، فالنار عنصر أساسي في حياة الإنسان لا يستطيع الاستغناء عنها ، فتشبه الماء والهواء من حيث حاجة الإنسان إليها.

ثالثًا: بناء السكن:

إن الشجر بصورة عامة له قيمة كبرى في حياة الإنسان منذ القدم وإلى وقتنا الحاضر،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٩٧٧.

فلم يستغن الإنسان عن الأشجار الكبيرة والصغيرة، وجذوعها وأخشابها في بناء المساكن على مر الزمان.

ونقتصر في هذا المطلب على ما جاء ذكره في القرآن الكريم حين ضرب الله تعالى لنا مثلًا في اتخاذ النحل من الشجر بيوتًا على سبيل الإلهام في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [النحل: ٦٨].

ومعنى ذلك أن الله تعالى ألهم هذه المخلوقات القدرة العجيبة في دقة النظام والبناء ما يعجز عن فعله البشر، وفي ذلك حكم عظيمة في بيان ضعف الإنسان وعجزه أمام قدرة الله تعالى بإلهام تلك الحشرة الصغيرة التي ليس لها عقل بناء تلك البيوت المتناسقة والمتساوية الأضلاع دون كلل أو تعب خلافًا للإنسان.

قال الزمخشري: «الإيحاء إلى النحل: إلهامها والقذف في قلوبها وتعليمها على وجه هو أعلم به، لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه»[(١)].

وقال ابن كثير: «المراد بالوحي هاهنا: الإلهام والهداية والإرشاد إلى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتا تأوي إليها، ومن الشجر ومما يعرشون، ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تسديسها ورصها، بحيث لا يكون بينها خلل»[(٢)].

ثم فسر سبحانه ما أوحى به إليها بقوله: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾، أي: اجعلي لك بيوتا في الجبال تأوين إليها، أو في الشجر أو فيما يعرش الناس ويبنون من البيوت والسقف والكروم ونحوها[(٣)].

أي: تأخذ من فروع الأشجار بيوتا تصنع فيها ما يصنعه صاحب البيت فيه.

ويؤكد العلم الحديث أن بعض العلماء الذين كرسوا جهودهم لدراسة حياة الحشرات وقفوا على حقائق عجيبة وألفوا مئات الكتب التي أثبتت صحة ما جاء في القرآن من أن هناك فصائل برية من النحل تسكن الجبال ، وتتخذ من مغاراتها مأوى لها، وأن منه سلالات تتخذ من الأشجار سكنا بأن تلجأ إلى الثقوب الموجودة في جذوع الأشجار ، وتتخذ منها بيوتا تأوى إليها، ولما أراد الإنسان أن ينتفع بعسل النحل استأنسها وصنع لها خلايا من الطين أو الخشب يعيش فيها وهكذا تبين الآية الكريمة كيف كانت هذه الحشرات بإلهام من الله تأوى إلى مساكنها المختلفة منذ القدم إلى يومنا هذا[(٤)].

ويتضح مما مضى ومن خلال الآية

(١) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٦١٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٥٨١.

(٣) انظر: تفسير المراغي، ١٤/ ١٠٤.

(٤) انظر: القرآن وإعجازه العلمي، ١/ ١٥١.

الكريمة فائدة الشجر من حيث اتخاذه سكنا للنحل بإلهام من الله تعالى، فلا يرى للنحل بيتًا في غير الجبال والأشجار ومما يعرش الناس لها ويبنون، واتخاذها لهذا السكن هو أمر من الله تعالى لها أن تسكن في هذه البيوت المتنوعة فكان انقيادها على وجه الخضوع والطاعة والامتثال.

رابعًا: الظل:

تحدث القرآن الكريم عن «الظل والظلال» في العديد من الآيات القرآنية في سور مختلفة بدلالات متنوعة جاءت بحسب موضوعاتها، ولسنا بصدد ذكر كل أنواع الظلال التي وردت في القرآن الكريم، بل سنحاول في هذا المحور أن نقتصر على توضيح منافع الشجر المرتبطة بالظل من خلال الآيات القرآنية المتعلقة بها.

ذكر الله تعالى في القرآن الكريم منافع الشجر من حيث استعماله كظل يقي الناس من الحر في أحد عشر موضعًا تشمل الدنيا والآخرة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء: ٥٧].

وفي قوله: ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ قال الضحاك: يعني: ظلال أشجار الجنة[1].

ووصف بالظليل وصفا مشتقًا من اسم الموصوف للدلالة على بلوغه الغاية في جنسه[2].

وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس: ٥٦].

أي: في ظلال الأشجار[3].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾ [المرسلات: ٤١].

والمراد بالظلال: ظلال الشجر[4].

وقيل: أي: تكاثف أشجار؛ إذ لا شمس يظل من حرها[5].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ [النحل: ٨١].

أي: ومن نعمة الله عليكم أيها الناس أن جعل لكم مما خلق من الأشجار وغيرها ظلالا تستظلون بها من شدة الحر، وهي جمع ظل[6].

---

(١) تفسير السمرقندي، ١/ ٣١١.
(٢) التحرير والتنوير، ٥/ ٩٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٥٨٣.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣٨٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٩/ ١٦٧.
(٥) انظر: تفسير الجلالين، ص٧٨٦.
(٦) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٢٦٩.

وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى صير، بأن خلق لنا أشجارًا تظل الناس في الحرور، وفي الصحاري تجد الأشجار المظلة، وقال سبحانه وتعالى: ﴿مِّمَّا خَلَقَ﴾، ولم يذكر شيئا بعينه؛ لأن أنواع ما خلق وكان منه الظلال كثيرة، فالجنات تتفيأ ظلالها بالغدو والآصال ، والبيوت فيها ظلال، لمن يكون بجوارها، والغمام يكف وهج الشمس وحرارتها، وإن هذه الظلال نعمة من الله تعالى في أرض صحراوية جدباء لا ماء يرطب جوها، ولا نسيم عليل يطفئ حرها؛ ولذلك كانت من نعم الله التي أنعم بها على سكانها الذين آتاهم الله تعالى مع ذلك جلدًا وقوة احتمال، فكانت هذه نعمًا أنعم الله بها عليهم ليستطيعوا أن يعيشوا وأن ينعموا في خيراتها[1].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل: ٤٨].

والمعنى: «انظروا وفكروا فيما خلق من أشياء تتفيأ ظلاله، أي: لها فيء، ولهذا الفيء ظل، وتتداخل ظلاله، فالجبال لها فيء والأشجار لها فيء، وكل فيء له ظل، فتتفيؤ هذه الأفياء، ويكون ظلالًا، كما ترى الشجر المتداخل تتفيأ الظلال ذات اليمين وذات الشمال»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان: ١٤].

فيتضح من الآيات السابقة أن الظل هو نعمة من نعم الله تعالى منحها للعباد راحة لهم في الدنيا ونعيم في الآخرة.

وقد صح من رواية الشيخين عن أبي هريرة رضي الله عنه، يبلغ به أنه صلى الله عليه وسلم قال: (**إن في الجنة شجرة، يسير الراكب في ظلها مائة عام، لا يقطعها، فاقرءوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾** [الواقعة: ٣٠][3].

ومعنى الحديث: قال ابن الجوزي رحمه الله: «يقال: إنها طوبى، وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني: وشاهد ذلك عند أحمد والطبراني وابن حبان، (**يسير الراكب في ظلها**) أي: في ناحيتها، وإلا فالظل في عرف أهل الدنيا ما يقي من حر الشمس وأذاها، وقد قال تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣].

وقد يقال: المراد بالظل هنا ما يقابل شعاع الشمس، ومنه ما بين ظهور الصبح إلى طلوع الشمس؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الواقعة: ٣٠] ويمكن أن يكون

---

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٨/ ٤٢٣٦.

(٢) المصدر السابق ٨/ ٤١٨٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾، رقم ٤٨٨١، ٦/ ١٤٦.

للشجرة من النور الباهر ما يكون لما تحته كالحجاب الساتر»[(١)].

إلى غير هذا من الأحاديث في هذا المعنى تبين فوائد الشجر من حيث الاستظلال به في الدنيا والآخرة.

خامسًا: الكتابة:

امتن الله تعالى على الإنسان حين علمه الكتابة وجعل من الشجر وسيلة من وسائل الكتابة حيث قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧].

أي: لو أن سائر شجر الأرض؛ تحولت فروعه وأغصانه إلى أقلام يكتب بها، ﴿وَالْبَحْرُ﴾ الذي لا يحد حده، ولا يبلغ أمده، ﴿يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ تماثله في العمق والسعة والعظم وصارت مياه هذه البحار مجتمعة مدادًا تستمد منه هذه الأقلام وتكتب كلمات الله تعالى: لنفدت هذه الأبحر، ونضب ماؤها؛ و ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾.

وفي هذا يقول الإمام الرازي: «﴿مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾، وحد الشجرة، وجمع الأقلام، ولم يقل: ولو أن ما في الأرض من الأشجار أقلام، ولا قال: ولو أن ما في الأرض من شجرة قلم إشارة إلى التكثير، يعني: ولو أن بعدد كل شجرة أقلاما»[(٢)].

وفضلا عما تقدم فدلالة الآية الكريمة أن الله تعالى ذكر الشجر في هذا الموضع بوصفه الأقلام التي وظيفتها الكتابة، ومداده الماء هو تشبيه مجازي لكلمات الله تعالى التي لا تنفد.

وأما معنى الأقلام: فالقلم الذي يكتب به، والجمع أقلام وقلام[(٣)]، وعادة ما يكون القلم مصنوع من خشب الأشجار وكذلك الألواح.

والألواح: جمع لوح كل صفيحة عريضة من صفائح الخشب؛ قال الأزهري: اللوح صفيحة من صفائح الخشب[(٤)].

وقد ذكر الله تعالى لفظ الألواح في القرآن الكريم على اختلاف مدلولاتها في مواضع من سورة الأعراف منها:

قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

(١) مرقاة المفاتيح، الملا علي القاري، ٩/ ٣٥٧٧.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٥/ ١٢٨.

(٣) لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٤٩٠.

(٤) المصدر السابق، ٢/ ٥٨٤.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)﴾ [الأعراف: ١٥٤].

٤- وقوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣)﴾ [القمر: ١٣].

والغرض من ذكر هذه الآيات الكريمة هو ارتباطها بمنافع الشجر الذي تعمل منه الأقلام والألواح التي لا يستغنى عنها في الكتابة وكذلك صناعة السفن ، فتعد بذلك نعمة من نعم الله تعالى التي امتن بها على عباده.

الشجر والعبادة

ذكر القرآن الكريم الشجر بأنه خلق من مخلوقات الله تعالى تعبده وتعظمه على وجه الانقياد والخضوع والطاعة، وتتمثل هذه العبادة بالسجود والتسبيح كبقية المخلوقات وهذا ما سوف نبينه من خلال النقاط الآتية:

أولًا: السجود والانقياد:

السجود: يطلق على وضع الوجه على الأرض بقصد التعظيم، ويطلق على الوقوع على الأرض مجازًا مرسلًا بعلاقة الإطلاق، أو استعارة ، ومنه قولهم: «نخلة ساجدة» إذا أمالها حملها، وسجود الشجر تطأطؤه بهبوب الرياح ودنو أغصانه للجانين لثماره والخابطين لورقه[1].

وقد ذكر سجود الشجر لله تعالى والانقياد له في موضعين في القرآن الكريم هما:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨)﴾ [الحج: ١٨].

فيخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده

(١) انظر: التحرير والتنوير، ٢٧/ ٢٣٦.

لا شريك له، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعا وكرهًا، وسجود كل شيء مما يختص به، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل: ٤٨].

وأما الجبال والشجر فسجودهما بفيء ظلالهما عن اليمين والشمائل[1].

قال ابن عاشور رحمه الله: «فالسجود له معنى حقيقي ، وهو وضع الجبهة على الأرض ومعنى مجازي ، وهو التعظيم، وقد استعمل فعل يسجد هنا في معنييه المذكورين لا محالة»[2].

ويأتي السجود والانقياد أيضًا في الآية الكريمة بمعنى الخضوع والخشوع ، كما في قوله تعالى: ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: ٤٨].

٢- قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾ [الرحمن: ٦].

وسجودهما يحتمل وجوهًا:

أحدها: سجود خلقة؛ قد جعل الله تعالى في خلقة كل شيء دلالة السجود له والشهادة له بالوحدانية.

والثاني: سجود هذه الأشياء الموات: طاعتها له عن اضطرار وتسخير؛ نحو قوله تعالى: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

والثالث: سجود حقيقة، يجعل الله في سرية هذه الأشياء معنى يسجدون به لله تعالى يعلمه هو، ولا يعلمه غيره؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال بعض الناس: سجودهما: هو تمييل ظلالهما؛ كقوله تعالى: ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾[3].

وفسر أكثر المفسرين[4] كلمة النجم بمعنى النبات المجرد عن الساق، ومنهم من فسر النجم بالكواكب لا سيما مع تأكيد الإيهام بذكر الشمس والقمر، وأما الشجر ما كان له ساق وسجودهما هو طاعتهم المطلقة وخضوعهم وانقيادهم لله عز وجل، وسيرهم مع القوانين الكونية التي خلقها الله تعالى وعدم الخروج عنها على وجه الطاعة والتعظيم والانقياد لأمر الله تعالى.

وسواء أكان النجم نجم السماء أم كان نوعًا من النبات، فسجوده ليس كسجود الإنسان بوضع الرأس على التراب، بل

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ٤٠٣.

(٢) التحرير والتنوير، ١/ ٩٩.

(٣) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٩/ ٤٦٣.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ١١، تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٩/ ٤٦٣، النكت والعيون، الماوردي، ٥/ ٤٢٤، المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥/ ٢٢٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٧/ ١٥٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٤٨٩.

بمعنى التسليم والخضوع لله تعالى، وكل الكائنات خاضعة لله تعالى بالسجود له، ولكن كل بحسبه ولغته، لا ندرك كيفيتها، لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد: ١٥].

بل نؤمن بها كما جاء بها القرآن الكريم.

ثانيًا: التسبيح:

التسبيح في اللغة: هو التنزيه، تقول: سبحت الله تسبيحًا ، أي : نزهته تنزيها، وقيل: تنزيه الله تعالى عن كل ما لا ينبغي له أن يوصف[1]، ولا يخرج معناه الاصطلاحي عن هذه المعاني.

ولا تقتصر عبادة التسبيح على الإنسان بل شملت جميع الموجودات ومنها الشجر، وذلك في عدد من الآيات، منها:

قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

أي: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس لأنها بخلاف لغتكم، وهذا عام في النبات والجماد والحيوانات[2].

والمراد أنها تسبح له بلسان الحال، حيث تدل على الصانع وعلى قدرته وحكمته، فكأنها تنطلق بذلك، وكأنها تنزه الله عز وجل مما لا يجوز عليه من الشركاء وغيرها[3].

وعن عكرمة ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ قال: الشجرة تسبح[4]، وقال قتادة رحمه الله: كل شيء فيه الروح يسبح، من شجر أو شيء فيه الروح[5].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور: ٤١].

ودلالة الآية القرآنية واضحة في تقرير حقيقة التسبيح، وأن كل شيء في الوجود يسبح لله تعالى على وجه التقديس والتعظيم، وكل يسبح بطريقته ولغته التي لا يفهمها البشر ، بل نؤمن بها كما جاءت بالقرآن الكريم.

والملاحظ عدم تخصيص الشجر في هذه الآيات الكريمة إلا أنها تدخل في عموم المخلوقات والموجودات التي تسبح الله تعالى.

---

(١) انظر: لسان العرب، ٢/ ٤٧٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ٧٩.
(٣) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٦٧٠.
(٤) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٤٥٥.
(٥) المصدر السابق، ١٧/ ٤٥٦.

الشجر والابتلاء

ذكر الله تعالى في القرآن الكريم بعض الآيات جاء فيها لفظ الشجر مقرونًا بأحداث كبيرة ومتنوعة ارتبطت بالابتلاء، منها قصة آدم عليه السلام مع الشجرة التي نهي أن يقرب منها ، فأكل منها فصارت عليه محنة وابتلاءً، وقصة صاحب الجنتين، وأصحاب الجنة، وهذا ما سوف نبينه في النقاط الآتية:

أولًا : قصة آدم:

وهي أول قصة ابتلاء ارتبطت مع الشجر لأول إنسان خلقه الله تعالى ، وورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١٩-٢٢].

وملخص قصة آدم عليه السلام التي يرويها أكثر المفسرين تتمثل في أن الله تعالى أمر آدم عليه السلام وزوجته حواء أن يسكنا الجنة ويأكلا من ثمارها، ويبتعدا عن شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها، فأتى الشيطان إلى أدم عليه السلام وحواء، فقال لهما: هل أدلكما على شجرة إن أكلتما منها خلدتما فلم تموتا، وملكتما ملكًا لا ينقضي فيبلى، فحلف لهما على أنه ناصح لهما فيما ادعاه من الكذب.

فأكل آدم عليه السلام وحواء من الشجرة التي نهيا عن الأكل منها، وأطاعا أمر إبليس، وخالفا أمر ربهما ، فانكشفت لهما عوراتهما، وكانت مستورة عن أعينهما، فأقبلا يشدان عليهما من ورق الجنة ليسترا عوراتهما، وناداهما ربهما قال لهما: ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما : إن الشيطان لكما عدو مبين، قالا: ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا ذنوبنا وترحمنا وتتجاوز عنا لنكونن من الخاسرين في العقوبة.

فتاب الله عليهما، وأوحى إليهما: أن اهبطوا من الجنة آدم وحواء وإبليس، بعضكم لبعض عدو، يكون إبليس لهما عدوًا، وهما لإبليس أعداء ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين إلى منتهى آجالكم وإبليس إلى النفخة الأولى، قال الله فيها تحيون، يعني : في الأرض، وفيها تموتون عند منتهى آجالكم ، ومنها تخرجون يوم القيامة[1].

والمتأمل في قصة آدم عليه السلام من

(١) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٢/ ٣٢، جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٣٨٨، أضواء البيان، ٤/ ١١٠.

خلال هذه الآيات القرآنية يجد ذكر الشجرة التي أخرجت آدم عليه السلام وزوجه من الجنة على وجه الابتلاء بعدم القرب والأكل منها.

فقوله تعالى المتكرر في سورة البقرة والأعراف: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، أي: اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم[(١)].

قال قتادة رحمه الله: «ابتلى الله آدم كما ابتلى ، الملائكة قبله وكل شيء خلق مبتلى ولم يدع الله شيئا من خلقه إلا ابتلاه بالطاعة ، فما زال البلاء بآدم حتى وقع فيما نهي عنه»[(٢)].

يقول ابن عاشور في تفسير هذه الآية: «يعني به : ولا تأكلا من الشجرة ؛ لأن قربانها إنما هو لقصد الأكل منها ، فالنهي عن القربان أبلغ من النهي عن الأكل ؛ لأن القرب من الشيء ينشيء داعية وميلا إليه»[(٣)].

ويأتي في هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم: (من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه)[(٤)].

ولم يعرض القرآن الكريم ماهية تلك الشجرة ونوعها التي أكل منها آدم عليه السلام وزوجه، ومع ذلك فقد اختلف أهل التفسير فيها على أقوال، فقد ورد عن علي وابن مسعود وسعيد بن جبير والسدي أنها الكرمة، وعن ابن عباس والحسن وجمهور المفسرين أنها الحنطة، وعن قتادة وابن جريج ونسبه ابن جريج إلى جمع من الصحابة أنها شجرة التين، ووقع في سفر التكوين من التوراة إبهامها وعبر عنها بشجرة معرفة الخير والشر.

وفي هذا يقول الإمام الطبري رحمه الله: «والصواب في ذلك أن يقال: إن الله جل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة، دون سائر أشجارها، فأكلا منها، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلا على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة، وقد قيل: كانت شجرة البر، وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل: كانت شجرة التين، وجائز أن تكون واحدة منها، وذلك علم إذا علم ينفع العالم به علمه، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به»[(٥)].

وعلى أية حال فمهما تعددت الأقوال في بيان نوع الشجرة وتعيينها تبقى مبهمة؛ لأن الله تعالى لم يذكر عنها شيئًا في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية الصحيحة ، فلا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٢٣٤.
(٢) الدر المنثور، السيوطي، ١/ ١٣٠.
(٣) التحرير والتنوير، ١/ ٤٣٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات، ٣/ ٥٣، رقم ٢٠٥١.
(٥) جامع البيان، الطبري، ١/ ٥٢١.

يوجد دليل على تحديد نوعها، ولا يترتب على تحديدها شيء؛ لذلك نؤمن بأنها شجرة من أشجار الجنة كان لها دور كبير في تغيير مسار حياة البشرية كافة حيث ابتلى الله تعالى سيدنا آدم عليه السلام بها حين نهي عن القرب منها ، فدنا منها فصارت عليه ابتلاء ومحنة، فأخرج من تلك الجنة والنعيم لتكون تلك الشجرة سببًا لبداية حياة البشرية على وجه الأرض.

ثانيًا: قصة صاحب الجنتين:

ارتبط مفهوم الشجر مع قصة صاحب الجنتين من حيث كون الشجر أصبح ابتلاء وفتنة بعدما كان نعمة من الله تعالى على صاحبه، حيث إن صاحب الجنتين لم يشكر هذه النعمة ولم ينسبها إلى المنعم، وتمادى في غيه وظلمه، وتجرأ على الكفر بإنكاره البعث والساعة؛ لأنه يعيش في النعم الدنيوية ، ويريدها أن تدوم بصورة أبدية، كما جاءت القصة في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٢-٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ أي: بين حالًا تكون فيها العبرة، وهي حال رجلين مختلفين طاعة وعصيانا، ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾، أي: جعل الله لأحدهما جنتين من كروم، وأحاطهما بنخل ، كفعل كبار الملاك الذين يجعلون مزارعهم ذات جنات وعيون ونخل يحوطها كأنه سور يطوف بها، فتكون مثمرة، ويكون سورها مثمرا لا يكون حديدًا ولا خشبًا، ولا بناءً ، بل يكون نخلًا حيًا مثمرًا يؤتي جناه، وجعلنا بينهما زرعًا، ينتج بقولًا وقمحًا، فحيثما نظرت إلى الجنتين وجدت طعامًا طيبًا، فاكهةً وتمرًا وغيرهما مما هو غذاء ومتعة.

و﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾، أي: ثمرها كاملًا موفورًا وبانتظام لم تتخلف سنة عن أخرى، بل آتت به رتيبا تباعا، ولم تظلم منه شيئا، أي: لم تنقص منه شيئا، ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾، أي: شققنا خلالهما نهرًا يجري والماء موفور، لا تصاب الزروع بحرمان منه، ولا الأرض بجفاف، بل كل شيء ممهد[1].

وقوله: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ قيل: المراد به: المال، روي عن ابن عباس، ومجاهد،

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٩/ ٤٥٢٨.

وقتادة، وقيل: الثمار، وهو أظهر هاهنا[1].

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي: دخل الجنة في هذه الحال التي استولت عليه حال الغرور، وحال التعالي الكاذب وعدم المبالاة إلا بالساعة التي هو فيها، واندفع بها إلى الشرك، وهو بذلك الغرور والكبر وغمط الناس ظالم لنفسه، فظلمه لنفسه بهذا الذي هو محيط به، وقد أداه إلى الشرك كما ذكرنا ، وذلك ظلم عظيم، وقد أداه ذلك إلى أن يقول: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾، فهو حكم بالحاضر على المستقبل، وذلك شأن المادي الذي يأسر الحاضر تفكيره، حتى لا يفكر إلا في محيطه، وقد أكد بقاءها بالنفي بـ (ما)، وبـ (أبدا)، وكأنه يحكم على الله، ويتحكم في المقادير وما هو بشيء، ثم يتطاول فينكر البعث، ويفتات في تقديره، فيقول: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦].

وينفي إيمانه بالساعة ويقول مستهينا غير عابئ كأن الأمر لا يوجب اهتمامه : ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، ويفرض أنه إذا جاءت الساعة ، فإنه سينال مثل ما ينال في الدنيا وأكثر منه، فيقول مغترًا: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ مرجعًا انقلب إليه، بدلا مما كنت فيه، وهو في هذا يقسم مطمئنًا، وهو بهذا يقيس الحال المقبلة على الحال الحاضرة، وكأن جنات الدنيا ممتدة إلى الآخرة ، بل تزيد عليها، وأن هذا أقصى درجات الغرور، فهو يفتات على ربه أو يقسم عليه، وليس من المقربين إليه الذين عادوا بما آتاهم من خير على المحتاجين من اليتامى والمساكين وأبناء السبيل[2].

والمتأمل في قراءة هذه القصة يجد عدم ذكر لفظ الشجر في هذه الآيات الكريمة إلا أنها تدخل في عموم الجنتين التي جاء ذكرها في القصة، ويجد من خلال هذه الآيات القرآنية كيف يفعل الغرور والتكبر بصاحبه حينما يتمكن منه.

ويتضح مما تقدم علاقة الشجر بقصة صاحب الجنتين في كونه ابتلاء ومحنة للذي أوتي الجنتين والذي جحد وعصى وتمرد فكفر بنعمة الله تعالى وأنكرها ، فكان جزاءه أن الله تعالى قطع عنه تلك النعم، وصب عليه أنواع العذاب والحرمان.

ثالثًا: قصة أصحاب الجنة:

ذكر الله تعالى قصة أصحاب الجنة في سورة القلم حيث ضرب للمشركين مثلًا بحال أصحاب الجنة، كما ضرب مثل قريب منه في قصة صاحب الجنتين ، كما مضى ذكرها في المطلب السابق، فكلتاهما

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ١٥٧.

(٢) زهرة التفاسير، ٩/ ٤٥٢٩-٤٥٣٠.

امتحان للمبتلى واختبار شكره لتلك النعم أو كفره بها، فالمثل يضرب لمن كفر بنعمة الله تعالى على سبيل العظة والاعتبار.

وأما أصحاب الجنة فهم الذين ابتلاهم الله بأن أنعم عليهم بجنة، وهي بستان فيها زروع وثمار وأشجار، ثم جحدوا وكفروا بتلك النعمة حين قرروا منع حق الفقير والمسكين من تلك الثمار، ولذلك أنزل الله تعالى على تلك الجنة صاعقة فأحرقتها، وتأتي القصة بسياقها من خلال الآيات الآتية:

قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝١٧ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۝١٨ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ۝٢١ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ۝٢٢ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ۝٢٣ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ۝٢٤ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ۝٢٥ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ۝٢٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٢٧ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٢٩ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ۝٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ۝٣٢﴾ [القلم: ١٧-٣٢].

قال ابن كثير: «هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة، وأعطاهم من النعم الجسيمة، وهو بعثه محمدًا صلى الله عليه وسلم إليهم، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ أي: اختبرناهم، ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه»[1].

وقال ابن عاشور: «فالبلوى المذكورة هنا بلوى بالخير، فإن الله أمد أهل مكة بنعمة الأمن ونعمة الرزق وجعل الرزق يأتيهم من كل جهة، ويسر لهم سبل التجارة في الآفاق بنعمة الإيلاف برحلة الشتاء ورحلة الصيف، فلما أكمل لهم النعمة بإرسال رسول منهم ليكمل لهم صلاح أحوالهم ويهديهم إلى ما فيه النعيم الدائم، فدعاهم وذكرهم بنعم الله، أعرضوا وطغوا ولم يتوجهوا إلى النظر في النعم السالفة ولا في النعمة الكاملة التي أكملت لهم النعم، ووجه المشابهة بين حالهم وحال أصحاب الجنة المذكورة هنا هو الإعراض عن طلب مرضاة الله وعن شكر نعمته، وهذا التمثيل تعريض بالتهديد بأن يلحقهم ما لحق أصحاب الجنة من البؤس بعد النعيم والقحط بعد الخصب»[2].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي: حلفوا فيما بينهم ليجذن ثمرها ليلًا؛ لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء، ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي: فيما حلفوا به»[3].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ١٩٦.
(٢) التحرير والتنوير، ٢٩/ ٧٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ١٩٦.

ومعنى لا يستثنون: «أنهم لا يستثنون من الثمرة شيئًا للمساكين، أي : أقسموا ليصرمن جميع الثمر ولا يتركون منه شيئا، وهذا التعميم مستفاد مما في الصرم من معنى الخزن والانتفاع بالثمرة ، وإلا فإن الصرم لا ينافي إعطاء شيء من المجذوذ لمن يريدون»[1].

ولهذا حنثهم الله في أيمانهم، فقال: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ أي: أصابتها آفة سماوية[2].

قال ابن عاشور: «ولم يعين جنس الطائف لظهور أنه من جنس ما يصيب الجنات من الهلاك، ولا يتعلق غرض بتعيين نوعه؛ لأن العبرة في الحاصل به»[3].

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾، أي: كالليل الأسود، ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ أي: لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضًا ليذهبوا إلى الجذاذ، ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ أي: تريدون الصرام، ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ أي: يتناجون فيما بينهم بحيث لا يسمعون أحدًا كلامهم، أي: يقول بعضهم لبعض: لا تمكنوا اليوم فقيرًا يدخلها عليكم، قال الله تعالى: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ أي: قوة وشدة، ﴿قَادِرِينَ﴾ أي: عليها فيما يزعمون ويرومون، ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ أي: فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها، وهي على الحالة التي قال الله عز وجل قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مدلهمة، لا ينتفع بشيء منها، فاعتقدوا أنهم قد أخطئوا الطريق؛ ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ أي: قد سلكنا إليها غير الطريق فتهنا عنها، ثم رجعوا عما كانوا فيه، وتيقنوا أنها هي فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي: بل هذه هي، ولكن نحن لا حظ لنا ولا نصيب[4].

قال ابن عاشور: «﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ إضراب للانتقال إلى ما هو أهم بالنظر لحال تبييتهم إذ بيتوا حرمان المساكين من فضول ثمرتهم ، فكانوا هم المحرومين من جميع الثمار، فالحرمان الأعظم قد اختص بهم إذ ليس حرمان المساكين بشيء في جانب حرمانهم، ويحتمل: أن يكون الضلال حقيقيًا، أي : ضلال طريق الجنة، أي : قالوا: إنا أخطأنا الطريق في السير إلى جنتنا ؛ لأنهم توهموا أنهم شاهدوا جنة أخرى غير جنتهم التي عهدوها، قالوا ذلك تحيرًا في أمرهم»[5].

ويتبين من كلام المفسرين اعلاه ، ملخص قصة أصحاب الجنة ، وهي أن الله تعالى قد ابتلى أصحاب الجنة في يوم

(١) التحرير والتنوير، ٢٩/ ٨١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ١٩٦.
(٣) التحرير والتنوير، ٢٩/ ٨١.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ١٩٦.
(٥) التحرير والتنوير، ٢٩/ ٨٦.

الحصاد، أي : في يوم جمع الثمار، حيث اتفقوا على أن يجمعوا ثمار هذه الجنة أو البستان في الصباح الباكر، ولا يتركوا من ثمارها شيئًا إلا جمعوه ، فأرسل الله تعالى عليها أثناء الليل وهم نائمون طائفًا من عنده فأحرقها، فأصبحت أشجارها وثمارها محترقة وهم لا يشعرون، فقاموا من نومهم متجهين ليباشروا حصاد تلك الثمار ، وهم يتحدثون بصوت خافت حتى لا ينتبه إليهم أحد، لأنهم قرروا أن يمنعوا حق الفقراء والمساكين في تلك الثمار، ونسوا أن الزكاة والصدقة تنمي المال وتمنعه من الزوال وتضع فيه البركة، ومع ذلك اعتقدوا أنهم ضلوا الطريق، فذهبوا إلى مكان آخر لكنهم فوجئوا بأنها هي الجنة نفسها فكان جزاؤهم أن حرموا من تلك النعم كلها نتيجة ظلمهم وأكلهم حق المساكين.

ويتضح مما مضى أن قصة أصحاب الجنة المذكورة في القرآن الكريم وارتباطها مع الشجر على سبيل الابتلاء والمحنة، حيث أعطت هذه القصة دروسًا في أخذ العبرة من أصحاب تلك الجنة التي حفت بالأشجار والثمار المتنوعة إلا أنهم جحدوا نعمة الله تعالى عليهم، بحرمانهم حق المساكين، مع نسيانهم أن الله تعالى هو المعطي ، وهو القادر على أن يسلب منهم كل النعم، فكان عقابهم الحرمان والهلاك والعذاب، وفي القصة تحذير عن فعلهم وعدم الاستهانة بنعم الله تعالى والحفاظ عليها وعدم التفريط بها، وذلك بالشكر والثناء على الله تعالى مع المسارعة إلى التوبة والاستغفار والرجوع إلى الله تعالى.

الشجر في المثل القرآني

ذكر لنا القرآن الكريم أمثلة كثيرة في مواطن شتى لتوضيح معانٍ كثيرة من إنفاقٍ في سبيل الله وإيمانٍ به تعالى وغيرها، وتقريب هذه المعاني إلى النفوس كي يزداد المؤمن يقينا بها، ومن هذه الأمثلة ما كان المثل فيها هو الشجر، وسيتم الحديث عنها في النقاط الآتية:

أولًا: الحث على الإنفاق في سبيل الله:

ضرب الله تعالى مثلًا للذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل كما جاء في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

قال ابن كثير: «هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال سعيد بن جبير: في طاعة الله، وقال مكحول: يعني به: الإنفاق في الجهاد، من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك، وعن عكرمة عن ابن عباس: الجهاد والحج، يضعف الدرهم فيهما إلى سبعمائة ضعف؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾، وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل، لأصحابها، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة»[(١)].

قال ابن عاشور: «مثل ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تشبيه حال جزائهم وبركتهم، والصلة مؤذنة بأن المراد خصوص حال إنفاقهم بتقدير مثل نفقة الدين، وقد شبه حال إعطاء النفقة ومصادفتها موقعها وما أعطي من الثواب لهم بحال حبة أنبتت سبع سنابل، أي: زرعت في أرض نقية وتراب طيب وأصابها الغيث فأنبتت سبع سنابل»[(٢)].

وجاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف**)[(٣)].

ومعنى الحديث أن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

«وقد ذكر الزمخشري وغيره: أن التشبيه ليس بين الذين ينفقون والحبة، بل بين

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٦٩١.
(٢) التحرير والتنوير، ٣/ ٤١.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب فضل الصيام، ٢/ ٨٠٧، رقم ١١٥١.

الصدقة نفسها والحبة؛ فالكلام فيه مضاف محذوف مقدر في القول، وتقديره: مثل صدقة الذين ينفقون في سبيل الله، فقد شبه سبحانه الصدقة التي تنفق في سبيل الله بحبة تلقى في الأرض، فتخرج عودًا مستويًا قائمًا تتعلق به سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، أي: أنه يتولد عن هذه الحبة التي باركها خالق الحب والنوى سبعمائة حبة، وإسناد الإنبات إليها من حيث اتصاله بها، وأن تلك الحبات هي نماء متولد عنها، وفي الحقيقة إن المنبت هو الله سبحانه وتعالى»[1].

وتعطي الآية المتقدمة دروسًا في الإنفاق في سبيل الله وعدم البخل في المال، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ويرتبط مفهوم الشجر بالإنفاق في سبيل الله من حيث كون السنابل نباتًا، وهي مثل ضربه الله تعالى لبيان هذا الإنفاق.

ومن الجدير بالذكر أن لفظ السنبلة ذكر في القرآن الكريم في مواضع منها:

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف: ٤٣].

ثانيًا: الإيمان والهدى:

ضرب الله تعالى الشجرة المباركة مثالًا على نور إيمان المؤمن وهداه في قوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: ٣٥].

قال الواحدي: «بنوره وهداه يهتدي من في السماوات والأرض، ثم ضرب مثلا لذلك النور الذي يقذفه في قلب المؤمن حتى يهتدي به فقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ وهي الكوة غير النافذة، والمراد بها هاهنا الذي وسط القنديل، وقوله: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ يعني: السراج، ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ لأن النور في الزجاج وضوء النار أبين منه في كل شيء، ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ﴾ لبياضه وصفائه، ﴿دُرِّىٌّ﴾ منسوب إلى أنه كالدر، ﴿يُوقَدُ﴾ أي: الزجاجة، والمعنى للمصباح، ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ أي: من زيت شجرة، ﴿مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ﴾ ليست مما

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ٣١٠، زهرة التفاسير، أبو زهرة ٢/ ٩٧١.

يطلع عليها الشمس في وقت شروقها فقط، ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أو عند الغروب ، والمعنى: ليس يسترها عن الشمس في وقت من النهار شيء فهو أنضر لها وأجود لزيتها ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ لصفائه دون السراج وهو قوله: ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ يعني: نور السراج ونور الزيت ، ثم قال عز من قائل: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾»[1].

فبعد بيان تفسير هذه الآية الكريمة يمكن بيان مفهوم الشجرة المباركة التي ذكرت في الآية الكريمة، وبعد أن شبه الله تعالى الزجاجة وفيها المصباح، بالكوكب الدري المتلألىء، عاد سبحانه وتعالى إلى المصباح، فأخبر أنه: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾، فما المراد من هذه الشجرة؟

اختلف في هذا على ستة أقوال:

الأول: أنها ليست من شجر الشرق دون الغرب، ولا من شجر الغرب دون الشرق؛ لأن الذي يختص بإحدى الجهتين كان أدنى زيتًا، وأضعف ضوءًا ولكنها ما بين الشرق والغرب، كالشام؛ لاجتماع الأمرين فيه؛ وهو قول مالك.

وفي رواية ابن وهب عنه قال: هو الشام، الشرق من هاهنا والغرب من هاهنا، ورأيته لابن شجرة أحد حذاق المفسرين.

الثاني: أنها ليست بشرقية تستر عن الشمس عند الغروب، ولا بغربية تستر عن الشمس وقت الطلوع؛ بل هي بارزة؛ وذلك أحسن لزيتها أيضا؛ قاله قتادة.

الثالث: أنها وسط الشجر، لا تنالها الشمس إذا طلعت ولا إذا غربت، وذلك أجود لزيتها: قاله عطية.

الرابع: أنها ليس في شجر الشرق ولا في شجر الغرب مثلها، قاله يحيى بن سلام.

الخامس: أنها من شجر الجنة لا من الدنيا، قاله الحسن.

السادس: أنها مؤمنة، ليست بنصرانية تصلي إلى الشرق، ولا يهودية تصلي إلى الغرب، وهو قول ابن عمر[2].

وعلى أية حال فأن جميع هذه الأقوال حسنة غير مردودة إلا أن أغلب المفسرين ذكروا أن هذه الشجرة هي هي شجرة الزيتون المباركة ضرب الله تعالى بها مثلا لنوره جل وعلا، ونور إيمان قلب المؤمن وهداه.

وأما وصفها مباركة:

وقيل : إنما وصفت بالبركة لأنها تثبت في الأرض التي بارك الله تعالى فيها للعالمين، وقيل : بارك فيها سبعون نبيا منهم إبراهيم عليه السلام، زيتونة بدل من شجرة، وقال أبو علي: عطف بيان عليها ، وهو مبني على مذهب الكوفيين من تجويزهم عطف البيان في النكرات، وأما البصريون

(١) الوجيز، الواحدي، ص٧٦٤.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي، ٣/ ٤٠٤.

فلا يجوزونه إلا في المعارف، وفي إبهام الشجرة ووصفها بالبركة ثم الإبدال عنها أو بيانها تفخيم لشأنها[1].

وأما علاقة الشجر بهذه الآية الكريمة، كونه مثالًا للهدى والإيمان.

يقول أبو بكر ابن العربي: «فضرب مثلًا للهدى النور، وللقلب المشكاة، وللإيمان المصباح، وللصدر الزجاجة، ولصفاء الصدر وانشراحه الكوكب المضيء، وللاستضاءة سداد المعارف وصلاح الأعمال، وللإيقاد من الزيت الاستمداد من بحر المعارف، وللشجرة انقسام القلوب، والمعارف من أصل العلم الأول، على أغصان إلى أوراق إلى ثمار على اختلاف أنواع الشجر وصفات الأغصان واختلاف حال الثمار في الهيئات والطعوم، وإمكان الجني وتعذره، وحلوه ومره، إلى غير ذلك من معانٍ لا تبلغها القدرة البشرية، ولا تنتهي إليها العلوم الجزئية»[2].

ويتضح مما تقدم ارتباط شجرة الزيتون المباركة بضرب الأمثال في القرآن الكريم، وهي مثل للمؤمن في نور الإيمان والهدى في قلبه.

ثالثًا: كلمات الله تعالى:

ضرب الله تعالى مثلا في الشجر بوصفه أقلاما تكتب بها كلمات الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧].

قال ابن كثير: «ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلامًا، وجعل البحر مدادًا ومده سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام، ونفد ماء البحر، ولو جاء أمثالها مددا»[3].

قال الحسن البصري: «لو جعل شجر الأرض أقلامًا، وجعل البحر مدادًا، وقال الله: «إن من أمري كذا، ومن أمري كذا لنفد ما في البحور، وتكسرت الأقلام»[4].

وقد روي أن هذه الآية نزلت جوابًا لليهود، قال ابن إسحاق: حدثني ابن أبي محمد، عن سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس؛ أن أحبار يهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة: يا محمد، أرأيت قولك: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. إيانا تريد أم قومك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلا، فقالوا: ألست تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شيء؟ فقال رسول

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي، ٩/ ٣٦٠.
(٢) انظر: قانون التأويل، ابن العربي، ١/ ٤٧٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٣٤٨.
(٤) المصدر السابق.

الله صلى الله عليه وسلم: (إنها في علم الله قليل، وعندكم من ذلك ما يكفيكم)، وأنزل الله فيما سألوه عنه من ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ [لقمان: ٢٧][1].

قال الزركشي: «قال المفسرون: والغرض من ذلك الإعلام بكثرة كلماته وهي في نفسها غير متناهية وإنما قرب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى ، لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة، وقال بعض المحققين: إن ما تضمنت الآية أن كلمات الله تعالى لم تكن لتنفد ، ولم تقتض الآية أنها تنفد بأكثر من هذه الأقلام والبحور ، وكما قال الخضر عليه السلام: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من ماء البحر حين غمس منقاره فيها»[2].

قيل لابن عرفة: إن قلت: ما فائدة قوله: ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾، ولو حذف لكان أبلغ، لأنه إذا كان جميع ما في الأرض من شجر، وحجر ومدر وعظام أقلامًا، وكتب بها كلمات الله تعالى فلم تنفد بنفود الأقلام، فأحرى أن لا تنفد حالة كتبها بالأقلام المصنوعة من الشجر فقط، والجواب: بأنه لو لم يقل ، من شجرة ، لزم منه المحال ؛ لأن الأرض فيها الجوهر والعرض فيلزم صيرورة العرض كلاما وهو محال، وكان يلزم عليه المحال، وهو نفود كلمات الله تعالى؛ لأن المحال قد يستلزم محالا، ورده ابن عرفة في مختصره المنطقي: بأنه لو استلزم المحال محالًا لما صدقت قضية تقدمها كاذب، مع أنه قد تصدق وقد تكذب، فإن قلت: هلا قال: ولو أن ما في الأرض من شجر أقلام، فالجواب: أن الشجر أقرب إلى الأقلام من الحجر[3].

قال الرازي: فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾[الكهف: ١٠٩].

ولم يقل من شجر؟ قلنا: لأنه أراد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر شجرة واحدة إلا وقد بريت أقلامًا[4].

ويتضح مما مضى ارتباط مفهوم الشجر بكلمات الله تعالى بوصفه أقلامًا يكتب بها كلمات الله تعالى الباقية التي لا تنفد، مع فرض شجر الأرض أقلامًا، والبحر ممدودًا بسبعة أبحر مدادًا، لا يقع نفاد الكلمات، وهذه صورة مقربة للأذهان بما يتناهى من الشجر والأقلام مع كلمات الله تعالى غير المتناهية، فلو جعلت الأشجار التي في الأرض أقلامًا لكتابة كلمات الله، وجعل مدادها البحر المتصل بمدار سبعة أبحر أخرى، فإن تلك الأقلام ومعها المداد تنفد

(١) المصدر السابق.
(٢) البرهان في علوم القرآن، ٣/ ٥٤.
(٣) انظر: تفسير ابن عرفة، ٣/ ٢٧٦.
(٤) انظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، الرازي، ١/ ٤٠٥.

دون أن تنفد كلمات الله.

قال الزمخشري: «وجاء التعبير بالشجرة على الإفراد دون الجمع لإرادة تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة، حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا قد بريت أقلامًا»[1].

الشجر في الآخرة

أولًا: شجر نعيم:

لا شك أن في الجنة أشجارًا وثمارًا كثيرةً ومتنوعةً لا حصر لها، أعدها الله تعالى لعباده المؤمنين حيث وصفها الله تعالى في القرآن الكريم بأنها نعيم دائم لأصحاب الجنة، كما جاء في الآيات القرآنية نذكر بعضًا منها كما يأتي:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [المرسلات: ٤١-٤٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾﴾ [النبأ: ٣١-٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة: ٢٧-٣٣].

وقال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾ [ص: ٥١].

وقال تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الرحمن: ٦٨].

وقد وردت في القرآن الكريم أسماء لبعض أشجار الجنة وأكدت ذلك السنة النبوية.

(١) الكشاف، الزمخشري، ٣/ ٥٠١.

ومنها ما يأتي:

١ . شجرة طوبى.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ۝٢٩﴾ [الرعد: ٢٩].

قال الزمخشري: «ومعنى (طوبى لك) أصبت خيرا وطيبا، ومحلها النصب أو الرفع، كقولك : طيبا لك، وطيب لك، وسلاما لك، وسلام لك»[١].

قال ابن عاشور: «وطوبى: مصدر من طاب طيبًا إذا حسن، وهي بوزن البشرى والزلفى، قلبت ياؤها واوا لمناسبة الضمة، أي : لهم الخير الكامل ؛ لأنهم اطمأنت قلوبهم بالذكر، فهم في طيب حال: في الدنيا بالاطمئنان، وفي الآخرة بالنعيم الدائم، وهو حسن المئاب ، وهو مرجعهم في آخر أمرهم»[٢].

وذكر الإمام الرازي في تفسير كلمة طوبى ثلاثة أقوال:

القول الأول: إنها اسم شجرة في الجنة، فعن عتبة بن عبد السلمي، يقول: (جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فسأله عن الحوض، وذكر الجنة، ثم قال الأعرابي: فيها فاكهة؟ قال: (نعم، وفيها شجرة تدعى طوبى)، فذكر شيئا لا أدري ما هو؟ قال: أي شجر أرضنا تشبه؟ قال: (ليست تشبه شيئا من شجر أرضك)، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أتيت الشام؟) فقال: لا، قال: (تشبه شجرة بالشام تدعى الجوزة، تنبت على ساق واحد، وينفرش أعلاها)، قال: ما عظم أصلها؟ قال: (لو ارتحلت جذعة من إبل أهلك، ما أحطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتها هرما)[٣].

وحكى أبو بكر الأصم رحمه الله: أن أصل هذه الشجرة في دار النبي صلى الله عليه وسلم وفي دار كل مؤمن منها غصن.

القول الثاني: وهو قول أهل اللغة أن طوبى مصدر من طاب، كبشرى وزلفى، ومعنى طوبى لك، أصبت طيبا، ثم اختلفوا على وجوه: قال ابن عباس رضي الله عنه: فرح وقرة عين لهم، وقال عكرمة: نعم ما لهم، وقيل: غبطة لهم ،عن الضحاك. وقيل: حسنى لهم ، عن قتادة، وقيل: خير وكرامة ، عن أبي بكر الأصم، وقيل: العيش الطيب لهم ، عن الزجاج.

واعلم أن المعاني متقاربة والتفاوت يقرب من أن يكون في اللفظ، والحاصل أنه مبالغة في نيل الطيبات ويدخل فيه جميع اللذات، وتفسيره أن أطيب الأشياء في كل الأمور حاصل لهم.

(١) المصدر السابق ٢/ ٥٢٨.
(٢) التحرير والتنوير، ١٢/ ١٨٢.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٧٦٤٢، ٢٩/ ١٩١.

القول الثالث: إن هذه اللفظة ليست عربية، ثم اختلفوا : فقال بعضهم: طوبى اسم الجنة بالحبشية، وقيل: اسم الجنة بالهندية، وقيل: البستان بالهندية، وهذا القول ضعيف؛ لأنه ليس في القرآن إلا العربي لا سيما واشتقاق هذا اللفظ من اللغة العربية ظاهر[1].

وعلى كلام الزمخشري تكون هذه الكلمة السامية تحية من الله تعالى لعباده المؤمنين، وتكون هذه التحية مقررة لهم بأن لهم السلام والاطمئنان، والطيب في إقامتهم في الجنة، بدليل ما جاء معطوفًا عليها، وهو قوله تعالى: ﴿وَحُسْنُ مَئَابٍ﴾ أي: مآبٍ، ومرجع ونهاية ، هي حسنة في ذاتها، ليجتمع لها طيب الإقامة، وحسن الثواب، بل كلاهما من الثواب[2].

ولا مانع من أن يكون لكلمة طوبى معنيان، الأول ما ذكره الزمخشري، والثاني ما جاء في السنة النبوية من أن طوبى شجرة في الجنة حسب ما جاء به حديث عتبة بن عبد السلمي رضي الله عنه كما مر ذكره.

٢. سدرة المنتهى.

جاء ذكرها في سورة النجم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [النجم: ١٣-١٥].

قال الإمام الطبري: والسدرة: شجرة النبق، وقيل لها سدرة : المنتهى في قول بعض أهل العلم من أهل التأويل، لأنه إليها ينتهي علم كل عالم[3].

والمنتهى هي آخر شيء ومكانها عند جنة المأوى، حيث ينتهي إليها ما يصعد به من الأرض وما يهبط به من فوقها، وجاء في حديث المعراج المشهور لما عرج به جبريل إلى السماء ودخل السماء السابعة قال: «ثم رفعت إلي سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدرة المنتهى»[4].

وأما سبب تسميتها سدرة المنتهى كما جاء في حديث ابن مسعود، قال: (لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها)[5].

جاء عن ابن عباس في تسمية سدرة المنتهى: «لأن علم الملائكة ينتهي إليها ،

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٩/ ٤١.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، ٨/ ٣٩٤٧.

(٣) جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٥١٣.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، ٥/ ٥٢، رقم ٣٨٨٧.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، ١/ ١٥٧، رقم ١٧٣.

ولم يجاوزها أحد إلا رسول صلى الله عليه وسلم»[1].

وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم سدرة المنتهى بما ورد عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ورفعت لي سدرة المنتهى، فإذا نبقها كأنه قلال هجر، وورقها كأنه آذان الفيول، في أصلها أربعة أنهار نهران باطنان، ونهران ظاهران، فسألت جبريل، فقال: أما الباطنان: ففي الجنة، وأما الظاهران: النيل والفرات)[2].

٣. الظل الممدود.

قال تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الواقعة: ٢٧-٣٠].

وظل ممدود: لا يتقلص، بل منبسط لا ينسخه شيء، قال مجاهد: «هذا الظل من سدرها وطلحها»[3].

وذكر بعضهم في تفسير الظل الممدود على أنه شجرة في الجنة ، واعتمدوا في ذلك على ما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، يبلغ به عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن في الجنة شجرة، يسير الراكب في ظلها مائة عام، لا يقطعها، فاقرءوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الواقعة: ٣٠]»[4].

وجاء عن ابن عباس في قوله ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ قال: «شجرة في الجنة على ساق يخرج إليها أهل الجنة فيتحدثون في أصلها ، فيشتهي بعضهم لهو الدنيا فيرسل الله عز وجل ريحًا من الجنة ، فتحرك تلك الشجرة بكل لهو في الدنيا»[5].

ويتضح مما تقدم أن في الجنة أشجارًا كثيرة ومتنوعة أعدت للمؤمنين، ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم بأسمائها ، وأكدتها السنة النبوية بأحاديث كثيرة بينت صفاتها وأنواعها وثمارها.

ثانيًا: شجر عذاب:

كما أن لأهل الجنة شجر نعيم، فإن لأهل النار أيضًا شجر عذابٍ، حيث ورد ذكر شجر العذاب كالشجرة الملعونة أو شجرة الزقوم في مواضع متفرقة في القرآن الكريم من خلال الآيات الآتية:

قال تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم، ٢/ ٢١٤.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ٤/ ١٠٩، رقم ٣٢٠٧.
(٣) البحر المحيط، ١٠/ ٨٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾، رقم ٤٨٨١، ٦/ ١٤٦.
(٥) لباب التأويل، الخازن، ٤/ ٢٣٧.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۝٥٤﴾ [الواقعة: ٥١-٥٤].

وقال تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝٦٦﴾ [الصافات: ٦٢-٦٦]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝٤٤ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ۝٤٦﴾ [الدخان: ٤٣-٤٦].

والمتأمل في هذه الآيات الكريمة يجد أن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم التي جعلت طعامًا للظالمين ، كما وصفها الله تعالى.

ويرى جمهور المفسرين[١] أن الشجرة الملعونة التي جاء ذكرها في سورة الإسراء والصافات والواقعة والدخان هي شجرة الزقوم نفسها.

قال ابن كثير: «وأما «الشجرة الملعونة»، فهي شجرة الزقوم، كما أخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزقوم، فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل لعنه الله بقوله: هاتوا لنا تمرًا وزبدًا، وجعل يأكل هذا بهذا ويقول: تزقموا، فلا نعلم الزقوم غير هذا»[٢].

وذكر في الشجرة الملعونة أقوال:

منها: أنها شجرة الزقوم طعام الأثيم، وقال الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك وسعيد بن جبير وطاووس وابن زيد: وكانت فتنتهم بها قول أبي جهل وأشياعه: النار تأكل الشجر فكيف تنبتها.

ومنها: هي الكشوت[٣] التي تلتوي على الشجر، قاله ابن عباس[٤].

فأما قوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾، وقوله: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾ [الغاشية: ٦].

وقولهم: كيف يكون في النار نبت وشجر، فإنه لا تعلق لهم فيه، إن كان كنى بذلك الضريع وشجرة الزقوم عن جوعهم، وأنهم لا يشبعون وعن شيء مشبهٍ لشجرةٍ تشبه رؤوس الشياطين في قبح منظرها، فليس هناك نبت ولا شجر، وإنما ذلك أمثال وتشبيه، وإذا كان أراد تعالى تحقيق

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٤٨٤، الوجيز، الواحدي، ١/ ٦٣٩، معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ١٤١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ٢٨٢، أنوار التنزيل، البيضاوي، ٣/ ٢٦٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ٩٢.

(٣) نبات مجتث مقطوع الأصل، وقيل: لا أصل له، وهو أصفر يتعلق بأطراف الشوك وأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض. انظر: لسان العرب، ٢/ ١٨١.

(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي، ٣/ ٢٥٣.

نبتٍ وشجرٍ يخرج من النار، فإن ذلك غير مستحيل[1].

وأما قولهم ، إنه لا معنى لتمثيل طلع الشجرة برؤوس الشياطين ، من وجهين:

أحدهما: أن الشجرة لا طلع لها وإنما يكون الطلع دون الشجر.

والوجه الآخر: أننا لا نعرف رؤوس الشياطين، وليس هو ما تعرفه العرب، فيمثل لها به بعض الأشياء، فإنه باطل لأنه إنما أراد بقوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا﴾ ثمرها لطلوعه كل سنةٍ ، ومنه سمي طلع النخل طلعًا عند أول خروجه، مأخوذٌ ذلك من طلوعه، فإذا تغيرت حاله وانتقل إلى حكم آخر سمي باسمٍ آخر من بلحٍ وبسرٍ ورطَب، فطلعها المراد به ثمرها الطالع، وأما الشياطين التي مثلها برؤوسها فإنها حياتٌ خفيفاتٌ الأجسام قبيحات المناظر والرؤوس[2].

قال الرازي: فإن قيل: كيف قال: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ﴾، وليس في القرآن لعن شجرة ما؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: والشجرة الملعونة المذكورة في القرآن.

الثاني: أن معناه : الملعون آكلوها ، وهم الكفرة.

الثالث: أن الملعونة بمعنى المذمومة ، كذا قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وهي مذمومة في القرآن بقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝٤٤﴾، وبقوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾.

الرابع: أن العرب تقول لكل طعام مكروه أو ضار : ملعون، وفي القرآن الإخبار عن ضررها وكراهتها.

الخامس: أن اللعن في اللغة هو الطرد والإبعاد، فالملعون هو المطرود عن رحمة الله تعالى، المبعد عنها، وهذه الشجرة مطرودة مبعدة عن مكان رحمة الله تعالى وهو الجنة؛ لأنها في قعر جهنم، وهذا الإبعاد والطرد مذكور في القرآن بقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾، وقال ابن الأنباري: سميت ملعونة لأنها مبعدة عن منازل أهل الفضل[3].

وصح عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: (والشجرة الملعونة في القرآن هي شجرة الزقوم)[4].

وجاء في الحديث عنه رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ

(١) انظر: الانتصار للقرآن، القاضي أبو بكر الباقلاني، ٢/ ٥٩٩.

(٢) انظر: المصدر السابق ٢/ ٥٩٩- ٦٠٠.

(٣) انظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، ١/ ٢٨٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب القدر، باب ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾، ٨/ ١٢٥، رقم ٦٦١٣.

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟)**[1].

ويتضح مما مضى ارتباط الشجر بصنوف العذاب، وإذا كانت الأشجار ترتبط بالخير والبركة والرزق، فشجرة الزقوم ارتبطت بالشر والفتنة والكفر والعذاب الشديد، وعرفت بأنها الشجرة الملعونة الموجودة في جهنم، أعدها الله تعالى طعامًا للكافرين والظالمين في جهنم.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٥٨٥، ١/ ٣٣٨، والترمذي في سننه، أبواب صفة جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار، ٤/ ٢٨٨، رقم ٢٥٨٥.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٣١، رقم ٥٢٥٠.

لمسات إعجازية في الشجر

قدم القرآن الكريم لنا وجوهًا كثيرة ومتنوعة الأساليب في الشجر من حيث الإعجاز البياني القائم على الفصاحة والبلاغة وبداعة النظم، والإعجاز العلمي الذي يرتبط مع العلم الحديث والتكنولوجيا وتطور منظومة الأبحاث العلمية وعلاقتها مع القرآن الكريم، وكذلك الإعجاز الطبي الذي يتعلق بصحة الإنسان وغذائه ودوائه وارتباطه مع بعض الأشجار والثمار التي ذكرها القرآن الكريم.

ومن هذه الآيات ما يأتي:

١. الإعجاز القرآني في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨﴾ [النحل: ٦٨].

وتبين هذه الآية الكريمة قدرة الله تعالى في مخلوقاته حين ألهم النحل إلهامًا غريزيًا أن تتخذ من الجبال والأشجار بيوتًا تأوي إليها ، وهذه الحشرات منقادة لله تعالى وطائعة له.

ومن عجيب ما خلق الله في النحل أن ألهمها اتخاذ بيوتها مسدسة؛ فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعة الواحدة، وذلك أن الأشكال من المثلث إلى المعشر إذا جمع كل واحد منها إلى أمثاله لم يتصل، وجاءت

بينهما فرج إلا الشكل المسدس فإنه إذا جمع إلى أمثاله (التسديس)، يحمي بعضها بعضًا عند الاتصال[1].

والأعجب من ذلك كله أن الإنسان لا يستطيع أن يبني بيتًا مثل بيوت النحل دون الاستعانة بعلوم الهندسة المعمارية والحسابات الرياضية، وبكل الأدوات والمعدات الحديثة، ومع ذلك فهو عاجز أن يبني بيتًا يشبه بيوت النحل من حيث النظام والدقة والانسجام وانعدام الخلل.

وجعلت كل بيت على قدرها، فإذا تشكل عند حركة النحلة بقدرة الله وعلمه، وملأته عسلا انتقلت إلى غيره بتسخير الله وتقديره وتذليله، إن تركت عسلت، وإن حملت اتبعت، وهي ذات جناح، ولكن القابض الباسط هو الذي سخرها ودبرها[2].

وتأتي اللمسة البيانية الأخرى في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨].

حيث يتساءل الإمام الرازي بقوله: فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾، ولم يقل: في الجبال، وفي الشجر، والاستعمال إنما هو بفي، يقال: اتخذ فلان بيتا في الجبل، أو في الصحراء ونحو ذلك؟ قلنا: «قال الزمخشري: إنما أتى بلفظة (من) لأنه أراد معنى البعضية، وأن لا تبني بيوتها في كل جبل، وكل الشجر، ولا في كل مكان من الجبل والشجر، وأنا أقول: إنه إنما ذكره بلفظة (من) لأنه أراد كون البيت بعض الجبل وبعض الشجر، كما يشاهد ويرى من بناء بيوت النحل، لأنه متخذ من طين أو عيدان في الجبل والشجر، كما تتخذ الطيور، فلو أتى بلفظة (في) لم تدل على هذا المعنى، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [الشعراء: ١٤٩]»[3].

فيتبين مما تقدم حكمة الله تعالى في إلهام النحل اتخاذ مساكنها في الجبال والشجر.

٢. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: ١٤].

والإعجاز البياني في هذه الآية التي ارتبطت مع مفهوم الشجر من حيث كون عصا سليمان عليه السلام كانت من خشب الشجر، فلم يقل الله تعالى في الآية الكريمة (عصاه) بل عبر عنها بقوله تعالى: (منسأته)، والمنسأة: هي العصى، و(نسأ) في اللغة لها دلالتان:

(١) أحكام القرآن، ابن العربي، ٣/ ١٣٦.
(٢) المصدر السابق.
(٣) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، ١/ ٢٥٨.

الأولى: (نسأ) البعير إذا جره وساقه، والمنسأة: هي عصى عظيمة تزجر بها الإبل لتسوقها.

والثانية: (نسأ) بمعنى أخر الشيء (النسيء).

فلماذا استعمل كلمة (منسأة) ولم يستعمل كلمة (عصى)؟

قيل: إن (المنسأة) لها معنيان هما: سوق الإبل والتأخير؛ وفي قصة سليمان عليه السلام كانت العصى تسوق الجن إلى العمل مع أن عليه السلام كان ميتًا إلى أن سقطت العصى وسقط سليمان عليه السلام ، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

فكما أن الراعي يسوق الإبل لتسير، فهذه المنسأة كانت تسوق الجن، والمنسأة كأنها مدة حكم سليمان عليه السلام ، فهي أخرت حكمه إلى أن سقط، فاستعمالها في قصة سليمان عليه السلام أفاد المعنيين واستعمالها من الجهتين اللغويتين في غاية البيان من جهة السوق ومن جهة التأخير.

أما في قصة موسى عليه السلام فاستعمل كلمة العصى في قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه: ١٨].

ليهش بها على غنمه وبها رحمة بالحيوان فهي عكس الأولى، ولا يناسب استخدام كلمة منسأة[1].

وبهذا الكلام يتضح الفرق بين العصا والمنسأة واستعمالهما في القرآن الكريم، ومع كونهما عصى مصنوعة من خشب الأشجار إلا أنهما اختلفا في الاستعمال القرآني من حيث اللغة والبيان ، كما مضى ذكره.

٣. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ [الحج: ١٨].

واللمسة البيانية في هذه الآية الكريمة:

ما ذكره الدكتور فاضل السامرائي بقوله: «ونلاحظ في القرآن أنه تعالى عندما يستعمل (من) يعطف عليها ما لا يعقل كما في قوله تعالى في سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ١٨].

أما عندما يستعمل (ما) فإنه يعطف عليها ما يعقل ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ وهو خط بياني لم

(١) انظر: لمسات بيانية، فاضل السامرائي، ١/ ٧٢٤.

يتخلف في القرآن أبدًا والحكمة البيانية منه الجمع[1].

٤. قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾ [يس: ٨٠].

والإعجاز العلمي في هذه الآية الكريمة هو إخراج النار المتوقدة من الشجر الأخضر، التي فيها أيضًا دلالة على البعث والنشور.

والنظرة العلمية أن وراء هذه الآية حقائق علمية رائعة تدل على إعجاز القرآن العلمي في تقريره أن الشجر الأخضر هو مادة الوقود، أي: مادة الطاقة التي هي عصب الحياة الصناعية في عالمنا المعاصر، فقد دلت الأبحاث الجيولوجية على أن الفحم الحجري والبترول والغازات القابلة للاشتعال تستخرج كلها من باطن الأرض، وذلك لأن النباتات والأشجار والغابات التي نمت فوق سطح الأرض في قديم الأزمان الجيولوجية أتت عليها ظروف متعاقبة من اضطرابات وانكسارات وتقلبات في القشرة الأرضية جعلت تلك الغابات والأشجار تنطمر في باطن الأرض، وتتعرض بعد ذلك لضغوط قوية ولحرارة شديدة ، فتحولت من أشجار خضراء إلى فحم حجري وبترول وغازات ، وهي من مواد الطاقة التي تستخدم نارها وحرارتها في الطهي والإنارة والتدفئة وإدارة المصانع ، فسبحان الله القادر الذى هيأ لحياة الإنسان على سطح الأرض مواد نافعة من باطنها بعد أن تحولت من شجر أخضر إلى فحم أسود وبترول وغازات[2].

ويذكر الدكتور عبد الدائم الكحيل في موسوعته العلمية الإعجاز العلمي الحديث لهذه الآية الكريمة، فيقول: «وأن الذي هيأ الظروف للأشجار والنباتات بعدما فنيت واندثرت وغاصت في التراب وتفتت ،ولم يبق منها شيء يذكر، وأن الذي تركها لتتخمر وتتحول إلى نفط وغاز وفحم حجري، وهذه الأشياء نستطيع اليوم أن نستفيد منها في وقود التدفئة والصناعة والنقل، إن الذي خلق هذه الظروف والقوانين التي تضمن إعادة الحياة للشجر على شكل وقود قادر على أن يخلق ظروفًا جديدة تعيد الحياة للبشر بعد موتهم وقد فنوا.

وفي الوقت الحاضر توصل العلماء إلى اكتشاف جديد يؤكد وجود علاقة قوية بين تشكل العظام والشجر بطريقة لا تخطر على بال أحد من البشر، حيث توصل علماء إيطاليون من مركز أبحاث جامعة فلورنسا إلى اكتشاف طريقة لصناعة العظام من خشب بعض الأشجار ، وهذا ما يوفر مادة

(١) المصدر السابق، ١/ ٨٨٩.

(٢) انظر: القرآن وإعجازه العلمي، ١/ ١٥٥.

جديدة لصناعة بدائل العظام المهشمة بسبب الحوادث أو السرطان.

ويعتمد الاكتشاف العلمي الجديد على تحويل الخشب إلى مادة صلبة قوية التحمل تحاكي إلى حد ما خواص العظام البشرية، وتقول الباحثة «أنا تاميري» رئيسة مجموعة البحث: إن تصنيع العظم يتم بتسخين الخشب عدة مرات ومعالجته بضغط عالٍ مع تغيير التركيب الكيماوي له بإضافة الكالسيوم والفوسفات إليه ليصبح مادة قوية وشديدة التحمل يمكن لحمها بالعظام الحقيقية ، ثم يتم العمل على جعل بنيتها الداخلية مماثلة لعظام الإنسان، وإن تصنيع عظام من الشجر أمر حديث لم يكن لأحد علم به زمن نزول القرآن، وبما أن القرآن قد استخدم مثال الشجر في موضع إحياء العظام وهي رميم، فهذه إشارة خفية لوجود علاقة بين العظم والشجر، ولكن العظم الذي صنعه الله تعالى يتميز بنفخ الروح فيه على عكس العظم الذي صنعه البشر حيث لا روح فيه، وأن الله تعالى يستخدم الحقائق العلمية لإثبات صدق كتابه وصدق وعده، فهذا الذي أنكر إعادة خلق العظام، يحتاج لدليل علمي ليقتنع بأنه من الممكن تصنيع عظام من مادة الشجر على يد البشر، ومن البديهي أن الله أقدر وأعظم من عباده، فهو قادر على إعادة تصنيع أو خلق هذه العظام من جديد.

والأمر الآخر أن الله تبارك وتعالى أشار إلى أمر مهم ، وهو وجود طاقة في الشجر، هذه الطاقة على شكل نار أودعها الله في الأشجار، بقيت لآلاف السنين ، وبسبب العوامل الطبيعية تحولت هذه الأشجار لفحم حجري وغاز طبيعي وبترول، وهذه المكتشفات الجديدة أشار إليها القرآن إشارة خفية بكلمة: ﴿نَارًا﴾، لأننا لا نستفيد من هذه الثروات الطبيعية كالنفط والغاز إلا بعد حرقه وتحوله إلى نار، وبالتالي توليد الطاقة الميكانيكية والكهربائية من هذه النار، ولو قال تعالى: إن الشجر سيتحول إلى بترول، لم يفهم أحد خطاب القرآن، ولكن الله تعالى وضع كلمة ﴿نَارًا﴾ لتكون مناسبة لكل العصور ومهما تطور العلم ، فسبحان الله.

٥. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧].

الإعجاز البياني واللغوي في هذه الآية الكريمة استعمال الشجرة لدلالة على الكتابة بوصفها أقلاما، وهناك بعض الالتفاتات التي أشار إليها الإمام الرازي، والإمام السيوطي في هذه الآية الكريمة.

يقول الإمام الرازي: «فإن قيل: قوله

تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ [لقمان: ٢٧] يطابقه وما في الأبحر من ماء مداد فكيف عدل عنه؟ قلنا: استغنى عن ذكر المداد بقوله تعالى: ﴿يَمُدُّهُ﴾ لأنه من قولك: مد الدواة وأمدها، فجعل البحر المحيط بمنزلة الدواة، والأبحر السبعة المملوءة مدادًا أبدًا صبًا لا ينقطع، فصار نظير ما ذكرتم، ونظيره قول تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ الآية، فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ ولم يقل: من شجر؟ قلنا: لأنه أراد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر شجرة واحدة إلا وقد بريت أقلامًا، فإن قيل: الكلمات جمع قلة والمقصود التعظيم والتفخيم، فكان جمع الكثرة وهو الكلم أشد مناسبة؟ قلنا: جمع القلة أبلغ فيما ذكرتم من المقصود، لأن جمع القلة إذا لم يغن بتلك الأقلام، وذلك والمداد فكيف يغنى جمع الكثرة»[1].

ويشير الإمام السيوطي إلى هذه الآية الكريمة بقوله: «لم قال: من شجرة، ولم يقل: من شجر، باسم الجنس الذي يقتضي العموم؟ فالجواب: أنه أراد تفصيل الشجر إلى شجرة شجرة حتى لا يبقى منها واحدة، فإن قلت: لم قال: ﴿كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ ولم يقل: كلم الله، بجمع الكثرة؟ فالجواب: أن هذا أبلغ، لأنه إذا لم تنفد الكلمات مع أنها جمع قلةٍ فكيف ينفد الجمع الكثير»[2].

ويتضح من كلام الإماميين الجليلين الإعجاز اللغوي والبياني لهذه الآية الكريمة التي وصفت الشجر وصفًا دقيقًا كونه أقلامًا، حيث جاء الآية بلفظ شجرة حتى لا يبقى منها واحدة على وجه الأرض إلا بريت أقلامًا.

٦. قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

واللمسة البيانية في هذه الآية الفرق بين كلمتي (سنبلات) و(سنابل) في القرآن الكريم وكلاهما جمع؟ فالجواب: استخدمت كلمة سنابل جمع كثرة في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

والحديث في السورة عن مضاعفة ثواب المنفق في سبيل الله لذا ناسب السياق أن يؤتى بجمع الكثرة (سنابل)، أما كلمة

(١) انظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، ١/ ٤٠٥-٤٠٦.

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي، ٢/ ٤٠٣.

(سنبلات) كما وردت في سورة يوسف بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ۖ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف: ٤٣].

فهي تدل على جمع قلة، والسياق في سورة يوسف في المنام وما رآه الملك فناسب أن يؤتى بجمع القلة (سنبلات)[١].

٧. قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون: ٢٠].

والإعجاز العلمي والطبي في هذه الآية يبين أن شجرة الزيتون من الأشجار الخشبية التي تعمر طويلًا لمدد تزيد على مئات السنين وتثمر أثمارًا مستمرة بغير جهد من الإنسان، كما تتميز بأنها دائمة الخضرة جميلة المنظر، وتفيد الأبحاث العلمية أن الزيتون يعد مادة غذائية جيدة، ففيه نسبة كبيرة من البروتين، كما يتميز بوجود الأملاح الكلسية والحديدية والفوسفاتية ، وهي مواد هامة وأساسية في غذاء الإنسان، وعلاوة على ذلك فإن الزيتون يحتوي على فيتامينات، ويستخرج من ثماره زيت الزيتون الذي يحتوي على نسبة عالية من الدهون السائلة التي تفيد الجهاز الهضمي عامة والكبد خاصة، ويفضل زيت الزيتون كافة أنواع الدهون الأخرى نباتية أو حيوانية ؛ لأنه لا يسبب أمراضا للدورة الدموية أو الشرايين كغيره من الدهون، كما أنه ملطف للجلد إذ يجعله ناعما مرنا، ولزيت الزيتون استعمالات أخرى كثيرة في الصناعة إذ يحضر منه بعض الصناعات ، ويدخل في تركيب أفضل أنواع الصابون، وتكمن أهمية الزيتون من ناحيتيه الغذائية والدوائية أن الله سبحانه يقسم به في قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾ [التين: ١-٣]. للتنويه بشأن الزيتون وبركته وعظيم منفعته[٢].

ويتضح مما مضى علاقة الشجر وثماره في الإعجاز القرآني بكل أنواعه وما ذكرناه ما هو إلا شيء قليل ولا يتسع المقام لذكر الأمثلة العديدة في هذا المبحث وذلك خشية الإطالة، إلا أن الباحث في هذا الشأن يجد ثراء المكتبات بالكتب التي تناولت مسألة الإعجاز في القرآن الكريم، فضلًا عما هو موجود حاليًا من بحوث ودراسات حديثة تؤكد علاقة الأشجار وثمارها وارتباطها بحياة الإنسان وصحته وغذائه ودوائه من خلال ما جاء في القرآن الكريم.

موضوعات ذات صلة:

الأرض، الأكل، الجنة، الماء، النبات

(١) انظر: لمسات بيانية، فاضل السامرائي ١/ ٦٣٧.

(٢) انظر: القرآن وإعجازه العلمي، ١/ ١٦٤.





عناصر الموضوع

المجلد التاسع عشر

مفهوم الشرب

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الشين والراء والباء أصل واحد منقاس مطرد، وهو الشرب المعروف، ثم يحمل عليه ما يقاربه مجازًا وتشبيهًا. تقول: شربت الماء أشربه شربًا، وهو المصدر. والشرب الاسم. والشرب: القوم الذين يشربون. والشرب: الحظ من الماء.

والمَشْرَب: الوجه الذي يشرب منه، ويكون موضعًا ويكون مصدرًا.

والإشراب: لون قد أشرب من لون، يقال: فيه شربة حمرةٍ. ويقال: أشرب فلان حب فلانٍ، إذا خالط قلبه، قال الله جل ثناؤه: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣]. قال المفسرون: حب العجل»[1].

يتبين مما سبق أن الشرب في اللغة يدور حول معنى واحد، وهو تناول كل مائع، ماء كان أو غيره.

قال تعالى في صفة أهل الجنة: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].

وقال في صفة أهل النار: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ [يونس: ٤].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

المعنى الاصطلاحي للشرب هو المعنى اللغوي، فالشرب: المائع الذي تشتفه الشفتان، وتبلغه إلى الحلق، فيبلع دون مضغ[2].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٢٦٧-٢٦٨.
وانظر: مختار الصحاح، الرازي ص١٦٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ١١٤.



الشرب في الاستعمال القرآني

وردت مادة (شرب) في القرآن الكريم (٣٩) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣	﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ [البقرة:٢٤٩]
الفعل المضارع	٦	﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝٣٣﴾ [المؤمنون:٣٣]
الفعل الأمر	٧	﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم:٢٦]
المصدر	١٥	﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ۝٥٥﴾ [الواقعة:٥٥]
اسم الفاعل	٥	﴿نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ۝٦٦﴾ [النحل:٦٦]
اسم المكان	٣	﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة:٦٠]

وجاء الشرب في القرآن على أربعة وجوه[٢]:

الأول: الشرب المعروف، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ [البقرة: ٢٤٩].

الثاني: الحظ والنصيب من الماء، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]، يعني: حظهم ونصيبهم من الماء.

والثالث: موضع الشرب، ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠].

والرابع: المخالطة وحب الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٩٣]. يعني: تمكن حب العجل من قلوبهم وخالطها.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٢٣٨-٢٤١، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الخاء ص٤٧٩-٤٨٢.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ٣٠٥، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٢/ ٢٥٧، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٩٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الجرع:

الجرع لغة:

هو البلع، أي: تناول الشيء وشربه ماء كان أو غيره.

الجرع اصطلاحًا:

يدل على قلة الشيء المشروب.

والتجرع: تكلف الجرع، وتناول المشروب جرعة جرعة على الاستمرار.

قال تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم: ١٧].

الصلة بين الجرع والشرب:

اللفظان يحملان المعنى نفسه من تناول الشيء وشربه، إلا أن الجرع يزيد عن الشرب في قلة الشيء المشروب، وأنه قد يحمل معنى التكلف، وقد يدل على تناول المشروب جرعة جرعة على الاستمرار[١].

٢ النهل:

النهل لغة:

أول الشرب[٢].

النهل اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين النهل والشرب:

الشرب والنهل يتفقان إذا كانا لمرة واحدة، ويلاحظ أن الشرب أعم من النهل، فالشرب قد يكون مرة ومرتين، وقد يحصل منه الري، أما النهل فلا يكون إلا لأول الشرب، ولا يحصل منه الري غالبًا.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٤٤٤، مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٨٠ ، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٢١١.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٦٤، لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٦٨٠، الكليات، الكفوي ص٨٧٣.

٣ الأكل:

الأكل لغةً:

من أكل الطعام يأكله أكلًا، فهو آكلٌ، والإِكلة بالكسر: الحال التي يأكل عليها؛ متكئًا أو قاعدًا، يقال: إنه لحسن الإكلة، والأَكلة بالفتح: المرة الواحدة المشبعة، والأُكلة بالضم: اسم للقمة [(١)].

الأكل اصطلاحًا:

ليس هناك تعريفٌ اصطلاحيٌ للأكل يختلف عن تعريفه اللغوي، فالأكل معروف ولا يحتاج إلى تعريف، ويطلق لفظ الأكل ويراد به فعل الأكل، أي : تناول الطعام، وقد يطلق ويراد به الطعام نفسه.

الصلة بين الأكل والشرب:

كلاهما من الأطعمة، لكن غلب استعمال الشراب على السوائل، والأكل على ما يمضغ من الطعام.

٤ الطعام:

الطعام لغة:

الطعام اسمٌ جامعٌ لكل ما يؤكل، ويقال: طعم يطعم طعمًا؛ فهو طاعمٌ، إذا أكل، أو ذاق، وإذا استعمل هذا الفعل بمعنى الذواق جاز فيما يؤكل وفيما يشرب. وروي عن ابن عباس أنه قال في زمزم: (إنها طعام طعمٍ، وشفاء سقم)[(٢)] أي: يشبع الإنسان إذا شرب ماءها، كما يشبع من الطعام، ويطعم: بمعنى يشبع، ويطلق الطعام عند الحجازيين على البر خاصة[(٣)].

الطعام اصطلاحًا:

لا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

الصلة بين الطعام والشرب:

الطعام أعم من الشرب، فإذا استعمل بمعنى الذواق جاز فيما يؤكل وفيما يشرب.

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ١٠٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه، رقم ٢٤٧٣، بدون لفظ (وشفاء سقم)، وأخرجه البيهقي في السنن الصغير رقم ١٧٢٤٤/ ٣٥٢، باب دخول الكعبة والصلاة فيها، مرفوعًا من رواية أبي ذر الغفاري.

(٣) انظر: العين، الفراهيدي ٢/ ٢٥، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٣٦٣.

اقتران الشرب بالأكل

الأكل والشراب نعمتان عظيمتان من نعم الله تعالى على خلقه منةً وتفضلًا، فهو الذي خلقهم، وتكفل برزقهم، وامتن عليهم بكثير من النعم، التي منها نعمة الأكل والشرب، ومما نلاحظه في القرآن الكريم اقتران الشرب بالأكل في كثير من المواضع؛ كقول الله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦٠].

وقوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١].

حتى في نعيم الجنة، قال الله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٩].

وتتجلى الحكمة - والله أعلم - من اقتران الشرب بالأكل في القرآن، من ناحيتين:

- في بيان نعمة الله على عباده؛ حيث إن الأكل يحتاج إلى الماء لابتلاع الطعام وازدراده، ولأن الشراب إنما يكون تبعًا للمطعوم في حاجة الجسم إليه[(١)].
- النعمة لا تتم إلا عند الأكل والشرب، ألا ترى أن في البراري التي لا يوجد فيها الماء لا يأكل الإنسان شيئًا مخافة العطش[(٢)].

كما نلاحظ أنه في القرآن كله حيثما اجتمع الأكل والشرب قدم تعالى الأكل على الشرب حتى في نعيم الجنة.

وأما عن الحكمة في تقديم الأكل على الشرب، فيمكن بيانها كالأتي:

- العادة قاضية بأن الأكل قبل الشرب، ولذا قدم الأكل على الشرب حيث وقع[(٣)].
- البداءة بالأكل لأن قوام الجسد به، والاحتياج إلى الشرب حاصل عنه[(٤)].

وقد ورد تقديم الأكل على الشرب في حديث القرآن عن قصة مريم، في قوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٦].

وقد ذكر الإمام الرازي الحكمة من تقديم الأكل على الشرب في هذه الآية فقال: «قدم الأكل على الشرب لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشد من احتياجها إلى شرب الماء؛ لكثرة ما سال منها من الدماء»[(٥)].

الشرب بين الحقيقة والمجاز:

من الآيات التي ورد فيها مادة الشرب قول الله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣].

وقد اختلف المفسرون في قوله:

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٢٠.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤٢٢.

(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ١/ ٢٧٢.

(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٢٥٦، روح المعاني، الألوسي ٨/ ٤٠٤.

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٥٢٨.

﴿وَأُشْرِبُوا﴾ هل المراد به المعنى الحقيقي للشرب، أم أن العرب تستعمل هذه اللفظة بمعنى آخر؟ على قولين:

الأول: أن الشرب في الآية على معناه الحقيقي، والمراد: أنهم شربوا الماء الذي ذري فيه سحالة[1] العجل.

وهذا القول روي عن السدي حيث قال: لما رجع موسى إلى قومه، أخذ العجل الذي وجدهم عاكفين عليه، فذبحه، ثم حرقه[2] بالمبرد، ثم ذراه في اليم، فلم يبق بحر يومئذ يجري إلا وقع فيه شيء منه. ثم قال لهم موسى: اشربوا منه، فشربوا منه، فمن كان يحبه خرج على شاربه الذهب. فذلك حين يقول الله عز وجل: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾[3].

الثاني: أن الشرب في الآية ليس بمعناه الحقيقي، وإنما هذا أسلوب عند العرب، فمن عادتهم أنهم إذا أرادوا العبارة عن مخامرة حب أو بغض في القلب أن يستعيروا لها اسم الشراب[4].

والمقصود من الآية بيان أن حب العجل تداخل في قلوبهم، ورسخ فيها صورته؛ لفرط شغفهم به وحرصهم على عبادته، كما يتداخل الصبغ الثوب، والشراب أعماق البدن[5].

فالشرب في الآية على معناه المجازي، والأسلوب استعارة مكنية، شبه حب عبادة العجل بمشروب لذيذ سائغ الشراب، وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الإشراب[6].

وهذه الاستعارة من فرائد الاستعارات يتمثل بها عند ذكر بلاغة القرآن[7].

والمعنى الراجح هو ما ذكره أصحاب القول الثاني، والقول الأول مردود عليه بما يأتي:

- أن قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾ يبعد هذا القول جدًا؛ لأن الشراب الحقيقي لا يكون في القلب.
- ما قصه الله تعالى لنا في كتابه عما فعل موسى عليه السلام بالعجل يبعد ظاهر هذه الرواية[8].

(١) السحالة: ما سقط من الذهب والفضة ونحوهما إذا سحلا، أي: بردا بالمبرد.
انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٤٠.
(٢) حرقه: برده بالمبرد.
انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٧٠.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٥٨.
(٤) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٢٦٢.
(٥) انظر: فتح البيان، القنوجي ١/ ٢٢٥.
(٦) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٣٢٠.
(٧) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١/ ٢٢٦.
(٨) انظر: روح المعاني، الألوسي ١/ ٣٢٦، المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٣٢٠.

الشرب نعمة إلهية

نعم الله على عباده لا تعد ولا تحصى، فقد امتن الله على عباده بكثير من النعم، ومن هذه النعم نعمة الشرب، قال تعالى على لسان خليله إبراهيم عليه السلام، وهو يخاطب قومه: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩].

فالذي يطعم ويسقي هو رب العالمين، لا غيره.

والحق أن نعمة الشرب تحفها نعم كثيرة، منها ما يتعلق بالشرب في حد ذاته، ومنها ما يتعلق بأصناف الشاربين، ومنها ما يتعلق بالأشربة وهذا بيانها:

أولًا: ما يتعلق بالشرب:

الشرب في ذاته نعمة إلهية، وهذه النعمة الإلهية تكتنفها نعمٌ أخرى عند التأمل، فإيجاد قدرة الشرب في الإنسان نعمة، وخلق الشراب وإيجادها نعمة، وتنوعها نعمة، والحصول عليها نعمة، واستساغتها نعمة والارتواء منها نعمة، والتلذذ بها نعمة؛ ولم يقف الأمر عند هذه النعم، بل خلق الله تعالى في جسم الإنسان أجهزة تعمل بإذن ربها، لا بإرادة من الإنسان، لتحول ما يشربه إلى عناصر يمتصها الدم؛ لينقل كل عنصر إلى الجزء الذي يحتاجه الجسم ولا يخطئ؛ ليتم بذلك تجدد قوة الجسم ونشاطه.

«وحتى تتضح أهمية نعمة الشرب، لابد أن نعلم أن نقص الماء في جسم الانسان يؤدي إلى الجفاف، ويساعد في تزايد نسبه الأملاح في الجسم، وتؤدي كذلك إلى الإصابة بالتعب والإرهاق الجسدي، والإصابة بالصداع، والماء ومركباته الكهربية وجزيئاته لها أهمية ضخمة في كل التفاعلات الحيوية التي تحدث داخل الخلية، وتلك الخواص هي التي تحدد كل الخواص البيولوجية للمواد العضوية الكيماوية الأخرى : مثل البروتينات والأحماض النووية وأغشية الخلايا والريبوسومات وغيرها من التراكيب.

وعلى ذلك فتغير نسب الماء قد يدمر كل التفاعلات الكيماوية، ومن ثم الوظائف الحيوية للخلية»[١].

ومن الآيات التي ورد فيها نعمة الشرب قول الله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦٠].

وقوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١].

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

---

(١) التحديد القرآني لدور المياه في الحياة للدكتور/ إسلام محمد الشبراوي، مقال منشور على موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي.

وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨-٦٩].

وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

وقوله: ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٩].

وغير ذلك من الآيات.

والملاحظ على الآيات التي ورد فيها نعمة الشرب ما يأتي:

١. أنها وردت في سياق الامتنان على الخلق بنعمة الشرب، وغيرها من النعم.

بل ورد في بعض الآيات التصريح بأن الشرب وغيره من نعم الله، وأن الخلق لا يستطيعون إحصاء نعم الله عليهم، ففي سورة النحل ذكر الله تعالى أصنافًا من النعم، حيث ذكر أصولها ومكملاتها، ففي أول السورة نعمة الوحي وإرسال الرسل داعية إلى التوحيد، ثم ذكر الله تعالى نعمته بخلق السموات والأرض، وخلقه الإنسان من نطفة، ونعمته بخلق الأنعام، ونعمة إنزال الماء وشربه، ونعمة إرساء الجبال، وشق الأنهار، وتمديد الطرق، وتزيين السماء بالنجوم، واهتداء الخلق بها، في نظم عجيب، وآيات باهرة، ختمها الله تعالى بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦٠].

فقد نص على المشرب في قوله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ تنبيهًا على المنفعة العظيمة التي هي سبب الحياة[1].

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

فبعد أن ذكر نعمته عليهم بتسخير الدواب والأنعام - شرع يذكر نعمته عليهم في إنزال المطر ونعمة الشرب فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي :إن الذي خلق لكم الأنعام والخيل وسائر البهائم لمنافعكم ومصالحكم هو الذي أنزل المطر من السماء عذبًا زلالًا تشربون منه[2].

هذا الماء يذكر هنا نعمة من نعم الله فيه، وهو ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ فهي خصوصية الشراب التي تبرز في هذا المجال[3].

وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة:

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ١/ ٢٧٢.
(٢) انظر: تفسير المراغي ١٤/ ٥٩.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٦٢.

٦٨-٦٩].

لما ذكر تعالى نعمته على عباده بالطعام، ذكر نعمته عليهم بالشراب العذب الذي منه يشربون، وأنهم لولا أن الله يسره وسهله، لما كان لكم سبيل إليه[١].

وتخصيص هذا الوصف ﴿ٱلَّذِى تَشۡرَبُونَ﴾ بالذكر، مع كثرة منافع الماء؛ لأن الشرب أهم المقاصد التي من أجلها أنزل سبحانه الماء من السحاب، ولأن شرب الماء من أعظم النعم على الإنسان[٢].

فهذه الآيات السابقة تتجلى هداياتها في بيان عظيم نعمة الشرب التي امتن الله بها على عباده، وإنزال الماء الذي فيه وبه قوام حياتهم.

٢. أغلب الآيات التي ورد فيها نعمة الشرب آيات مكية.

قصد القرآن من ورائها بجانب الامتنان على العباد، الاستدلال بنعمة الشرب وغيرها على وحدانية الله، أو إثبات البعث، أو الاثنين معًا.

ومن ذلك قوله: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِى تَشۡرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨-٦٩].

أي: أخبروني أيها الناس عن الماء العذب الذي تشربونه لإطفاء العطش، أأنتم أنزلتموه من السحاب، أم نحن المنزلون بقدرتنا دون غيرنا، فكيف لا تقرون بالتوحيد، وتصدقون بالبعث؟[٣].

وفي قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٌ وَمِنۡهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾

ففي الآية نلحظ أن صيغة تعريف المسند إليه والمسند أفادت الحصر، أي: هو لا غيره. وهذا قصر على خلاف مقتضى الظاهر؛ لأن المخاطبين لا ينكرون ذلك، ولا يدعون له شريكًا في ذلك، ولكنهم لما عبدوا أصنامًا لم تنعم عليهم بذلك، كان حالهم كحال من يدعي أن الأصنام أنعمت عليهم بهذه النعم، فنزلوا منزلة من يدعي الشركة لله في الخلق، فكان القصر قصر إفراد تخريجًا للكلام على خلاف مقتضى الظاهر[٤].

وذكر مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته في نعمة الشرب، وأن هذه النعمة وما يكتنفها من نعم أعظم دليل على وحدانية الله، وقدرته على بعث المخلوقات للحساب والجزاء.

٣. ورد في بعض الآيات الأمر بالأكل

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٣٥.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ١٩٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٣٢٣، التفسير الوسيط، طنطاوي ١٤/ ١٧٨.

(٣) التفسير المنير، الزحيلي ٢٧/ ٢٦٩.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ١١٣.

والشرب.

وذلك نحو قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾[الأعراف: ٣١].

وسواء كان الأمر للوجوب أو للإباحة، ففي ذلك بيان نعمة الله على عباده؛ حيث أمرهم بما فيه منفعتهم، وأرشدهم إلى ما فيه وبه قوام حياتهم.

قال الشيخ الشعراوي عند تفسير هذه الآية: «والمأكل والمشرب من الأمور المباحة؛ لأن فيها مقومات الحياة»[1].

٤. النعمة الإلهية في الشرب لم تقتصر على البشر فقط، بل شملت أنعامهم، وزروعهم.

وهذا من رحمة الله بعباده، فالله أنزل الماء من السماء؛ ليسقى البشر، والزرع والغراس، والأعشاب التي يكون منها طعام الإنسان والحيوان، وكل ما يدب على ظهر الأرض.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾

ففي هذه الآية يخبرنا الله أن الذي خلق لكم الأنعام والخيل وسائر البهائم لمنافعكم ومصالحكم هو الذي أنزل المطر من السماء عذبًا زلالًا تشربون منه، وتسقون أشجاركم ونباتكم التي تسيمون فيها أنعامكم، وفيها ترعى[2].

فالآية استئناف لذكر دليل آخر من مظاهر بديع خلق الله تعالى أدمج فيه امتنان بما يأتي به ذلك الماء العجيب من المنافع للناس من نعمة الشراب، ونعمة الطعام للحيوان الذي به قوام حياة الناس وللناس أنفسهم[3].

وقوله: ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ أي: أن الماء لكم منه شراب، تشربونه وتدفعون به العطش، وعبر سبحانه بقوله تعالى: ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ ليشمل شربه ريًا وسقيًا[4].

وهذا الماء الذي أنعم الله علينا بشربه، ذكر العلماء عجائب خواصه وتكوينه، فهو سائل شفاف، وهو في نقائه لا لون له، ولا رائحة، ولا طعم، ويتركب جزيء الماء من ذرتين من ذرات غاز الهيدروجين، وذرة

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٧/ ٤١١٣.
والمقصود بكون الأكل والشرب من الأمور المباحة، بيان نعمة الله على عباده في الأكل والشرب، لا أن المقصود بالإباحة ترك الإنسان للأكل والشرب، فإن الأصوليين نصوا على أن المباح إذا أطلق فإنما هو بالنسبة إلى الجزء وليس إلى الكل، كالأكل والشرب فهما مباحان، فللمكلف أن يختار ما يأكل وما يشرب من المباحات، كما له أن يترك الأكل والشرب في بعض الأوقات، ولكن أصل الأكل والشرب مطلوب من حيث الجملة، لأن فيهما حياة الإنسان، وحفظ الحياة مطلوب من المكلف.
انظر: الوجيز في أصول الفقه، عبد الكريم زيدان ص٤٨.

(٢) انظر: تفسير المراغي ١٤/ ٥٩.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ١١٣.
(٤) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٨/ ٤١٣٩.

واحدة من ذرات غاز الأوكسجين، وترتبط هذه الذرات الثلاث مع بعضها البعض برابطتين تساهميتين تشكلان فيما بينهما زاوية قدرها (١٠٥ من الدرجات).

وقد جعل ذلك لجزيء الماء قطبين كهربيين يحمل أحدهما شحنتين موجبتين، ويحمل الآخر شحنة سالبة مكافئة، وهذه الخاصية وفرت للماء -بأمر الله- من الصفات الطبيعية والكيميائية ما جعل منه أقوى مذيب معروف، وبالتالي جعله من أهم ضرورات الحياة، فأجساد الكائنات الحية يغلب على تركيبها الماء الذي تتراوح نسبته في جسم الإنسان بين (٧١٪) في الإنسان البالغ و (٩٣٪) في الجنين ذي الأشهر المعدودة. والماء العادي يحتوي على مواد كثيرة مختلفة، لكن الهيدروجين والأكسجين يشكلان الجزء الأكبر من تركيبه.

ويتميز الماء بخواص فيزيائية وكيميائية تجعله أهم مادة في الطبيعة على الإطلاق، بالنسبة إلى جميع الكائنات الحية، ومن عجائب تكوين الماء في تركيبه أنه مؤلف من هيدروجين وأوكسجين، فالهيدروجين مادة مشتعلة، والأوكسجين مادة تساعد على الاحتراق، فالهيدروجين نار، والأوكسجين نار، ولما التقيا صارت الحياة، وصار الماء، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢][1].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ٤٨ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا﴾ [الفرقان: ٤٨-٤٩].

فالآيات بيان لبعض بدائع آثار قدرته تعالى وحكمته، وروائع أحكام رحمته، ونعمه الفائضة على الخلق، وتلوين الخطاب لتوفية مقام الامتنان[2].

والآيات تخبرنا أن الله هو الذي رحم عباده وأدر عليهم رزقه، بأن أرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته وهو المطر، ومن بركته أنه أنزله ليحيي به بلدة ميتًا، فتختلف أصناف النوابت والأشجار فيها مما يأكل الناس والأنعام ﴿وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا﴾ أي: نسقيكموه أنتم وأنعامكم[3].

وهنا يثور سؤال، وهو لم خص الإنسان والأنعام هاهنا بالذكر، دون الطير والوحش مع انتفاع الكل بالماء؟

الجواب: لأن الطير والوحش تبعد في

(١) انظر: المدخل إلى العلوم البيئية، سامح يحيى فرحان الغرايبة ص٢٤٨.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٢٣.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٨٤.

طلب الماء فلا يعوزها الشرب، بخلاف الأنعام لأنها قنية[1] الأناسي وعامة منافعهم متعلقة بها، فكأن الإنعام عليهم بسقي أنعامهم كالإنعام عليهم بسقيهم[2].

وأخر ذكر الإنسان عن النبات والحيوان لحاجته إليهما في حياته، ولأنهم إذا ظفروا بماء يسقى أرضهم ومواشيهم، لم يعدموا ما يكون منه سقياهم[3].

وفي تقديم الأنعام على الناس إشارة إلى أن رحمة الله تسرى في الكائنات كلها، وأنها ليست للناس وحدهم، وليس هذا فحسب، فإنه مع تقديم الأنعام على الناس، كان التعبير بـ«ما» التي هي لغير العقلاء، بدلا من «من» الذي للعقلاء، فقال تعالى: ﴿مِمَّا خَلَقْنَآ﴾ بدلا «ممن خلقنا» وذلك لتوكيد المعنى المقصود هنا، وهو أن الأنعام لها عند الله وزنها وتقديرها، وأنها إذ كانت أقل حيلة من الإنسان، فقد كفل الله لها حاجتها، وقدم مطلوبها على مطلوب الإنسان[4].

فالآيات السابقة تبرز هداياتها في بيان بعض بدائع آثار قدرته تعالى وحكمته، وروائع أحكام رحمته، وسابغ إحسانه، ونعمه الفائضة على الخلق، والمنافع الناجمة لهم ولأنعامهم وزروعهم من إنزال الماء الذي فيه سر الحياة، وأنه لولا هذا الماء الذي ينزل من السماء، ما كان للحياة أثر على هذه الأرض.

ثانيًا: أصناف الشاربين:

ذكر القرآن أثناء حديثه عن الشرب أصنافًا وأشخاصًا امتن الله عليهم بنعمة الشرب، وذكر القرآن لهؤلاء الأشخاص تكريم لهم، وبيان لعناية الله بهم.

وما يأتي بيان لأمثلة من هذه الأصناف والأشخاص؛ طلبًا للاختصار:

١ . البشرية جميعًا.

فقد امتن الله في كتابه على البشرية جميعًا بنعمة الشرب، وكل الآيات التي تناولت الشرب في الدنيا في مقام الامتنان، هي نعمة على البشرية جميعًا، ومن هذه الآيات قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨] لتحيوا به أنفسكم، وتسكنوا به عطشكم[5].

٢ . بنو إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦٠].

---

(١) قنية: ملكهم، وملازمة لهم.
انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٩.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٤٦٦.
(٣) تفسير المراغي ١٩/ ٢٤.
(٤) انظر: التفسير القرآني للقرآن، لخطيب ١٠/ ٣٦.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٢٠.

فقد ذكر الله اليهود في زمن النبي صلى الله عليه وسلم بنعمة من أجل نعمه على آبائهم، وهي إغاثتهم في التيه بالماء بعد أن اشتد بهم العطش، وهذه النعمة كانت نافعة لهم في دنياهم؛ لأنها أزالت عنهم الحاجة الشديدة إلى الماء ولولاه لهلكوا، وكانت نافعة لهم في دينهم؛ لأنها من أظهر الأدلة على وجود الله. وعلى قدرته وعلمه، ومن أقوى البراهين على صدق موسى عليه السلام في نبوته.

ومعنى الآية الكريمة: واذكروا يا بني إسرائيل وقت أن أصاب آباءكم العطش الشديد وهم في صحراء مجدبة، فتوسل إلينا نبيهم موسى عليه السلام في خشوع وتضرع أن أمدهم بالماء الذي يكفيهم، فأجبناه إلى ما طلب، إذ أوحينا إليه أن اضرب بعصاك الحجر، ففعل، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا بمقدار عدد الأسباط، وصار لكل سبط منهم مشرب يعرفه ولا يتعداه إلى غيره، وقلنا لهم: تمتعوا بما من الله به عليكم من مأكول طيب ومشروب هنيء رزقكم الله إياه من غير تعب ولا مشقة[1].

وقوله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ كأنه أمر كل سبط أن لا يشرب إلا من جدول معين حسمًا لمادة التشاجر، فإن العادة في الرهط الواحد أن لا يقع بينهم من التنازع مثل ما يقع بين المختلفين. وهذا أيضًا من تمام النعمة عليهم[2].

وأما إضافة المشرب إليهم فلأنه تعالى لما أباح لكل سبط من الأسباط ذلك الماء، الذي ظهر من ذلك الشق الذي يأتيه، صار ذلك كالملك لهم. وجازت إضافته إليهم[3].

٣. مريم عليها السلام.

قال تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾[مريم: ٢٤-٢٦].

فقد ذكر سبحانه جانبًا من إكرامه لمريم عليها السلام في تلك الساعات العصيبة من حياتها بعد ولادتها عيسى عليه السلام، مبينًا أن الله لم ينسك ولم يتركك، بل أجرى لك تحت قدميك جدولًا ساريًا- الأرجح أنه جرى للحظته من ينبوع، أو تدفق من مسيل ماء في الجبل- وهذه النخلة التي تستندين إليها هزيها فتساقط عليك رطبًا ، فهذا طعام وذاك شراب[4].

وفي تخصيص الرطب: لأن «الطعام الحلو مناسب للنفساء»[5]، والرطب والتمر من أجود طعام النفساء.

وقدم الأكل على الشرب لأن احتياج

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ١٤٣.

(٢) غرائب القرآن، النيسابوري ١/ ٢٩٨.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٥٣٠.

(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٠٧.

(٥) انظر: المصدر السابق.

النفساء إلى أكل الرطب أشد من احتياجها إلى شرب الماء؛ لكثرة ما سال منها من الدماء[1].

وفرع على التسلية الأمر بالأكل والشرب؛ لأن الحزين قد لا يتفرغ لمثل ذلك، وأكد ذلك بالأمر الأخير[2].

٤ . أيوب عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤١-٤٢].

الآيات تخبرنا أن الله ابتلى عبده أيوب ببعض الأمراض التي لا تتنافى مع منصب النبوة، وقد صبر أيوب على ذلك حتى ضرب به المثل في الصبر، وقد توجه إلى ربه بالشكوى مما يلقى من إيذاء الشيطان، ولما عرف ربه منه صدقه وصبره، ونفوره من محاولات الشيطان، وتأذيه بها، أدركه برحمته، وأنهى ابتلاءه، وأعطاه من فضله الكثير من نعمه.

وقد أمره أن يضرب الأرض بقدمه، فتتفجر عين باردة، وقلنا له: هذا الماء النابع من العين إذا اغتسلت به وشربت منه ذهب كل مرض في داخل جسدك، ثم اغتسل به فيذهب ما كان في ظاهر بدنك، وتبرأ من الأمراض، ففعل ما أمرناه به، فبرئ بإذننا من كل داء[3].

وظاهر اللفظ يدل على أنه نبعت له عين واحدة من الماء اغتسل منه، وشرب[4]، وقد ذكر بعض التابعين أنه نبعت له حين ضرب برجله الأرض عينان، فشرب من إحداهما، واغتسل من الأخرى[5].

فالآيات فيها بيان لنعمة الله على عبده أيوب عليه السلام باستجابة الدعاء، وإزالة ما به من الضر والمرض، وشفائه وسقيه من هذا الماء المبارك الذي أخرجه له من الأرض؛ جزاء لصبره على البلاء، وفي الآيات بيان أن من صبر على الضر فالله تعالى يثيبه ثوابًا عاجلًا وآجلًا.

ثالثًا: الأشربة:

فقد أنعم الله على عباده بالأشربة المباحة، وقد نص القرآن على عدد من الأشربة التي امتن الله بها على عباده، وهي: الماء، والألبان، والعسل؛ من باب التنبيه على أهميتها، وبيان نعمة الله على عباده. وسيأتي في المبحث الآتي تفصيل لذلك، فنقتصر على ما ذكرناه؛ لعدم التكرار.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٥٢٨.
(٢) روح المعاني، الألوسي ٨/ ٤٠٤.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٢١، التفسير الوسيط، طنطاوي ١٢/ ١٦٧.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٩٨.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٠٧.

أنواع الأشربة

مشروبات مباحة:

امتن الله على عباده بالإباحة للأشياء، فسخر لهم ما في السماوات والأرض نعمة منه ورحمة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

وقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وهذه قاعدة عظيمة، فإن الأصل في كل شيء الحل حتى يوجد من الشرع دليل يخرجه من الحل إلى الحرمة، وأن ما يخرج من الحل إلى حرمة أو كراهة مفصل في الكتاب والسنة، وهو محصور معدود يمكن أن تستقصى أفراده، ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقوله: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩].

ومن هذا المنطلق فقد أباح الله لعباده كل الأشربة، إلا ما حرمه عليهم بالقرآن والسنة، وهذه الأشربة المباحة لا عدد لها ولا حصر، والدليل على ذلك أنه قال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١].

فلم يذكر ما الذي يشرب، والقاعدة تقول: إن حذف المتعلق يفيد العموم، فهذا يدل على أن جميع الأشربة مباحة إلا ما خصه الدليل بالتحريم.

قال الرازي: «قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ مطلق يتناول الأوقات والأحوال، ويتناول جميع المطعومات والأشربة، فوجب أن يكون الأصل فيها هو الحل في كل الأوقات وفي كل المطعومات والأشربة إلا ما خصه الدليل المنفصل؛ لأن الأصل في المنافع الحل والإباحة»[١].

إلا أن القرآن نص على بعض الأشربة، من باب التنبيه على أهميتها، وبيان نعمة الله على عباده، وهذا بيانها:

١ . الماء.

الماء أصل الحياة، وعنصرها الذي لا تنشأ إلا به كما قدر الله، فقد خلق الله الإنسان والدواب وجميع الكائنات الحية من الماء، كما قال في محكم كتابه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقد امتن الله على عباده بنعمة الماء وإنزاله من السماء، وجعله ينابيع في الأرض، يستخدمونه في أي وقت يشاءون لشربهم، وشرب أنعامهم وزروعهم، ولمنافعهم.

قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٢٩.

أي: وسخرنا الرياح، رياح الرحمة تلقح السحاب، فينشأ عن ذلك الماء بإذن الله، فيسقيه الله العباد ومواشيهم وأرضهم، ويبقى في الأرض مدخرًا لحاجاتهم وضروراتهم ما هو مقتضى قدرته ورحمته[1].

وقوله: ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ أي: جعلناه لكم سقيًا، وهو أبلغ من «سقينا كموه» لما فيه من الدلالة على جعل الماء معدًا لهم ينتفعون به متى شاءوا[2].

وقال ربنا: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ [النحل: ١٠].

أي: أن الماء لكم منه شراب، تشربونه وتدفعون به العطش، وعبر سبحانه بقوله تعالى: ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ ليشمل شربه ريًا وسقيا، ويشمل اتخاذه محلى بمادة من مواد الحلوى، وليشمل الشراب الذي يكون من النبات والكروم غير المتخمر، فإن الماء أصل ذلك كله[3].

وامتن الله على عباده في كتابه بأنه أنزل لهم من السماء ماء طهورًا عذبًا فراتًا، صالحًا للشرب، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨-٤٩].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٣٠.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٢.
(٣) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٨/ ٤١٣٩.

وقال: ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧]. أي: عذبًا سائغًا للشاربين.

ومن رحمة الله بعباده أنه لم يجعل ماء الشرب مالحًا، تكرهه النفوس، مع قدرته على ذلك، فامتن على عباده بهذه النعمة فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠].

فتخصيص هذا الوصف، وهو ﴿الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ بالذكر، مع كثرة منافع الماء، لأن شرب الماء من أعظم النعم على الإنسان[4].

وفي الآيات بيان لمظهر من مظاهر رحمته سبحانه، فلو نشاء أن نجعل هذا الماء النازل من المزن لشربكم، ماء جامعًا بين الملوحة والمرارة مكروهًا للنفوس، لا ينتفع به، لفعلنا، ولكنا لم نشأ ذلك رحمة بكم، وفضلًا منا عليكم.

فالآيات السابقة تتجلى هداياتها في بيان أن من نعم الله على الإنسان «نعمة الماء»، آية من آيات الله، خلق الله منه الكائنات، لا غنى للناس عنه؛ فهو سبب بقائهم، وأساس حياتهم، منه يشربون ويزرعون ويأكلون، وفيه منافع لهم ولأنعامهم.

والماء لم تنقص قيمته لا بتقدم الإنسانية ولا بتخلفها، بل لقد زادت أهميته ثم زادت،

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٣٢٣.

حتى صاروا يتحدثون عن الأمن المائي والصراع على موارد المياه ومصادرها ومنابعها.

فإنه يعد القرن الجديد «الألفية الثالثة»، قرن الصراع على المياه، حيث أخذت مشكلات استثماره، تشغل حيزًا كبيرًا في الأحداث العالمية المعاصرة، بل وفي رسم المستقبل السياسي لكثير من دول العالم. ومن الملاحظ، أن الخريطة المائية تظهر خطوطا متشابكة للتداخل الدولي في أحواض أنهارها، وفي استثمار مواردها مما يترك علاج هذا الاستثمار، رهينًا بالعلاقات القائمة بين الدول ذات العلاقة، التي تقوم في الأساس على مبدأ القوة أولًا، ومدى الاحترام المتبادل للاتفاقيات القائمة بينها ثانيًا».

٢ . ألبان الأنعام.

من النعم التي امتن الله بها على العباد نعمة شرب ألبان الأنعام على اختلافها ما بين إبل وبقر وغنم، وقد امتن الله على عباده بهذه النعمة في كتابه فقال: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

فهذه حجة أخرى، ومنة من المنن الناشئة عن منافع خلق الأنعام، أدمج في منتها العبرة بما في دلالتها على بديع صنع الله، حيث أسقاكم من بطونها المشتملة على الفرث والدم، فأخرج من بين ذلك لبنًا خالصًا من الكدر سائغًا للشاربين، للذته، ولأنه يسقي ويغذي[(١)].

وقوله سبحانه: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ بيان لموطن العبرة، ومحل النعمة، ومظهر الدلالة على وحدانية الله تعالى وقدرته ورحمته.

وخلوصه: نزاهته مما اشتمل عليه البول والثفل[(٢)]، وسوغه للشاربين: سلامته مما يشتمل عليه الدم من المضار لمن شربه، فلذلك لا يسيغه الشارب ويتجهمه[(٣)(٤)].

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۝ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١-٧٣].

أي: أو لم يشاهد هؤلاء المشركون بالله أنا خلقنا لهم أنعامًا من الإبل والبقر والغنم يصرفونها كما شاءوا، فهي ذليلة منقادة لهم، وسخرنا لهم هذه الأنعام، فمنها ما يركبون

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ١٩٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٤٤.
(٢) الثفل: الكدر.
انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٨٠.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ١٩٩.
(٤) التجهم: خلاف البشاشة والطلاقة، والمراد: يتغير وجهه إذا أجبر على ذلك الشراب كرهًا له.
انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٤٩٠.

في الأسفار، ويحملون عليه الأثقال، ومنها ما ينحرون، فيأكلون لحومها، ولهم فيها منافع أخرى غير الركوب والأكل منها، كالجلود والأصواف والأوبار والأشعار ولهم منها مشارب من ألبانها ونتاجها[1].

وقوله: ﴿وَلَهُمْ﴾ هو محل الامتنان، أي :لأجلهم؛ فإن جميع المنافع التي على الأرض خلقها الله لأجل انتفاع الإنسان بها؛ تكرمة له[2].

وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ بيان لفوائد أخرى غير الركوب والأكل؛ وذلك لأن من الحيوانات ما لا يركب كالغنم، فقال: ﴿مَنَافِعُ﴾ لتعمها، والمشارب كذلك عامة، إن قلنا: بأن المراد جمع مشرب وهو الآنية، فإن من الجلود ما يتخذ أواني للشرب والأدوات من القرب وغيرها.

وإن قلنا: إن المراد: المشروب وهو الألبان والأسمان، فهي مختصة بالإناث، ولكن بسبب الذكور؛ فإن ذلك متوقف على الحمل، وهو بالذكور والإناث[3].

وقوله: ﴿وَمَشَارِبُ﴾ مصدر بمعنى المفعول[4]، والمراد به اللبن، وخص مع دخوله في المنافع؛ لشرفه واعتناء العرب به، وجمع باعتبار أصنافه، ولا ريب في تعددها، وتعميم المشارب للزبد والسمن والجبن والأقط[5] لا يصح إلا بالتغليب، أو التجوز؛ لأنها غير مشروبة[6].

فالآيات فيها بيان لفضل الله على عباده في تذليل الأنعام لهم، وتسخيرها لمنافعهم المختلفة، وامتنان من الله على عباده بنعمة ألبان هذه الأنعام.

٣. العسل.

من الأشربة المباحة التي امتن الله بها على عباده شراب العسل الذي يخرج من النحل، فقال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨ - ٦٩].

فالله يخبر عباده بأنه جعل لهم آية في خلق هذه النحلة الصغيرة، التي هداها الله هذه الهداية العجيبة، ويسر لها المراعي، ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها، وهدايته لها ، ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ، مختلف الألوان بحسب

(١) انظر: تفسير المراغي ٢٣/ ٣٢.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٦٧.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٠٦.
(٤) هذا على أحد القولين في المراد بالمشارب، وإلا فما قبله يبين المعنيين.
(٥) الأقط: اللبن المجفف.
انظر: مختار الصحاح، الرازي ص١٩.
(٦) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٢/ ٥٠.

اختلاف أرضها ومراعيها، فيه شفاء للناس من أمراض عديدة. فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى، وتمام لطفه بعباده، وأنه الذي لا ينبغي أن يحب غيره ويدعي سواه[1].

فالآيات عطف عبرة على عبرة ، ومنة على منة، وغير أسلوب الاعتبار لما في هذه العبرة من تنبيه على عظيم حكمة الله تعالى؛ إذ أودع في خلقة الحشرة الضعيفة هذه الصنعة العظيمة وجعل فيها هذه المنفعة[2].

وجملة ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ مستأنفة استئنافًا بيانيًا؛ لأن ما تقدم من الخبر عن إلهام النحل تلك الأعمال يثير في نفس السامع أن يسأل عن الغاية من هذا التكوين العجيب، فيكون مضمون جملة ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ بيانًا لما سأل عنه. وهو أيضًا موضع المنة كما كان تمام العبرة[3].

وجيء بالفعل المضارع ﴿يَخْرُجُ﴾ للدلالة على تجدد الخروج وتكرره[4].

وقد وصف الله العسل بهذه الصفات الثلاثة:

فالصفة الأولى: كونه شرابًا والأمر كذلك؛ لأنه تارة يشرب وحده، وتارة يتخذ منه الأشربة.

وعبر عن العسل باسم الشراب دون العسل لما يومئ إليه اسم الجنس من معنى الانتفاع به، وهو محل المنة، وليرتب عليه جملة ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾، وسمي شرابًا لأنه مائع يشرب شربًا ولا يمضغ.

والصفة الثانية: قوله: ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ والمعنى: أن منه أحمر وأبيض وأصفر، وغير ذلك من ألوان العسل، على حسب اختلاف مراعيها ومآكلها، وغير ذلك بما اقتضته حكمته سبحانه، ووصفه بـ ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ لأن له مدخلًا في العبرة؛ فذلك من الآيات على عظيم القدرة ودقيق الحكمة[5].

والصفة الثالثة: قوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾، وسيأتي الحديث عن هذه الصفة في المبحث الأخير.

والآيات السابقة تتجلى فيها قدرة الله في خلق النحلة الصغيرة وما يخرج من بطونها من عسل لذيذ، مختلف الألوان بحسب اختلاف أرضها ومراعيها، وفي ذلك دليل على كمال عناية الله وتمام لطفه بعباده، وأنه لا ينبغي أن يحب غيره ويرجى سواه.

ثانيًا: مشروبات محرمة:

التحريم لم يأت في شريعة الإسلام

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٤٤.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٢٠٤.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) انظر: المصدر السابق.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٣٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٢٠٤، التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ١٨٩.



إلا لشيء كانت مفسدته خالصة أو غالبة، وجميع المحرمات لا تخلو من أن تكون على واحد من الوصفين، والله ما حرم شيئًا على عباده إلا وفي هذا التحريم مصلحة لهم؛ لذلك حرم عليهم بعض الأشربة لضررها وخبثها، وقد ذكر القرآن من هذه الأشربة المحرمة الخمر والدم.

١ . الخمر.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

هذه الآيات هي المرحلة الأخيرة التي مر بها تحريم الخمر، وتخبرنا الآيات أنه بعد أن نهى الله سبحانه فيما سلف عن تحريم ما أحل الله من الطيبات، وأمر بأكل ما رزق الله من الحلال الطيب، وكان من جملة الأمور المستطابة عند العرب الخمر والميسر، لا جرم أن بين عز اسمه أنهما غير داخلين فيما يحل، بل هما مما يحرم[١].

وقد وصف الله هذه الأقسام الأربعة بوصفين:

الأول: قوله: ﴿رِجۡسٞ﴾ والرجس في اللغة كل ما استقذر من عمل. فالرجس هو العمل الذي يكون قوي الدرجة كامل الرتبة في القبح.

الوصف الثاني: قوله: ﴿مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ وهذا أيضًا مكمل لكونه رجسًا ،لأن الشيطان نجس خبيث والخبيث ، لا يدعو إلا إلى الخبيث[٢].

وقد ذكر الله في هذه الآيات نوعين من المفسدة في الخمر:

النوع الأول: ما يتعلق بالدنيا : وهو قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾ فالظاهر فيمن يشرب الخمر أنه يشربها مع جماعة، ويكون غرضه من ذلك الشرب أن يستأنس برفقائه ويفرح بمحادثتهم ومكالمتهم، فكان غرضه من ذلك الاجتماع تأكيد الألفة والمحبة إلا أن ذلك في الأغلب ينقلب إلى الضد؛ لأن الخمر يزيل العقل، وإذا زال العقل استولت الشهوة والغضب من غير مدافعة العقل، وعند استيلائهما تحصل المنازعة بين أولئك الأصحاب، وتلك المنازعة ربما أدت إلى الضرب والقتل والمشافهة بالفحش، وذلك يورث أشد العداوة والبغضاء.

النوع الثاني: المفاسد المتعلقة بالدين، وهو قوله: ﴿وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وشرب الخمر يمنع عن ذكر الله والصلاة؛ لأن شرب الخمور يورث الطرب واللذة

(١) انظر: تفسير المراغي ٧/ ٢٠.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٢٣.

الجسمانية، والنفس إذا استغرقت في اللذات الجسمانية غفلت عن ذكر الله تعالى[1].

والقرآن وإن كان قد ذكر نوعين من مفسدة الخمر، فقد ذكر الأهم، والخمر فيها مفاسد أخرى، ولها أضرار كثيرة، منها أضرار صحية، فهي تحدث أضرارًا جسيمة بأجهزة الجسم المختلفة، كالجهاز العصبي والدوري والهضمي والتناسلي والجلد والعظام و الأسنان وغيرها، ومنها أضرار اجتماعية، وأضرار أمنية، وأضرار اقتصادية تتعلق بالمتعاطي، وتتعلق باقتصاد الدول، مما يؤكد أن الله ما حرمها إلا لضررها.

وقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ والاستفهام هنا تقريري، فكأنه قيل له: أتفعله بعد ما قد ظهر من قبحه ما قد ظهر؟[2].

والآيات دالة على تحريم شرب الخمر من وجوه:

أحدها: تصدير الجملة بإنما، وذلك لأن هذه الكلمة للحصر، فكأنه تعالى قال: لا رجس ولا شيء من عمل الشيطان إلا هذه الأربعة.

وثانيها: أنه تعالى قرن الخمر والميسر بعبادة الأوثان.

وثالثها: أنه تعالى أمر بالاجتناب، وظاهر الأمر للوجوب.

ورابعها: أنه قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ جعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحًا كان الارتكاب خيبة.

وخامسها: أنه شرح أنواع المفاسد المتولدة منها في الدنيا والدين، وهي وقوع التعادي والتباغض بين الخلق وحصول الإعراض عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة.

وسادسها: قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ وهو من أبلغ ما ينتهى به، كأنه قيل: قد تلي عليكم ما فيها من أنواع المفاسد والقبائح فهل أنتم منتهون مع هذه الصوارف؟ فالاستفهام في الآية خرج عن بابه إلى الأمر، أي: انتهوا.

وسابعها: أنه تعالى قال بعد ذلك: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢].

فظاهره أن المراد: وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فيما تقدم ذكره من أمرهما بالاجتناب عن الخمر والميسر، وقوله ﴿وَاحْذَرُوا﴾ أي :احذروا عن مخالفتهما في هذه التكاليف.

وثامنها: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وهذا تهديد عظيم ووعيد شديد في حق من خالف في هذا التكليف وأعرض فيه عن حكم الله، وبيانه، يعني : أنكم إن توليتم فالحجة قد قامت عليكم والرسول قد خرج عن عهدة التبليغ والإعذار والإنذار، ولا شك أنه تهديد شديد، فصار كل واحد من هذه الوجوه

---

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) انظر: المصدر السابق.

الثمانية دليلًا قاهرًا وبرهانًا باهرًا في تحريم الخمر[1].

٢. الدم المسفوح.

ورد تحريم الدم في أربع آيات من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣].

وقوله: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

فالله يخبر عباده المؤمنين في الآية الأولى أنه حرم عليهم بعض الأطعمة وغيرها؛ لما لها من ضرر اعتقادي أو دنيوي عليهم، ومن هذه المحرمات الدم.

ونص الله على تحريمه لأن العرب كانت تأكل الدم، كانوا يأخذون المباعر[2] فيملأونها دمًا، ثم يشوونها بالنار ويأكلونها[3].

وقد ورد تحريم الدم مطلقًا في ثلاث آيات من القرآن، وورد في الآية الرابعة مقيدًا بالدم المسفوح في قوله: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾

والدم المسفوح: هو الدم الجاري المهراق من البهيمة بعد ذبحها، فعلى ذلك يحمل المطلق على المقيد، فيكون تحريم الدم مقيدًا بالدم المسفوح، وأما الدم المتبقي في أجزاء لحم البهيمة بعد تذكيتها فلا شيء فيه[4].

وتتجلى حكمة تحريم الدم فيما يأتي:

- أن شربه يورث ضراوة في الإنسان، فتتغلظ طباعه ويصير كالحيوان المفترس، وهذا منافٍ لمقصد الشريعة؛ لأنها جاءت لإتمام مكارم الأخلاق، وإبعاد الإنسان عن التهور والهمجية، ولذلك قيد في بعض الآيات بالمسفوح ، أي : المهراق؛ لأنه كثير، لو تناوله الإنسان اعتاده، ولو اعتاده أورثه ضراوة[5].
- الدم يعتبر مرتعًا صالحًا لتكاثر الجراثيم ونموها.
- لا يحتوي الدم على أي مادة غذائية، بل إنه عسر الهضم جدًا، حتى إنه إذا صب جزء منه في معدة الإنسان تقيأه مباشرة، أو خرج مع البراز دون هضم على صورة مادة سوداء.

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) المباعر: مكان البعر، والمراد هنا: أمعاء الإبل.
انظر: لسان العرب ٤/ ٧١.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ١١٨.
(٤) انظر: المصدر السابق.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٥٤.

❁ يحتوي الدم على عناصر سامة، يأتي في مقدمتها غاز ثاني أكسيد الكربون، وهو غاز قاتل خانق، وهذا ما يفسر تحريم المختنق من الحيوان أيضًا، وذلك أن «المختنقة» إنما تموت عن طريقة تراكم هذا الغاز في دمائها ما يؤدي إلى نفاقها.

ولا شك، فإن تكرار شرب الدماء لمن اعتاد عليها، وهي مشبعة بهذا الغاز القاتل، مؤدٍ إلى أضرار صحية بالغة الخطورة قد تودي بحياة الإنسان.

وتتميمًا للفائدة أقول: من رحمة الله بعباده أن الله أحل تناول الأطعمة والأشربة المحرمة عند الضرورة؛ لأن التحريم كان بسبب المفاسد الناتجة من ذلك، والمعارضة لحفظ الضروريات الخمس، فالخمر يحل شربها دفعًا لهلاك النفس؛ لأن حفظ النفس ضروري، فكان لابد من تحصيله بإباحة المحرم، وإذا أباحه الله للضرورة فذلك بشرطين: غير باغ، أي: غير طالب للمحرم، مع قدرته على الحلال، أو مع عدم جوعه، ولا عادٍ، أي: متجاوز الحد في تناول ما أبيح له، اضطرارًا، وذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

والآيات السابقة تتضح فيها رحمة الله بعباده؛ حيث نهاهم عما فيه مضرتهم في أبدانهم وعقولهم، حيث لم يحرم عليهم الخمر والدم إلا وفي هذا التحريم مصلحة لهم، وحفظ لأبدانهم وعقولهم.

فائدة مهمة:

كما ورد تقييد الدم بالمسفوح في القرآن، فقد ورد تقييده في السنة أيضًا، فأحل النبي صلى الله عليه وسلم من الدم الكبد والطحال، كما ورد في حديث ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(أحلت لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالحوت والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال)**[1].

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٣٢١٨ ٢/ ١٠٣٧، وابن ماجه في سننه، كتاب الأطعمة، باب الكبد والطحال، رقم ٣٣١٣، ٤/ ٤٣١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ١٠٢، رقم ٢١٠.

الشرب والابتلاء

أقام الله الدنيا على الابتلاء، كما قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الملك: ٢].

والله له أن يبتلي عباده بما يشاء، وله الحكمة البالغة في ذلك، والابتلاء يكون بالخير والشر كما قال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

فالابتلاء يكون بالنعم أيضًا، وقد ابتلى الله بعض عباده ببعض النعم، ومن هذه النعم التي ابتلى الله بها بعض عباده نعمة الماء وشربه، وقد قص القرآن ذلك علينا من قصة بني إسرائيل، وقصة ثمود.

أولًا: بنو إسرائيل:

ورد ابتلاء بني إسرائيل بنعمة الماء وشربه في قوله: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾[البقرة: ٢٤٩].

والآيات قبل ذلك تحكي قصة الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام إذ طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكًا يقاتلون معه في سبيل الله، فأخبرهم نبيهم أنه قد يفرض عليهم القتال ولا يمتثلون، فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلًا منهم، وأخبرهم نبيهم أن الله قد اختار طالوت ملكًا عليهم، وأقام لهم الأدلة -بعد جدالهم- العقلية والمادية على أحقية طالوت في الملك عليهم، وبعد أن قامت الأدلة أيقنوا بذلك، فخرج طالوت بجنوده لملاقاة العدو ويتجلى لنا مصداق حكمة الله في اصطفاء هذا الرجل ، إنه مقدم على معركة ومعه جيش من أمة مغلوبة، عرفت الهزيمة والذل في تاريخها مرة بعد مرة، وهو يواجه جيش أمة غالبة فلابد إذن من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة، هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الإرادة. الإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات، وتصمد للحرمان والمشاق، فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء، فلابد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة جيشه، وصموده وصبره.

واختار هذه التجربة وهم كما تقول الروايات عطاش؛ ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه، ويؤثر العافية وصحت فراسته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى﴾ فهو عاص ولا يتبعنا لعدم صبره وثباته ولمعصيته ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ أي: لم يشرب منه فإنه مني ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ فلا جناح عليه في ذلك، ولعل الله أن يجعل فيها بركة فتكفيه، وفي هذا الابتلاء ما يدل على أن الماء قد قل عليهم ليتحقق الامتحان،

فعصى أكثرهم وشربوا من النهر الشرب المنهي عنه، ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ ورجعوا على أعقابهم ونكصوا عن قتال عدوهم، وكان في عدم صبرهم عن الماء ساعة واحدة أكبر دليل على عدم صبرهم على القتال الذي سيتطاول وتحصل فيه المشقة الكبيرة، وكان من الخير ومن الحزم أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف؛ لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة[١].

وظاهر قول طالوت: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم﴾ أن ذلك بوحي إلى النبي وإخبار من النبي لطالوت، ويحتمل أن يكون هذا مما ألهم الله طالوت إليه، فجرب به جنده، وجعل الإلهام ابتلاء من الله لهم، وهذه النزعة واجب أن تقع من كل متولي حرب، فليس يحارب إلا بالجند المطيع[٢].

وحكمة هذا الابتلاء وجهان:

الأول: كان مشهورًا من بني إسرائيل أنهم يخالفون الأنبياء والملوك مع ظهور الآيات الباهرة، فأراد الله تعالى إظهار علامة قبل لقاء العدو، يتميز بها من يصبر على الحرب ممن لا يصبر؛ لأن الرجوع قبل لقاء العدو لا يؤثر كتأثيره حال لقاء العدو، فلما كان هذا هو الصلاح قبل مقاتلة العدو لا جرم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾[٣].

الثاني: أنه تعالى ابتلاهم ليتعودوا الصبر على الشدائد.

وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ فيه سد للذرائع؛ لأن أدنى الذوق يدخل في لفظ الطعم، فإذا وقع النهي عن الطعم فلا سبيل إلى وقوع الشرب ممن يتجنب الطعم. ولهذه المبالغات لم يأت الكلام «ومن لم يشرب منه»[٤].

وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ مفهومه أن من طعمه ليس منه؛ ليعلم السامعون أن المغترف غرفة بيده هو كمن لم يشرب منه شيئًا، وأنه ليس دون من لم يشرب في الولاء والقرب[٥].

روي عن ابن عباس وقتادة وغيرهما أن القوم شربوا على قدر يقينهم. فشرب الكفار شرب الهيم، وشرب العاصون دون ذلك، وانصرف من القوم ستة وسبعون ألفًا، وبقي بعض المؤمنين لم يشرب شيئًا، وأخذ بعضهم الغرفة، فأما من شرب فلم يرو، بل برح به العطش، وأما من ترك الماء فحسنت حاله، وكان أجلد ممن أخذ الغرفة[٦].

ثانيًا: قوم ثمود:

أرسل الله صالحًا عليه السلام إلى قومه

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٦٨.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣٣٤.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٥٠٩.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣٣٤.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٤٩٧.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٣٤٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣٣٤.

ثمود، فدعاهم صالح إلى عبادة الله وحده، وأن يطيعوه فيما بلغهم من رسالة ربهم فأبوا وكذبوا، وكانت البشرية جيلًا بعد جيل تطلب خارقة معجزة من الرسول تدل على أنه حقًا مرسل من الله: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤].

وهكذا طلبت ثمود تلك الخارقة، اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم، وهو أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عشراء صفتها كذا وكذا، فما كان منه إلا أن أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق: لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به وليتبعنه، فأعطوه ذلك، فقام نبي الله صالح عليه السلام، فصلى، ثم دعا الله عز وجل أن يجيبهم إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عشراء، على الصفة التي وصفوها، فآمن بعضهم، وكفر أكثرهم[1]، ووصاهم صالح عليه السلام بأمرين:

الأول: قوله: ﴿قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

أي: لها حظ ونصيب من الماء، ولكم نصيب من الماء، فاقتنعوا بشربكم ولا تزاحموا على شربها[2].

والثاني: قوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٦].

فابتلاهم الله بهذا الابتلاء، وأخبر في سورة القمر عن كيفية ذلك الابتلاء فقال: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ۝٢٧ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٧ - ٢٨].

وقوله: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ﴾ التعريف في الماء للعهد، أي ماء: القرية الذي يستقون منه، فإن لكل محلة ينزلها قوم ماء لسقياهم[3].

وأخبر عن الماء بأنه قسمة، والمراد مقسوم، فهو من الإخبار بالمصدر للتأكيد والمبالغة[4].

وضمير ﴿بَيْنَهُمْ﴾ عائد إلى معلوم من المقام بعد ذكر الماء؛ إذ من المتعارف أن الماء يستقي منه أهل القرية لأنفسهم وماشيتهم، ولما ذكرت الناقة علم أنها لا تستغني عن الشرب، فغلب ضمير العقلاء على ضمير الناقة الواحدة، وإذ لم يكن للناقة مالك خاص أمر الله لها بنوبة في الماء[5].

قال قتادة: إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله، وشربهم في اليوم الذي لا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٢٥.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٢٥، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٥٩، التفسير المنير، الزحيلي ١٩/ ٢٠٠.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٠٠.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.

تشرب[1].

وقال مجاهد: إن ثمود يحضرون الماء يوم نوبتهم فيشربون، ويحضرون يوم نوبتها فيحتلبون[2]. فكانت إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله أول النهار وتسقيهم اللبن آخر النهار، وإذا كان يوم شربهم كان لأنفسهم ومواشيهم وأرضهم، ليس لهم في يوم ورودها أن يشربوا من شربها شيئًا، ولا لها أن تشرب في يومهم من مائهم شيئًا[3].

وهذا مبدأ الفتنة، فإن الناقة كانت في يوم شربها تشرب ماء البئر كله، فشحوا بذلك وأضمروا منعها عن الماء، فأبلغهم صالح أن الله ينهاهم عن أن يمسوها بسوء[4].

وقد جعلت القسمة على هذا الوجه لمنع الضرر؛ لأن حيوانات القوم كانت تنفر منها، ولا ترد الماء وهي عليه، فصعب ذلك عليهم[5].

والمحتضر بفتح الضاد، اسم مفعول من الحضور وهو ضد الغيبة. والمعنى: محتضر عنده ، فحذف المتعلق لظهوره. وهذا من جملة ما أمر رسولهم بأن ينبئهم به، أي : لا يحضر القوم في يوم شرب الناقة، وهي بإلهام الله لا تحضر في أيام شرب القوم[6].

فمكثت الناقة بين أظهرهم حينًا من الدهر ترد الماء، وتأكل الورق والمرعى، وينتفعون بلبنها، يحتلبون منها ما يكفيهم شربًا وريًا، ولكن ثمود لم يصبروا على الابتلاء، فلما طال عليهم الأمد وحضر شقاؤهم، تمالؤوا على قتلها وعقرها، وأهلكهم الله بسبب عنادهم وكفرهم وعصيانهم، كما أخبر القرآن.

(١) انظر: الدر المنثور ٦/ ٣١٦ وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٤٧.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٣٠.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٠٠.
(٥) تفسير المراغي ٢٧/ ٩١.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٠٠.

أحكام تتعلق بالشرب

بعد تأمل لما ورد في حديث القرآن عن الشرب، نتلمس بعض الأحكام المتعلقة بالشرب، ومنها:

١ . عدم التحليل والتحريم بالأهواء.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٥-١١٧].

فالآية الأولى نصت على بعض المحرمات، ومنها تناول الدم، ثم تبين الآيات أن ذلك حد الحلال والحرام الذي شرعه الله في المطعومات، فلا تخالفوه اتباعًا لأوهام الوثنية، ولا تقولوا للكذب الذي تصفه ألستكم وتحكيه: هذا حلال وهذا حرام. فهذا حلال وهذا حرام حين تقولونها بلا نص هي الكذب عينه، الذي تفترونه على الله. فالتحريم والتحليل لا يكونان إلا بأمر من الله، فهما تشريع. والتشريع لله وحده لا لأحد من البشر، وما يدعي أحد لنفسه حق التشريع بدون أمر من الله إلا مفتر، والمفترون على الله لا يفلحون، وليس لهم إلا المتاع القليل في الدنيا، ومن ورائه العذاب الأليم، والخيبة والخسران[1].

وفي وصف ألستهم الكذب، مبالغة في وصف كلامهم بالكذب، حتى لكأن ماهية الكذب كانت مجهولة، فكشفت عنها ألستهم ووضحتها، ووصفتها، ونعتتها بالنعوت التي جلتها[2].

والآية وإن كانت واردة في سياق تحريم بعض المطعومات والأشربة، إلا أنها عامة، كما قال ابن كثير: «ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلل شيئًا مما حرم الله، أو حرم شيئًا مما أباح الله، بمجرد رأيه وتشهيه»[3].

فالآيات فيها بيان أن التحليل والتحريم حق لله، وليس لغيره، والذي يشرع بتحليل أو تحريم من نفسه مدع، ومفتر، وكذاب، وليس له إلا العذاب الأليم؛ جزاء تعديه على حق الله.

٢ . الشكر.

نعم الله تعالى تترادف على عباده، وقيدها الشكر، وقد أمر الله عباده بالشكر وحضهم عليه في كثير من آيات القرآن، والمراد بالشكر: أن يواظب العبد على شكر

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٠٠.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٢٥٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦٠٩.

ربه، وعلى المداومة على ما يرضيه، وعلى استعمال النعم فيما خلقت له.

ومن النعم التي يجب شكر الله عليها نعمة الشرب والأشربة التي أباحها الله لعباده، وقد ورد الحث على الشكر في غير آية من الآيات التي تحدثت عن نعمة الشرب.

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠].

وهذه الآيات فيها عدد من النعم، فيها نعمة الماء وإنزاله من السحاب، ونعمة شربه، ونعمه كونه عذبًا فراتًا، لم يجعله الله ملحًا، فبعد أن عدد الله على عباده النعم في هذه الآيات، حثهم على الشكر فقال: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أي: فهلا شكرتم الله على هذه النعم الجليلة، التي هي ملاك حياتكم وحياة زروعكم، وحيواناتكم؟ وأخلصتم له العبادة والطاعة، ووضعتم نعمه في مواضعها؟ وكل نعمة من النعم المذكورة في الآيات تستحق الشكر بذاتها.

والملاحظ في هذه الآيات أن الله ذكر الشكر في الشرب، ولم يذكره في الطعام في الآيات السابقة في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٥].

وحكمة ذلك تتجلى فيما يأتي:

- أن في المأكول قال: ﴿تَحْرُثُونَ﴾ فأثبت لهم سعيًا فلم يقل: تشكرون، وقال في الماء: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ لا عمل لكم فيه أصلًا فهو محض النعمة فقال: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾.
- النعمة لا تتم إلا عند الأكل والشرب، ألا ترى أن في البراري التي لا يوجد فيها الماء لا يأكل الإنسان شيئا مخافة العطش، فلما ذكر المأكول أولًا وأتمه بذكر المشروب ثانيًا قال: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ على هذه النعمة التامة[(١)].

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى في امتثال أوامر القرآن، فقد ورد أنه إذا شرب الماء قال: **(الحمد لله الذي سقانا عذبًا فراتًا برحمته، ولم يجعله ملحًا أجاجًا بذنوبنا)**[(٢)].

وفي ذلك تعليم لأمته أن تقتدي به في شكر نعمة الشرب وغيرها.

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝٧١﴾

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤٢٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ١٩٨.

(٢) أخرجه الطبراني في الدعاء رقم ٨٩٩، ص٢٨٠، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ١٣٧، وهو مرسل.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، رقم ٤٤٢٢.

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١-٧٣].

فقد ذكر الله عباده في هذه الآيات بعدد من النعم من خلق الأنعام، وتمليكها لهم، وتسخيرها للركوب والأكل، وشرب ألبانها، وغير ذلك من المنافع، ثم حضهم على شكر هذه النعم وغيرها فقال: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أفلا يشكرون هذه النعم التي توجب العبادة شكرًا، ولو شكرتم لزادكم من فضله، ولو كفرتم لسلبها منكم، فما قولكم؟ أفلا تشكرون استدامة لها واستزادة فيها؟[1].

وقوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ استفهام تعجيبي لتركهم تكرير الشكر على هذه النعم المتعددة[2].

وجيء بالفعل المضارع ﴿يَشْكُرُونَ﴾ المفيد للتجديد والاستمرار؛ لأن تلك النعم متتالية متعاقبة في كل حين[3].

يقول سيد قطب: «﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ وحين ينظر الإنسان إلى الأمر بهذه العين وفي هذا الضوء الذي يشيعه القرآن الكريم، فإنه يحس لتوه أنه مغمور بفيض من نعم الله، فيض يتمثل في كل شيء حوله، وتصبح كل مرة يركب فيها دابة، أو يأكل قطعة من لحم، أو يشرب جرعة من لبن، أو يتناول قطعة من سمن أو جبن»، لمسة وجدانية تشعر قلبه بوجود الخالق ورحمته ونعمته. ويطرد هذا في كل ما تمس يده من أشياء حوله، وكل ما يستخدمه من حي أو جامد في هذا الكون الكبير. وتعود حياته كلها تسبيحًا لله وحمدًا وعبادة آناء الليل وأطراف النهار ، ولكن الناس لا يشكرون»[4].

والآيات السابقة تتجلى هداياتها في بيان أن الشرب نعمة عظمى من نعم الله على خلقه، وأنه يجب مقابلة هذه النعم بالشكر والاعتراف بمنعمها، وتسخيرها في طاعته.

٣. عدم الإسراف.

نهى الله عباده عن الإسراف في كل أمور حياتهم، ومما ورد النهي فيه عن الإسراف موضوع الشرب، فقد قال تعالى آمرًا عباده بالأكل والشرب من الطيبات، ناهيًا عن الإسراف: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

والإسراف: تجاوز الحد المتعارف في الشيء[5]. والإسراف إما أن يكون بالزيادة على القدر الكافي، والشره في المأكولات الذي يضر بالجسم، وإما أن يكون بزيادة الترفه في المآكل والمشارب واللباس، وإما بتجاوز الحلال إلى الحرام[6].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٠٦.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٦٧.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٧٥.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٩٢.
(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٨٧.

وقد بغض الله تعالى الإسراف للناس ببيان أنه سبحانه لا يحبه ولا يرضاه لعباده فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ لأن الإسراف يؤدي إلى إضرار أبدانهم، وحرمان لغيرهم، وضياع لذوي الحاجة في الجماعة الإسلامية، كما قال ابن عباس: ما من مسرف إلا ووراءه حق مضيع. وقد أكد سبحانه وتعالى بغضه للإسراف بنفي المحبة، ومحبة الله مطلب المؤمنين[1].

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ هذا الأمر المقيد بما عطف عليه من النهي، إرشاد عال أيضًا فيه صلاح للبشر في دينهم ومعاشهم ومعادهم، لا يستغنون عنه في وقت من الأوقات، ولا عصر من الأعصار، وكل ما بلغوه من سعة العلم في الطب وغيره لم يغنهم عنه، بل هو يغني المهتدي به في أمره ونهيه عن معظم وصايا الطب لحفظ الصحة[2].

قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾[3].

وقال ابن عباس: كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة[4].

والآية تظهر هدايتها في لفت أنظارنا إلى الترشيد وعدم الإسراف، وهكذا علمتنا سنة المصطفي صلى الله عليه وسلم قولًا وعملًا.

٤ . عدم العتو والإفساد في الأرض.

أنعم الله على عباده بالنعم الكثيرة ليستعملوها في عمارة الأرض، وطاعة ربهم، ونهى الله عباده عن استغلال النعم في العتو والإفساد في الأرض، وقد ورد النهي عن ذلك أيضًا في حديث القرآن عن الشرب، فقال تعالى في قصة بني إسرائيل: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

فالآية تذكر حال بني إسرائيل، وما أنعم الله عليهم من النعم، ومنها نعمة الأكل والشرب، ثم نهاهم عن العتو والإفساد، أي: لا يكون شكركم على النعمة بالإفساد في الأرض، فتتحول النعم التي بين أيديكم إلى نقم، وتصبحوا على ما فعلتم نادمين.

والنهي متوجه إلى بني إسرائيل خصوصًا؛ لأن النعمة إذا كثرت على أمثال

---

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٦/ ٢٨١٨.

(٢) المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣٤١.

(٣) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٢٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠٦.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه معلقًا في كتاب اللباس، ٧/ ١٤٠.

بني إسرائيل كانت مظنة الفساد[1].

والنهي وإن كان متوجهًا لبني إسرائيل، إلا أنه نهي للبشرية جميعًا؛ فإن النعمة قد تنسي العبد حاجته إلى الخالق فيهجر الشريعة فيقع في الفساد.

والآية ترشدنا إلى أن حق النعمة مقابلتها بالشكر، وعدم تسخيرها في الفساد والإفساد، والبطر والتكبر.

٥. التفكر والاعتبار.

أمر الله عباده في آيات كثيرة بإعمال العقول والتفكر في نعم الله، للوصول إلى معرفة الله وعبادته، ومن النعم التي أمر الله عباده بالتفكر فيها نعمة الماء وشربه، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠-١١].

في كمال قدرة الله الذي أنزل هذا الماء من السحاب الرقيق اللطيف ورحمته، حيث جعل فيه ماء غزيرًا، منه يشربون وتشرب مواشيهم، ويسقون منه حروثهم، فتخرج لهم الثمرات الكثيرة والنعم الغزيرة[2].

فقد ختم الله الآية بالتفكر للحض على التفكر والتأمل في عظيم قدرته سبحانه؛ حتى يصل المتأمل إلى إخلاص العبادة له عز وجل.

وفي الآية تعريض بالمشركين الذين لم يهتدوا بما في ذلك من دلالة على تفرد الله بالإلهية بأنهم قوم لا يتفكرون[3].

يقول سيد قطب: «﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في تدبير الله لهذا الكون، ونواميسه المواتية لحياة البشر، وما كان الإنسان ليستطيع الحياة على هذا الكوكب لو لم تكن نواميس الكون مواتية لحياته، موافقة لفطرته، ملبية لحاجاته. وما هي بالمصادفة العابرة أن يخلق الإنسان في هذا الكوكب الأرضي، وأن تكون النسب بين هذا الكوكب وغيره من النجوم والكواكب هي هذه النسب، وأن تكون الظواهر الجوية والفلكية على ما هي عليه، ممكنة للإنسان من الحياة، ملبية هكذا لحاجاته على النحو الذي نراه.

والذين يتفكرون هم الذين يدركون حكمة التدبير، وهم الذين يربطون بين ظاهرة كظاهرة المطر وما ينشئه على الأرض من حياة وشجر وزروع وثمار، وبين النواميس العليا للوجود، ودلالتها على الخالق وعلى وحدانية ذاته ووحدانية إرادته

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٢٤٨.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٣٦.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ١١٥.

ووحدانية تدبيره. أما الغافلون فيمرون على مثل هذه الآية في الصباح والمساء، في الصيف والشتاء، فلا توقظ تطلعهم، ولا تثير استطلاعهم، ولا تستجيش ضمائرهم إلى البحث عن صاحب هذا النظام الفريد»[1].

والآيات فيها حث على ضرورة التفكر والتأمل في نعمة الشرب، وما يكتنفها من النعم؛ وصولًا من وراء ذلك إلى وحدانية الخالق وعبادته، والإيمان بقدرته وإبداعه.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٦٢.

مشروبات أهل الجنة وصفة شربها

الجنة هي دار النعيم التي أعدها الله لعباده المؤمنين، وقد أعد الله لهم فيها من النعيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأنواع النعيم في الجنة لا حصر لها ولا عدد، ومن هذا النعيم مشروبات أهل الجنة، وقد ذكر الله في كتابه عددًا من مشروبات أهل الجنة، وصفة شربهم، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: مشروبات أهل الجنة:

أخبرنا الله أن في الجنة أنهارًا، وعيونًا، فقال: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾[البقرة: ٢٥].

وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥].

ومن هذه الأنهار والعيون تأتي أشربة أهل الجنة، وهذه الأشربة لا حصر لها ولا عدد، فقد قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٩].

فترك ذكر المأكول والمشروب لتنوعهما وكثرتهما، وهذا ما يعبر عنه بأن حذف المتعلق يفيد العموم، وقال: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ [ص: ٥١].

أي: بألوان متنوعة متكثرة من الفواكه،

وشراب كثير، فحذف «كثير» لدلالة الأول عليه[1]، وخص الشراب والفاكهة من بين ما يتنعم به فيها، لأن بلاد العرب قليلة الفواكه والأشربة، فالنفس إليها أشوق، وفي ذكرها أرغب، كما أن في ذلك إيماء إلى أن مطاعمهم وشربهم للتغذي والتفكه والتلذذ[2]. وتنوين ﴿وَشَرَابٍ﴾ هنا للتعظيم والتنويع.

وقد نص القرآن على بعض مشروبات أهل الجنة، وهذا بيانها:

١ . الماء.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

وسبب اختيار الأنهار من الأجناس الأربعة: لأن المشروب إما أن يشرب لطعمه فألذها: الحلو وهو متمثل بالعسل، والدسم متمثل باللبن، وإما لأمر غير عائد إلى الطعم: متمثلًا بالماء والخمر[3].

وهذه الأصناف المذكورة في الآية كانت من أفضل ما يتنافسون فيه، ومن أعز ما يتيسر الحصول عليه، فكيف الكثير منها، فكيف إذا كان منها أنهار في الجنة. وتناول هذه الأصناف من التفكه الذي هو تنعم أهل اليسار والرفاهية[4].

ويدأ الله بالماء في الآية التي تتحدث عن أنهار الجنة لأن أهل الدنيا لا يستغنون عنه بأي حال من الأحوال[5].

وبما أن الجنة لا تشابه الدنيا فقد ذكر الله تعالى صفة الماء في الجنة بقوله: ﴿غَيْرِ آسِنٍ﴾ يقال: أسن الماء، وأسن يأسن: إذا تغير ريحه تغيرًا منكرًا[6]، والمعنى: أي غير متغير، لا بوخم، ولا بريح منتنة، ولا بحرورة ولا بكدورة، بل هو أعذب المياه وأصفاها وأطيبها ريحًا وألذها شربًا[7].

وقد قرأ ابن كثير: (غير أسن) والمقصود به: الإخبار به عن الحال، وقرأ الجمهور: ﴿غَيْرِ آسِنٍ﴾ يريد به أن يكون كذلك في المستقبل[8]، فالمراد من القراءتين بيان أن ماء الجنة لا يتغير لا في الحال ولا في المستقبل، وإنما هو ماء طيب لذيذ، تشتهيه النفوس.

وقد وصف الله الأنهار بأنها جارية،

(١) فتح البيان، القنوجي ١٢/ ٥٦.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٢٣/ ١٣٠.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٤٧.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٩٦.
(٥) روح المعاني، الألوسي ٢٦/ ٤٨.
(٦) المفردات، الراغب ١/ ١٨.
(٧) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٦/ ٤٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٣٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٧٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٨٦.
(٨) انظر: الحجة للقراء السبعة، الفارسي ٦/ ١٩١.

ومعلوم أن الماء الجاري لا يأسن، فالفائدة من قوله: ﴿غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ الماء الجاري وإن كان لا يأسن، فإنه إذا أخذ منه شيء وطال مكثه أسن، وماء الجنة لا يعرض له ذلك، ولو طال مكثه ما طال[1].

ووصف الله ماء الجنة بقوله: ﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ﴾ [الواقعة: ٣١].

أي: جارٍ في منازلهم، من غير أخدود، ولا يحتاجون فيه إلى جلب من الأماكن البعيدة، ولا الإدلاء في بئر[2].

٢. اللبن.

قال تعالى: ﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ﴾ [محمد: ١٥].

ذكر اللبن بعد الماء لأنه يجرى مجرى المطعوم لكثير من العرب في غالب أوقاتهم[3]. وقد نفى الله عز وجل آفة اللبن، وهي فساده بتغير طعمه إلى الحموضة كما تتغير ألبان الدنيا؛ لأنهم كانوا إذا حلبوا وشربوا أبقوا ما استفضلوه إلى وقت آخر؛ لأنهم لا يحلبون إلا حلبة واحدة أو حلبتين في اليوم، فيقع في طعم اللبن تغير[4]. بل هو في غاية البياض، والحلاوة، والدسومة[5].

٣. الخمر.

﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: ١٥].

وذكرها بعد الماء واللبن لأنه إذا حصل الري والشبع تشوفت النفس لما يستلذ به[6].

وقال: ﴿لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ للإشعار بأنها لذيذة لجميع من يشربونها، بخلاف خمر الدنيا؛ فإن من الناس من ينفر منها ويعافها حتى ولو كان على غير دين الإسلام[7].

ونفى القرآن عن خمر الآخرة ما هو موجود في خمر الدنيا، فليس فيها حموضة ولا مرارة، ولم تدنسها الأرجل بالدوس، ولا الأيدي بالعصر، وليس في شربها ذهاب عقل ولا صداع ولا وجع بطن، ولا آفة من آفات الخمر، بل خمر الآخرة لذيذة لهم، طيبة الشرب، لا يتكرهها الشاربون بخلاف خمر الدنيا، فإنها كريهة عند الشرب، وخمر الآخرة لمجرد الالتذاذ، وتفريح الطبع، وقد تكون سببًا في تقوية البدن، تعويضًا عن خمور الدنيا، وخمر الآخرة حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل[8]. قال تعالى:

---

(١) حادي الأرواح، ابن القيم ص٣٧٢.
(٢) نظم الدرر، البقاعي ٧/ ٤٠٩.
(٣) تفسير المراغي ٢٦/ ٥٧.
(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٣٢٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٨١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٨٦.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣١٣.
(٦) تفسير المراغي ٢٦/ ٥٧.
(٧) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٣/ ٢٣٠.
(٨) انظر: فتح البيان، القنوجي ١٣/ ٦٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣١٣، تفسير المراغي ٢٦/ ٥٧.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ۝ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٥-٤٧].

وقال: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩].

وقال: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣].

قال ابن عباس: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول. فذكر الله خمر الجنة، فنزهها عن هذه الخصال[1].

وقد أخبر الله أن خمر الجنة تمزج بالكافور فقال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٥-٦].

والكأس في اللغة: هو الإناء الذي فيه الشراب، وإذا لم يكن فيه الشراب لم يسم كأسًا، بل هو إناء، وقد يطلق الكأس على نفس الخمر[2].

والآية تخبرنا أن الأبرار وهم الذين برت قلوبهم بما فيها من محبة الله ومعرفته، والأخلاق الجميلة، فبرت جوارحهم، واستعملوها بأعمال البر، أخبر أنهم ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ أي: شراب لذيذ من خمر قد مزج بكافور، أي: خلط به ليبرده ويكسر حدته، وهذا الكافور في غاية اللذة

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢١١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٣.
(٢) انظر: فتح البيان، القنوجي ١٤/ ٤٦٠.

قد سلم من كل مكدر ومنغص، موجود في كافور الدنيا، فإن الآفة الموجودة في الأسماء التي ذكر الله أنها في الجنة وهي في الدنيا تعدم في الآخرة[3]. وقوله: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: يشقونها شقًا، كما يفجر الرجل النهر هاهنا وهاهنا إلى حيث يريد. وقال مجاهد: يقودونها حيث شاءوا، وتتبعهم حيثما مالوا مالت معهم[4].

هذه أقوال تتعاضد على أن المراد بالكأس والشارب في الآية هي الخمر، لكن ما المانع أن يشمل الشراب غير الخمر؛ خاصة إذا كان الحديث عن نعيم أهل الجنة، فلهم أن يشربوا ما شاءوا مما أعده الله لهم؟!

وقد اختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ هل هي اسم عين في الجنة أم أن ماء هذه العين ببرد الكافور أو ريحه أو طعمه؟

قال الحسن: «ببرد الكافور وطعم الزنجبيل»[5]. وقال قتادة: «المقصود ريح الكافور»[6]. وقال السدي: «كأن طعمه طعم الكافور»[7]. وقال عطاء: «إن ماء

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٠١.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٥٤٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٩٦.
(٥) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٧٥.
(٦) المصدر السابق.
(٧) المصدر السابق.

تلك العين يسمى كافورًا»[1]. وقد ذهب الرازي إلى: «أن ماء ها في بياض الكافور ورائحته وبرده، ولكن لا يكون فيه طعمه ولا مضرته، فالمعنى من ذلك الشراب: يكون ممزوجًا بماء هذه العين»[2]. وجمع أبو السعود والألوسي بين هذه الآراء فقالا: ﴿كَافُورًا﴾ أي: ماء كافور، هو اسم عين في الجنة، ماؤها في بياض الكافور ورائحته وبرده»[3].

وأخبر تارة أن الخمر تمزج بالزنجبيل، فقال: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٧-١٨].

والمعنى أن أهل الجنة يسقون في الجنة كأسًا من الخمر ممزوجة بالزنجبيل، وقد كانت العرب تستلذ مزيج الشراب بالزنجبيل لطيب رائحته، وقال مقاتل : هو زنجبيل لا يشبه الدنيا، أي : يلذع الحلق فتصعب إساغته.

قلت: وكذلك ما في الجنان من الأشجار والثمار والقصور والنساء والحور والمأكولات والأشربة والملبوسات لا يشبه ما في الدنيا إلا في مجرد الاسم، لكن الله سبحانه وتعالى يرغب الناس ويطمعهم بأن يذكر لهم أحسن شيء وألذه وأطيبه مما يعرفونه في الدنيا لأجل أن يرغبوا ويسعوا فيما يوصلهم إلى هذا النعيم المقيم[4].

وسميت هذه العين سلسبيلًا، قيل: إنها سلسلة يصرفونها حيث شاءوا[5]. وقيل: لأنها تنسل عليهم في مجالسهم وغرفهم وطرقاتهم[6]. وقيل: لأنها سلسلة السبيل، أي : حديده جديدة الجدية تسيل في حلوقهم انسلالًا[7].

وقد تعاضدت كلمة المفسرين على أن المراد بالشراب هنا الخمر أيضًا ، لكن قد يشمل الشراب غير الخمر، كما سبق بيانه.

وعن حكمة مزج الخمر بالكافور في الآية الأولى، وبالزنجبيل في هذه الآية يقول ابن القيم: «فأخبر سبحانه عن العين التي يشرب بها المقربون صرفًا، إن شراب الأبرار يمزج منها؛ لأن أولئك أخلصوا الأعمال كلها لله، فأخلص شرابهم، وهؤلاء مزجوا فمزج شرابهم»[8]. وقال ابن كثير: «فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد، وتارة بالزنجبيل وهو حار؛ ليعتدل الأمر»[9].

وقد يوهم أن شربهم من هذه الكأس الممزوجة بالكافور والمسك قد تؤثر

(١) معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٢٩٣.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١٠٠.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٠٠، روح المعاني، الألوسي ٢٩/ ٥٠.
(٤) فتح البيان، القنوجي ١٤/ ٤٧١.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢٩/ ٥٠.
(٦) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٦٠.
(٧) تفسير غريب القرآن، ابن قتيبة ٤/ ٨٠.
(٨) حادي الأرواح، ابن القيم ص٣٨٢.
(٩) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٨٠.

في عقولهم، فقال واصفًا هذا الشراب ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].

فهذا احتراس مما يوهمه شربهم من الكأس الممزوجة بالكافور والزنجبيل من أن يكون فيها ما في أمثالها المعروفة في الدنيا، ومن الغول وسوء القول والهذيان، فعبر عن ذلك بكون شرابهم طهورا بصيغة المبالغة في الطهارة، وهي النزاهة من الخبائث، أي : منزهًا عما في غيره من الخباثة والفساد، وللإشعار بأن هذا الشراب قد بلغ النهاية في الطهارة[١].

وأسند سقيه إلى ربهم إظهارًا لكرامتهم، أي: أمر هو بسقيهم ، كما يقال: أطعمهم رب الدار وسقاهم[٢].

وفي آية أخرى وصف الله شراب أهل الجنة من الخمر فقال: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ [المطففين: ٢٥-٢٦].

والرحيق: اسم للخمر الطيبة الصافية، الخالية من كل ما يكدر أو يذهب العقل. وهذه الخمر مختوم على إنائها بخاتم، بحيث لم تمسها يد قبل أيديهم. وهذه الخمر-أيضًا- من صفاتها أن شاربها يجد في نهاية شربها ما يشبه المسك في جودة الرائحة[٣].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٤٠٠.
(٢) المصدر السابق.
(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٥/ ٣٢٦.

الجمع بين موهم الاختلاف:

قال الله: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ [محمد: ١٥].

وقال: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ [المطففين: ٢٥].

والنهر لا يختم عليه، فكيف الجمع بين الآيتين؟ طريق الجمع بينهما أن المذكور في سورة المطففين في أوانٍ مختوم عليها؛ لشرفها ونفاستها، وهي غير تلك الخمر التي في الأنهار[٤].

٤ . العسل.

قال تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

في غاية الصفاء وحسن اللون، والطعم، والريح[٥]. والعسل يشوب أجزاؤه من الشمع والشوائب وغيرها ما هو موجود في عسل أهل الدنيا[٦].

وسبب ذكره في نهاية الحديث عن أنهار الجنة؛ لما فيه من الشفاء في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم، فهو متأخر بالرتبة[٧].

قال ابن القيم: «ثم تأمل اجتماع هذه الأنهار الأربعة التي هي أفضل أشربة

(٤) انظر: فتح البيان، القنوجي ١٥/ ١٣٥.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٧٧.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٦/ ٤٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٦/ ٤٨.
(٧) انظر: روح المعاني، الألوسي ٢٦/ ٤٨، تفسير المراغي ٢٦/ ٥٧.

الناس، فهذا لشرابهم وطهورهم، وهذا لقوتهم، وهذا للذتهم وسرورهم، وهذا لمنفعتهم»[1].

والآيات التي تحدثت عن شراب أهل الجنة تتجلى هداياتها في بيان عظيم نعمة الله على أهل الجنة، وأن إيمانهم كان سببًا في نيلهم هذه المكانة العظمى، كما فيها تحفيز وتشويق النفوس لهذا النعيم.

ثانيًا: صفة شراب أهل الجنة:

كما ذكر القرآن أشربة أهل الجنة، وعدد أنواعًا منها، فقد ذكر أيضًا صفة شربهم؛ بيانًا لهذا النعيم، وتشويقًا للنفوس، وصفة شراب أهل الجنة هي:

١ . شراب هنيء.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٧-١٩].

فتخبرنا الآيات بأن الذين اتقوا ربهم لهم جنات ونعيم، متمتعين على وجه الفرح والسرور بما أعطاهم الله من النعيم الذي لا يمكن وصفه، ووقاهم عذاب الجحيم، فرزقهم المحبوب، ونجاهم من المرهوب؛ لما فعلوا ما أحبه الله، وجانبوا ما يسخطه ويأباه، ويقال لهم وهم في هذا النعيم:

كلوا واشربوا مما تشتهيه أنفسكم، من أصناف المآكل والمشارب اللذيذة، متهنئين بتلك المآكل والمشارب على وجه الفرح والسرور والبهجة والحبور[2].

والهنيء: كل ما لا يلحق فيه مشقة، ولا يعقب وخامة، ولا تنغيص فيه، ولا نكد، ولا كدر، ولا أذى[3].

وقوله: ﴿هَنِيٓـًٔۢا﴾ إشارة إلى خلو الأكل والشرب عما يكون فيها من المفاسد في الدنيا، منها: أن الآكل يخاف من المرض فلا يهنأ له الطعام.

ومنها: أنه يخاف النفاد فلا يسخو بالأكل، والكل منتفٍ في الجنة فلا مرض ولا انقطاع، فإن كل أحد عنده ما يفضل عنه. ولا إثم ولا تعب في تحصيله؛ فإن الإنسان في الدنيا ربما يترك لذة الأكل لما فيه من تهيئة المأكول بالطبخ والتحصيل من التعب أو المنة، أو ما فيه من قضاء الحاجة واستقذار ما فيه، فلا يتهنأ، وكل ذلك في الجنة منتفٍ.

ومنها: أنهم أمنوا من الموت، فلا يفوتهم هذا النعيم؛ فإن ما لا يبقى أو لا يبقى الإنسان معه منغص، وذلك منتفٍ في الجنة[4].

---

(١) انظر: حادي الأرواح، ابن القيم ص٣٧٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨١٥.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٦٥، روح المعاني، الألوسي ١٤/ ٣٢.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٢٠٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٦٥.

فالملاحظ أن قوله: ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ قد جمع كل أنواع اللذة والفرح والسرور والبهجة والحبور لأهل الجنة، وفوق ذلك أن هذا الطعام والشراب فيه تكريم لأهل الجنة، فينادون هذا النداء العلوي، ويقال لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وهذا بذاته لذة ومتعة ونعيم يفوق كل نعيم.

٢. شراب لذيذ.

من أوصاف شراب أهل الجنة أنه لذيذ، وقد جاء هذا في وصف خمر الجنة، فقال ربنا: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [الصافات: ٤٦].

وقال: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: ١٥].

أي: ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل هي حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل[1].

وقال: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ لأن اللذة تختلف باختلاف الأشخاص، فرب طعام يلتذ به شخص ويعافه الآخر، فقال: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ بأسرهم، ولأن الخمر كريهة الطعم، فقال: ﴿لَّذَّةٍ﴾ أي: لا يكون في خمر الآخرة كراهة الطعم[2].

وقد جاء وصف اللذة أيضًا مضمنًا في قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦].

فمن المفسرين من ذهب إلى تناوب الحروف، فمعنى ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي: يشرب منها[3]، ومنهم من ذهب إلى التضمين[4]، فضمن ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي: يروى[5]. والأولى أن يكون معنى ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي: يتلذذون بها؛ لأن أهل الجنة لا يظمؤون، وإنما ينشدون من الشرب المسرة، ويطلبون اللذة والاستمتاع. والله أعلم.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣١٣.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٤٦.
(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٢٧٠.
(٤) التضمين: أن يدل بكلمة واحدة على معنى كلمتين. أو إعطاء الشيء معنى الشيء. انظر: الإتقان للسيوطي ٣/ ١٣٦.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١٢٦.

مشروبات أهل النار وصفة شربها

النار دار العقاب التي أعدها الله للكفار والعصاة، وقد أعد فيها من العذاب أنواعًا، ومن أنواع العذاب في جهنم شراب أهل النار، وقد ذكر القرآن أنواعًا من شراب أهل النار، ووصف شربهم، وفيما يأتي بيان ذلك.

أولًا: مشروبات أهل النار:

ذكر القرآن عددًا من أشربة أهل النار، منها:

١ . الحميم.

وقد ذكره القرآن في عدة آيات، منها:

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٠].

وقوله: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩-٢٠].

وقوله: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

والحميم هو الماء الحار، الشديد الحرارة والغليان. فأهل النار يسلط عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقوم(١) الذي هو كالمهل، فإذا ملؤوا منه البطون يسلط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم(٢). وهذا الحميم قد وصفه الله بعدة أوصاف، وهي:

- يصهر البطون والجلود.

قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩-٢٠]. أي: يذيب ما في بطونهم، ويشوي جلودهم. قال ابن عباس: تسيل أمعاؤهم وتتناثر جلودهم. وقال أيضًا: يمشون وأمعاؤهم تتساقط وجلودهم، وقال: يسقون ماء إذا دخل في بطونهم أذابها، والجلود مع البطون(٣). فهذا الحميم من شدته له أثر على ظاهر أهل النار وباطنهم.

- يقطع الأمعاء.

قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]. فهذا الماء الحار يقطع أمعاءهم، أي: مصارينهم، فتخرج من أدبارهم لفرط حرارته(٤).

٢ . الصديد.

قال تعالى: ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥-١٦].

فالآيتان تخبرنا أن جهنم تنتظر هذا

---

(١) الزقوم: الزاء والقاف والميم أصيل يدل على جنس من الأكل، والزقوم طعام أهل النار. انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٦، جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٣.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٦٤.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٩٧، فتح البيان، القنوجي ٩/ ٢٩.

(٤) انظر: فتح البيان، القنوجي ١٣/ ٦٢.



الجبار العنيد، وتترصد له، وتتبعه حيث كان، بحيث لا يستطيع الفرار منها، أو الهرب عنها، ويلقى فيها من الأهوال ألوانًا وأشكالًا، ومن هذه الأهوال أنه يسقى من ماء مخصوص ليس كالمياه المعهودة، هو الصديد وهو ما يسيل من جلود أهل النار ولحومهم، وهو دم مختلط بقيح، يسيل من جلد الكافر ولحمه. وقال مجاهد: هو القيح والدم[(١)]. وقال محمد بن كعب القرظي: هو ما يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر[(٢)]. واشتقاقه من الصد، لأنه يصد الناظرين عن رؤيته[(٣)].

وجعل الصديد ماء على التشبيه البليغ في الإسقاء؛ لأن شأن الماء أن يسقى. والمعنى: ويسقى صديدًا عوض الماء إن طلب الإسقاء[(٤)].

٣. المهل.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٥].

والمهل فيه أقوال: قال ابن عباس وابن مسعود: كل شيء أذبته من ذهب أو نحاس أو فضة فهو المهل[(٥)].

وقال مجاهد: إنه الصديد والقيح. وقال سعيد بن جبير: إنه ضرب من القطران. قال ابن عباس وابن عمر: المهل ماء غليظ مثل دردي الزيت وعكره[(٦)].

وقال الضحاك: ماء أسود، وإن جهنم لسوداء، وماؤها أسود، وشجرها أسود، وأهلها سود[(٧)].

قال الحسن: كان ابن مسعود على بيت المال لعمر بالكوفة، فأذاب يوما فضة مكسرة، فلما انماعت، قال: يدخل من بالباب، فدخلوا، فقال لهم: هذا أشبه ما رأينا في الدنيا بالمهل. قال مجاهد: ولو وقعت منها قطرة في الأرض لأفسدت على أهل الأرض معايشهم[(٨)].

وقد ذكر القرطبي أن هذه الأقوال صحيحة ومرادة في معنى الآية[(٩)].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٦١٨.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٤١.
(٣) انظر: فتح البيان، القنوجي ٧/ ٩٧، التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٧/ ١٦١، التفسير الوسيط، طنطاوي ٧/ ٥٣٧.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٢١١.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٥-٥٦.
(٦) انظر: المصدر السابق ٢١/ ٥٧.
(٧) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ١٦٧.
(٨) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٧٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٦٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٩٤.
(٩) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٩٤.

واستغاثتهم يحتمل أن تكون لأنهم إذا طلبوا ماء للشرب فيعطون هذا المهل، ويحتمل أن يستغيثوا من حر جهنم فيطلبوا ماء يصبونه على أنفسهم للتبريد فيعطون هذا الماء[1].

وقوله: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ لأن المقصود بشرب الشراب تسكين الحرارة، وهذا يبلغ في احتراق الأجسام مبلغًا عظيمًا[2].

وقد ذكر الله لهذا المهل في القرآن أوصافًا، وهي:

- يشوي الوجوه.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ فأهل النار حين يستغيثون من الظمأ لاحتراق أفئدتهم يغاثوا بماء كالمهل يشوي وجوهم ويذيبها من فرط حرارته.

- يغلي في البطون.

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٥].

والمعنى أن هذه الشجرة إذا طعمها الكافر في جهنم، صارت في جوفه تفعل كما يفعل المهل السخن من الإحراق والإفساد.

٤. الغساق.

قال تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٧].

قال ابن عباس: غساق: الزمهرير[3].

قال محمد بن كعب: هو عصارة أهل النار. وقال السدي: الغساق الذي يسيل من دموع أهل النار يسقونه مع الحميم، وكذا قال ابن زيد[4].

وقال مجاهد ومقاتل: هو الثلج البارد الذي قد انتهى برده[5].

قال الربيع بن أنس: الغساق: هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم، فهو بارد لا يستطاع من برده، ولا يواجه من نتنه[6].

وقال: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: ٢٤-٢٥].

أي: لا يذوقون في جهنم بردًا يبرد حر السعير عنهم إلا الغساق، ولا شرابًا يرويهم من شدة العطش إلا الحميم، فهم لا يذوقون مع شدة الحر ما يكون فيه راحة من ريح باردة، أو ظل يمنع من نار، ولا يجدون شرابًا فيسكن عطشهم، ويزيل الحرقة من بواطنهم، ولكن يجدون الماء الحار المغلي، وما يسيل من جلودهم من الصديد والقيح والعرق، وسائر الرطوبات المستقذرة.

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٦٠.
(٢) المصدر السابق ٢١/ ٤٦٠.
(٣) معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٩٩.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٢٧.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٢٩، معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٩٩.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٠٧.

والخلاصة: إنهم لا يذوقون فيها شرابًا إلا الحميم البالغ الغاية في السخونة، أو الصديد المنتن، ولا بردًا إلا الماء الحار المغلي[1].

يقول سيد قطب: «﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ ثم يستثني فإذا الاستثناء أمر وأدهى: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ إلا الماء الساخن يشوي الحلوق والبطون. فهذا هو البرد! وإلا الغساق الذي يغسق من أجساد المحروقين ويسيل. فهذا هو الشراب!»[2].

٥. شراب من عين آنية.

قال تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٤-٥].

أي: متناهية في الحر، والآني الذي قد انتهى حره، من الإيناء بمعنى التأخر، يقال: آناه يؤنيه إيناء، أي: أخره وحبسه[3].

والمعنى: إن أهل النار إذا عطشوا في تلك الدار وطلبوا ما يطفئ غلتهم، جيء لهم بشراب من هذه العين الآنية، بلغ من الحرارة غايتها، فهو لا يطفئ لهبًا، ولا ينقع غلة[4].

والقرآن لم يحدد نوع الشراب الذي يسقاه أهل النار من العين الآنية، فقد يكون ماء حميمًا، وقد يكون صديدًا، أو مهلًا، أو غير ذلك، وهذا من الأمور الغيبية ، فنقف معه حيث وقف القرآن.

والآيات السابقة تبرز هداياتها في بيان شراب أهل النار وأوصافه؛ تفظيعًا لحالهم، وبيانًا لما هم فيه من شدة العذاب، وأن سبب دخولهم النار هو كفرهم برب العباد، كما تشير إلى تحذير الخلق من هذا المصير والجزاء.

ثانيًا: صفة شرب أهل النار:

وصف الله شرب أهل النار بوصفين، هما:

١ . شرب الهيم.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ۝٥٥ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ۝٥٦﴾ [الواقعة: ٥١-٥٦].

فالآيات تخبرنا أن أهل النار بعد أكلهم شاربون بعد ذلك من ماء حار لغلبة العطش عليكم، ولكنه شرب لا يشفى الغليل، ومن ثم تشربون ولا ترتوون[5]، وشربكم لا يكون شربكم شربًا معتادًا بل شرب الهيم.

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك: هو جمع أهيم، وهو الجمل الذي أصابه الهيام، بضم الهاء، وهو داء معطش يشرب معه الجمل حتى يموت أو يسقم سقمًا شديدًا.

(١) تفسير المراغي ٣٠/ ١٣.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨٠٧.
(٣) فتح البيان، القنوجي ١٥/ ٢٠١.
(٤) تفسير المراغي ٣٠/ ١٣٢.

(٥) تفسير المراغي ٢٧/ ١٤٣.

وقال قوم آخرون: هو جمع هائم وهائمة، وهذا أيضًا من هذا المعنى؛ لأن الجمل إذا أصابه ذلك الداء هام على وجهه وذهب، وقال سفيان الثوري وابن عباس: الهيم هنا الرمال التي لا تروى من الماء، وذلك أن الهيام بفتح الهاء هو الرمل الدق الغمر المتراكم[1].

أي: إن هذا الشراب الجهنمي يقبل عليه الذين أكلوا من هذا الطعام الزقومي، يقبلون عليه في سعار مجنون، أشبه بالإبل الهيم، أي : العطاش، التي حبست عن الماء أيامًا، فإذا وردت عليه عبت منه في نهم شديد، لتنقع غلتها، وتروي ظمأها.

وفي إقبال أهل هذا الطعام على هذا الشراب - إشارة إلى أن ما في بطونهم من لهيب، أشد من هذا الحميم، فهم يستشفون من داء بداء، ويستجيرون من بلاء ببلاء، ويطفئون النار بالنار![2].

وإعادة فعل (شاربون) لتأكيد تلك الصورة الفظيعة[3].

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ عطف على ﴿لَآكِلُونَ﴾ لإفادة تعقيب أكل الزقوم بشرب الهيم دون فترة ولا استراحة[4].

وإعادة ﴿فَشَٰرِبُونَ﴾ توكيد لفظي لنظيره، وفائدة هذا التوكيد زيادة تقرير ما في هذا الشرب من الأعجوبة ، وهي أنه مع كراهته يزدادون منه كما ترى الأهيم، فيزيدهم تقطيعًا لأمعائهم لإفادة التعجيب من حالهم تعجيبًا ثانيا بعد الأول، فإن كونهم شاربين للحميم على ما هو عليه من تناهي الحرارة أمر عجيب، وشربهم له كما تشرب الإبل الهيم في الإكثار أمر عجيب أيضًا، فكانتا صفتين مختلفتين[5].

وقوله: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ بيان لزيادة العذاب، أي : لا يكون أمركم أمر من شرب ماء حارًا متننًا فيمسك عنه، بل يلزمكم أن تشربوا منه مثل ما تشرب الهيم، وهي الجمال التي أصابها العطش ، فتشرب ولا تروى، وهذا البيان في الشرب لزيادة العذاب[6].

وهذا العذاب وهذا الشراب ﴿نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ وفيه مبالغة بديعة؛ لأن النزل ما يعد للقادم عاجلًا إذا نزل، ثم يؤتى بعده بما هو المقصود من أنواع الكرامة، فلما جعل هذا، مع أنه أمر مهول، كالنزل، دل على أن ما بعده لا يمكن لبشر تصوره[7].

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٤٧.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٤/ ٧٢٢.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٣١٠.
(٤) المصدر السابق.
(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٦٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٣١٠، التفسير الوسيط، طنطاوي ١٤/ ١٧٣.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤١٤.
(٧) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ١٢٥.



والتعبير عما أعد لهم من عذاب بالنزل، على سبيل التهكم[1].

٢. التجرع وعدم الاستساغة.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم: ١٥-١٧].

تخبرنا الآيات أن من وراء الجبار العنيد جهنم، أي: هي له بالمرصاد تنتظره، ليسكنها مخلدًا فيها أبدًا، ويعرض عليها في الدنيا غدوا وعشيًا إلى يوم التناد. ثم بين شرابه فيها فقال: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ أي : ليس له في النار شراب إلا ماء يخرج من جوفه وقد خالطه القيح والدم، وخص بالذكر لأنه آلم أنواع العذاب، ثم ذكر ألمه من ذلك الشراب فقال: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي : يتحساه جرعة بعد جرعة، ولا يكاد يزدرده؛ من شدة كراهته، ورداءة طعمه ولونه، وريحه وحرارته[2].

والتجرع: التحسي، أي: يتحساه مرة بعد مرة، لا مرة واحدة؛ لمرارته وحرارته ونتنه وكراهته، وقيل: يكلف تجرعه ويقهر عليه، وقيل: إنه دال على المهلة، أي : يتناوله شيئًا فشيئًا[3].

وقوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ يقال: ساغ الشراب في الحلق يسوغ سوغًا إذا كان سهلًا، والمعنى: لا يقارب أن يسيغه ويبتلعه، فكيف يكون الإساغة؟ بل يغص به فيشربه جرعة بعد جرعة ، فيطول عذابه بالحرارة والعطش تارة، ويشربه على هذه الحالة أخرى، فإن السوغ انحدار الشراب في الحلق بسهولة وقبول نفس، ونفيه لا يوجب نفي ما ذكر جميعًا. وقيل: لا يكاد يدخله في جوفه، وعبر عنه بالإساغة لما أنها المعهودة في الأشربة، وقيل: إنه يسيغه بعد شدة وإبطاء[4].

وهو توكيد لشناعة هذا الصديد، وأنه لا يسوغه الشارب أبدًا، ولا يكون على أية درجة من درجات الإساغة ، وهذا أبلغ من أن يقال: «ولا يسيغه» ؛ لأن نفى الإساغة لا يقطع بأن تكون هناك درجة من درجات الإساغة في هذا الشراب، ولكن نظرًا لقلتها، فقد شملها النفي[5].

يقول سيد قطب: «يسقى من الصديد السائل من الجسوم. يسقاه بعنف فيتجرعه غصبًا وكرهًا، ولا يكاد يسيغه؛ لقذارته ومرارته، والتقزز والتكره باديان نكاد نلمحهما من خلال الكلمات!»[6].

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ١٢٥، التفسير الوسيط، طنطاوي ١٤/ ١٧٣.
(٢) تفسير المراغي ١٣/ ١٣٨.
(٣) انظر: فتح البيان، القنوجي ٧/ ٩٧.
(٤) المصدر السابق.
(٥) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٧/ ١٦١.
(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٩٣.

لمسات اعجازية في الشرب

القرآن آية الله إلى نبيه صلى الله عليه وسلم التي تحدى بها البشر جميعًا، أن يأتوا بمثله في كل شيء، وقد اشتمل القرآن على وجوه كثيرة من الإعجاز، وفيه إشارات علمية مما لم يكن ليحيط به علم بشر في عهد النبي صلى الله عليه وسلم من تلقاء نفسه، ثم يبقى الناس يكتشفون أسراره في الكون، والقرآن قد سبق به منذ دهر بعيد تصريحًا وتلويحًا، كان يتلوه على الناس نبي أمي، لم يدرس علوم الفضاء ولا البيئة ولا البحار ولا طبقات الأرض ولا الأجنة، لينبئ العالم أنه رسول رب العالمين، وأن هذا القرآن من علم الله الذي أحاط بكل شيء.

وقد أشار القرآن إلى بعض الإشارات العلمية في بعض الأشربة، وهذا بيانها:

أولًا: اللبن:

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ [النحل: ٦٦].

هذه الآية اشتملت على بعض الإشارات الإعجازية العلمية في تكوين اللبن، وقيمته، وبيان ذلك فيما يأتي:

١. مراحل تكوين اللبن من بين الفرث والدم.

الفرث: الطعام المتبقي في أمعاء الحيوان بعد هضمه. وأصل الفرث: التفتيت. يقال: فرثت كبده، أي: فتتها[(١)].

وقد فهم المفسرون من هذه الآية أن المقصود: نسقيكم من بين الفرث والدم الذي اشتملت عليه بطون الأنعام، لبنًا نافعًا لأبدانكم، خالصًا من رائحة الفرث، ومن لون الدم، مع أنه موجود بينهما سائغًا للشاربين بحيث يمر في الحلوق بسهولة ويسر، ويشعر شاربه بلذة وارتياح.

وقد استطاع العلماء حديثًا معرفة كيف يتكون اللبن في بطون الأنعام بعد اكتشاف أسرار الجهاز الهضمي، ومعرفة وظائف أعضائه، وبعد اكتشاف الدورة الدموية وعلاقتها بعملية امتصاص المواد الغذائية من الأمعاء ودخولها في الدم.

في هذه الآية الكريمة يلفت الله نظرنا إلى ظاهرة عجيبة تحمل لنا العبرة من قدرة الخالق، فاللبن الذي يعتبر من أهم الأغذية يخرج لنا من بطون الأنعام بصورة مدهشة.

مراحل تكون اللبن من بين الفرث والدم[(٢)]:

يتم تكوين اللبن في الأنعام بالتنسيق المحكم والتدرج الدقيق بين الجهاز

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٩٨.

(٢) انظر: إشارات إعجازية في تكوين لبن الأنعام، حامد عطية محمد ص٣١ وما بعدها، بحث منشور في موقع الهيئة العالمية للإعجاز.

الهضمي والجهاز الدوري والجهاز التناسلي عن طريق الغدد اللبنية في الضروع وغيرها من الأجهزة، حيث جعل الله لكل جهاز وظيفة وأعمالًا خاصة يقوم بها ليتكون - في نهاية المطاف - اللبن الخالص السائغ للشاربين.

ويمكن أن نجمل مراحل تكون اللبن كالآتي:

١. عملية الهضم في الكرش (تحول العلف إلى فرث).
٢. عملية استخلاص الأحماض الدهنية من بين الفرث.
٣. عملية استخلاص من بين الدم: ويتم تكوين اللبن بواسطة الغدد الثديية ،أو الضرع عن طريق عمليتين مهمتين:

- المرحلة الأولى: ترشيح بعض مكونات اللبن من مجرى الدم.
- المرحلة الثانية: تركيب مكونات اللبن الأخرى بواسطة التمثيل الغذائي الخلوي.

ويكفي أن نعلم أنه من أجل إنتاج لتر واحد من الحليب في ثدي الحيوان يجب أن يمر ما يقارب خمسمائة لتر من الدم خلال هذا العضو؛ كي يتم امتصاص المواد اللازمة من البروتينيات، والكربوهيدرات، والدهون، والعناصر والفيتامينات والهرمونات اللازمة لتكوين ذلك اللتر من اللبن.

وجه الإعجاز في تكوين اللبن:

ما كان أحد يعلم قبل اكتشاف أجهزة التشريح في القرنين الماضيين أسرار ما يجري في الجهاز الهضمي للحيوان، ووظائف ذلك الجهاز المعقد، وعلاقته بالدورة الدموية، ومراحل تكون اللبن في بطون الأنعام، فلما تكاملت صناعة الأجهزة والتجارب العلمية على مر قرون كثيرة عرف الإنسان أن مكونات اللبن تستخلص بعد هضم الطعام من بين الفرث، وتجري مع مجرى الدم لتصل إلى الغدد اللبنية في ضروع الإناث التي تقوم باستخلاص مكونات اللبن من بين الدم، دون أن يبقى أثر للفرث أو الدم في اللبن، وتضاف إليه في حويصلات اللبن مادة سكر اللبن التي تجعله سائغًا للشاربين.

هذه الأسرار كانت محجوبة عن البشر فلم يكتشفوها إلا بعد رحلة طويلة من البحث والتجارب التي استغرقت قرونًا، لكن القرآن كشفها أمام قارئيه بأجمل عبارة وأوجز لفظ قبل ألف وأربعمائة عام[1]، وما كان بشر في ذلك العهد ليتصورها فضلًا على أن يقررها بهذه الدقة العلمية الكاملة.

والقرآن -وهو يعبر عن هذه الحقائق العلمية- يحمل أدلة الوحي من الله في خصائصه الأخرى لمن يدرك هذه

(١) انظر: المصدر السابق.

الخصائص ويقدرها، ولكن ورود حقيقة واحدة على هذا النحو الدقيق يفحم المجادلين المتعنتين.

٢ . قيمة اللبن الغذائية.

امتن الله على عباده بأنواع الأشربة المباحة الكثيرة، وقد نص القرآن على بعض هذه الأشربة في سياق امتنان الله على عباده، وكون القرآن ينص على بعض الأشربة بعينها، فهذا يبين أهمية هذه الأشربة وفائدتها للإنسان، ومن هذه الأشربة: اللبن.

وقد أثبت العلم الحديث أن اللبن ذو قيمة غذائية مرتفعة، ويفي بالاحتياجات الغذائية في شكل ملائم ونسب متزنة، وأقرب إلى الكمال من أي غذاء آخر. والحقيقة أن اللبن أكمل الأغذية من الناحية البيولوجية، رغم أنه ينقصه قليل من العناصر الغذائية، ولكن رغم ذلك يعد أفضل من أي غذاء منفرد وحيد، ولا توجد أي مادة غذائية أخرى يمكن أن تقارن مع اللبن من حيث قيمته الغذائية المرتفعة؛ وذلك لاحتوائه على المواد الغذائية الأساسية الضرورية؛ التي لا يستغني عنها جسم الإنسان في جميع مراحل نموه وتطوره. فاللبن يعد من أفضل الأغذية للأطفال والناشئين، والبالغين والمسنين على السواء، فعلاوة على أنه ينفع الصغار في حياتهم ويكسبهم مناعة ضد كثير من الأمراض؛ فإنه أيضًا يفيد الكبار كثيرًا؛ لقيمته الغذائية المرتفعة.

القيمة الغذائية للبن:

يمد اللبن جسم الإنسان بمجموعة كبيرة جدا من العناصر والمركبات الغذائية الحيوية المهمة، ويمكن إيجاز ذلك في النقاط الآتية:

١ . يعد اللبن موردًا مهمًا وجيدًا للبروتينات ذات القيمة الغذائية المرتفعة.

٢ . توجد الأحماض الدهنية في اللبن بنسبة دقيقة جدا بحيث يسهل هضمها وتمثيلها في الجسم، ويحتوي دهن اللبن على كثير من المواد الحيوية المهمة.

٣ . عدم وجود اللاكتوز إلا في اللبن فقط، ويمتاز سكر اللبن (اللاكتوز) عن غيره من الكربوهيدرات الأخرى بقدرته على التخمر الذي يعد ذا أهمية نافعة في التغذية، كما أنه يؤثر على غشاء المعدة المخاطي نظرًا لقلة ذوبانه.

٤ . يعد اللبن مصدرًا مهمًا لكثير من الفيتامينات. وهي مواد تساعد على الاستفادة من الغذاء والوقاية من الأمراض.

٥ . يكون الماء ما يقرب من (٨٥ ـ ٩٠) من ألبان الثدييات المختلفة، وبعض مكونات اللبن إما ذائبة في الماء،

مثل بعض الفيتامينات والأنزيمات واللاكتوز، أو على صورة معلقة بالماء مثل حبيبات الدهن أو جزيئات الكيزين. والماء له دور مهم وحيوي في حياة الإنسان حيث إن له وظائفه الفسيولوجية في الجسم الإنساني.

٦. يعتبر اللبن مصدرًا مهما من مصادر فيتامين (أ) الذي يعد مهما جدا في حياة الإنسان.

٧. يحتوي اللبن على نسبة لا بأس بها من فيتامين (د) وهذا الفيتامين يساعد على ترسب الكالسيوم والفوسفور في الجسم، أي: أنه يساعد على نمو العظام.

٨. يعد اللبن أحد المصادر الطبيعية الأساسية الغنية بالكالسيوم والفوسفور، وهما من الأملاح المعدنية الضرورية لجسم الإنسان؛ إذ إن هذه المعادن تدخل في تكوين الهيكل العظمي وتركيب الأسنان.

٩. يحتوي اللبن على كثير من الأنزيمات التي تساعد على هضم الطعام وامتصاصه[1].

هذا هو اللبن الذي أخرجه المولى بقدرته العظيمة من بين فرث ودم لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين، يجزئ الأصحاء ويكفيهم، ويقوي المرضى ويشفيهم، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾

وجه الإعجاز:

ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(من أطعمه الله طعامًا، فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وارزقنا خيرًا منه، ومن سقاه الله لبنًا، فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وزدنا منه، فإني لا أعلم ما يجزئ من الطعام والشراب إلا اللبن)**[2].

وهذه الإشارة من النبي صلى الله عليه وسلم يتجلى لنا منها بوضوح أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أشار إلى قيمة اللبن الغذائية المتميزة في زمن لم يكن يدرك الناس وقتئذ تركيب اللبن، وما يحتوي عليه من عناصر ومركبات الغذاء الحيوية المهمة، التي لا تجتمع في شراب غيره. ثم لما تقدم العلم وتوفرت الأجهزة توصل العلماء

(١) انظر: الإعجاز العلمي في قيمة اللبن الغذائية علي أحمد علي الشحات، مقال منشور على موقع الهيئة العالمية للإعجاز.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٩٧٨، ٢/ ٤٧٢، وأبو داود في سننه، كتاب الأشربة، باب ما يقول إذا شرب اللبن، رقم ٣٧٣٠، ٥/ ٥٦١، والترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب ما يقول إذا أكل طعامًا، رقم ٣٤٥٥، ٥/ ٥٠٦، وابن ماجه في سننه، كتاب الأطعمة، باب اللبن، رقم ٣٣٢٢، ٤/ ٤٣٥. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٤٤، رقم ٦٠٤٥.

والباحثون إلى اكتشاف هذه المواد الغذائية التي يحتوي عليها اللبن من البروتينات والكربوهيدرات، والسكريات، والدهون، والمعادن والفيتامينات، وغير ذلك.

فمن أخبر محمدًا صلى الله عليه وسلم بهذه الحقائق في وقت كان يستحيل فيه على الإنسان أن يتوصل إلى ما توصل إليه اليوم؟ مما يدل دلالة قاطعة على أن محمدًا رسول الله، وأن ما أخبر به وذكره إنما هو بتعليم الله له: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

ثانيًا: العسل:

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩].

أخبر القرآن أن العسل فيه شفاء للناس، وجعل الشفاء مظروفًا في العسل على وجه الظرفية المجازية، وهي الملابسة؛ للدلالة على تمكن ملابسة الشفاء إياه[١].

وقد أثبت العلم الحديث ما أخبر به القرآن، من خلال مئات البحوث التي قام بها العلماء عبر التجارب، وتتجلى فوائد العسل فيما يأتي:

١. العسل عامل مهم لالتئام الجروح: فالعسل يمتلك خصائص مضادة للجراثيم في المختبر، كما أكد عدد من الدراسات السريرية أن استعمال العسل في علاج الجروح الملتهبة بشدة كان له الأثر الفعال في تطهير هذه الإنتانات الجرثومية والقضاء عليها، وعجل في شفاء الجروح.

٢. أهمية العسل في معالجة الحروق.

٣. استخدام العسل كضماد للجروح ،حيث يساعد في تنظيف الجروح، ولم يحدث أي تأثير جانبي لاستعماله في علاج تلك الجروح.

٤. العسل غني بمضادات الأكسدة، وهذه المضادات يمكن أن تزيد من مقاومة الجسم ضد الإجهاد.

٥. علاج أمراض الفم ، العسل يمكن أن يلعب دورًا في علاج أمراض اللثة، وتقرحات الفم، ومشكلات أخرى في الفم، وذلك بسبب خصائص العسل المضادة للجراثيم.

٦. العسل علاج لأمراض المعدة والأمعاء ، فالعسل فيه خاصية القضاء على الجراثيم التي تسبب التهابات المعدة والأمعاء.

وقد ورد هذا الأمر في السنة النبوية، فقد

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٢٠٩.

جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (إن أخي استطلق بطنه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اسقه عسلًا) فسقاه، ثم جاءه فقال: إني سقيته عسلًا فلم يزده إلا استطلاقًا، فقال له ثلاث مرات، ثم جاء الرابعة فقال: (اسقه عسلًا) فقال: لقد سقيته فلم يزده إلا استطلاقًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (صدق الله، وكذب بطن أخيك) فسقاه فبرأ)[١].

وجه الإعجاز في الشفاء بالعسل:

هذه الأسرار في الاستشفاء بالعسل كانت محجوبة عن البشر، فلم يكتشفوها إلا بعد رحلة طويلة من البحث والتجارب التي استغرقت قرونا، لكن القرآن كشفها أمام قارئيه بأجمل عبارة وأوجز لفظ قبل ألف وأربعمائة عام، ومن أخبر محمدًا صلى الله عليه وسلم بهذه الحقائق في وقت كان يستحيل فيه على الإنسان أن يتوصل إلى ما توصل إليه اليوم؟ فذلك دليل على صدق القرآن وصدق رسوله صلى الله عليه وسلم، وسبحان من أودع في العسل هذا السر الإلهي ليكون إحدى الدلالات على عظمة الخالق عز وجل.

والحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الدواء بالعسل، رقم ٥٦٨٤، ٧/ ١٢٣، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب التداوي بالعسل، رقم ٢٢١٧، ٤/ ١٧٣٦.

موضوعات ذات صلة

الأكل، الأنهار، الخمر، الطعام، الماء



عناصر الموضوع

مفهوم الشر

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الشين والراء أصل واحد يدل على الانتشار والتطاير»[(١)].

والشر خلاف الخير، وهو السوء والفساد، ومنه الشرر: وهو ما تطاير من النار ومفردها شررة، وشواء شرشار، أي: يتقاطر دسمًا[(٢)]، ويقال: فلانٌ شَرَ فلانًا، أي: إذا عابه وشهره في الناس[(٣)]، وشر الناس: بمعنى أكثرهم شرًا، وأصله أشر: على صيغة أفعل التفضيل ،حذفت منه الهمزة لكثرة الاستعمال، وعند التأنيث يقال: فلانة شرى، أي: أكثرهن شرًا، ورجل شرير، أي : كثير الشر ، والجمع أشرار[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي للشر عن المعنى اللغوي فقد عبر العلماء عن اصطلاح الشر بقولهم: «هو عدم ملائمة الشيء الطبع»[(٥)]، أي: أن الشر اسمٌ جامع للرذائل والخطايا، والسوء، والفساد، وكذلك المصائب والبلايا، كما جاء في معاجم اللغة.

---

(١) مقاييس اللغة، ٣/ ١٨٠.
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٣٥٤.
(٣) انظر: لسان العرب، ٤/ ٤٠٠.
(٤) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٥٣٢.
(٥) انظر: التعريفات، الجرجاني ص١٠٩، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، القاضي نكري ٢/ ١٥١.

الشر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (الشر) في القرآن الكريم (٣٠) مرة[1].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم (مفرد)	٢٩	﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾ [الإسراء:٨٣]
اسم (جمع)	١	﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾﴾ [ص:٦٢]

وجاءت كلمة الشر في القرآن الكريم بمعناها اللغوي، وهو السوء، أو ما ينفر منه كل أحد[2].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٣٧٨.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٤٠٠، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٢/ ٢٥٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ السوء:

السّوء لغةً:

الشر والفساد وكل آفة، قال الكفوي في معناها: السوء جرى مجرى الشر، ويحمل معنى الشدّة والذنب والضر والفقر والزنا والشرك والهزيمة[(١)].

السوء اصطلاحًا:

كل ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية ومن الأحوال النفسية والبدنية والجارحة من فوات مالٍ وجاه وفقد حميم[(٢)].

الصلة بين الشر والسوء:

السوء والشر مترادفان إلى حد كبير؛ فالسوء تأتي بمعنى المنكرات والرذائل، وبمعنى البؤس وبمعنى المصائب والشدائد، وكل ذلك شرٌ بلا ريب. ولكن السوء أشد من الشر.

٢ المصيبة:

المصيبة لغةً:

تعني النائبة وكل أمر مكروه[(٣)]،وجاء في لسان العرب أنها تعني الشدة[(٤)].

المصيبة اصطلاحًا:

هي البلية وكل أمر مكروه[(٥)].

الصلة بين الشر والمصيبة:

الشر أعم و أشمل من المصيبة، فكل مصيبة شر، وليس كل شر مصيبة.

٣ الضر:

الضّر لغة:

الشدة والضيق والنقصان يدخل في الشيء[(٦)].

(١) انظر: الكليات، الكفوي ص٥٠٣.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٣٣.
(٣) انظر: المصدر السابق ص٣٧٧.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٥٣٤.
(٥) انظر: المصدر السابق.
(٦) انظر: المصدر السابق ٤/ ٤٨٢.



الضر اصطلاحًا:

هي سوء الحال ، إما في النفس لقلة العلم والفضل والعفة ، وإما في البدن لعدم جارحة ونقص، وإما في حالة ظاهرة من قلة مال وجاه [١] . (من باب والشيء بالشيء يذكر. أرى من الانسب هنا أن تتعرض للحديث بإيجاز عن الضر بفتح الضاد وما الفرق بينه وبين الضر بضم الضاد ففيه نكات ظريفة).

الصلة بين الشر والضر:

إن الشر دائمًا فيه الأذى والضرر، بينما الضر قد سيكون فيه خيرًا أحيانًا ، فشرب الدواء المر رجاء العافية ضرر يدخله الإنسان على نفسه وليس بشر.

٤ الخير:

الخير لغة:

الخير ضد الشر [٢] .

الخير اصطلاحًا:

الخير ما يرغب فيه الكل ، كالعقل والعدل والفضل والشيء النافع [٣].

الصلة بين الشر والخير:

مما سبق يتضح الفرق واضحٌ جليٌ بين الشر والخير؛ فالشر ضد الخير من كل الوجوه.

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٨٢.
(٢) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١١/ ٢٣٨.
(٣) روح البيان، إسماعيل حقي ٧/ ٣٤٨.

حقيقة الشر

كما أن لكل شيء حقيقة، فإن للشر حقيقة أيضًا من حيث علم الله بها، ومن حيث كونها حقيقة أو مظنونة، وفيما يلي بيان ذلك.

أولًا: علم الله بحقيقة الشر:

إن الله سبحانه وتعالى هو الذي يعلم وحده كل شيء علمًا مطلقًا شاملًا ، وهذه حقيقة من شأنها أن تحدث في النفس رجة وهزة ، كما أنه يسكب في القلب الاستسلام لمن يعرف ظاهر كل شيء وخافيه.

وفي قوله تعالى في آية الكرسي: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

إثباتٌ لإحاطة علمه سبحانه وشموله للزمان والمكان للأشياء، وبيان لعجز المخلوقات ونقص علمهم إلا ما شاء الله أن يعلمه.

وإيمان المسلم بهذه الصفة لله عز وجل، واستحضارها في قلبه يجعله مراقبًا لربه دائمًا، مراعيًا لحدوده، سريع التوبة إليه إن أساء، وإدراكه لحقيقة نفسه ونعمة الله عليه فيما يعلمه إياه من الحقائق يجعله دائمًا شديد الشكر لله وبعيدًا عن الكبر والبطر[١].

والله تعالى وحده العالم بحقيقة الخير والشر ، قال عز وجل: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فكل إنسان -في تجاربه الخاصة- يستطيع حين يتأمل أن يجد في حياته مكروهات كثيرة كان من ورائها الخير العميم، ولذات كثيرة كان من ورائها الشر العظيم، وكم من مطلوب كاد الإنسان يذهب نفسه حسرات على فوته، ثم تبين له بعد فترة أنه كان إنقاذًا من الله أن فوت عليه هذا المطلوب في حينه، وكم من محنة تجرعها الإنسان تكاد تتقطع لفظاعتها أوصاله ، ثم ينظر بعد فترة فإذا هي تنشئ له في حياته من الخير ما لم ينشئه الرخاء الطويل، إن الإنسان لا يعلم والله وحده يعلم، فماذا على الإنسان لو يستسلم؟ إن هذا هو المنهج التربوي الذي يأخذ القرآن به النفس البشرية لتؤمن وتسلم وتستسلم في أمر الغيب المخبوء بعد أن تعمل ما تستطيع في محيط السعي المكشوف[٢].

ثانيًا: نسبية الشر:

١ . درجته ظنيته.

المقصود بنسبية الشر، ذلك أن الشر الموجود في هذا العالم ليس شرًا مطلقًا،

(١) انظر: الإيمان، محمد ياسين ص٢٧.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، قطب ١/ ٢١٩.

الشر المطلق ليس موجود إنما يوجد شر نسبي، أي: شر موظف للخير المطلق، يوجد فقر، آلام، هموم، أحزان، موت أقارب، هذه الشرور نسبية موظفة للخير المطلق، قال الله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة: ٢١].

أي: لعلهم يتوبون إلى الله توبة صادقة فيسعدون بقربه ورحمته.

قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقد فصل الله تعالى هذا الشر في قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦].

إذن يبتلينا الله بألوان الشرور ليختبرنا أنصبر أم نكفر، أنرضى أم نسخط، فمن رضي فله الرضى ، ومن سخط فعليه السخط.

إذن هذا أمرٌ أساسي في العقيدة، يجب أن نعتقد اعتقادًا جازمًا أن الشر المطلق لا وجود له إطلاقًا، لكن هناك شرٌ نسبي، أي : بالنسبة للبشر، ولكنه في ذات الوقت موظف للخير المطلق.

٢. نماذج من القرآن الكريم من الشر المظنون.

- خروج المسلمين الذين خرجوا يوم بدر يطلبون عير قريش وتجارتها، ويرجون أن تكون الفئة التي وعدهم الله إياها هي فئة العير والتجارة، لا الفئة الحامية المقاتلة من قريش، ولكن الله جعل القافلة تفلت، ولقيهم المقاتلة من قريش، فكان النصر الذي دوى في الجزيرة العربية، ورفع راية الإسلام، فأين تكون القافلة من هذا الخير الضخم الذي أراده الله للمسلمين، أو أين يكون اختيار المسلمين لأنفسهم من اختيار الله لهم، والله يعلم، والناس لا يعلمون حقيقة الشر[1]؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧].

- في قصة سيدنا موسى مع الخضر في سورة الكهف نرى كيف يمكن لأشياء هي شر في الظاهر أن تؤدي إلى خير كبير، حين قام الخضر بخرق السفينة وقتل الغلام، وإنشاء جدار بلا أجر، هذا كله شر في الظاهر ولكن في حقيقة الأمر ينطوي على خير عميم؛ قال الزحيلي: «إن الأحداث الثلاثة التي فعلها الخضر كانت من قبيل اختيار أهون الشرين، وأخف الضررين،

(١) انظر: في ظلال القرآن، قطب ١/ ٢١٧.

وتحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى، وهو معنى قوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، فهي وإن كانت مستنكرة في الظاهر، وحق لموسى عليه السلام إنكارها والاعتراض عليها، فهي خير في الحقيقة والواقع »[1].

ميادين الشر

إن للشر ميادين، من ولغ فيها ومضى في طريقها هلك إن لم يعاجل بالتوبة الصادقة، وفيما يلي سنلقي الضوء على بعضها للحذر من الوقوع في مسالكها.

أولًا: الكفر:

١ . الكافرون أكثر المخلوقات شرًا.

من أخطر ميادين الشر : الكفر، حيث يعد الكفر أساس كل شر، وقد وصف الله تعالى الكافرين بأنهم أكثر الناس شرًا بسبب كفرهم، وقد حذر الله تعالى عباده المؤمنين أن يسلكوا مسلكهم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٠-٢٣].

جاءت هذه الآيات بعد الحديث عن النصر المبين في غزوة بدر ليطلب الله عز وجل من المؤمنين مرشدًا إياهم للمداومة على طاعة الله وطاعة رسوله ؛ ليدوم له العز الذي حصل لهم ببدر ، ويحذرهم وينهاهم أن يكونوا كالكفار الذين سمعوا بآذانهم

(١) التفسير المنير ١٦/ ١٢.

دون قلوبهم ؛ لأن الغرض من السماع التدبر والاتعاظ، وإن شر الخلق وأسوأ الدواب التي تدب على وجه الأرض هم الصم البكم الذين لا يسمعون الحق ولا ينطقون به ، وهم الذين فقدوا العقل الذي يميز به المرء بين الخير والشر[1].

لطائف ودلالات من الآية:

- منتهى الإعجاز وقمة البلاغة في تشبيه الكفار بالبهائم، بل جعلهم الله شرًا منها، إذ إن الكافر لا يسمع الحق والبهائم لا تسمع، ولا ينطق به والبهائم لا تنطق، ويأكل والبهائم تأكل، بقي أنه يضر والبهائم لا تضر ، فكيف لا يكون شرًا منها؟!.
- جاء بأسلوب التوكيد ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ للجملة الاسمية لتؤكد أن أخطر ميادين الشر هو الكفر والبعد عن الإيمان بالله تعالى.
- جاء تحذير المؤمنين من سلوك مسلك الكافرين في الإعراض عن كلام الله تعالى في آيات مدنية رغم أن الإيمان قد تغلغل في قلوبهم لم يكن ليدلل إلا على أن دوام هذا الإيمان في قلوبهم لا يكون إلا بلزوم طاعة الله ورسوله والتزام الأوامر واجتناب النواهي.

٢ . التحذير من شر الكافرين على الإسلام والمسلمين.

لم يقتصر شر الكافرين على أنفسهم بكونهم غارقين في الضلال بعيدين عن الهدى ونور الحق والإيمان، ولكنهم حين يكيدون للإسلام والمسلمين ويتآمرون على القضاء عليهم يشكلون خطرًا عظيمًا، لذلك أمرنا الله بإعداد جميع وسائل القوة لدفع خطرهم والمحافظة على هيبة الإسلام والمسلمين من شروروهم.

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٢٢].

قال الطبري: إن شر ما دب على الأرض من خلق الله عند الله، الذين يصمون عن الحق لئلا يستمعوه، فيعتبروا به ويتعظوا به، وينكصون عنه إن نطقوا به : الذين لا يعقلون عن الله أمره ونهيه، فيستعملوا بهما أبدانهم»[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٤٤.

(٢) جامع البيان ١٣/ ٤٥٩.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٦٠﴾ [الأنفال: ٥٥-٦٠].

قال المفسرون في سبب نزول الآيات:
قال ابن عباس نزلت في بني قريظة من اليهود حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عاهد يهود بني قريظة ألا يحاربوه ولا يعاونوا عليه المشركين فنقضوا العهد ومالؤوا الكفار يوم الخندق[(١)].

ونستدل من الآيات السابقة:

١. الاستعداد بما في الإمكان فريضة تصاحب فريضة الجهاد

٢. لا بد للسلام من قوة ينطلق بها في الأرض لتحرير الإنسان وتكمن أهمية هذه القوة في:

- أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها، فلا يصدوا عنها ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها.
- أن ترهب أعداء هذا الدين فلا يفكروا في الاعتداء على «دار الإسلام» التي تحميها تلك القوة.
- أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء أن لا يفكروا في الوقوف في وجه المد الإسلامي.
- أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية، فتحكم الناس بشرائعها هي وسلطانها، ولا تعترف بأن الألوهية لله وحده ومن ثم فالحاكمية لله وحده سبحانه[(٢)].

إذًا المسلمون مكلفون أن يكونوا أقوياء، وأن يحشدوا ما لا يستطيعون من أسباب القوة، لتكون كلمة الله هي العليا، ويكون الدين كله لله.

ثانيًا: ترك الزكاة:

قال عز وجل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

لما بالغ الله تعالى في التحريض على بذل النفس في الجهاد في الآيات السابقة لهذه الآية، شرع هنا في التحريض على بذل المال في سبيل الله، وذكر الوعيد الشديد لمن بخل بماله[(٣)].

كما جاء في صحيح البخاري: **(من آتاه الله مالًا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعًا أقرع - أي: ثعبانًا عظيمًا - له زبيبتان فيأخذ بلهزمتيه -يعني: شدقيه- ثم يقول له:**

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٥/ ١٦٢.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٥٤٣.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ١٢٩.

(أنا مالك، أنا كنزك) ثم تلا صلى الله عليه وسلم الآية)[1].

نموذج من القصص القرآني عن ترك الزكاة:

ما جاء في سورة القلم عن قصة أصحاب الجنة، أي: البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه، حين منعوا الفقراء حقهم في الزكاة من ثمار بستانهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ [القلم: ١٧-٢٠].

قال المفسرون: كان لرجل مسلم بقرب صنعاء بستان فيه من أنواع النخيل والزروع والثمار، وكان إذا حان وقت الحصاد دعا الفقراء فأعطاهم نصيبًا وافرًا منه وأكرمهم غاية الإكرام، فلما مات الأب ورثه أبناءه الثلاثة، فقالوا: عيالنا كثير والمال قليل، ولا يمكننا أن نعطي المساكين كما كان يفعل أبونا، فتشاوروا فيما بينهم وعزموا على ألا يعطوا أحدًا من الفقراء شيئًا، وأن يجنوا ثمرها وقت الصباح الباكر خفيةً عنهم، وحلفوا على ذلك، فأرسل الله تعالى نارًا على الحديقة ليلًا أحرقت الأشجار وأتلفت الثمار، فلما أصبحوا ذهبوا إلى حديقتهم فلم يروا فيها شجرًا ولا ثمرًا، فظنوا أنهم (أخطأوا) الطريق، ثم تبين لهم أنها بستانهم وحديقتهم، وعرفوا أن الله تعالى عاقبهم فيها بنيتهم السيئة، فندموا وتابوا بعد أن فات الأوان[2].

وقد ساق الله تعالى هذه القصة ليعلمنا أن مصير البخيل ومانع الزكاة إلى التلف، لأنه يبخل ببعض ماله عن دفع الزكاة في سبيل الله، فيهلك كل ماله مصحوبًا بغضب الله، هذا عقاب في الدنيا، وعقاب الآخرة أشد وأخزى ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [القلم: ٣٣].

وفي ذلك تقرير لسنة الله تعالى في خلقه، وهي أن يبتليهم بالنعماء كما يبتليهم بالبأساء.

ثالثًا: ترك الجهاد:

من المؤكد أنه لا عزة ولا كرامة للأمة الإسلامية بلا جهاد في سبيل الله تعالى، وإذا تركت الجهاد غرقت في الذل والهوان.

قال الله عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، رقم ١٤٠٣، ٢/ ١٠٦.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٨٧.

المسلمين أن يكفوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام.

وإنما كان الجهاد كرهًا لأن فيه إخراج المال ومفارقة الأهل والوطن والتعرض لذهاب النفس[(١)].

فعسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة ، وهو خير لكم في أنكم تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون ، ومن مات مات شهيدًا، وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم في أنكم تغلبون وتذلون ويذهب أمركم[(٢)].

والله يعلم الخير والشر ، وأنتم لا تعلمونهما لأن الله يعلم الأشياء على ما هي عليه، والناس يشتبه عليهم العلم ، فيظنون الملائم نافعًا، والمنافر ضارًا[(٣)].

وردت الآية مع جملة تشريعات منظمة في السورة مثل: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ﴾ [البقرة: ١٧٨].

فعلاقة هذه الآية مع ما قبلها من الآيات هو أنه لما ذكر ما مس من تقدم من أتباع الرسل من البلايا، وأن دخول الجنة معروف بالصبر على ما يبتلى به المكلف، ثم ذكر الإنفاق على من ذكر ، فهو جهاد النفس بالمال ، انتقل إلى ما هو أعلى منه ، وهو الجهاد الذي يستقيم به الدين ، وفيه الصبر على المال والنفس[(٤)].

استخلص من هده الآية هدايات ودلالات تتصل بعلم الله تعالى بحقيقة الشر:

١. الآية خطاب للمسلمين بتكليفهم بالجهاد في سبيل الله ، والكلام فيه تلطف من الله تعالى لرسوله والمؤمنين في قوله: ﴿وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡ﴾. فالله تعالى غنيٌّ عن البيان والتعليل، لأنه يأمر فيطاع ، ولكن في بيان الحكمة تخفيف من مشقة التكليف، وفيه تعويد للمسلمين بتلقي الشريعة معللة مذللة.
٢. هناك إشارة إلى أن حكمة التكليف تعتمد المصالح ودرء المفاسد، ولا تعتمد ملائمة الطبع ومنافرته، إذ يكره الطبع شيئًا وفيه نفعه ، وقد يحب شيئًا وفيه هلاكه، وذلك باعتبار العواقب والغايات.
٣. قال الماوردي في كونه (كرهًا) تأويلان:
٤. أحدهما: وهو كره لكم قبل التعبد وأما بعده فلا.
٥. الثاني: وهو كره لكم

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٨٨.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٣٩.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٣٠٦.
(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٣٧٩.

في الطباع قبل الفرض وبعده، وإنما يحتمل بالتعبد[1].

٦. الشر المقصود في الآية أن العدو إذا علم ميلكم إلى الدعة والسكون أخذ بلادكم وحاول قتلكم ، فإما أن يأخذكم ويستبيح دماءكم وأموالكم، وإما أن تحتاجوا إلى قتالهم من غير إعداد آلة وسلاح ، وهذا كله شر لكم[2].

٧. أن القتال في سبيل الله فريضة شاقة، ولكنها فريضة واجبة الأداء، وذلك لأن فيها خيرًا كثيرًا للفرد المسلم، وللجماعة المسلمة جمعاء لتحقيق الحق والخير والصلاح.

رابعًا: اقتراف الكبائر:

إن الشر الذي يصيب العبد لا يخلو من قسمين:

- شر واقع به من غيره.
- ذنوب وقعت منه يعاقب عليها، فيكون وقوع ذلك بفعله وقصده وسعيه، ويكون هذا الشر هو الذنوب ، ومنها الكبائر ، وهو أعظم الشرين وأدومهما.

إن نظرة الإسلام إلى الإنسان بكل معالمها تتمثل في أن هذا الكائن مخلوق مزدوج الطبيعة، مزدوج الاستعداد والاتجاه، ونعني بذلك أنه بطبيعة تكوينه «من طين الأرض ومن نفخة الله فيه من روحه» مزود باستعدادات متساوية للخير والشر، والهدى والضلال، فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر، كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر سواء، وأن هذه القدرة كامنة في كيانه، يعبر عنها القرآن بالإلهام تارة ، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٧-١٠].

ويعبر عنها بالهداية تارة أخرى ، كما في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠].

أي: إلى طريقي الخير والشر ، فهي كامنة في صميمه في صورة استعداد، والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنما توقظ هذه الاستعدادات وتشحذها وتوجهها هنا أو هناك. بالإضافة إلى هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة، هناك قوة واعية مدركة موجهة في ذات الإنسان، هي التي تتعلق وتناط بها التبعة ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾ [المدثر: ٣٨].

فمن استخدم هذه القوة في تزكية نفسه وتطهيرها من الموبقات وتنمية استعداد الخير فيها، وتغليبه على استعداد الشر فيها فقد أفلح، أما من أظلم هذه القوة وأضعفها فقد خاب، ولو تساءلنا عن ماهية هذه القوة

(١) انظر: النكت والعيون ١/ ٢٧٣.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٣٨٥.

الواعية فهي تلك الإرادة المحدودة وحرية الاختيار والتي سقفها وإطارها العام هو المشيئة والإرادة الإلهية اللامحدودة. ومن رحمة الله تعالى بالإنسان أنه لم يتركه لاستعداد فطرته الإلهامي ولا لإرادته المحدودة، بل أعانه بالرسالات التي تكشف له عن موحيات ودلائل الهدى في نفسه وفي الآفاق من حوله، وتجلو عنه غواشي الهوى، فيبصر الحق في صورته الصحيحة، و يتضح له الطريق، فتتصرف قوته وإرادته الواعية حينئذ عن بصيرة وإدراك لحقيقة الاتجاه الذي تختاره وتسير فيه[1].

قال الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١].

خامسًا: السحر:

يعد السحر من أكبر الكبائر ، وهو من الشرور التي تقع للإنسان من ظلم الغير له، لذا فإن التحصن من شر السحر يكون بحسن الالتجاء إلى الله تعالى ، كما جاء في سورة الفلق.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ [الفلق: ١-٥].

فلا أحد يدفع الشرور عن النفوس إلا الله تبارك وتعالى، ومن مقاصد هذه السورة تعميق وتعزيز التوحيد في النفوس، وقد جاء في الحديث الصحيح عن سعد بن أبي وقاص، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من اصطبح سبع تمرات عجوة، لم يضره ذلك اليوم سم، ولا سحر)[2].

لطائف ودلالات في الآيات:

- اقترن الحاسد والساحر في السورة لأن مقصدهما الشر للناس ، كما أن الاستعاذة من هذين تعم كل شر يأتي من شياطين الإنس والجن، فالحسد من شياطين الإنس والجن، والسحر من النوعين أيضًا ؛ إذ إن الشيطان يقارن الحاسد والساحر ويصاحبهما ويحادثهما، ولكن الحاسد تعينه الشياطين بلا استدعاء منه للشيطان، أما الساحر فهو يطلب من الشيطان أن يعينه ويستعينه.
- تنكير غاسق وحاسد وتعريف النفاثات؛ لأن كل نفاثة شريرة، فكل غاسق لا يكون فيه الشر، إنما يكون في

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٩١٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأطعمة، باب العجوة، ٧/ ٨٠، رقم ٥٤٤٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب فضل تمر المدينة، ٢/ ١٦١٨، رقم ٢٠٤٧.

بعض دون بعض، وكذلك كل حاسد لا يضر، ورب حسد محمود، وهو الحسد في الخيرات[1]، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم: (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسلطه على هلكته في الخير، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها بين الناس)[2].

سادسًا: الحسد:

الحسد أول ذنب عصي الله به في السماء، وأول ذنب عصي به في الأرض، فحسد إبليس آدم، وحسد قابيل هابيل.

والحسد غير الغبطة؛ قال الزمخشري: «الغابط: هو الذي يتمنى مثل نعمة صاحبه من غير أن تزول عنه. والحاسد: هو الذي يتمنى أن تكون نعمة صاحبه له دونه ، فمن الغبطة قوله تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [القصص: ٧٩]. ومن الحسد: قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [النساء: ٣٢]»[3].

وقال الخوارزمي: «وحقيقة الحسد أن يكون لواحد نعمة ، فيحب زوال نعمته - وهذا حرام -؛ لأنه كراهية الله سبحانه ، وهذا دليل خبث الباطن ؛ لأن نعمته لا تكون لك ولا هي متنقلة إليك، فمحبة زوالها عن صاحبها لا تكون إلا من الخبث ، أما الغبطة وهي أن تريد أن يكون لك مثل تيك النعمة والدولة والجاه ، ولا تكره ذلك على صاحبه، فلا يكون حسدا بل غبطة ومنافسة»[4].

يكون الحسد شرًا حين يتمنى الحاسد زوال النعمة عن غيره، ولا يرضى بما قسمه الله له، ومن خطورة الحسد أنه يأكل حسنات الحاسد كما تأكل النار الحطب.

وقد جاءت الاستعاذة من شر الحاسد في الآية الخامسة من سورة الفلق ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، وعند تأمل الآية نجد تقيده سبحانه شر الحاسد بقوله ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ لأن الرجل قد يكون عنده حسد، ولكن يخفيه ولا يرتب عليه أذى بوجه ما لا بقلبه، ولا بلسانه، بل يجد في نفسه شيئًا من ذلك، ولكنه لا يعاجل أخاه إلا بما يحبه الله، فهذا لا يكاد يخلو منه أحد إلا من عصمه الله، ولكنه يجاهد نفسه على دفع ذلك الشعور حياءً من الله وطاعة لله تعالى، بل ويلزم نفسه بالدعاء للمحسود ويتمنى زيادة الخير له، وهذا بخلاف ما إذا حقق ذلك وحسد وترتب على حسده مقتضاه من الأذى بالقلب واللسان والجوارح، وهذا كله شر حسد تمني زوال النعمة عن الغير،

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٣٩٧.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب لا حسد إلا في اثنتين، رقم ١٨٤٨، ٢/ ٢٠١.
(٣) الكشاف ٣/ ٤٣٢.
(٤) مفيد العلوم ومبيد الهموم ص٢٣١.

فالمؤمن يغبط والمنافق يحسد[1].

تعتبر سورة الفلق من أكبر أدوية المحسود، فإنها تتضمن التوكل على الله، وصدق الالتجاء إليه، والاستعاذة به من شر حاسد النعمة ، فهو يستعيذ بولي النعم كأنه يقول: يا من أولاني نعمته وأسداها إليه ، أنا عائذ بك من شر من يريد أن يستلبها مني ويزيلها عني ، فهو جل وعلا حسب من توكل عليه وكافي من لجأ إليه.

سابعًا: نشر الأخبار الكاذبة:

من صور الشر أيضًا في المجتمع فيكون له ما له من تأثير سلبي ، ومثاله حادثة الإفك في القرآن الكريم، وسبب الإفك أن عائشة رضي الله عنها كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بني المصطلق سنة ست من الهجرة حين ضاع عقد لها، وقد توجهت لحاجتها فعادت في طلبه، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم من منزله فرفع هودجها ، ولم يشعر بها أنها ليست فيه لخفتها وعادت فلم تر في المنزل أحدًا، فأدركها صفوان بن المعطل ، فحملها على راحلته وألحقها برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتكلم فيها وفي صفوان من تكلم حيث أثار هذا الإفك ، رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، وقدمت المدينة

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ٢٥٨.

وانتشر الإفك وهي لا تعلم به ثم علمت، فأخذها من ذلك شيءٌ عظيم من الهم والحزن إلى أن أنزل الله براءتها بعد سبعة وثلاثين يومًا من قدوم المدينة[2]، في عشر آيات من سورة النور من قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١١﴾ [النور: ١١] حتى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٢٠﴾ [النور: ٢٠].

هدايات قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾:

- الخير حقيقته: ما زاد نفعه على ضره، والشر: ما زاد ضره على نفعه. وإن خيرًا لا شر فيه هو الجنة، وشرًا لا خير فيه هو جهنم. فأما البلاء النازل على الأولياء فهو خير ؛ لأن ضرره من الألم قليل في الدنيا وخيره هو الثواب الكثير في الآخرة، فالخطاب في الآية لعائشة وأهلها وصفوان رضي الله عنهم، لينبههم الله تعالى على أن الخير في هذه الحادثة أكبر من شرها[3].
- أتى بالإضراب (بل) لإبطال أن يحسبوه شرًا، وإثبات أنه خير لهم ؛ لأن فيه منافع

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٧٩.

(٣) انظر: التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٨/ ١٦٩.

كثيرة، إذ تميز به المؤمنون الخلص من المنافقين، وتشرع لهم بسببه أحكام تردع أهل الفسق عن فسقهم، وتتبين منه براءة فضلائهم، ويزداد المنافقون غيظًا، ويصبحون محقرين مذمومين، ولا يفرحون بظنهم حزن المسلمين، فإنهم لما اختلقوا هذا الخبر ما أرادوا إلا أذى المسلمين. وقد عطف الخير على الشر بحرف (بل) في الآية فكان ما بعد(بل) جملة اسمية للدلالة على الثبات والدوام[1].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٨٣٨.

انواع الشر

الشر حقيقة ما زاد ضره على نفعه، كما أن الخير ما زاد نفعه على ضره، وإن خيرًا لا شر فيه هو الجنة، وإن شرًا لا خير فيه هو جهنم، الشر نوعان: شرٌ دنيوي، وشرٌ أخروي، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: الشر الدنيوي:

إن الشر الدنيوي المتمثل في الأمراض والابتلاءات له فائدة عظيمة وحكم جليلة، يمن بها الله على من أحب من عباده، ومن هذه الحكم: تكفير السيئات ورفع الدرجات، والتمحيص والتنقية والتهيؤ لحمل أعباء الدعوة.

فقد ينزل الشر على العباد رفعًا للدرجات، أو وضعًا للآصار وتكفيرًا للخطايا والسيئات؛ فمما يكون لرفع درجات العباد، ويراد لهم الخير به : ما رواه البخاري في صحيحه أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: (من يرد الله به خيرًا يصب منه)[2]، أي: يبتليه بالمصائب والمحن ليرفع درجاته ويزيد في حسناته على ما يكون من صبره واحتسابه.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب ما جاء في المرض رقم ٥٦٤٥، ٧/ ١١٥.

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧﴾ [الصافات: ١٠٣ -١٠٧].

قال ابن القيم: «ليس المراد أن يعذب، ولكن يبتلى ليهذب، ليس العجب من أمر الخليل بذبح الولد، إنما العجب من مباشرة الذبح بيده، ولولا الاستغراق في حب الأمر لما هان مثل هذا المأمور، فلذلك جعلت آثارها مثابة للقلوب تحن إليها أعظم من حنين الطيور إلى أوكارها»[1].

وقال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾ [آل عمران: ١٤٢].

قال الرازي: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة بمجرد تصديقكم الرسول قبل أن يبتليكم الله بالجهاد وتشديد المحنة، والله أعلم»[2].

ومما يكون لتكفير السيئات ما جاء في الحديث المتفق على صحته عند الشيخين أن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله: (ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها)[3].

قال الإمام المناوي شارحًا هذا الحديث في فيض القدير: (ما من مصيبة) أي: نازلة، وأصلها الرمي بالسهم، ثم استعيرت لما ذكر (إلا كفر الله بها عنه) ذنوبه، أي: محي خطيئاته بمقابلتها[4].

وقال الإمام الغزالي: قال عيسى عليه السلام: لا يكون عالمًا من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض عليه لما يرجوه من ذلك من كفارة خطاياه[5].

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى: ٣٠].

قال الزحيلي: «والقصد من الابتلاء رفع الدرجات؛ لأن الأنبياء معصومون عن الذنوب والآثام، ويكون حصول المصيبة من باب الامتحان في التكليف، لا من باب العقوبة»[6].

ثانيًا: الشر الأخروي:

١ . الجزاء من جنس العمل.

إن الله تعالى عدل لا يظلم مثقال ذرة، جعل الجزاء من جنس العمل، ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾

(١) فيض القدير، المناوي ٤/ ٤٦٨.
(٢) مفاتيح الغيب ٩/ ٣٧٦.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرض، باب كفارة المرض، رقم ٥٦٤٠، ٧/ ١١٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، رقم ٢٥٧٢، ٤/ ١٩٩٢.
(٤) انظر: فيض القدير ٥/ ٥٠١.
(٥) انظر: المصدر السابق ٤/ ٤٦٨.
(٦) التفسير المنير ٢٥/ ٧٦.

[الزلزلة: ٧-٨].

فمن يفعل مقدار ذرة من التراب خيرًا يجده في صحيفته يوم القيامة ويلق جزاءه، ومن يفعل من الشر مقدار ذرة من التراب يجده كذلك ويلق جزاءه عليه.

وقوله: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾ [ص: ٥٥-٥٦].

إن للكافرين الذين كذبوا الرسل لشر منقلب يصيرون إليه في الآخرة، ثم فسر هذا المصير بقوله ﴿جَهَنَّمَ﴾ يذوقونها ويصلون سعيرها، قال الطبري: في الآية تقديم وتأخير، أي: هذا حميم وغساق فليذوقوه، والحميم هو الذي أغلى حتى انتهى حره، والغساق ما يسيل من جلودهم من الصديد والدم، وعذاب آخر من مثل هذا العذاب المذكور كالزمهرير، والسموم وأكل الزقوم لهم منه أنواع وأصناف[1].

٢. شر أهوال يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإنسان: ٧].

قال القرطبي: «استطار والله شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض»[2].

وقال ابن عباس: «يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل منه عرق كالقطران يومًا تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته، اليوم القمطرير أي: الشديد الصعب أو أشد ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء»[3].

وقوله تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ [الإنسان: ١١].

دفع عنهم شره بسبب خوفهم منه وإطعامهم لوجهه أعطاهم بدل العبوس في الكفار نضرة في الوجوه وسرورًا في القلوب، والنضرة البياض والنقاء في وجوههم والحسن والبهاء[4].

خوفهم اليوم مجاز عقلي جرى في تعليق اليوم بالخوف، لأنهم إنما يخافون ما يجري في ذلك اليوم من الحساب والجزاء على الأعمال السيئة بالعقاب.

وانتصب ﴿يَوْمًا﴾ على المفعول به لـ﴿وَيَخَافُونَ﴾ ولا يصح نصبه على الظرفية؛ لأن المراد بالخوف خوف في الدنيا من ذنوب تجر إليهم العقاب في ذلك اليوم، وليس المراد أنهم يخافون في ذلك اليوم فإنهم في ذلك اليوم آمنون، إنهم يخافون شر ذلك اليوم فيتجنبون ما يفضي بهم إلى شره من الأعمال المتوعد عليها بالعقاب، وصيغة ﴿وَيَخَافُونَ﴾ الفعل دالة على تجدد خوفهم شر ذلك اليوم[5].

يخافون عذاب يوم هو يوم القيامة كانت

(١) انظر: جامع البيان ٢٣/ ١١٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٢٨.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١٠/ ٣٦٢.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٧/ ٣٧٧.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٣٥٥.

شدائده وأهواله فاشية منتشرة في كل جهة وعامة على كل الناس إلا ما رحم الله، وإنما سميت الأهوال شرًا لكونها مضرة بمن تنزل عليه ولكونها صعبة عليه ، كما تسمى الأمراض وسائر الأمور المكروهة شرورًا[1].

كان شر ذلك اليوم فاشيًا في السماوات، فانشقت وتناثرت الكواكب، وكورت الشمس والقمر وفزعت الملائكة وفي الأرض، فنسفت الجبال وغارت المياه ، وتكسر كل شيء على الأرض من جبل وبناء[2].

التحصن من الشر

لقد بين الله لنا في كتابه العزيز وسنته المطهرة حقيقة الشر، كما بين لنا أسبابه ومسبباته، والتي أهمهما شياطين الإنس والجن بأشكالهم المختلفة، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٢].

فلقد ناصبت تلك الشياطين العداء للأنبياء، فضلًا عن أتباعهم ومن رحمة الله بنا؛ فقد بين لنا كيفية التحصن منهم ، ألا وهي الإيمان، والذكر والدعاء، وأخيرًا الصحبة الصالحة، وفيما يلي تفصيلًا لذلك:

أولًا: الإيمان:

إن الإيمان مصدر لاطمئنان القلب؛ فمن كان قلبه عامرًا بالإيمان فقد حصن نفسه من شر شياطين الإنس والجن.

قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل: ١٠٦].

فقد اقترنت الطمأنينة في القلب بالإيمان، حتى عند نزول البلاء والعذاب على عمار رضي الله عنه، فقد كان يعذب كي ينطق كلمة الكفر، وقد نطقها تحت

---
(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٩/ ٢٨٩.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٦٥.

وطأة العذاب بلسانه، لكن قلبه كان مطمئنًا بالإيمان متحصنًا به من الزلل والانزلاق في وحل الشرك والكفر.

قال الزمخشري: «وكان فيهم من أكره فأجرى كلمة الكفر على لسانه وهو معتقد للإيمان، منهم عمار، وأبواه -ياسر وسمية- وصهيب، وبلال، وخباب، وسالم: عذبوا، فأما سمية فقد ربطت بين بعيرين وجيء في قبلها بحربة، وقالوا: إنك أسلمت من أجل الرجال فقتلت، وقتل ياسر ، وهما أول قتيلين في الإسلام، وأما عمار فقد أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرها، فقيل : يا رسول الله، إن عمارًا كفر، فقال: كلا، إن عمارًا مليء إيمانًا من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه»[1].

لقد أخبرنا الله تعالى: أن من الجن والإنس شياطين يريدون أن يضلونا وأن يعدونا عن صراط الله المستقيم، ويريدون أن يسببوا لنا الأذى النفسي والبدني، فهم يوسوسون، وينفثون سمومهم الكفرية بين بني آدم، ويرسلون عليهم أعوانهم ليؤذوهم وليلبسوا عليهم دينهم.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقد بين الله تعالى لنا في كتابه في آيات كثيرة عداوة إبليس لنا، وأنه حريص على إضلالنا وصرفنا عن صراط الله المستقيم، فقال تعالى: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور: ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩١].

وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧].

فكل هذه الآيات تبين شدة عداوة الشيطان لبني آدم وخصوصًا عباد الله المؤمنين، فهو حريص على كل ما يضرهم من الكفر، والبدع، والمعاصي، وتعليق قلوبهم بغير الله، والاستعانة بغيره، وغير

(١) الكشاف ٢/ ٦٣٦.

ذلك مما يقدح في إيمانهم وعقيدتهم، ولكن الله تعالى رحمة بعباده المؤمنين أنار لهم الطريق بالبرهان الساطع والكلام الواضح المبين، فحذر العباد منه ومن أعوانه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر: ٦].

وقد أكدت الآيات أن الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون؛ قال السمعاني: «يعني: أن الشياطين يوالون الكفار»[(١)]، أي: بمفهوم المخالفة أن الإنسان الذي يتحصن بالإيمان يكون بعيدًا عن موالاة الشياطين.

وعلى الإنسان أن يؤمن بأن الله سبحانه لا يقدر شرًا محضًا ليس فيه خير، بل كل ما قدر وإن ظهر لنا أنه شر كله فإن من وراءه من الخير مالا يعلمه إلا الله ، كتكفير السيئات، ورفعة الدرجات وتمحيص المؤمنين وتبصيرهم بعيوبهم وكشف ما يخطط لهم، أو دفع شر أعظم مما حل بهم ، كحفظ دينهم ولو ذهب شيء من دنياهم، ونحو ذلك من المصالح التي لا تخطر على البال، وقد جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لربه (والشر ليس إليك)[(٢)].

وهذا إبليس أساس الشر في العالم خلقه الله سبحانه وقدر وجوده في الكون، ليختبر العباد ويعلم الصادق من الكاذب وغيرها من الحكم التي ظهر فيها الخير للعباد، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ثانيًا: الذكر والدعاء:

للذكر والدعاء أثرٌ عظيم في طمأنة القلوب، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد: ٢٨].

قال القشيري: «قوم اطمأنت قلوبهم بذكرهم الله، وفي الذكر وجدوا سلوتهم، وبالذكر وصلوا إلى صفوتهم، وقوم اطمأنت قلوبهم بذكر الله ، فذكرهم الله سبحانه بلطفه، وأثبت الطمأنينة في قلوبهم على وجه التخصيص لهم»[(٣)].

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى أن من علامات أهل الإيمان، أنهم إذا ذكروا الله، أو ذكروا به، اطمأنت قلوبهم، واشتملت عليهم السكينة، وغشيهم الأمن والسلام[(٤)].

وقد ذكر ابن القيم في كتابه مائة فائدة للذكر صدرها بقهر الشيطان فقال: «وفي الذكر أكثر من مائة فائدة: إحداها: أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره، والثانية: أنه

(١) تفسير القرآن ٢/ ١٧٦.

(٢) أخرج مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم ٢٠١، ١/ ٥٣٤.

(٣) لطائف الإشارات ٢/ ٢٢٩.

(٤) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٧/ ١٠٩.

يرضي الرحمن عز وجل، والثالثة: أنه يزيل الهم والغم عن القلب، والرابعة: أنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط»[1].

وقد جاء في كتاب السنن والمبتدعات: أن الذكر كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، فلا تهمه زعازع الدنيا ولا آفاتها بل ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

وقوله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

ذلك لأن قلوبهم سكنت بذكره وآمنت بآياته وسننه، وعرفت نعمه فقدرتها وشكرتها؛ فقلوبهم عن ربهم راضية»[2].

ومن فوائده أيضًا: أنه يقوي القلب ويجرئه في مواجهة أعتى المواقف؛ ولذلك ثبت عن الصحابة رضوان الله عليهم في قتال فارس والروم مع أنهم أعظم أجسامًا وأقوى أسلحة وأكثر عددًا وعدة ثباتهم أمامهم، ومع الكفار الفيلة، ومعهم أنواع من المنجنيقات، وآلات الحرب لم يكن العرب يعرفونها أو يعرفون مثل عظمها، لكنهم ثبتوا بتحصنهم بذكر الله.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥].

إن ذكر الله يجعل للعبد الذاكر صلوات عليه من ربه ورحمة وتحصينًا.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٣].

يقول المراغي: «أي: إن ربكم الذي تذكرونه الذكر الكثير وتسبحونه بكرة وأصيلا، هو الذي يرحمكم ويثنى عليكم في الملإ من عباده، وتستغفر لكم ملائكته، وفي هذا من التحريض على ذكره والتسبيح له مالا يخفى»[3].

والذكر والدعاء متلازمان، فلفظ الدعاء والدعوة في القرآن الكريم يتناول معنيين: الأول: دعاء العبادة، والآخر: دعاء المسألة.

ودعاء المسألة: هو طلب ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره ودفعه.

وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود بحق، أما دعاء العبادة فهو الذي يتضمن الثناء على الله بما هو أهله ويكون مصحوبا بالخوف والرجاء، والدعاء في القرآن يراد به هذا تارة، وهذا تارة، ويراد به مجموعهما وهما متلازمان، فالعبد يدعو للنفع أو دفع الضر دعاء المسألة ويدعو خوفًا

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص ٤١.
(٢) السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات، محمد الحوامدي ص ٣٢٠.
(٣) تفسير المراغي ٢٢/ ١٨.

ورجاءً دعاء العبادة؛ فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة، وقد ورد المعنيان جميعًا في قوله سبحانه: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾ [الأعراف: ٥٥-٥٦][1].

ثالثًا: الصحبة الصالحة:

لقد حذر الإسلام من الصحبة السيئة، لاسيما رفقاء السوء، الذين يجاهرون بالمعاصي ، وحث على اختيار الصحبة الصالحة، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف: ٦٧].

قال الجزائري: «أي: الأحباء في الدنيا يوم إذ تأتي الساعة بعضهم لبعض عدو فتنقطع تلك الخلة والمودة وتصبح عداء؛ لأنها كانت على معصية الله تعالى وقوله ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي : الله عز وجل بفعل أوامره وترك نواهيه فإن مودتهم وخلتهم لا تنقطع ، لأنها كانت محبة في الله وما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل»[2].

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٨].

قال الزمخشري: «فكل من اتخذ من المضلين خليلًا كان لخليله اسم علم لا محالة»[3].

وقال المراغي: «أي: يا هلكتي احضري فهذا أوانك، ليتني لم أتخذ فلانا الذي أضلني وصرفني عن طريق الهدى خليلًا وصديقًا، ومن الأخلاء الشياطين، ولا فارق بين شياطين الإنس وشياطين الجن»[4].

فالصحبة الصالحة حصنٌ حصينٌ للمرء من الانزلاق في مزالق الشيطان وشروره، فلقد حثنا الله والنبي صلى الله عليه وسلم على اختيار وملازمة الصحبة الصالحة؛ فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو خير خلق الله على الإطلاق، يأمره الله بأن يلزم أصحابه.

قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨﴾ [الكهف: ٢٨].

والرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو

---

(١) انظر: نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين ٥/ ١٩٠٢.
(٢) أيسر التفاسير ٤/ ٦٥٤.
(٣) الكشاف ٣/ ٢٧٧.
(٤) تفسير المراغي ١٩/ ٨.

معلم البشرية الخير، وهو الذي هداها الله عز وجل به، وهو الذي أرشدهم إلى طريق الصواب ، ومع ذلك فهو يحتاج إلى أن يصبر نفسه معهم، ولا يعني ذلك أنه لا يلتزم بدونهم، ولكن رفقة الصالحين مطلوبة ولو كانوا أقل منزلة، فالمرء يحتاج إلى أصحاب في الخير وإخوان في الله، ولو كان أفضل منهم.

ويدعو ابراهيم عليه الصلاة والسلام قائلًا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۝٨٣﴾ [الشعراء: ٨٣].

ويؤكد عليها يوسف عليه السلام قائلًا: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]؛ ذلك أن صحبة الصالحين نعيم في الدنيا والآخرة، وصحبة الظالمين والفاسقين والكافرين عذاب في الدنيا والآخرة، فصحبة أهل الفساد عذاب للإنسان، ومجرد النظر في وجوه الظلمة أو سماع كلامهم، أو النظر في وجوه الفسقة والفجرة يصيب الإنسان بالهم والكرب.

ومن فضل الصحبة الصالحة جلب المغفرة من الذنوب.

روى البخاري في صحيحه: عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إن لله ملائكة يطوفون في الطرق، يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم، وهو أعلم منهم، ما يقول عبادي؟ قالوا: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك، قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا ، والله ما رأوك؟ قال: فيقول: وكيف لو رأوني؟ قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيدًا وتحميدًا، وأكثر لك تسبيحًا، قال: يقول: فما يسألوني؟ قال: يسألونك الجنة ، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا ، والله يا رب ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو أنهم رأوها ؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصًا، وأشد لها طلبًا، وأعظم فيها رغبة، قال: فمم يتعوذون؟ قال: يقولون: من النار، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا ، والله يا رب ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارًا، وأشد لها مخافة، قال: فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم، قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة، قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم)**[1].

(١) أخرج البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجل، رقم ٦٤٠٨، ٨/ ٨٦.

موقف الانسان إذا مسه الشر

الشر المقصود في هذا المبحث هو الشدائد والابتلاءات ؛ لذا ينقسم الناس في موقفهم من الشدائد إلى قسمين: موقف مذموم وموقف محمود.

أولًا: الموقف المذموم:

١ . الإنسان الكافر.

والموقف المذموم عند الشدائد يصدر عن الكافرين.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾ [الإسراء: ٨٣].

والإنسان الكافر إذا أصابته النعمة بطر وتكبر، وإن أصابته الشدة يئس وقنط، وكل إنسان يعمل على نهجه وطريقته في الهدى والضلال، فإن نفس الإنسان مشرقة صافية تسير في طريق الهدى صدرت منه أفعال كريمة فاضلة، وإن كانت نفسه فاجرة كافرة تتخبط في الضلال صدرت عنه أفعال سيئة شريرة، وسيجزي الله كل عامل بعمله[(١)].

قال الزمخشري: «وإذا أنعمنا على الإنسان بالصحة والسعة أعرض عن ذكر الله، كأنه مستغن عنه مستبد بنفسه ونأى بجانبه تأكيد للإعراض، لأن الإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه، والنأي بالجانب: أن يلوى عنه عطفه ويوليه ظهره، وأراد الاستكبار، لأن ذلك من عادة المستكبرين وإذا مسه الشر من فقر أو مرض أو نازلة من النوازل كان يؤوسًا شديد اليأس من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون»[(٢)].

٢ . الإنسان الذي يعبد الله على حرف.

إذا أصابه الضر من مرض أو فقر أو نحوه دعا الله في جميع الحالات مضطجعًا أو قاعدًا أو قائمًا لكشف ذلك الضر عنه، فلما أزال الله ما به من ضر استمر على عصيانه، ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء أو تناساه، وهو عتاب لمن يدعو الله عند الضر، ويغفل عنه عند العافية[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢].

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١١].

قال الزمخشري: «﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ على

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٢٣.

(٢) الكشاف ٢/ ٦٩٠.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٩١.

طرف من الدين لا في وسطه وقلبه، وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم، لا على سكون وطمأنينة، كالذي يكون على طرف من العسكر، فإن أحس بظفر وغنيمه قر واطمأن، وإلا فر وطار على وجهه، قالوا: نزلت في أعاريب قدموا المدينة، وكان أحدهم إذا صح بدنه ونتجت فرسه مهرا سريا، وولدت امرأته غلامًا سويا، وكثر ماله وماشيته قال: ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيرا، واطمأن، وإن كان الأمر بخلافه قال: ما أصبت إلا شرا، وانقلب»[(١)].

وقال المراغي: « أي: فإن أصابه رخاء وسعة في العيش سكن واستبشر بهذا الخير والدين فعبد الله، وإن أصابه شر وبلاء في جسمه أو ضيق في معيشته ارتد ورجع إلى الكفر.

والثبات في الدين إنما يكون إذا كان الغرض منه إصابة الحق وطاعة الرب والخوف من عقابه، أما إذا كان المقصد منه الخير المعجل فإنه يظهر في السراء ويختفي لدى الضراء، وهذا هو النفاق بعينه كما يرشد إلى ذلك قوله في المنافقين: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

وقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [النساء: ١٤١].

وخلاصة ذلك أن من الناس من ليس له ثبات في أمر دينه، بل هو متأرجح مضطرب مذبذب، يعبد الله على وجه التجربة انتظارا للنعمة، فإن أصابه خير بقي مؤمنا، وإن أصابه شر من سقم أو ضياع مال أو فقد ولد ترك دينه وارتد كافرًا[(٢)].

ثانيًا: الموقف المحمود:

وهذا الموقف لا يصدر إلا من أهل الإيمان فهم يتلقون هذه الشدائد والابتلاءات بقلوب صابرة مطمئنة وعامرة بالإيمان بقضاء الله وقدره راضية عن الله تعالى، فالمؤمن يراقب نفسه ويوجهها إلى ما يحب الله ويرضى.

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: ١٩-٢٢].

قال ابن كيسان: خلق الله الإنسان على طبيعة تحب ما يسره وتهرب مما يكرهه، ثم تعبده بإنفاق ما يحب، والصبر على ما يكره[(٣)].

قال السعدي: «وهذا الوصف للإنسان من حيث هو وصف طبيعته الأصلية، أنه هلوع، وفسر الهلوع بأنه: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ فيجزع إن أصابه فقر أو مرض، أو ذهاب محبوب له، من مال أو أهل أو

(١) الكشاف ٣/ ١٤٦.

(٢) تفسير المراغي ١٧/ ٩٤

(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٥١.

ولد، ولا يستعمل في ذلك الصبر والرضا بما قضى الله، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ فلا ينفق مما آتاه الله، ولا يشكر الله على نعمه وبره، فيجزع في الضراء، ويمنع في السراء، ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ الموصوفين بتلك الأوصاف فإنهم إذا مسهم الخير شكروا الله، وأنفقوا مما خولهم الله، وإذا مسهم الشر صبروا واحتسبوا»[1].

مواقف محمودة من القصص القرآني:

❁ موقف إبراهيم عليه السلام.

لقد ابتلي إبراهيم عليه السلام في أبيه الذي كان يصنع أصنامًا تعبد من دون الله، وابتلي في جسمه فقذف في النار، وابتلي إلى ذلك بابتلاء من نوع خاص، وهو تحميله أمانة الإمامة، حيث قال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤].

وابتلي في ولده و فلذة كبده فأمر بذبحه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات: ١٠٢-١٠٦].

فلقد ابتلى الله إبراهيم ابتلاءً شديدًا، أمره بأن يذبح ولده الحبيب، «وكان ذلك الولد عزيزا على أبيه لأنه فلذة كبده وإنسان عينه، وقد جاء من الله بعد الدعاء وبشارة الملائكة به، فكان له مزيد فضل، وعلو كعب، ومع ذلك فقد صدع إبراهيم لأمر ربه»[2]، وقد كان هذا الابتلاء ابتلاءً بالشر والمكروه.

قال القرطبي: «قال أبو زيد: هذا من البلاء الذي نزل به في أن يذبح ابنه، قال: وهذا من البلاء المكروه»[3].

❁ موقف يوسف عليه السلام.

حين تعرض للعديد من الشدائد والابتلاءات، فصبر على تآمر إخوته عليه وهو صغير، فعانى الحرمان من حنان والده، وصبر على محاولة امرأة العزيز إغواءه بارتكاب الفاحشة، وصبره على السنوات التي قضاها في السجن.

قال الله تعالى على لسانه بعد أن اجتمع بأخيه الشقيق بعد فراق طويل: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

❁ موقف أيوب عليه السلام.

ابتلي أيوب عليه السلام بأنواع البلاء فصبر، وكان قد أصيب في ماله وأهله وبدنه، أذهب ماله فصبر، ثم أهلك أولاده وهم

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٨٨٧.

(٢) التفسير الواضح ٣/ ٢١٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ١٠٦.

سبعة من الذكور وسبعة من الإناث فصبر، ثم سلط البلاء والمرض جسمه فصبر، بقي في البلاء ثماني عشرة سنة، فمر عليه ملأ من قومه ذات يوم فقالوا: ما أصابه هذا إلا بذنب عظيم ، فعند ذلك تضرع إلى الله تعالى فكشف عنه ضره[1].

قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وفي قصته عليه السلام عبرة لنا يا أهل فلسطين للصبر على المحن والابتلاءات، ولنا في نبينا صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة حين بشرنا بقوله: (عجبًا لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له)[2].

جزاء الأشرار

الله عز وجل حكمٌ عدل جعل الجزاء من جنس العمل؛ إنه يمهل الظالم ولا يهمله حتى إذا أخذه لم يفلته ، بل يأخذه أخذ عزيز مقتدر، وفي هذا المبحث ستناول شيئًا من جزاء الأشرار في الدنيا والآخرة.

أولًا: جزاء الأشرار في الدنيا:

ولنا في قصص الأنبياء مع أقوامهم العبرة في مصير الأشرار الذين ازداد طغيانهم وعقابهم في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الفجر: ٦-١٤].

حيث عددت الآيات أقوامًا عتاة متمردين جبارين خرجوا عن طاعة الله تعالى، كذبوا رسلهم، وجاوزوا الحد في الشر والظلم والطغيان، وأكثروا من المعاصي والآثام فأنزل الله عليهم ألوانًا شديدة من العذاب، فأهلكت عادٌ بالريح، وثمود بالصيحة، وفرعون وجنوده بالغرق.

وقوله تعالى: ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [الفجر: ١٣].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٢٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرقاق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم ٧٦١٠، ٨/ ٢٢٧.

تعبير يوحي بلذع العذاب حين يذكر السوط وشدته حين يذكر الصب، حيث يجتمع الألم اللاذع والغمرة الطاغية على هؤلاء الطغاة الأشرار، كما قال الله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

ففي قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ قال القرطبي: "﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ يعني: قوم لوط، والحاصب ريح يأتي بالحصباء وهي الحصى الصغار، وتستعمل في كل عذاب، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ يعني: ثمودا وأهل مدين، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني: قارون، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ قوم نوح وقوم فرعون، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ لأنه أنذرهم وأمهلهم وبعث إليهم الرسل وأزاح العذر"[1].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

ما أعظمه من مشهد هؤلاء الظلمة وهم في سكرات الموت وشدائده، وملائكة العذاب يضربون وجوههم وأدبارهم لتخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم: خلصوا أنفسكم من العذاب، وهاتوا أرواحكم وأخرجوها إلينا من أجسادكم، وفي ذلك معنى العنف في النسيان والإلحاح الشديد في الإزهاق من غير إمهال وتنفيس فاليوم تجزون العذاب الذي به الهوان الشديد مع الخزي الأكيد بافترائكم على الله وتكبركم على الإيمان بآيات الله تعالى[2].

ثانيًا: جزاء الأشرار في الآخرة:

وإذا كان ذلك حال عذابهم في الدنيا فما بال العذاب الذي ينتظرهم في الآخرة، لا شك أنه أشد وأخزى لقوله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [القلم: ٣٣].

١. جزاء الأشرار في الحياة البرزخية (القبر).

القبر أول منازل الآخرة، فالقبر إما روضة من رياض الجنة على الصالحين، وإما حفرة من حفر النار على الأشرار الظالمين.

قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦].

جاءت هذه الآية بعد آية تصف ما نزل

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٣٤٤.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٦.

بفرعون وجماعته وهو أسوأ العذاب وهو الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة ثم بينا أن هذه النار يحرقون بها صباحًا ومساءًا، قال المفسرون: المراد بالنار هنا نار القبر وعذابهم في القبور ، بدليل قوله بعده: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ أي : ويوم القيامة يقال للملائكة: أدخلوا فرعون وقومه نار جهنم التي هي أشد من عذاب الدنيا[1].

وجاء في الحديث الذي يرويه أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيقعدانه، فيقولان: ما كنت تقول في الرجل، لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار ، قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة فيراهما جميعًا ، وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت، ولا تليت، فيضرب بمطارق من حديد ضربة ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين)**[2].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٣١٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال، رقم ١٣٣٨، ٢/ ٩٠.

٢. جزاء الأشرار يوم القيامة.

يحشر الأشرار يوم القيامة شر محشر، فهؤلاء الكفار المكذبين بالقرآن يسحبون ويجرون إلى النار على وجوههم ، وهم أضل طريقًا، وشر منزلًا ونصيرًا[3].

وفي الحديث الذي رواه أنس بن مالك: **(أن رجلا قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ قال: أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادرًا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة ؟)**[4].

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾ [الفرقان: ٣٤].

جاء في أوضح التفاسير: «يجرون عليها؛ وفي هذا منتهى الإذلال والتعذيب»[5]، كما توعد الله الأشرار بألوان من العذاب في نار جهنم في قوله: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾ [الحج: ١٩].

قال الزمخشري: «كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم فخرجوا أعيدوا فيها،

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٦٨.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب يحشر الكافر على وجهه، رقم ٧١٨٩، ٨/ ١٣٥.

(٥) أوضح التفاسير، محمد بن الخطيب ١/ ٤٣٨.

ومعنى الخروج: ما يروى عن الحسن أن النار تضربهم بلهبها فترفعهم، حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع ،فهووا فيها سبعين خريفا وقيل لهم : ذوقوا عذاب الحريق ، والحريق: الغليظ من النار المنتشر العظيم الإهلاك »[1].

موضوعات ذات صلة:

الخير، الضر

(١) الكشاف ٣/ ١٥٠.





عناصر الموضوع

مفهوم الشرك

أولًا: المعنى اللغوي:

شرك: قال ابن فارس: «الشين والراء والكاف أصلان، أحدهما يدل على مقارنة وخلاف انفراد، والآخر يدل على امتداد واستقامة، فالأول الشركة، وهو أن يكون الشيء بين اثنين لا ينفرد به أحدهما، ويقال: شاركت فلانا في الشيء، إذا صرت شريكه، وأشركت فلانا، إذا جعلته شريكا لك، قال الله جل ثناؤه في قصة موسى: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ۝٣٢﴾ [طه: ٣٢].»[١]، وقد جاء بمعنى المخالطة[٢].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفه عبد المحسن قاسم بقوله هو: «دعوة غير الله معه»[٣]، أو هو: «مساواة غير الله بالله فيما هو من خصائص الله»[٤]، وقال ابو بكر الجزائري: هو ما ينافي التوحيد[٥]، وعرفه أ.د. سعد عاشور بأنه «اتخاذ الند مع الله تعالى سواء أكان هذا في الربوبية أو الألوهية أو الأسماء والصفات، أي: جعل شريك مع الله في التوحيد»[٦]، ويغلب هذه التعريفات الصبغة العقدية الصرفة، ولكن من خلال النظر في سياق القرآني الذي جاءت فيها ألفاظ الشرك يمكن القول بأن الشرك هو: «أن يكون مع الله ندًا أو مثيلًا فيما يخص الله من معتقد، أو عبادة، أو طاعة».

العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي:

المعنى الاصطلاحي يتجه إلى المعنى الأول من المعاني اللغوية؛ إلا أنه يخص بجعل الشريك مع الله.

---

(١) مقاييس اللغة ٣/ ٢٦٥.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٤٤٨.
(٣) تيسير الوصول شرح ثلاثة الأصول، ص ٤٩.
(٤) المصدر السابق، ص ٥٠.
(٥) انظر: عقيدة المؤمن، ص١٠٧.
(٦) التبيان شرح أركان الايمان، ص١٤٨.



الشرك في الاستعمال القرآني

وردت مادة (شرك) في القرآن الكريم (١٦٩) مرة، يخص موضوع البحث منها (١٦٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٨	﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧٣]
الفعل المضارع	٥٢	﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ [الحج:٢٦]
المصدر	٥	﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣]
الصفة المشبهة	٣	﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام:١٦٣]
اسم	٣٦	﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ [الأنعام:١٠٠]
اسم فاعل	٤٩	﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:٢٨]

وجاء الشرك في الاستعمال القرآني على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: الإشراك بالله، وهو أن يعدل به غيره ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]. أي: لا تعدلوا به شيئًا سواه.

الثاني: الشرك في الطاعة من غير عبادة ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠]. أي: جعلا إبليس شريكًا مع الله سبحانه.

الثالث: الرياء ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]. يعني: ولا يرائي.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الشين، ص٦٦١-٦٦٤.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، مقاتل بن سليمان، ص٢٦-٢٧، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٨٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الكفر:

الكفر لغة:

الستر والتغطية، يقال لمن غطى درعه بثوب: قد كفر درعه، والمكفر: الرجل المتغطي بسلاحه، وهو ضد الايمان، لأنه تغطية للحق[(١)].

الكفر اصطلاحًا:

«الجحود بالوحدانية أو النبوة، أو الشريعة، أو بثلاثتها»[(٢)].

الصلة بين الكفر والشرك:

« أن الكفر اسم يقع على ضروب من الذنوب فمنها الشرك بالله»[(٣)]، فالشرك يتعلق بالله من ناحية التوحيد والعمل والطاعة، بينما الكفر يتعلق بالجحود والإنكار في نواحي الإيمان والنعم الإلهية، فبينهما عموم وخصوص، فكل مشرك كافر، وليس كل كافر مشرك.

٢ الإلحاد:

الإلحاد لغة:

قال ابن فارس: اللام والحاء والدال أصل يدل على ميل عن استقامة، يقال: ألحد الرجل، إذا مال عن طريقة الحق والإيمان[(٤)].

الإلحاد اصطلاحًا:

هو: «الميل، والجور، والانحراف عن الإسلام، أو الإيمان»[(٥)].

الصلة بين الإلحاد والشرك:

ولما كان الشرك أن يجعل لله ندًا، والالحاد حيودًا عن الحق وانحرافًا عن المعتقد كان الشرك وجهًا من وجوه الإلحاد، فالإلحاد أعم وأشمل من الشرك.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٩١.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٧٩، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٩١.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري، ص٢٢٨.
(٤) انظر: مقاييس اللغة ٥/ ٢٣٦.
(٥) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٩/ ١٧٢.

٣ التوحيد:

التوحيد لغة:

من وحد يوحد توحيدًا، ووحد الشيء، أي : جعله واحدًا ونفى عنه التعدد[١]، وقال ابن فارس: الواو والحاء والدال: أصل واحد يدل على الانفراد[٢]، فالتوحيد نسبة الانفراد للشيء.

التوحيد اصطلاحًا:

عرفة الجرجاني بأنه « ثلاثة أشياء: معرفة الله تعالى بالربوبية، والإقرار بالوحدانية، ونفي الأنداد عنه جملة»[٣]، وعرفة أبو بكر الجزائري بأنه: «نفي الكفء والمثل عن ذات الله وصفاته وأفعاله، ونفي الشريك في ربوبيته وعبادته عز وجل»[٤].

الصلة بين الشرك والتوحيد:

في ضوء ما سبق من تعريف الشرك والتوحيد في اللغة والاصطلاح يتبين أن التوحيد والشرك في مسألة ما نقيضان لا يجتمعان، فإن أشرك في المسألة فهو غير موحد بها، وإن وحد نفى عن نفسه الشرك بها.

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ص١٠١٦.
(٢) مقاييس اللغة ٦/ ٩١.
(٣) التعريفات، ص٦٩.
(٤) عبادة المؤمن، ص٥٣.

تنزيه الله تعالى عن الشركاء

إن تنزيه الله عن الشرك واجب شرعي، بل وضرورة شرعية؛ فقد نزه الله نفسه عن الشرك، ونزهه جميع الرسل، كما نزهته الملائكة، وجميع المؤمنين من الثقلين، وقد تبرأ الله ممن أشرك به شيئًا، وفيما يلي تفصيل ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: تنزيه الله تعالى نفسه عن الشركاء:

لقد نزه الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز نفسه عن الشركاء، وبين أنه الواحد الأحد، الذي يستحق من عباده الإيمان به، فهو المعبود الحق، الذي يجب أن نتوجه إليه بالعبادة، فلا يستحقها أحد غيره، ويمكن بيان ذلك فيما يأتي:

١ . تنزيه الله تعالى نفسه عن الولد.

زعمت اليهود والنصارى أن الله سبحانه اتخذ لنفسه ولدًا.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾ [التوبة: ٣٠].

فرد الله عليهم في كتابه العزيز، مقيمًا الحجة عليهم، وداحضًا زعمهم الباطل في كثير من الآيات، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ۝١١٦﴾ [البقرة: ١١٦].

قال الزمخشري: «فالله سبحانه نزه نفسه عن ذلك، فكل ما في السموات والأرض هو خالقه ومالكه، ومن جملته الملائكة وعزير والمسيح كلٌ له قانتون منقادون، لا يمتنع شيء منه تكوينه وتقديره ومشيئته، ومن كان بهذه الصفة لم يجانس، ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد، ويجوز أن يراد كل من جعلوه لله ولدًا له قانتون مطيعون عابدون مقرون بالربوبية منكرون لما أضافوا إليهم»[(١)].

فالله سبحانه أحد لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، فمن كان له زوجة فهو ليس بإله ولا يستحق العبادة، كذلك من كان له ولد، لذلك دعا الله سبحانه أهل الكتاب إلى الانتهاء عن قولهم : إن الله ثالث ثلاثة، وتوعدهم إن لم ينتهوا عن ذلك بالعقاب الشديد.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى

(١) الكشاف ١/ ١٨٠.

﴿ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١٧١].

فهذه الآية تبين حقيقة المسيح ابن مريم، أنه عبد الله رسوله، وأنه ابن مريم وليس ابنًا لله[١]، فالمسيح من جملة قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فالجميع ملك لله، هو خالقهم ومدبر أمورهم، فكيف يكون ابنا لله؟![٢].

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠١].

قال البيضاوي: «وفي الآية استدلال على نفي الولد من وجوه:

الأول: أنه من مبدعاته السموات والأرضون، وهي مع أنها من جنس ما يوصف بالولادة مبرأة عنها لاستمرارها وطول مدتها فهو أولى بأن يتعالى عنها، أو أن ولد الشيء نظيره ، ولا نظير له فلا ولد.

الثاني: أن المعقول من الولد ما يتولد من ذكر وأنثى متجانسين ، والله سبحانه وتعالى منزه عن المجانسة.

الثالث: أن الولد كفؤ الوالد ، ولا كفؤ له لوجهين: الأول :أن كل ما عداه مخلوقه، فلا يكافئه. والثاني : أنه سبحانه وتعالى لذاته عالم بكل المعلومات : ولا كذلك غيره بالإجماع»[٣].

وزعم مشركو العرب أن الملائكة بنات الله، قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [النحل: ٥٧].

فرد أباطيلهم بقوله: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الإسراء: ٤٠].

قال ابن عطية: «هذا تعديد لقبح قول الكفار: الملائكة بنات الله ، ورد عليهم من وجهين، أحدهما : نسبة النسل إلى الله تعالى عن ذلك، والآخر : أنهم نسبوا من النسل الأخس المكروه عندهم»[٤].

٢ . تنزيه الله نفسه عن الأنداد.

قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١].

وصف الله اليهود والنصارى بضرب من الشرك بقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٥٤٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٤٢٤.
(٣) أنوار التنزيل ٢/ ١٧٦.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٠١.

﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ والأكثرون من المفسرين قالوا: ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا فيهم أنهم آلهة العالم، بل المراد أنهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم[1].

وقد نزه الله تعالى نفسه عن الشركاء في الأمر والنهي، فقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

ونفى سبحانه وجود الشريك بقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩١].

ففي الآية دليل عقلي منطقي ينفي وجود الشريك أو المثيل لله، حيث نزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك، فلو قدر تعدد الآلهة، لانفرد كل منهم بما يخلق، فلا ينتظم الوجود، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق، وفي غاية الإتقان والتكامل، وهذا دليل على أن الإله واحد لا شريك له في ملكه، والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعدا، فأراد واحد تحريك جسم وأراد الآخر سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، والإله لا يكون عاجزا، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد. وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد، فيكون محالًا ، فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان الغالب هو الإله[2].

ويصدق ذلك قول الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء: ٤٢-٤٣].

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الطور: ٤٣].

٣. تنزيه الله نفسه عن الشفعاء.

قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨].

فالآية توضح أن المشركين اتخذوا مع الله شركاء، وظنوا أنهم سيشفعون لهم في الآخرة، فبين سبحانه أن الشفاعة لا تكون إلا لمن يأذن له تعالى بالشفاعة، فهي ليست حقا لأحد، ولكنها عطاء ومنحة من الله تعالى ، لذلك يقول: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا

(١) انظر: مفاتيح الغيب ، الرازي ١٦/ ٣٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٩١.

﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥][1]، «فالشفاعة علاقة بين المشفوع والشفيع، فإذا كانت حقيقية فلا بد أن يعلم المشفوع بها»[2].

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [طه: ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٨].

والحقيقة التي لا تقبل الشك، أن الله واحد أحد منزه عن الشركاء والوسطاء، وهذا ما دلت عليه النصوص، وقد نزه الله نفسه عن الشركاء في كتابه العزيز في أكثر من آية ،وهذا بيان لها.

ثانيًا: تنزيه الملائكة الله تعالى عن الشركاء:

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

فهذه الآية تبين أن الملائكة الكرام يتبرؤون يوم القيامة من المشركين، ومن عبادتهم إياهم، وينزهون الله تعالى أن يكون له شريك في العبادة، فلا موالاة بينهم وبين المشركين، بل إنهم كانوا يعبدون الشياطين الذين زينوا لهم عبادة الأوثان، وأكثر المشركين مصدقون للجن فيما يلقونه إليهم من الوساوس، ومنها الأمر بعبادة غير الله تعالى من الأصنام وغيرها[3].

ثالثًا: تنزيه الرسل الله سبحانه وتعالى عن الشركاء:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

ففي الآية الكريمة بيان لقبح ادعاءات النصارى، وبيان لركاكة ما ذهبوا إليه من وصف الله تعالى بما لا يليق به سبحانه وهو اتخاذ الزوجة والولد، وجعلوا من ذلك دينا، فهذا سر سؤاله تعالى لعيسى عليه السلام على رؤوس الأشهاد، ليقر عليه السلام بالعبودية لله تعالى، وأنه ما أمرهم إلا ليعبدوا الله تعالى، إلهًا واحدا لا شريك له[4].

---

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٢/ ١٠٩٨.
(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٧/ ٣٥٣٨
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٨١، التفسير المنير، الزحيلي ٢٢/ ٢٠٢.
(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٢٩٩.

ويقول محمد رشيد رضا: «إن عيسى عليه السلام بدأ جوابه بتنزيه الله عز وجل عن أن يكون معه إله، فأثبت بهذا أنه على علم يقيني ضروري بأن الله تعالى منزه في ذاته وصفاته عن أن يشارك في ألوهيته»[1].

وقد ورد أيضًا ما يبين أن المرسلين قد نزهوا الله عن أن يشاركه أحد في التصرف في ملكه أو التحكم عليه.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

فهذه الآية تشير إلى أن الرسول بشر، لا يأتي قومه إلا بالمعجزات التي يظهرها الله على يديه، وليس لأحد أن يحكم على الله تعالى، أو يتخير عليه[2].

قال الماتريدي: «وقوله عز وجل: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ أمره أن ينزه ربه عن أن يكون لأحد الاحتكام عليه والحكم، والذي سألوه احتكام منهم على الله»[3].

وقال ابن عاشور في التحرير: «ولما كان اقتراحهم اقتراح ملاجة وعناد أمره الله بأن يجيبهم بما يدل على التعجب من كلامهم بكلمة ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ التي تستعمل في التعجب، كما تقدم في طالع هذه السورة، ثم بالاستفهام الإنكاري، وصيغة الحصر المقتضية قصر نفسه على البشرية والرسالة قصرا إضافيا، أي: لست ربا متصرفا أخلق ما يطلب مني»[4].

فالدعوة إلى الله وحده وتنزيهه عن الشرك هي أعظم ما بعث من أجله المرسلون.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

ففي الآية بيان للسبيل الذي يدعو إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي: الدعوة إلى الله على بصيرة، وتنزيه الله تعالى من الشركاء، والبراءة من المشركين[5].

قال ابن باديس: «وكان من سبيل محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه يدعو الخلق إلى الله، وينزهه عن كل ما نسبه إليه المبطلون وتخيله المتخيلون، وهو معنى قوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾، فهو يدعوهم إلى الله الذي قد عرفوا وجوده بفطرتهم، وعرفوا أنه

(١) المنار ٧/ ٢٢١، ٢٢٢.
(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٢٧٧.
(٣) تأويلات أهل السنة ٧/ ١١٢
(٤) التحرير والتنوير ١٥/ ٢١٠، ٢١١.
(٥) انظر: تفسير ابن باديس، ص٣١٣.

هو خالق الكون وخالقهم، لا يسميه إلا بما سمى به نفسه، ولا يصفه إلا بما وصف به نفسه، ويعرفهم بآثار قدرته، ومواقع رحمته، ومظاهر حكمته، وآيات ربوبيته وألوهيته، ووحدانيته في جلاله وسلطانه، وينزهه عن المشابهة والمماثلة لشيء من مخلوقاته لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وهذا التنزيه- وإن كان داخلًا في الدعوة إلى الله - فإنه خصص بالذكر، لعظم شأنه؛ فإنه ما عرف الله من شبهه بخلقه، أو نسب إليه ما لا يليق بجلاله، أو أشرك به سواه، وإن ضلال أكثر الخلق جاءهم من هذه الناحية، فمن أعظم وجوه الدعوة وألزمها، تنزيه الله تعالى عن الشبيه والشريك، وكل ما لا يليق»[1].

رابعًا: تنزيه المؤمنين الله عن الشركاء:

وقد نزه المؤمنون ربهم عز وجل عن الشركاء والأنداد، في معتقدهم وعبادتهم وولائهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

فهذه الآية الكريمة تناولت جوانب متعددة من الشرك التي وقع بها المشركون من أهل الكتاب، ونزه المؤمنون ربهم عنها، وبيانها فما يأتي:

١. ألا نعبد إلا الله.

٢. أن لا نشرك به شيئًا.

٣. أن لا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله.

وذكر هذه الثلاثة؛ لأن النصارى جمعوا بينها، فعبدوا غير الله ، وهو المسيح ابن مريم، وأشركوا به غيره، وذلك لأنهم يقولون :إنه ثالث ثلاثة، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، حيث كانوا يطيعونهم في التحليل والتحريم ومعصية الله، وكانوا يسجدون لأحبارهم، ولا معنى للربوبية إلا ذلك[2].

فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعو أهل الكتاب إلى ما هو عليه حال المؤمنين من توحيد الله عز وجل ونبذ الشركاء في هذه المسائل، فإن المؤمنين عبوديتهم خالصه لله تعالى لا يرجون من طاعتهم إلا ابتغاء وجهه الكريم، وينزهونه عن الشريك، ولا يطيعون في معصيته أحدًا، ولا يسجدون إلا لله.

وقال تبارك وتعالى على لسان عباده المؤمنين مبينًا إخلاص ولائهم لله عز وجل: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ

---

(١) نفس المصدر السابق، ص ٣١٧.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٢٥٢.

﴿مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الفرقان: ١٨].

قيل: إن السؤال موجه في الآية لعزير والملائكة وعيسى ابن مريم من العقلاء[(١)].

ويدخل في هذا السياق كل من عبد من دون الله من المؤمنين والصالحين على على مدى الزمان، فهم يبرؤون إلى الله ممن اتخذهم أربابًا من دون الله، ويقررون بأن والولاء لا يكون إلا لله ولاء طاعة وعبودية وانقياد.

وقال تعالى في شأن المؤمنين من الجن: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن: ٢-٣].

ففي الآية دلالة على أعظم ما في دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وهو: توحيد الله تعالى، ونبذ الشرك والمشركين، وقد آمنت الجن أن القرآن كلام الله، بسماعه مرة واحدة، في حين لم ينتفع كفار قريش، بسماعه مرات، مع كون الرسول صلى الله عليه وسلم منهم يتلوه عليهم بلسانهم، فالآية بينت أن الجن نفوا عن أنفسهم الإشراك بالله تعالى، ونزهوه تعالى عن اتخاذ الصاحبة والولد، وبذلك أثبتوا وحدانية الله وامتناع وجود شريك له ثم أثبتوا له القوة والعظمة، ونزهوه عن الحاجة والضعف باتخاذ الصاحبة والولد، شأن العباد الذين يتعاونون على أمور الحياة بالزوجة للسكن والألفة، وبالولد للمؤازرة والتكاثر والأنس[(٢)].

وقد جاء في الكتاب العزيز كثير من الآيات التي ينزه المؤمنون بها ربهم عن الشركاء والأنداد، وهذا بيانها:

قال تعالى: ﴿لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ [الكهف: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

وقال تعالى: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ [غافر: ٤٢].

خامسًا: براءة الله ورسله من المشركين:

قال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾ [التوبة: ١].

وقال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾ [التوبة: ٣].

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٩٠.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٩/ ١٦١.

لما كان المشركون بالله المصرون على شركهم من أعدى أعداء الله ورسوله، تبرأ سبحانه منهم وأمر رسوله أيضا بالتبرؤ منهم، ومن عهودهم ومواثيقهم، وإن أكدوها وغلظوها، فهذه براءة وإسقاط ذمة، ورفع أمان من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم لما كان بين المؤمنين والمشركين من عهود ومواثيق، فلا هدنة بعد اليوم، وصار الحكم إما السيف، أو الإسلام فإن تابوا ورجعوا عن الكفر والشرك إلى الايمان والتوحيد فهو خيرٌ لهم، وإن أعرضوا عن الإسلام والإيمان وأصروا على الشرك والطغيان، فليسوا بمعجزي الله ولا غالبين جنده.

وقد أثنى الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز على إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين لتبرئهم من المشركين من قومهم، وجعلهم قدوة حسنة ومثلًا يحتذى به في توحيدهم لله عز وجل.

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة: ٤].

وقد أرشد الله تبارك وتعالى المؤمنين إلى التأسي بإبراهيم ومن آمن معه، وجعلهم قدوة لهم في سيرتهم العملية التي كانت من هداية الله تعالى لهم، وهي البراءة من قومهم معبوداتهم ما داموا عابدين لها، ولما كان وعد إبراهيم لأبيه بالاستغفار له وهو المشرك ليس من هذا الهدى، بل كان مسألة شاذة لها سبب خاص استثناها تعالى من التأسي به، فقال: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾[1].

روى البخاري في الصحيح بسنده قال: **(لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم، وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أي عم، قل: لا إله إلا الله، أحاج لك بها عند الله)، فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لأستغفرن لك ما لم أنه عنك)،** ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣][2].

ففي الحديث بيان لنهي الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم من الاستغفار

---

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٤٩٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (ما كان للنبي والذين آمنوا)، رقم ٤٦٧٥، ٦/ ٩٦.

للمشركين مهما تكن قرابتهم.

أما استغفار إبراهيم لأبيه فكما يبين السياق القرآني في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤].

حيث دعا إبراهيم أباه للإيمان وترك الأوثان، فوعده أبوه بأن يسلم، فقال إبراهيم: لأستغفرن لك إن أسلمت، باعتبار أن هاء الضمير في ﴿إِيَّاهُ﴾ تعود على إبراهيم، وقيل: إن الهاء تعود إلى الأب على اعتبار أن إبراهيم وعد أباه أن يدعو له ربه ويستغفر له رجاء إسلامه، ويدل على المعنى الثاني قراءة الحسن (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدةٍ وعدها أباه)، فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله بموته على الكفر تبرأ منه وكف عن الدعاء له والاستغفار[1].

وقد جاء في السياق القرآني العديد من الآيات الكريمة التي تبين براءة الله ورسوله ورسله أجمعين من المشركين، فبراءة الله ورسوله من المشركين تستوجب خذلانهم في الدنيا وهزيمتهم ومهانتهم، وعذابهم في الآخرة والانتقام منهم.

أنواع الشرك في القرآن

أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بعبادته وتنزيهه عن كل الشركاء.

قال تعالى: ﴿۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦].

كما أمرهم سبحانه وتعالى أن يجعلوا له في نفوسهم من التعظيم والتنزيه ما لا يجعلوا لسواه، فأبى أكثر الناس إلا كفورًا، فأشرك من أشرك وحاد من حاد، ونتناول في هذا المبحث بعضًا من المطالب التي بين القرآن الكريم فيها وقوع بعض الناس في أنواع من الشرك، وبيانها فيما يأتي:

أولًا: الشرك في الاعتقاد:

١ . شرك المحبة.

راعى القرآن الكريم الفطرة البشرية، واعترف بمكوناتها ونزعاتها ورغباتها، والحب أمر فطري مغروس في النفس البشرية ومجبولة عليه، كحب الولد والمال والنساء.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٩٥.

﴿... مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ۝١٤﴾ [آل عمران: ١٤].

لكنه مع ذلك بين أن هناك من المحبة ما هو أعظم وأفضل ، وهي محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وهي ثابتة في الكتاب.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ۝١٦٥﴾ [البقرة: ١٦٥][1].

وجاءت هذه الآية الكريمة في سياق الحديث عن وحدانية الله تعالى، وتفرده بخلق السموات والأرض، وتسيير كل ما فيها في نظام واحد، يدل على قدرته ووحدانيته[2].

فمن كان هذا شأنه فهو الذي يستحق من عباده أن ينزهوه عن كل الشركاء والأنداد، في كل جانب من جوانب حياتهم، فلا يقدموا على محبته محبةً، فهو محبوب لذاته، ومحبوب لجميل عطائه وكريم إنعامه، لذا نرى السياق القرآني يعجب ممن يتخذون من أوثانهم وسادتهم التي يشركونها مع الله في الطاعة نظراء لله، فيجعلون لهذه الآلهة في قلوبهم نصيبًا من المحبة، كحب المؤمنين لله، ولكن حقيقة الأمر أن حب المؤمنين لله أشد وأصدق[3].

وقد توعد الله من ساوى بين الخالق والمخلوق في المحبة بالعذاب الأليم يوم القيامة، كما قضى بفسق من قدم محبة شيء من زينة الدنيا ومتاعها من مال وأهل وعشيرة وتجارة على حب الله.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٢٤﴾ [التوبة: ٢٤].

والذي نخلص إليه: أن الذين يعدلون أو يساوون في محبتهم لله تبارك وتعالى أي مخلوق، فقد أشركوه مع الله عز وجل ، وأعطوه ما لا يستحقه من المحبة والإجلال[4].

---

(١) وقد ورد في السياق القرآني ثلاث آيات أخرى: آل عمران : ٣١، والمائدة: ٥٤، والتوبة، ٢٤.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٢٣٤.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ١٩٠.

(٤) انظر: مختصر تسهيل العقيدة الإسلامية، الجبرين، ص٨٣.

٢. الخوف.

قال ابن فارس: «الخاء والواو والفاء أصل واحد يدل على الذعر والفزع، يقال: خفت الشيء خوفا وخيفة»(١).

وقال الأصفهاني: «حقيقة خوف الله امتثال أمره»(٢).

والخوف أمر فطري جبلت عليه النفس البشرية كما الحب، وأقر القرآني الكريم وجوده.

قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠﴾ [النمل: ١٠].

فالخوف عند توافر دواعيه، من فزع وحدوث خوارق وخلافه، مباح.

والخوف إذا اقترن معه التعظيم والخضوع والمحبة لغير الله، أو اقترن معه الاعتقاد بالنفع أو الضر من غير الله، أصبح خوفًا شركيًا مذمومًا(٣).

وذلك من مفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝١٨﴾ [التوبة: ١٨].

وقد بين علماء التفسير أن المقصود من خشية الله في الآية هو عبادته وتعظيمه دون سواه(٤).

وقد ذم الله وعاب هذ الخوف إذا صرف لغيره، وأمر عباده المؤمنين بخشيته وقصر هذا الخوف لذاته سبحانه وتعالى والخضوع لسلطانه، وبين ذلك في كتابه العزيز.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧٥﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وقوله: ﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝٥١﴾ [النحل: ٥١].

وأثنى الله على عباده الذين أظهروا خوفهم من الله، وتحملوا في سبيل ذلك مشاق وتبعات التكاليف.

قال تعالى: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨﴾ [المائدة: ٢٨].

٣. التوكل على غير الله.

أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بعبادته والتوكل عليه في كتابه العزيز، فقال: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٢٣﴾ [هود: ١٢٣].

أي: «قم بعبادته -وهي جميع ما أمر الله به مما تقدر عليه- وتوكل على الله في

(١) مقاييس اللغة ٢/ ٢٣٠.
(٢) تفسير الأصفهاني ٣/ ٩٩٥.
(٣) انظر: مختصر تسهيل العقيدة الإسلامية، الجبرين، ص٨١.
(٤) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٣/ ١٦٩.

ذلك»[(١)].

فجعل التوكل على الله وحده هو ما يعين على صحة القيام بالتكاليف.

كما أمر عباده المؤمنين بالتوكل عليه وجعله من تمام الإيمان، فقال: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران: ١٢٢].

أي: «إن الألوهية من موجبات التوكل عليه تعالى ، واللام في المؤمنين للجنس، فيدخل فيه الطائفتان دخولا أوليًا، وفيه إشعار بأن وصف الإيمان من دواعي التوكل وموجباته»[(٢)].

ونهى عز وجل عباده المؤمنين عن اتخاذ غيره وليًا، فقال: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾ [الإسراء: ٢].

أي: «أن لا تتخذوا شريكا تلجؤون إليه، وقد عرف إطلاق الوكيل على الله في لغة بني إسرائيل»[(٣)].

فجعل عز وجل الالتجاء إلى غيره سبحانه وتعالى اعتقادًا شركًا به، لذا نهى بني إسرائيل عن ذلك، والنهي هنا يشمل المؤمنين جميعًا، لأن ذلك من أصول العقيدة التي هي أصل التوحيد الذي شرعه الله للناس أجمعين.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٩٢.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٧٩.
(٣) التحرير والتنوير، بن عاشور ١٥/ ٢٥.

وقد جعل التوكل من شروط صحة الإيمان بالله ، فقال: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣].

أي: «إن التوكل الحق لا يكون إلا من قلب مذعن مؤمن بالله مخلص له، مجيب لما يأمر وينهى، ولذلك قرن التوكل بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾»[(٤)].

وقد جاء الحديث عن التوكل في القرآن في قرابة سبعين آية من آياته في أربع وعشرين سورة مكية ومدنية، وذلك لمكانة هذه العبادة القلبية العظيمة وأثرها في حياة الأمة المسلمة.

وقد جاءت هذه الآيات الكريمة لتبين أن التوكل على الله عز وجل هو السمة المميزة للمؤمنين الصادقين، فالله لا يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أو عباده المؤمنين بأمر إلا ما فيه من الخير والرشاد ما يصلح حالهم وما فيه تمام إيمانهم، ففي الآية الأولى قرن عز وجل بين العبادة والتوكل.

والذي نخلص إليه : أن التوكل الذي هو عمل قلبي يجعل الإنسان يعتقد أن الضر والنفع معقود بهذا الوكيل، وذلك لا يكون إلا لله.

(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/ ٢١١٦.

٤ . الرياء.

جعل سبحانه وتعالى الرياء في العمل إشراكًا به في العبادة ومنافيًا للتوحيد ، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

فقوله عز وجل: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أي: من كان يرجو ثوابه وجزاءه الصالح، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾، أي: موافقًا لشرع الله، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل عند الله، لا بد أن يكون خالصا لله، صوابًا، على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي الحديث أن رجلًا قال: (يا رسول الله، إني أقف المواقف أريد وجه الله، وأحب أن يرى موطني. فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا. حتى نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾)[1][2].

فقد جاء الرد من العليم الحكيم قرآنًا يتلى إلى يوم القامة، شافيًا لكل من يريد أن يعرف الرياء، فهو إشراك بالله عز وجل، فمن يرغب عن الشرك في العمل فعليه تجريد عمله من كل الأهواء، وإخلاص نيته عن كل الشركاء.

ولما كان الرياء نقيض الإخلاص ، وقد عاب الله الرياء، فقد أمر المؤمنين بإخلاص العبودية له، وجعل أهل العلم إخلاص النية لله الأساس لكل عمل.

قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥].

وفي معنى قوله عز وجل: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ أي: «موحدين لا يعبدون سواه حنفاء على دين إبراهيم»[3].

وقد حذر الله عز وجل عباده المؤمنين من الرياء، وجعله من أعمال المنافقين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢].

فهذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها، وهي الصلاة، إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى، فما بالك بغيرها من سائر الأعمال، إنهم لا نية لهم فيها، ولا إيمان لهم بها ولا خشية، ولا يعقلون معناها، ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ﴾ فهذه صفة ظواهرهم، ثم ذكر تعالى صفة

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الجهاد رقم ٢٥٢٧، ٢/ ١٢٢.
وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ولم يتعقبه الذهبي.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٠٥.

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤٧٦.

بواطنهم الفاسدة، فقال: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله بل إنما يشهدون الناس تقية من الناس ومصانعة لهم[1].

وهذا هو معنى الإشراك بالله تعالى في الطاعة والنية.

وقد قرن الله تبارك وتعالى بين النفاق وعدم الإيمان بالله فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾ [النساء: ٣٨].

٥. الطيرة.

التطير صفة أعداء الرسل في كل زمانٍ ومكانٍ، فهي لم تكن موجودةً قبل الإسلام فحسب؛ بل استمرت معهم بعد الإسلام إذ تطيروا من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته.

وهذا يفهم من قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [النساء: ٧٨].

فكان إذا أصاب المنافقين الخصب، والنماء، وكثرة الأولاد، قالوا: هذا من عند الله، وإن أصابهم القحط، ونقص في الثمار والأولاد أو غير ذلك، نسبوا ذلك لسبب اتباعهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾أي: بقضائه وقدره، وهو جارٍ على المؤمن والكافر على السواء.

وقد ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١١]. أن الأعراب كانوا إذا ما آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، فصحوا، وولدت نساؤهم الغلمان، وأنتجت بهائمهم، قالوا: ما أصابنا منذ دخلنا في هذا الدين إلا الخير، وإن أصابهم همٌّ ووجعٌ، وحلت بهم الكروب، وسوس إليهم شيطانهم أنه ما أصابهم منذ دخولهم في دين محمد صلى الله عليه وسلم إلا الشر، فينقلبوا عن دينهم خاسرين[2].

ومما سبق يتضح أن القرآن الكريم ذم التطير، والمتطيرين، وجعل هذه الصفة ملازمةً لأعداء رسله وأتباعهم، تنفيرًا منها، وإظهارًا لخطورتها على عقيدة المؤمن، فالمؤمن الحق هو الذي يسلم أمره لربه ويحسن التوكل عليه، ويعلم أن كل ما أصابه من خيرٍ أو شر جارٍ بقضاء الله وقدره.

كما يلاحظ توافق الكافرين في موقفهم

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٣٨.

(٢) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ص٣٠٧.

من الرسل عليهم السلام، والتقائهم على التطير منهم، وذلك نظرًا للكفر الجامع بينهم، الأمر الذي جعلهم شركاء في الذم.

قال السعدي في حق المتطيرين: «فلما تشابهت قلوبهم بالكفر تشابهت أقوالهم وأعمالهم، وهكذا كل من نسب حصول الشر أو زوال الخير لما جاءت به الرسل أو لبعضه، فهو داخلٌ في هذا الذم الوخيم»[(١)].

وتجدر الإشارة إلى أنه لا تعارض بين الآيات، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾ [يس: ١٩].

بل كل منهما محققٌ للآخر ومتممٌ لمعناه، فقوله تعالى: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾، أي: أن الله هو المقدر لهذا الشيء وليس غيره سبحانه، فهي في بيان سبب حصول الشؤم لهم، فهو بسبب كفرهم ومعصيتهم[(٢)]، فالله قدر السوء والشر لهم بأعمالهم جزاءً عليها[(٣)].

ثم أخبر سبحانه وتعالى أن كل ما يجري على ذلك العبد من نعمةٍ أو مصيبةٍ من عنده تعالى[(٤)]، فقال: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة، حكم التطير، وكونه من الشرك، فقال صلى الله عليه وسلم: **(الطيرة من الشرك)**[(٥)].

وعلى هذا فإن قوله: **(من الشرك)**، دلالة على كونه من الشرك الأصغر، لأنه اعتمد على سببٍ لم يجعله الله تعالى سببًا، «إن كل إنسانٍ اعتمد على سببٍ لم يجعله الشرع سببًا، فإنه مشرك شركًا أصغر»[(٦)].

قال الطاهر بن عاشور: «التطير من شعار أهل الشرك لأنه مبني على نسبة المسببات لغير أسبابها، وذلك من مخترعات الذين وضعوا لهم ديانة الشرك وأوهامها»[(٧)].

أما إذا اعتقد أنها مؤثرة بذاتها، فهذا عين الشرك الأكبر المخرج من الملة[(٨)].

ثانيًا: الشرك في الأعمال:

١ . الشرك في الطاعة.

تعد الطاعة من أعظم أنواع العبادات التي أمر الله بها.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص١٨٨.
(٢) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين ٢/ ٧٩-١٠٠.
(٣) انظر: الحسنة والسيئة، ابن تيمية، ص ٣٩.
(٤) انظر: شفاء العليل، ابن القيم ٢/ ٣٣.
(٥) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب السير، باب ما جاء في الطيرة، رقم ١٦١٤، ٤/ ١٦١. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٧٣٢، رقم ٣٩٦٠.
(٦) انظر: القول المفيد، ابن عثيمين ٢/ ٩٣.
(٧) التحرير والتنوير ٩/ ٦٦.
(٨) انظر: القول المفيد، ابن عثيمين ٢/ ٩٤.

﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩﴾ [النساء: ٥٩].

أي: أطيعوا الله تعالى فيما أمركم به، ونهاكم عنه، وأطيعوا رسوله صلى الله عليه وسلم، فهو مبلغ عن ربه، وأطيعوا أولي الأمر من الأمراء والحكام، والعلماء، شرط أن يكونوا أمناء، لا يخالفون منهج الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم[١].

وبين سبحانه وتعالى أن من أطاع أحدًا من خلقه، في تحليل ما حرم الله تعالى، أو تحريم ما أحل الله تعالى، فقد اتخذ من دون الله ربًا مشرعًا.

قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣١﴾ [التوبة: ٣١].

ففي الآية بيان للشرك في الطاعة، وذلك بطاعة الأحبار والرهبان، في تغيير شرع الله تعالى، وهذا من الشرك الأكبر، «فقد سماهم أربابًا وهم لا يعبدونهم، لكن من حيث تلقوا الحلال والحرام من جهتهم، وهو أمر لا يتلقى إلا من جهة الله عز وجل، ونحو هذا قال ابن عباس، وحذيفة بن اليمان، وأبو العالية، وحكى الطبري أن عدي بن حاتم قال: جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب ذهب، فقال: يا عدي؛ اطرح هذا الصليب من عنقك، فسمعته يقرأ ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فقلت : يا رسول الله ، وكيف ولم نعبدهم؟ فقال أليس تستحلون ما أحلوا وتحرمون ما حرموا) ، قلت: نعم. قال:(فذاك)[٢].

قال سليمان بن عبد الله: «فمن أطاع مخلوقًا في ذلك فقد عبده، إذ معنى التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله يقتضي إفراد الله بالطاعة، وإفراد الرسول بالمتابعة»[٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ۝١٢١﴾ [الأنعام: ١٢١].

قال ابن كثير: «أي : حيث عدلتم، عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره، فقدمتم عليه غيره، فهذا هو الشرك»[٤].

وفرق أهل العلم بين شرك العبادة، وشرك الطاعة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا

(١) انظر: منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، الزحيلي ١/ ١٢٨.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٥.

(٣) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، ص١١٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٩٥.

﴿لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١﴾

[الأعراف: ١٩٠-١٩١].

فقد جاء بسند صحيح عن قتادة أنه قال: «شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته»، وهذا دليل على التفريق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة، فالشرك في العبادة كفر أكبر مخرج من الملة، أما الشرك في الطاعة فله درجات يبدأ من المعصية والمحرم وينتهي بالشرك الأكبر[1].

٢. السحر.

لقد حرم الله تعالى السحر.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٢﴾ [البقرة: ١٠٢].

فهذا إخبار عن اليهود الذين أخذوا بالسحر الذي تقولته الشياطين على عهد ملك سليمان، ونسبوه إلى سليمان عليه السلام بهتانًا وزورًا، ثم بين الله سبحانه وتعالى أن سليمان لم يكن ساحرا كما زعموا، ولكن الشياطين هم السحرة، وهم الذين كفروا بتعليمهم للناس السحر، ثم بين سبحانه وتعالى شيئًا من مقاصد الذين يتعلمون السحر، وهو تفريقهم بين المرء وزوجه، ولكن الله أخبر أنه لا يتم تأثير السحر إلا بإذنه، وأن من اعتاض بالسحر عن دين الله، فإنه ليس له في يوم القيامة نصيب ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون[2]، وهذا تحذير من السحر لأنه لا يتم إلا بالشرك، والشرك مناف للتوحيد[3].

وقد بين سبحانه وتعالى أن السحر باطل؛ لأنه يسبب الإفساد بين الناس ، ومن كان شأنه كذلك فمآله إلى زوال لا محالة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ٨٠ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨١﴾ [يونس: ٨٠-٨١].

وقال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ٧٧﴾

[يونس: ٧٧].

أي: لا يظفر الساحر بالحاجة والغلبة،

(١) انظر: التمهيد لشرح كتاب التوحيد، صالح آل الشيخ ٥٠١-٥٠٢.

(٢) انظر: الجديد في شرح كتاب التوحيد، محمد القرعاوي، ص٢١٩.

(٣) انظر: المصدر السابق، ص٢٢٠.

لأنه باطل، والباطل لا يغلب الحق[1].

٣. الشرك في الدعاء.

هو الافتقار إليه، والتبرؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله عز وجل وإضافة الجود والكرم إليه[2].

ويمكن القول بأن شرك الدعاء هو: سؤال العبد غير الله؛ من الأنبياء، والأولياء، وغيرهم، فيما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل؛ ويدخل في ذلك الاستغاثة، والاستعانة، والاستعاذة، بغير الله تعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ من طلب رزق، أو شفاء مريض، أو إحياء ميت، أو غير ذلك؛ فقد أشرك مع الله غيره، سواء أكان ذلك الغير نبيا، أو وليا، أو جنيا، أو غير ذلك من المخلوقات[3].

والأدلة على كون دعاء غير الله تعالى شركًا كثيرة، منها:

قول الله عز وجل: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

فالآية تؤكد عجز الأصنام، فهي لا تملك شيئًا ولو كان حقيرًا، وهو ما تشير إليه كلمة قطمير، أي: قشر النواة، فالمشركون كانوا يزعمون أن الأصنام تسمعهم، لذلك كانوا يدعونها ويتوجهون إليها: فنبههم القرآن إلى عجزها، بأنها لا تسمع، وعلى فرض أنها تسمعهم فإنها لا تستجيب لهم، قال ابن عاشور: «أي: ولو سمعوا على سبيل الفرض والتقدير ومجاراة مزاعمكم حين تدعونها فإنها لا تستجيب لدعوتكم، أي: لا ترد عليكم بقبول»[4].

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [النحل: ٥٣-٥٤].

قال ابن كثير: «لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجئون إليه، وتسألونه وتلحون في الرغبة مستغيثين به»[5].

والدعاء نوعان: دعاء العبادة والثناء، ودعاء المسألة والطلب، وهما متلازمان.

فدعاء العبادة والثناء: هو ما يقصد به العبد ثناء على الله تعالى بما هو أهله، تذللا له، وانكسارًا بين يديه، سبحانه وتعالى.

ودعاء المسألة: هو طلب ما ينفع الداعي

---

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٦/ ٧٣.
(٢) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان جمعة ضميرية، ص٣١٦.
(٣) انظر: المفيد في مهمات التوحيد، عبد القادر صوفي، ص١١٥.
(٤) التحرير والتنوير ٢٢/ ٢٨٣.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٧٧.

من جلب نفع أو دفع ضر، إذ الذي يدعى لا بد أن يكون مالكًا للنفع والضر[1].

دعاء المسألة والطلب لا يعد كله شركًا، فالإنسان إما أن يدعو مخلوقًا حيًا بأمر يدركه وهذا جائز، كسؤال الفقير، وإما أن يدعو مخلوقا مطلقًا حيًا كان أو ميتًا فيما لا يقدر عليه إلا الله، مثل: يا فلان! اجعل ما في بطن امرأتي ذكرا؛ فهذا شرك أكبر؛ لأن هذا من فعل الله عز وجل الذي لا يستطيعه البشر، ولا يقدرون عليه، وإما أن يدعو مخلوقًا لا يجيب بالوسائل الحسية المعلومة؛ كدعاء الأموات؛ فهذا شرك أكبر أيضا؛ لأن هذا لا يقدر عليه المدعو. ولا يقع مثل هذا النوع من الدعاء إلا إذا اعتقد الداعي في المدعو شيئا سريا يدبر به الأمور[2].

٤ . نسبة النعم لغير الله تعالى.

إن من تمام التوحيد نسبة النعم إلى الله عزوجل، فمن نسب النعمة إلى غيره تعالى، فقد كفر ؛ لأنه جعل شريكًا مع الله في الإنعام[3].

قال تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ [النحل: ٨٣].

فالكفار يقرون بأنها كلها من الله تعالى، ثم ينكرونها بأفعالهم حيث يعبدون غير منعمها أو بقولهم ، إنها بشفاعة آلهتنا، أو بترك الشكر عليها، أو يعرفونها في الشدة، وينكرونها في الرخاء، أو يعرفونها بقلوبهم، ويجحدونها بألستهم ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: المنكرون بقلوبهم غير المعترفين بما ذكر[4].

وإنكار النعمة أن تنسب إلى غير الله، وأن يجعل المتفضل بالنعمة غير الذي أسداها، وهو الله جل جلاله، فالواجب على العبد أن يعلم أن كل النعم من الله جل وعلا، وأن كمال التوحيد لا يكون إلا بإضافة كل نعمة إلى الله جل وعلا، وأن إضافة النعم إلى غير الله نقص في كمال التوحيد، ونوع شرك بالله جل وعلا.

قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ [فصلت: ٥٠].

أي: لئن أذقناه عافية من بعد سقم، أو غنى من بعد فقر؛ ليقولن: هذا لي، أي : هذا من

(١) انظر: مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان جمعة ضميرية، ص٣١٧.
(٢) انظر: المفيد في مهمات التوحيد، عبد القادر صوفي، ص ١١٧.
(٣) انظر: الجديد في شرح كتاب التوحيد، محمد القرعاوي، ص٣٥٩.
(٤) انظر: الوجيز، الواحدي، ص٦١٦، أوضح التفاسير، ابن الخطيب ١/ ٣٣٠.

حقي؛ استوجبته بتقواي وصلاحي، أو بقوتي واجتهادي. وهو في عداد المتكبرين[1].

وقال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: ٧٨].

فهذه مقولة المغرور الذي ينسى مصدر النعمة، فقارون نسي من وهبه النعمة، وركن إلى السبب، وهو أن هذا الثراء والغنى إنما حصله من علمه وبجهده الخاص، فجاءه التهديد والوعيد من الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨][2].

وقد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠].

أنعم الله عليهم بالأولاد، وكمل الله النعمة بهم بأن جعلهم صالحين في أبدانهم، وتمام ذلك أن يصلحوا في دينهم، فعليهم أن يشكروا الله على إنعامه، وأن لا يعبدوا أولادهم لغير الله، أو يضيفوا النعم لغير الله، فإن ذلك كفران للنعم مناف للتوحيد[3].

فمن تحقيق التوحيد نسبة النعم لمسديها وواهبها ، وهو الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١].

---

(١) انظر: أوضح التفاسير، الخطيب ١/ ٥٨٩.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧١٢.
(٣) انظر: القول السديد شرح كتاب التوحيد، السعدي، ص١٥٩.

مراتب الشرك

لقد حذر القرآن الكريم من الشرك أيًا كان نوعه، حمايةً لجناب التوحيد، وحرصًا على أهله، لأنه إما أن يخرج صاحبه من الإسلام ويحرمه نعمة التوحيد ويورده النار، وإما أن ينافي كماله، وقد ينتهي به إلى الخروج من الإسلام آخر الأمر[(١)].

وقد قسم أهل العقيدة الشرك إلى مرتبتين: شرك أكبر، وشرك أصغر (خفي)[(٢)].

وسنتناول ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الشرك الأكبر:

وهو «اتخاذ العبد غير الله من نبي أو ولي أو جماد أو حيوان ندًا مساويًا لله، يحبه كحبه ويخافه ويخشاه كخشيته إلخ»[(٣)].

وعرفه الدكتور عبد القادر صوفي فقال: «إثبات شريك لله عز وجل في خصائصه؛ فيجعل الإنسان ندًا لله في ربوبيته، أو في ألوهيته، أو في أسمائه وصفاته»[(٤)].

قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

عرف ابن القيم الطاغوت بقوله: ما تجاوز به العبد حده: من معبود، أو متبوع، أو مطاع[(٥)].

وقد وصف الله تعالى الشرك بالظلم العظيم، فقال على لسان لقمان الحكيم: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

ففي الآية يوصي لقمان ولده الذي هو أشفق الناس عليه، وحقيقة أن يمنحه أفضل ما يعرف؛ بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا.

وينقسم الشرك الأكبر إلى أقسام[(٦)]، وبيانها فيما يأتي:

١ . شرك في الربوبية.

وهو أن يجعل لغير الله تعالى معه نصيبًا من الملك أو التدبير أو الخلق أو الرزق الاستقلالي[(٧)].

ويمكن القول بأنه نسبة أفعال الله تعالى لغيره من الخلق، حيًا كان أو ميتًا، كالرزق، التصرف في الكون، الإحياء، الإماتة إلخ،

(١) انظر: حماية الرسول صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد، محمد الغامدي، ص٢٧١.
(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، سليمان بن عبدالله ص٢٨.
(٣) مختصر معارج القبول، ص١٣٢.
(٤) المفيد في مهمات التوحيد، ص١١١.
(٥) انظر: مدارج السالكين ٣/ ٤٨٢.
(٦) انظر: المفيد في مهمات التوحيد، عبد القادر صوفي، ص ١١٢.
(٧) انظر: تسهيل العقيدة الإسلامية، عبدالله الجبرين، ص ١٥٢.

ومثاله أيضًا شرك النصارى بقولهم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣][1].

٢. شرك في الأسماء والصفات.

وهو التسوية بين الله والخلق في شيء من الأسماء والصفات؛ بأن يجعل لله عز وجل ندا في أسمائه وصفاته؛ فيسميه بأسماء الله، أو يصفه بصفاته[2]، كشرك الممثلة: وهو اعتقاد أن صفات الخالق تماثل صفات المخلوق، كمن يقول: يد الله كيدي، فهذا كله شرك.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

٣. الشرك الأكبر في الألوهية.

وهو أن يجعل العبد لله ندًا في العبادة، أو في التشريع[3]، وهو على أنواع، منها:

١. شرك الدعاء، قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۝٦٥﴾ [العنكبوت: ٦٥].

٢. شرك الخوف، قال تعالى: ﴿۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ۝٥١﴾ [النحل: ٥١].

٣. شرك الطاعة، قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣١﴾

[التوبة: ٣١].

٤. شرك المحبة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾

[البقرة: ١٦٥].

٥. شرك الشفاعة، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١٨﴾ [يونس: ١٨]. قال الطبري: أي: كانوا يعبدونها رجاء شفاعتها عند الله[4].

٦. شرك النية، والإرادة والقصد: هو أن يريد العبد بعمله غير الله تعالى، كأن يعمل عملًا صالحًا يبتغي به الدنيا[5]، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

(١) انظر: المفيد في مهمات التوحيد، عبد القادر الصوفي، ص ١١٣.

(٢) انظر: تسهيل العقيدة الإسلامية، عبدالله الجبرين، ص ١٥٥.

(٣) انظر: المفيد في مهمات التوحيد، عبد القادر الصوفي، ص ١١٤.

(٤) انظر: جامع البيان ١٢/ ١٤٢.

(٥) انظر: المفيد في مهمات التوحيد، عبد القادر الصوفي، ص ١١٣.

﴿وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ [هود: ١٥-١٦]. صرح تعالى في هذه الآية الكريمة: أن من عمل عملًا يريد به الحياة الدنيا أعطاه جزاء عمله في الدنيا، وليس له في الآخرة إلا النار[١].

ثانيًا: الشرك الأصغر:

عرفه الشيخ عبد الرحمن بن سعدي بأنه: «كل وسيلة يتوسل بها إلى الشرك الأكبر كالحلف بغير الله، ويسير الرياء ونحو ذلك»[٢].

ويمكن القول: إن الشرك الأصغر كل ما ينافي كمال التوحيد قولًا كان، أو فعلًا، أو نيةً.

والدليل على وجود الشرك الأصغر: قول الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

قال الزمخشري: «أي : أن لا يرائي بعمله، وأن لا يبتغي به إلا وجه ربه خالصا لا يخلط به غيره»[٣].

وبينت الآية شرطي العبادة المقبولة عند الله تعالى، وهما: الموافقة للشريعة، وعدم الإشراك بالله تعالى[٤].

قال العثيمين: «قال ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِ﴾ ليتبين لك أنه جل وعلا حقيق بأن لا يشرك به؛ لأنه الرب الخالق المالك المدبر لجميع المخلوقات»[٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف: ١٠٦].

فالآية ليست دليلًا فقط على من عبد غير الله، بل تشمل الرياء، والطيرة، والحلف بغير الله، وتعليق التمائم .. إلخ[٦].

قال محمد أبو زهرة في أحد وجوه تفسيره للآية: «أنها تحمل على أن أكثر الناس تعتريهم حال إشراك مهما أخلصوا التوحيد لله تعالى، فالأوهام تسيطر على الناس ، وقد أدت بالوثنيين إلى عبادة الأوثان، ولكنها بالنسبة لمن جاء بعدهم أدت بهم إلى أوهام حول الأشخاص، لم يعبدوهم ولكن اعتقدوا فيهم قوى خفية ، والآية الكريمة تدعو المؤمنين إلى الحرص على التوحيد، وتفويض الأمر إلى الله تعالى، وأن يبعدوا عن الأوهام المضلة، فلا يعتقدون في مخلوق أن فيه قوة تشفي، أو تنفع، فإن

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ١٧٤.
(٢) الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة، ص ١٧٨.
(٣) الكشاف ٢/ ٧٥١.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٨٣.
(٥) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة الكهف، ص ١٥٣.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤١٨.

الأوهام أدت إلى الشرك في جاهلية العرب وأدت النصارى إلى التثليث، ولا تزال الأوهام تسيطر عليهم حتى أدت بهم إلى عبادة الأحجار والصور والتماثيل»[1].

اسباب الشرك

للانحراف عن عقيدة التوحيد أسباب كثيرة، تتعلق بتفكير الفرد والجماعة، أو طبيعة التربية التي نشأ عليها الفرد، حتى غدا لهذه التربية نوع من القداسة في نفسه، وفي هذا البحث سنقف على بعض هذه الأسباب التي جاء ذكرها في القرآن الكريم ، ويمكن بيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: تعظيم المخلوقين:

دأب كثير من الناس على احترام وحب أصحاب المكانة من الناس، من مسؤولين، ورؤساء قبائل وعشائر، وحكام، وقادة عسكرين وخلافه، حتى غدا حبهم يملأ القلوب، وليس العيب هنا، ولكن بالغت فئة في هذا الحب، حتى غدا شكلًا من أشكال التبعية العمياء، التي قادت إلى نوع من التقديس والصد عن سبيل الإيمان.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧].

وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ: ٣٣].

(١) زهرة التفاسير ٧/ ٣٨٧٠- ٣٨٧١.

وفي الآية الأولى يبين الله عز وجل موقف فئة من العصاة يوم القيامة؛ ممن حق عليهم العذاب من المشركين، وقد كانوا يعظمون السادة والكبراء من قومهم حتى أردوهم المهالك، فتمنوا يوم القيامة أن لو كانوا أطاعوا الله رسوله، ثم ينكسون رؤوسهم حسرة وندامة لطاعتهم السادة والكبراء، والأظهر أنهم الرؤساء في الشرك والضلالة، فأطاعوهم في معصية الله، فأضلهم هؤلاء السادة عن طريق التوحيد[1]، فصدوهم عن طريق الحق فوقعوا في الشرك.

والآية الثانية تصور لنا تصويرًا مؤثرًا بديعًا، ما يكون عليه الكافرون يوم القيامة من حسرة وندم، ومن عداوة وبغضاء، ومن تهم يلقيها كل فريق على الآخر، بدون احترام من الأتباع لزعمائهم الذين كانوا يدينون لهم بالذلة والخضوع طواعيةً، بعد أن سقطت وزالت الهيبة الزائفة التي كان الزعماء يحيطون بها أنفسهم في الحياة الدنيا، وأصبح الجميع يوم الحساب في الذلة سواء[2].

ولما أنكر المستكبرون أن يكونوا هم السبب في كفر المستضعفين، قال المستضعفون: ما كان الإجرام من جهتنا، بل من جهة مكركم بنا دائما، ليلا ونهارا، وحملكم إيانا على الشرك واتخاذ الأنداد[3].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٤٩.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١١/ ٢٩٦.

ثانيًا: التقليد:

ميز الله تعالى الإنسان بالفكر، ليعرف به الخير من الشر في الاعتقاد، والصدق من الكذب[4]، وأكرمه بالعلم والإرادة، ومنحه نعمة العقل، التي بها يقوى على الاختيار، والتمييز بين ما يضر وينفع، فأبى كثير من الناس إلا تعطيل هذه النعمة، ورفض هذه الكرامة، فحجروا على عقولهم، وأبوا إلا التقليد والتبعية العمياء للموروث من الأقدمين، آباء وقادة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة: ١٠٤].

وقد ندد الله بهذا التقليد ، وجعل من يتشبثون به في درجة أحط من البهائم والأنعام، فقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فمن أغفل نعم الله وعطلها وعلى رأسها نعمة العقل والتفكير والتمييز ، فهو من اصحاب هذه الآية.

(٣) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٤٩٨.

(٤) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣٦٧.

وقد جاء تقليد المشركين في صور متعددة، بين منها القرآن ما يأتي:

١. التقليد في العبادة و الاعتقاد.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ۝٥٢ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ۝٥٣﴾ [الأنبياء: ٥٢-٥٣].

لما أنكر إبراهيم على أبيه وقومه قيامهم على هذه الأصنام والصور التي كانوا يعبدونها دون الله، ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾، فلم يجد القوم جوابًا إلا طريقة التقليد، التي توجب مزيد النكير، لأنه إذا كانوا على خطأ من أمرهم لم يعصمهم من هذا الخطأ أن آباءهم أيضا سلكوا هذا الطريق، فأجابهم إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٥٤﴾[الأنبياء: ٥٤].

فبين أن الباطل لا يصير حقا بسبب كثرة المتمسكين به[(١)]، ولو كانت هذه الكثرة هم الآباء والأقدمون والأجداد، ومن لهم في النفس حب، لصلة أو قرابة.

٢. التقليد في الحكم والشرائع.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ۝١٧٠﴾ [البقرة: ١٧٠].

ففي الآية بعد أن نهى الله المؤمنين عن اتباع آثار عدوه وعدوهم، أعلمهم وهو ربهم أن الشيطان لا يأمرهم إلا بما يضر أبدانهم وأرواحهم، ولا يرد لهم إلا إلى ما سيء الأفعال والأخلاق، وأفظع من ذلك أن يقولوا على الله ما لا يعلمون، فيحرمون ويحللون ويشرعون باسم الله، والله في ذلك بريء، فلما قال لهم رسول الله ، اتبعوا ما أنزل الله، قالوا : لا، بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، ولو كان باطلًا، فهم يقلدون آباءهم ولو كان آباءهم لا يعقلون شيئًا من أمور الشرع والدين، ولا يهتدون إلى ما فيه الصلاح والخير[(٢)].

٣. التقليد في المعصية.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٢٨﴾

[الأعراف: ٢٨].

تتناول الآية الكريمة الحديث عن قبح حال المشركين الذين يفعلون الذنوب، ويزعمون أن الله أمرهم بذلك، فإذا فعلوا فعلة قبيحة ينكرها الشرع، قالوا: إنا وجدنا آباءنا هكذا يفعلون، نحن نقتدي بهم، وغير ذلك من التقليد الأعمى، الذي يرفضه الشرع، والأدهى من ذلك قولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فقل لهم: إن الله لا يأمر بالفحشاء أصلًا، وإنما الذي يأمركم بهذا هو

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١٥٢.

(٢) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ١٤٥.

الشيطان، وكيف تعتذرون باتباعكم آباءكم؟ وهل آباؤكم حجة في التشريع؟ وهل عملوا بوحي من الله وإرشاد؟ أم كانت أعمالهم بوسوسة الشيطان وزخرفته؟!! أم أنتم تقولون على الله ما لا تعلمون؟ فتشريع الله لا يكون إلا بوحي منه إلى رسوله[1]، وهذا هو الشرك بعينه.

ثالثًا: اتباع الهوى:

الهوى ما عشقته النفس، ومالت إليه من الحظوظ العاجلة، ويجري ذلك في المآكل، والمشارب، والملابس، والمناكح، والجاه، ورفع المنزلة، فليجاهد العبد نفسه في ترك ذلك كله، حتى لا تحب إلا ما هو طاعة تقرب إلى الله[2].

وجاءت الشريعة الغراء تحث المؤمنين على الارتقاء بالنفس البشرية إلى أعلى الدرجات، والنأي بها عن سفاسف الأمور وحقيرها، لذلك كانت أوامرها السمحة، تحمل الإنسان على معالي الأمور وعظيمها، ولما كانت النفس تميل إلى الراحة والدعة، فقد ندد الله بمن أبى إلا مجاراة هوى نفسه والهبوط بها فقال سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان: ٤٣].

فجعل هوى نفسه مطاعًا، حتى غدا هواه إلهًا يعبد دون الله، ويشتهى فيطاع.

وقد جاء السياق القرآني منددًا باتباع الهوى لما له من أثر في حرف الناس عن عقيدة التوحيد وجادة الطريق، وبيان ذلك فيما يأتي:

- **الهوى يحمل على الشرك في العقيدة.**

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣].

فكل من استباح لنفسه كل ما تهواه، سواء كان مباحًا أو غير مباح، فكأنه يعبد هواه، كما يعبد الرجل إلهه[3]، فإن الطاعة المطلقة لا تكون إلا لله تعالى، فمن صرف ذلك لهواه فقد جعل للهوى ما هو من خصائص الله، فماذا بقي من الشرك؟!

قال تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ٢٣].

تتناول الآية التنديد بالمشركين لاتخاذهم أصنامًا تعبد دون الله، وجعلوا لها أسماء ليس لها نصيب منها إلا إطلاق تلك الأسماء عليها، ولو كانت الألوهية متحققة بمجرد التسمية كانت آلهة، لكنها أماني وأهواء زعموها وتوهموا أنها حقيقة،

---

(١) انظر: التفسير الواضح، الحجازي ١/ ٧٠٥.
(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٣١٢.
(٣) انظر: المصدر السابق ٥/ ٣١١.

أو هو ادعاء مرده أهواؤهم[1]، فالذي حمل القوم على الشرك بالله هو اتباع الهوى.

- الهوى يحمل على العدول عن شرع الله.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام: ١٥٠].

تأتي هذه الآية الكريمة بعد سلسلة من الآيات التي دار فيها حوار مع الكفار حول مسائل تتعلق بما أحل الملأ من قريش وحرموا؛ من الأطعمة والأشربة وفق أهواؤهم، دون مستند من الله تعالى، والذي حمل على هذ التحليل والتحريم؛ ما إشربوه من هوى النفس، حتى غدت هذه الأهواء أوثانًا تعبد دون الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يشركون به ويجعلون له عديلًا[2]، أي: مثيلاً، وهذا هو عين الشرك، والذي حمل عليه هو اتباع الهوى في التحليل والتحريم، الذي هو من خصوصيات الله سبحانه وتعالى.

رابعًا: الكبر:

جاءت آيات القرآن الكريم تنفر من هذا الخلق الذميم، وتبين كبير جرم المتكبرين، ويمكن بيان مفاسد الكبر كما بينها القرآن الكريم ذلك فيما يأتي:

- رفض عقيدة بالتوحيد.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ [غافر: ٥٦].

فالذي دفعهم للجدال والمراوغة، والصد عن سبيل الله هو ما ملأ صدورهم من كبر وتعالٍ على اتباع المرسلين، «والكبر الذي في صدورهم هو الاستكبار عن الإقرار بالتوحيد»[3].

- الامتناع عن النطق بكلمة التوحيد.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات: ٣٥].

فهؤلاء المجرمون الذين يجحدون الله تعالى، ويعظمون أصنامهم الحجرية والفكرية على مدار الزمان وحتى يومنا هذا، ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: لا معبود بحق إلا الله، وهي كلمة الحق، والعروة الوثقى، أصابهم الكبر، وعظم عليهم أن يتركوا أصنامهم[4]، وأفكارهم، وأسيادهم التي عظموها، فرفضوا الإقرار بكلمة الحق، وأبوا إلا البقاء على معتقداتهم، وحق عليهم

---

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٧٥.
(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٦٠٣.
(٣) تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٢٧.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤٧١.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥].

فقلوبهم لا تنقاد إلا لأهل باطلهم، وما أشربوا من هوى أنفسهم.

- رفض التذلل والخضوع لله.

قال تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾ [نوح: ٧].

أي: كلما دعوتهم للإيمان الذي تترتب عليه المغفرة، قابلوا ذلك بالمبالغة في الكبر، وجعلوا أنفسهم أكبر من أن يأتمروا لواحد منهم، وتأكيد استكبروا بمفعوله المطلق للدلالة على تمكن الاستكبار[(١)].

فحملهم الكبر على التعالي على الله عز وجل والانقياد لدعوته، وتنوين ﴿اسْتِكْبَارًا﴾ للتعظيم، أي : استكبارًا شديدًا لا يفله حد الدعوة.

- تكذيب المرسلين.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: ٨٧].

أي: «كلما جاء بني إسرائيل رسول من عند الله لا يجاريهم في أهوائهم استكبروا عليه وخالفوه وكذبوه أو قتلوه»[(٢)].

ومما سبق يتضح لنا أن الكبر حاجب للإنسان عن صفاء العقيدة، وباب كبير من أبواب الصد عن عقيدة التوحيد.

خامسًا: الجهل بالله وأسمائه وصفاته:

جاء السياق القرآني الكريم بكثير من الآيات التي دعت الإنسان للتفكر في هذا الكون من حولنا، والتدبر في كتاب الله تعالى، ليصل إلى معرفة ربه وعبادته وحده بلا شريك.

ولكن كثيرًا من الناس جمدوا عقولهم، وأغلقوا قلوبهم عن وظيفتها الحقيقية، فلم تعرف ربها، وما قدرته حق قدره.

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

والله سبحانه لم يترك عباده هملًا، بل عرفهم بأسمائه وصفاته، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠].

أي: لله الأسماء الحسنى التي هي أحسن الأسماء، لأنها تدل على معان حسنة، من

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ١٩٦.

(٢) التفسير الحديث، محمد عزت ٦/ ١٩٣.

تمجيد، وتقديس، وغير ذلك، فسموه بتلك الأسماء، ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾، أي: واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها، فيسمونه بغير الأسماء الحسنى، وبما لا يجوز عليه[1].

وقد بين القرآن الكريم الكثير من انحراف المشركين في أسماء الله تعالى وصفاته، ما حملهم على العدول عن عقيدة التوحيد والإشراك بالله تعالى، وبيان ذلك فيما يأتي:

❁ إنكار رسالة الرسل.

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ۝٩١﴾ [الأنعام: ٩١].

إن مدار القرآن على إثبات التوحيد والنبوة، فالله تعالى لما حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه أثبت التوحيد، وأبطل الشرك، ذكر بعده تقرير أمر النبوة، فقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ حين أنكروا النبوة والرسالة، وكل من أنكر النبوة والرسالة فهو في الحقيقة ما عرف الله حق معرفته[2]، لأن مقتضى ذلك أن الله ترك الناس هملًا، يفعلون ما يشاؤون، ثم بعد ذلك يعاقب المسيء.

❁ نسبة الولد لله.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٠٠ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١٠١﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠١].

وهذه الآية مشيرة إلى العادلين بالله، والقائلين : إن الجن تعلم الغيب، وكانت طوائف من العرب تفعل ذلك وتستجير بجن الأودية في أسفارها ونحو هذا، أما الذين ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ﴾ فاليهود في ذكر عزير والنصارى في ذكر المسيح، وأما ذاكرو البنات فالعرب الذين قالوا للملائكة: بنات الله[3]، وما حملهم أن ينسبوا لله الأولاد والبنات إلا جهلهم بصفة وحدانية الله عز وجل.

❁ نسبة الفواحش لله.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٢٨﴾ [الأعراف: ٢٨].

لما سئل المشركون عن سبب ارتكابهم المعاصي الفاحشة -والتي منها الطواف

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٨٠.
(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٢٧٤.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٢٩.

عرايا بالبيت- أجابوا بأنهم وجدوا عليها آباءهم، وأن الله أمرهم بذلك، وهم في ردهم الأولى صادقون وصادقون وإن كانوا غير محقين، وفي ردهم الثاني كاذبون، إذ كيف يأمر الله تعالى بها؟ والله لا يأمر بالفحشاء، بل يأمر بما فيه مصالح العباد، ثم قال تعالى ردا عليهم ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، فادعاؤهم بأن الله أمر بهذه القبائح والفواحش يدل على جهلهم بأسماء الله وصفاته والتي منها «القدوس»، وهذا الإلحاد بأسمائه مرده الجهل.

سادسًا: إهمال العقل وعدم التفكير في آيات الله:

إن الله تعالى جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان وظيفة، لأجلها خلق، فإن عجز عن أداء دوره، كان سقيمًا مريضًا، والعقل إنما خلق للتفكر والتدبر، وقيادة البدن نحو معرفة الله، وإلزام الجوارح هديه، فإن ضل العقل عن معرفة ربه، كان سقيمًا وقاد صاحبه نحو الضلال والغواية.

لذلك فإننا نرى أن الكثير من الآيات الكريمة التي تعدد آيات الله ونعمه في هذا الكون، غالبًا ما يعقبها الآيات التي تدعو الناس إلى عقيدة التوحيد ، وتندد بالمشركين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾

[البقرة: ١٦٤-١٦٥].

فلما نهضت الأدلة على وحدانية الله، وسطعت البراهين، وزاحت العلل والشكوك، عاب من عبد سواه، وفزع إلى غيره، ولما حاد من حاد عن التوحيد وعبد سواه بسبب تعطيله لنعمة التفكر، عقب الآية الأولى بقوله ﴿يَعْقِلُونَ﴾، فهؤلاء ناس ضلت عقولهم، وفالت آراؤهم، ويتبرأ بعضهم من بعض يوم ينكشف حجاب الغفلة عن سرادق العظمة، ويتجلى الجبار في صفة النقمة، فمن الناس من عقل تلك الآيات ، فآمن بربه وفني في حبه، ومنهم وهم من لا يعقل ، وهم من اتخذوا الأنداد[2].

وكذلك قوله تعالي: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٩٢.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٢/ ٣٠١.

﴿لَآيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩٤].

فأهل الإيمان والتوحيد، يهديهم إيمانهم إلى الإقرار بوحدانية الله، والتصديق بما جاءت به المرسلون، فيقرون أن الله تعالى لم يخلق ذلك عبثًا- وحاشاه-، فيتوددون له بطلب الرحمة والمغفرة، وتكفير السيئات، بخلاف من يجادلون في الله بغير علم، ومن يجهلون أسماءه ويلحدون في ذلك.

الرسل ومحاربة الشرك

إن من أهم أصول شريعة الإسلام وشرائع الأنبياء السابقين القضاء على الشرك ومحاربته وتصفية معاقله وإنهاء وجوده وآثاره بين الناس.

قال تعالى: ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧١ وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٧٢ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٧٣﴾ [الأنعام: ٧١-٧٣].

قال الزحيلي: «هذه حملة شديدة من الجدال والنقاش واللوم على الشرك والمشركين، والمعنى: قل أيها النبي في احتجاجك على المشركين: أنطيع رأيكم في أن نعبد من دون الله ما لا قدرة له على نفعنا ولا على ضرنا ؛ لأنها أصنام صماء جمادات لا حياة فيها ولا حركة، ثم نرد على أعقابنا إلى الشرك والكفر، بعد أن أنقذنا الله منه»[1].

(١) التفسير الوسيط ١/ ٥٦٩.

وتعتبر محاربة الشرك أساس دعوة الأنبياء في جميع عهود الرسالة السماوية؛ فالتوحيد في العبادة وتحطيم أغلال الشرك والوثنية كان من أهم التعاليم السماوية التي تحتل مكان الصدارة في رسالات الأنبياء عليهم السلام حتى كأن الأنبياء والرسل لم يبعثوا -أجمع- إلا لهدف واحد هو تثبيت دعائم التوحيد ومحاربة الشرك، لقد ذكر القرآن هذه الحقيقة بجلاء، على وجه الإجمال وعلى وجه التفصيل.

أولًا: على وجه الإجمال:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال أيضًا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وفي موضع آخر يصف القرآن الكريم التوحيد في العبادة بأنه الأصل المشترك بين جميع الشرائع السماوية إذ يقول: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٦٤﴾ [آل عمران: ٦٤].

فجميع الرسل كان أول وأهم ما دعوا إليه هو التوحيد، توحيد الله بالعبادة وتقواه وطاعته وطاعة رسله. يقول الإمام ابن أبي العز الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية: «اعلم أن التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله عز وجل، ولهذا كان الصحيح أن أول واجبٍ يجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله، لا النظر ولا القصد إلى النظر ولا الشك ،كما هي أقوال أرباب الكلام المذموم، بل أئمة السلف كلهم متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان ، فالتوحيد أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا»[(١)] .

ثانيًا: على وجه التفصيل:

❁ نوح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩﴾ [الأعراف: ٥٩].

❁ إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١٦﴾ [العنكبوت: ١٦].

❁ هود عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝٥٠﴾ [هود: ٥٠].

---

(١) شرح الطحاوية ، ابن أبي العز ص٢١.

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف: ٦٥].

- صالح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود: ٦١].

وقال تعالى أيضًا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [النمل: ٤٥].

- شعيب عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقال تعالى أيضًا: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [العنكبوت: ٣٦].

- عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله عليه السلام.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢].

- يعقوب عليه السلام.

قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣].

- يوسف عليه السلام.

قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

- سيد البشر وخاتم الأنبياء والرسل محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون: ١-٦].

وفي صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل إلى نحو أهل اليمن قال له: إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك،

فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا، فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة في أموالهم، تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم، فإذا أقروا بذلك فخذ منهم، وتوق كرائم أموال الناس)[1].

هذه هي دعوة الأنبياء والتي بذلوا من أجلها الغالي والنفيس، وتعاقبوا عليها على مر التاريخ.

يقول سيد قطب رحمه الله: «﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ فهي حقيقة واحدة يقوم عليها دين الله كله، ويتعاقب بها الرسل جميعًا على مدار التاريخ؛ فكل رسول يجيء إنما يقول هذه الكلمة لقومه الذين اجتالهم الشيطان عنها، فنسوها وضلوا عنها، وأشركوا مع الله آلهة أخرى - على اختلاف هذه الآلهة في الجاهليات المختلفة - وعلى أساسها تدور المعركة بين الحق والباطل، وعلى أساسها يأخذ الله المكذبين بها وينجي المؤمنين»[2].

أساليب القرآن في محاجة المشركين

المحاجة: وردت مادتها في القران الكريم في ثلاثة عشر موضعًا[3]، وهو قريب من الحوار والجدل، وقد فسر الجدال بالتحاج، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ [النساء: ١٠٧].

أي: لا تحاجج عن الذين يخونون أنفسهم[4].

ولقد اتبع القرآن العديد من الأساليب لإثبات وحدانيته، ومن هذه الأساليب:

أولًا: أسلوب الإدراك الحسي:

قدم القرآن العديد من الأدلة الكونية التي تثبت وجود الله ووحدانيته وتكشف عجز آلهتهم وضعفها، منها:

- دليل الخلق والإبداع.

لقد خلق الله هذا الكون وأبدع في خلقه، ومن إبداع خلق الله هو خلق الإنسان والسماوات، ويعتمد هذا الدليل على إثارة الفكر للتعرف على خالق الموجودات جميعها، والاستدلال بذلك على وحدانيته تعالى، وهو أول دليل تلفت الآيات النظر إليه[5].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، رقم ٧٣٧٢، ٩/ ١١٤.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٠٤.

(٣) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القران الكريم، عبد الباقي ١٩٣ - ١٩٤.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القران، القرطبي ٥/ ٣٧٨، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٥١١.

(٥) انظر: عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: ١١٦-١١٧].

فالخلق والإبداع دليل على وجود ووحدانية الله تعالى ، وهذه حقيقة لم ينكرها المشركون.

* دليل النظام الكوني.

إن النظام الكوني وما فيه من تقدير وإتقان، حجة أقامها القرآن الكريم في إثبات ألوهية الله وزيف ألوهية غيره؛ فوجود إله آخر مع الله تعالى أمر مستحيل عقلًا، وهناك أدلة كونية تفيد هذا.

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقال أيضًا: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: ٨٨].

قال ابن عاشور: «وجملة ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ تذييل أو اعتراض في آخر الكلام للتذكير والوعظ والتحذير، عقب قوله ﴿الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ لأن إتقان الصنع أثر من آثار سعة العلم ، فالذي بعلمه أتقن كل شيء هو خبير بما يفعل الخلق ، فليحذروا أن يخالفوا عن أمره»[1].

* دليل العناية الإلهية.

لقد حف الله هذا الكون بالرعاية الإلهية الكاملة الشاملة لكل أفراده ولو انعدمت لاختلت توازناته وكان مصيره الفناء، ويسمى هذا الدليل دليل النظام أو التناسق؛ لأنه ينطلق بنا ضمن الآيات الكونية ليوصلنا إلى أن الذي نظم الكون وربط أجزاءه بحيث يكمل بعضها بعضًا وقدر كل شيء فيه تقديرًا، هو الله الواحد الأحد، ومن الآيات القرآنية التي ورد فيها دليل العناية قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء: ٣١-٣٣][2].

ثانيًا: أسلوب البرهاني العقلي:

هذا الأسلوب يقوم على الاستدلال والتحليل والتركيب، ومن أبرز البراهين العقلية التي استخدمها القرآن هي البراهين البديهية.

قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥].

ملكاوي، ص ١٤٢.

(١) التحرير والتنوير ٢٠/ ٥١.
(٢) انظر: عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي، ص ١٤٧.

وقال تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور: ٣٦].

فالاحتمالات العقلية التي تشير لها الآيات في قضية الخلق احتمالان ونتيجة:

١. أن العدم أوجدهم، وهو احتمال باطل.

٢. أن بعض المخلوقات خلقت بعضها الآخر، وهو احتمال باطل

النتيجة: هي أن يكون هناك خالق متصف بالكمال، وهو الله.

ثالثًا: أسلوب التحدي وكشف حقائق الآلهة الزائفة:

من خلال هذا الأسلوب استخدم القران أسلوب التحدي في كشف حقائق الآلهة المزعومة، ولقد تحدى القران الآلهة المزعومة أن يكون لها أثر في الخلق والإيجاد، فمثلًا لقد خلق الله الإنسان وأبدع في خلقه، فما هو خلق هذه الآلهة.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۖ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف: ٤].

ولقد تحدى الله تعالى من يشكون في نزول القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم، بأن يأتوا بمثل القرآن، أو عشر سور، أو سورة، فعجزوا عن ذلك، قال تعالى:

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨][(١)].

(١) انظر: المصدر السابق.

أحكام تتعلق بالمشركين في القرآن

لقد فرض الله أحكامًا على عباده المؤمنين تنظم حياتهم وشؤونهم مع من حولهم من المؤمنين وحتى المشركين، وفي هذا المبحث سيتناول الباحث أحكام التعامل مع المشركين في النكاح، والمعاملات المالية، والسلم والحرب، والبر والقسط، بل والاستغفار لهم.

أولًا: النكاح:

لقد حرم الله تعالى نكاح المشركات حيث قال: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة: ٢٢١].

ويقصد بالمشركة في هذه الآية الوثنية، قال الطبري: «إن الله تعالى ذكره عنى بقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ من لم يكن من أهل الكتاب من المشركات، وأن الآية عام ظاهرها خاص باطنها، لم ينسخ منها شيء، وأن نساء أهل الكتاب غير داخلات فيها، وذلك أن الله تعالى ذكره أحل بقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]. للمؤمنين من نكاح محصناتهن، مثل الذي أباح لهم من نساء المؤمنات»[١].

وقال ابن كثير: «هذا تحريم من الله عز وجل على المؤمنين أن يتزوجوا من المشركات من عبدة الأوثان ، ثم إن كان عمومها مرادًا وأنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ﴾ [المائدة: ٥]»[٢].

وعليه فنساء أهل الكتاب حل للمسلمين لما جاء القرآن بتخصيصهن من عموم المشركين والكفار، فيجوز التزوج بهن، ولكن بشرط أن تكون عفيفة، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ [المائدة: ٥].

روي عن الحسن والشعبي وإبراهيم والسدي أنهم العفائف[٣].

---

(١) جامع البيان ٤/ ٣٦٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٧٤.
(٣) انظر: أحكام القرآن، الجصاص،٣/ ٣٢٣.

ثانيًا: المعاملات المالية:

أمر الإسلام أتباعه أن يتعاملوا مع غير المسلمين معاملة قائمة على الرفق والسهولة والسماحة في جميع أمور الحياة وشؤونها؛ من البيع والشراء، والأجرة والكراء؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (**رحم الله رجلًا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى**)[1].

وهذا النص يشمل التعامل مع المسلم وغير المسلم، وفيه الحض على السماحة في المعاملة واستعمال مكارم الأخلاق، وترك المشاحنة، والحض على ترك التضييق على الناس في المطالبة، وأخذ العفو منهم[2].

وعن عبدالرحمن بن أبي بكر رضى الله عنهما قال: (**كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم جاء رجل مشرك مشعان طويل بغنم يسوقها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بيعًا أم عطية، أو قال: أم هبة؟ فقال: لا، بيع، فاشترى منه شاة**)[3].

وعند ابن قدامة: إذا ركب القوم في البحر، فاستقبلهم فيه تجار مشركون من أرض العدو ويريدون بلاد الإسلام، لم يعرضوا لهم، ولم يقاتلوهم، وكل من دخل بلاد المسلمين من أرض الحرب بتجارة بويع، ولم يسأل عن شيء[4]، فلغير المسلمين حرية العمل والكسب، بالتعاقد مع غيرهم، أو بالعمل لحساب أنفسهم، ومزاولة ما يختارون من المهن الحرة، ومباشرة ما يريدون من ألوان النشاط الاقتصادي، شأنهم في ذلك شأن المسلمين.

وكان صلى الله عليه وسلم يعامل مخالفيه من غير المسلمين في البيع والشراء والأخذ والعطاء، فعن عائشة رضى الله عنها قالت: (**توفى النبي صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين، يعني: صاعًا من شعير**)[5].

فقد قرر الفقهاء أن أهل الذمة، في البيوع والتجارات وسائر العقود والمعاملات المالية، كالمسلمين، ولم يستثنوا من ذلك إلا عقد الربا؛ فإنه محرم عليهم كالمسلمين، يتمتع الذميون بتمام حريتهم، في مباشرة التجارات والصناعات والحرف المختلفة، وهذا ما جرى عليه الأمر، ونطق به تاريخ المسلمين في شتى الأزمان[6].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع، رقم ٢٠٧٦، ٣/ ٥٧.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٤/ ٣٠٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب الشراء والبيع مع المشركين وأهل الحرب، رقم ٢٢١٦، ٣/ ٨٠.

(٤) انظر: المغني، ابن قدامة ٩/ ٢٤٧.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي صلى الله عليه وسلم، ٤/ ٤١، رقم ٢٩١٦.

(٦) انظر: التعامل مع الآخر، إبراهيم المزيني، ص ١٠٩.

ويجوز الوقف عليهم أو وقفهم على المسلمين، قال ابن القيم: أما وقف المسلم عليه - على أهل الذمة - فإنه يصح منه ما وافق حكم الله ورسوله، فيجوز أن يقف على معين منهم، أو على أقاربه، وبني فلان ونحوه[1].

ثالثًا: السلم والحرب:

لقد حفلت نصوص القرآن ومواقف السيرة النبوية بما يدل على أن الإسلام يؤثر دائمًا السلام، حتى مع خصومه من المشركين، ومن أدلة ذلك أن القرآن الكريم أورد كلمة السلم بمشتقاتها مئة وأربعين مرةً، في حين ذكرت الحرب بمشتقاتها ست مرات فقط.

والفرق بين العددين هو الفرق بين نظرة الإسلام إلى كلا الأمرين، ومن ثم في ميل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كل منهما؛ ففي معظم أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبحث عن الطرق السلمية والهادئة للتعامل مع المخالفين له، ويحرص على تجنب الحرب ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

ويؤكد هذا النظرة العديد من الآيات التي أمرت بالسلم مع غير المسلمين إن أبدى هؤلاء الاستعداد والميل للصلح والسلام، فيقول الله تعالى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنفال: ٦١].

وفيما يلي تفصيل موقف المسلمين مع المشركين في السلم والحرب.

١ . موقف الإسلام من غير المسلمين في حال السلم.

يقف الإسلام من غير المسلمين في حال السلم موقف الأمان، بل إنه لم ينه عن البر بهم ما داموا لم يقاتلوا المسلمين، وإنما ينهى عن البر بالذين قاتلوا المسلمين في دينهم ، وأخرجوهم من ديارهم ، وظاهروا على إخراجهم.

قال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة: ٨-٩].

قال الطبري: «فأذن الله للمؤمنين ببرهم والإحسان إليهم»[2].

ولقد دعا الإسلام إلى توثيق العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين بحل التزاور والمؤاكلة معهم ، وهي لا تكون إلا بين الأصدقاء والمتحابين.

قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ

(١) انظر: أحكام أهل الذمة ١/ ٦٠٣.

(٢) جامع البيان ٢٣/ ٣٢٢.

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ [المائدة: ٥].

ولقد عاش المسلمون مع النصارى واليهود في تسامح وأمن، يتمتع غير المسلمين في بلاد الإسلام بكافة الحقوق في التعليم، والعمل، والعبادة على أكمل وأتم وجه، وهذا هو الطريق الذي سلكه الإسلام لتنظيم حالة السلم[(١)].

ونهى القرآن الكريم عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، فقال الله سبحانه: ﴿۞ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت: ٤٦].

بل أمر بجمع الكلمة بينهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

كما أمر الإسلام بالوفاء بالعهد معهم، قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [التوبة: ٤].

بل لو طلب المشرك من المسلم أن يجيره فعليه أن يجيره، بل ويبلغه مأمنه، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [التوبة: ٦].

قال النسفي: «وفيه دليل على أن المستأمن لا يؤذى ، وليس له الإقامة في دارنا ، ويمكن من العود»[(٢)].

٢ . موقف الإسلام من غير المسلمين في الحرب.

إن الإسلام هو دين السلام، لا يأمر بالحرب إلا في الضرورة القصوى التي تستدعي الدفاع والجهاد في سبيل الله، ومع مشروعية الجهاد في سبيل الله دفاعًا عن الدين والعقيدة والأرض والعرض، فإن الحرب في الإسلام لها حدود وضوابط، وللمسلمين أخلاقهم التي يتخلقون بها حتى في حربهم مع من يحاربهم من غير المسلمين.

فأمر الإسلام بالحفاظ على أموال الغير، ويترك الرهبان في صوامعهم دون التعرض لهم، ونهى الإسلام عن الخيانة والغدر والغلول، كما نهى عن التمثيل بالقتلى، وعن قتل الأطفال والنساء والشيوخ، وعن حرق النخيل والزروع، وقطع الأشجار المثمرة.

---

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ١٤.

(٢) مدارك التنزيل ١/ ٦٦٥.

وأوصى أبو بكر الصديق رضي الله عنه أسامة بن زيد عندما وجهه إلى الشام بالوفاء بالعهد وعدم الغدر أو التمثيل، وعاهد خالد بن الوليد أهل الحيرة ألا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة ولا قصرًا، ولا يمنعهم من أن يدقوا نواقيسهم أو أن يخرجوا صلبانهم في أيام أعيادهم[1].

ومن توجيهات الإسلام للمسلمين في الحرب:

- أن يكون القتال في سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤٤].
- أن يكون القتال لمن يقاتلون المسلمين، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].
- عدم الاعتداء، قال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: ١٩٠]. فالذين يعتدون على المسلمين ويقاتلونهم أمر المسلمون أن يقاتلوهم، ولكنه قتال عادل بمعنى ألا يمثلوا بأحد وبلا تعذيب، حيث قال الله تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة: ١٩٤]. أما الذين لا يقاتلون من غير المسلمين فكان النبي صلى الله عليه وسلم ينهى عن قتالهم؛ فعن سليمان بن بريدة، عن أبيه، قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميرا على جيش، أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرا، ثم قال: اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا)[2].

رابعًا: البر والقسط:

أمر الله تعالى عباده المؤمنين ببر غير المسلمين والإحسان إليهم: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: ٨].

أمر الله تعالى بالتعامل بالحسنى والمعروف والعدالة والإنصاف مع كل شخص لم يعاد المسلمين، أيًا ما كانت عقيدته، ومن هذه الآية أوجبت حقوق كثيرة

---

(١) انظر: الخراج، القاضي أبو يوسف، ص ١٥٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المغازي، باب وصية أمراء الجيش، رقم ٤٥٤٢، ٥/ ١٣٩.

لغير المسلمين على المسلمين[1].

وهي قاعدة عريضة في معاملة غير المسلمين، فهي تتفق مع طبيعة هذا الدين ووجهته ونظرته إلى الحياة الإنسانية، بل نظرته الكلية لهذا الوجود، الصادر عن إله واحد، المتجه إلى إله واحد، المتعاون في تصميمه اللدني وتقديره الأزلي من وراء كل اختلاف وتنويع[2].

وقد أوجب الله على المسلمين بر الوالدين والإحسان إليهما ولو كانا مشركين.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقال أيضًا: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٨].

قال ابن كثير: يقول تعالى آمرا عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق.

ولهذا قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٣][3].

كما أمر الإسلام المسلمين أن يؤتوا ذوي القربى والمساكين وأبناء السبيل حقوقهم ولو كانوا غير مسلمين.

قال تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٦].

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت: (قدمت علي أمي وهي مشركة، في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستفتت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله، إن أمي قدمت علي وهي راغبة، أفأصلها، قال: نعم، صليها)[4]، وأنزل الله تعالى فيها: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة: ٨][5].

ولقد بين القرآن الكريم أنه لا يصح ولا يجوز الاستغفار للمشركين بعد إصرارهم على الشرك وموتهم على ذلك، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى

(١) انظر: إعلام الموقعين، ابن القيم ٣/ ٣.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٤٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٦٤.
(٤) مدارك التنزيل ١/ ٦٦٥.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٢٢.

قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ [التوبة: ١١٣].

قال الطبري: ما كان ينبغي للنبي محمدٍ صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا به أن يدعوا بالمغفرة للمشركين، ولو كان المشركون الذين يستغفرون لهم ذوي قرابة لهم من بعد ما ماتوا على شركهم بالله وعبادة الأوثان، وتبين لهم أنهم من أهل النار، لأن الله قد قضى أن لا يغفر لمشرك، فلا ينبغي لهم أن يسألوا ربهم أن يفعل ما قد علموا أنه لا يفعله[1].

عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: (لما حضرت أبا طالب الوفاة، دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال: أي عم ، قل : لا إله إلا الله ،كلمة أحاج لك بها عند الله عز وجل؛ فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب، فقال: أنا على ملة عبد المطلب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لأستغفرن لك ما لم أنه عنك؛ فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ [التوبة: ١١٣])[2].

وفي رواية أخرى فنزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ [القصص: ٥٦][3].

وهذا لا يتعارض مع استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ [التوبة: ١١٤].

دل القرآن على أن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه، قال تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ [الشعراء: ٨٦].

وقال أيضًا: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [نوح: ٢٨].

وقال تعالى حكاية عنه في سورة مريم قال: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ [مريم: ٤٧].

وقال أيضا: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقد ثبت أن الاستغفار للكافر لا يجوز. فكيف يجوز لإبراهيم ذلك؟؟.

أجاب الرازي عن هذه المسألة فقال: واعلم أنه تعالى أجاب عن هذا الإشكال أن فيه قولين: الأول: أن يكون الواعد أبا إبراهيم عليه السلام، والمعنى: أن أباه وعده

(١) انظر: جامع البيان ١٤/ ٥٠٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم ٤٦٧٥، ٦/ ٦٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء)، رقم٤٧٧٢، ٦/ ١١٢.

أن يؤمن، فكان إبراهيم عليه السلام يستغفر له لأجل أن يحصل هذا المعنى، فلما تبين له أنه لا يؤمن وأنه عدو لله تبرأ منه، وترك ذلك الاستغفار. الثاني: أن يكون الواعد إبراهيم عليه السلام، وذلك أنه وعد أباه أن يستغفر له رجاء إسلامه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، والدليل على صحة هذا التأويل قراءة الحسن (وعدها أباه) بالباء[(١)].

عداوة المشركين للمسلمين

إن عداوة المشركين والكفار واليهود للإسلام والمسلمين مستمرة إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: ٨٢].

وعداوتهم تتمثل في كراهية الخير لهم، والصد عن الإسلام ومحاربته، وإيذاء المسلمين حيث كانوا وبشتى الطرق، وفيما يلي تفصيل ذلك.

أولًا: كراهة الخير للمسلمين:

أخبر الله عن شدة عداوة الكفار للمسلمين بقوله: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة: ١٠٥].

قال ابن كثير: «يبين بذلك تعالى شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين، الذين حذر تعالى من مشابهتهم للمؤمنين؛ ليقطع المودة بينهم وبينهم»[(٢)].

قال البيضاوي: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ نزلت تكذيبًا لجمع من اليهود يظهرون مودة المؤمنين، ويزعمون أنهم يودون لهم

(١) انظر: مفاتيح الغيب ١٦/ ١٥٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٧٥.



الخير»[1].

والكفار مهما عملوا فعداوتهم لا تنقطع، فهم وإن نطقت ألسنتهم بالموادعة، فإن قلوبهم تأبى إلا الغدر والكيد للإسلام وأهله.

قال تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [التوبة: ٨].

قال المراغي: «كيف يكون للمشركين غير هؤلاء الذين جربتم وفاءهم عهد مشروع عند الله مرعى الوفاء وعند رسوله وحالهم المعروفة من أخلاقهم وأعمالهم أنهم إن يظهروا عليكم في القوة والغلب، لا يرقبوا الله ولا القرابة في نقض العهد والميثاق»[2].

ويلفتنا الشعراوي إلى نكتة عظيمة، فيقول: «نلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى لم يقل : كيف يكون للمشركين عهد، بل اكتفى بـ (كيف)، لأن غدرهم صار معروفا، وكانت «كيف» الأولى استفهاما عن أمر مضى»[3].

والمنافقون حالهم حال المشركين، فهم كفار بين المسلمين، فالبغضاء تبدو من أفواههم، والحقد يملأ قلوبهم، ولكن

(١) أنوار التنزيل ١/ ٩٩.
(٢) تفسير المراغي ١٠/ ٦٢.
(٣) تفسير الشعراوي ٨/ ٤٩٠٠.

الله لهم بالمرصاد، كما قال سبحانه: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران: ١٢٠].

قال الطبري: «إن تنالوا، أيها المؤمنون، سرورًا بظهوركم على عدوكم، وتتابع الناس في الدخول في دينكم، وتصديق نبيكم ومعاونتكم على أعدائكم يسؤهم، وإن تنلكم مساءة بإخفاق سرية لكم، أو بإصابة عدوٍ لكم منكم، أو اختلاف يكون بين جماعتكم، يفرحوا بها»[4].

ثانيًا: الصد عن الإسلام:

لقد تجلت عداوة المشركين للإسلام والمسلمين في الصد عن سبيل الله، وسبيل الله هنا بمعنى (اتباع الرسل)، فهؤلاء الكفار لا يكتفون برفض دعوة الرسل لهم ، ولكنهم يصرفون الناس عن اتباع ما جاءت به الرسل، وهذا الصد يكون بالرفض تارة ، وبالإكراه تارة ، وبالتهديد تارة ، وبالتشويه والتحريف تارة ، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾

(٤) جامع البيان ٧/ ١٥٥.

[الأعراف: ٨٦].

ولما كان دأب هؤلاء هو التشهير بالدعوة والدعاة فقد رد عليهم القرآن بمثل ما فعلوا، فشهر الله تعالى بهم وفضحهم على رؤوس الأشهاد، وبين أنهم معادون لمولاهم ومعادون للحق ومعادون لأنفسهم في اعتراض دعوة الرسل وتنفير الناس منها، ولقد ذكر الله تعالى أمثال هؤلاء في غير موضع من القرآن، فهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران: ٩٩].

فكان جزاء هؤلاء من جنس عملهم ولبئس ما عملوا.

وهؤلاء المشركون ينفقون أموالهم في سبيل غاياتهم اللعينة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال: ٣٦].

قال الطبري: «إن الذين كفروا بالله ورسوله ينفقون أموالهم، فيعطونها أمثالهم من المشركين ليتقووا بها على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به، ليصدوا المؤمنين بالله ورسوله عن الإيمان بالله ورسوله»[١].

ولا يألوا المشركون جهدًا في سبيل صدهم عن سبيل الله أن يردوا من آمن عن إيمانه فضلًا عن منعه من دخول الدين.

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة: ١٠٩].

يقول ابن كثير: «يحذر تعالى عباده المؤمنين من سلوك طرائق الكفار من أهل الكتاب، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم»[٢].

ولقد توعد الله الصادين عن سبيله من المشركين والكفار بالعذاب الشديد.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨].

قال الزمخشري: «الذين كفروا في أنفسهم، وحملوا غيرهم على الكفر: يضاعف الله عقابهم كما ضاعفوا كفرهم. وقيل: في زيادة عذابهم حيات أمثال البخت

(١) المصدر السابق ١٣/ ٥٢٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٨٢.

وعقارب أمثال البغال ، تلسع إحداهن اللسعة فيجد صاحبها حمتها أربعين خريفا. وقيل: يخرجون من النار إلى الزمهرير، فيبادرون من شدة برده إلى النار بما كانوا يفسدون بكونهم مفسدين الناس بصدهم عن سبيل الله»[١].

ثالثًا : إيذاء المسلمين:

لقد انتهج المشركون سياسة الإيذاء للنبي صلى الله عليه وسلم، ولصحابته الكرام من بعده، ولمن تبعهم إلى يومنا هذا، بل لكل مسلم إلى قيام الساعة؛ فهذا هو ديدنهم مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فهذه الآية تدل بوضوح على ذلك؛ فهي بيان لشدة عداوة الكفار للمؤمنين ودوامها، أي: ولا يزال المشركون يقاتلونكم أيها المؤمنون ويضمرون لكم السوء ويداومون على إيذائكم لكي يرجعوكم عن دين الإسلام إلى الكفر إن استطاعوا ذلك وقدروا عليه، والتعبير بقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ يفيد الدوام والاستمرار للإشعار بأن عداوة المشركين للمسلمين لا تنقطع، وأنهم لن يكفوا عن الإعداد لقتالهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، فعلى المؤمنين ألا يغفلوا عن الدفاع عن أنفسهم، و﴿حَتَّىٰ﴾ للتعليل ،أي: لا يزالون يقاتلونكم لكي يردوكم عن دينكم أو بمعنى إلى، أي: إلى أن يردوكم عن دينكم. والرد: الصرف عن الشيء والإرجاع إلى ما كان عليه قبل ذلك: فغاية المشركين أن يؤذوا المسلمين بردهم بعد إيمانهم كافرين.

إن إيذاء المسلمين ورد فيه وعيد شديد وعقوبة أخروية.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧-٥٨].

قال البيضاوي: «إن الذين يؤذون الله ورسوله يرتكبون ما يكرهانه من الكفر والمعاصي، أو يؤذون رسول الله بكسر رباعيته وقولهم : شاعر مجنون ، ونحو ذلك»[٢].

وقال ابن عاشور: «والمراد بالأذى: أذى القول بقرينة قوله: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا﴾ لأن البهتان من أنواع الأقوال ، وذلك تحقير لأقوالهم، وأتبع ذلك التحقير بأنه إثم

(١) الكشاف ٢/ ٦٢٧.

(٢) أنوار التنزيل ٤/ ٢٣٨.

مبين. والمراد بالمبين: العظيم القوي، أي: جرما من أشد الجرم، وهو وعيد بالعقاب عليه»[1].

لقد آذى المشركون صحابة رسول الله، واعتدوا عليهم، وخاصةً من الفقراء والأرقاء، ومن لا نصير لهم، وفتنوهم وعذبوهم، ما بين محبوس ومعذب أو مطارد وملاحق، ومنهم من لقي الله شهيدًا.

عن عبد الله بن مسعود قال: (**كان أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، وألبسوا أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم أحد إلا وآتاهم على ما أرادوا، إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأخذوه، فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد**)[2].

عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم: (**مر بعمار بن ياسر وبأهله وهم يعذبون في الله، فقال: أبشروا آل ياسر، موعدكم الجنة**)[3].

عن خباب بن الأرت قال: (**أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برده في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة شديدة، فقلت: يا رسول الله، ألا تدعو الله لنا؟ فقعد وهو محمرٌ وجهه فقال: إن كان من كان قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه، فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**)[4].

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ١٠٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٦/ ٣٨٢، رقم ٣٨٣٢، وابن ماجه في المقدمة، باب فضل سلمان وأبي ذر والمقداد، ١/ ٥٣، رقم ١٥٠. وحسنه الألباني في التعليقات الحسان، ١٠/ ١٧٢.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط، ٢/ ١٤١، رقم ١٥٠٨، والحاكم في المستدرك، ٣/ ٣٨٨. قال الحاكم: صحيح على شرط البخاري ومسلم ولم يخرّجاه، ولم يتعقبه الذهبي.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم ٣٦١٢، ٤/ ٢٠١.

الشرك في المثل القرآني

ضرب الأمثال للناس أسلوب قرآني، اعتمده القرآن لتقريب الحقائق، للتفريق بين ما هو حق فيتبعوه، وما هو باطل فيجتنبوه، وللتمييز بين ما هو خير فيتمسكوا به، وما هو شر فيبتعدوا عنه، فقد ذكر القرآن أمثال أهل الخير وأهل الشر، وأمثال أهل الحق وأهل الباطل، وأمثال أهل التوحيد وأهل الشرك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الزمر: ٢٧].

وقال أيضًا: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].

فالأمثال جزءٌ من البيان الإلهي، تسهم في إبراز الحقائق الإيمانية من خلال أسلوبها المتميز الفعال في تشخيص الحقائق والإقناع، والفصل عند الاشتباه والخلاف، وخاصة قضايا الإيمان التي وقع فيها الخلاف؛ كالأصول التي ينبني عليها الإيمان بالله، وأسباب الهدى والضلال، وتوحيد الألوهية وما يضاده من الشرك، والبعث بعد الموت، وحقيقة الأنبياء والأولياء، وأن ليس لهم ولا فيهم من خصائص الألوهية شيء، وحال الدنيا وسرعة زوالها، وسوء عاقبة الاغترار بها، ونحو ذلك من القضايا الهامة[1].

ومن الأمثال القرآنية التي ضربها الله للناس مثالًا لأهل التوحيد وأهل الشرك، قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: ٢٩].

ووجه التمثيل أن الله شبه حال المشرك الذي يعبد آلهة متعددة، بحال عبد له أكثر من سيد يخدمه ويطيعه، فكل واحد منهم يأمره بما لا يأمره به الآخر، فبعضهم يقول له: افعل، وبعضهم يقول له: لا تفعل؛ وبعضهم يقول له: أقبل، وبعضهم يقول له: لا تقبل؛ فهو حائر في أمرهم، لا يدري أيهم يرضي، فإن أرضى هذا أغضب ذاك، فهو لأجل هذه الحال يعيش في عذاب دائم، وتعب مستمر، أما مثل حال المؤمن الموحد فقد شبهه سبحانه بحال العبد الذي يعمل تحت إمرة سيد واحد، فلا أمر لأحد عليه إلا أمر ذلك السيد، ولا نهي ، لأحد عليه إلا نهي ذلك السيد، فهو مطيع له على كل حال، وهو ساع لكسب وده ونيل رضاه من غير ملال. ثم هو غير مشتت الهوى، ولا مبعثر القوى؛ لأن وجهته واحدة غير متعددة، ومقصوده واحد غير متناقض[2].

(١) انظر: الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله، عبد الله الجربوع ١/ ١٢.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص

أراد الله من هذا المثل بيان حال من يعبد آلهة متعددة، فإن أولئك الآلهة تكون متنازعة متغالبة، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقال سبحانه: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩١].

فيبقى ذلك المشرك متحيرًا ضالًا، لا يدري أي هؤلاء الآلهة يعبد، يدعو هذا ثم يدعو ذاك، لا يستقر له قرار، ولا يطمئن قلبه في موضع، فهو حائر مشتت القلب والذهن؛ بخلاف الموحد فهو في راحة تامة وطمأنينة كاملة. وهكذا سنة الحياة جارية على أن تعدد الرؤساء يفسد الأمر، ويشتت السعي.

قال الرازي: «وهذا مثل ضرب في غاية الحسن في تقبيح الشرك وتحسين التوحيد»[(١)].

إذ المقصود من ضرب هذا المثل إقامة الحجة على المشركين، وتعنيفهم لأجل مواقفهم الرافضة للاعتراف بالواحد الأحد، وكشف سوء حالتهم في الإشراك.

وضرب الله سبحانه وتعالى مثلًا آخر للتوحيد والشرك، فقد مثل التوحيد بالشجرة الطيبة، والشرك بالشجرة الخبيثة ، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٦].

شبه سبحانه وتعالى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) بالشجرة الطيبة ، وهي النخلة الضاربة جذورها في أعماق التربة وفروعها مرتفعة في السماوات، والكلمة الخبيثة ، وهي الشرك ، كالشجرة الخبيثة ، وهي الحنظلة إذا استؤصلت، فلم يبق لها أثر ولا أصل في الأرض، وقد ورد عن ابن عباس، وبه قال جمهور المفسرين أن الكلمة الطيبة هي لا إله إلا الله في قلب المؤمن، وأن الكلمة الخبيثة هي كلمة الكفر[(٢)].

وفي هذا التشبيه حكم بليغة وأسرار كثيرة؛ لأن الشجرة لا بد لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر ، فكذلك شجرة الإيمان والتوحيد، ليطابق المشبه بالمشبه به، فشجرة التوحيد عروقها الثابتة: العلم والمعرفة واليقين، وساقها: الإخلاص لله، وفروعها: الأعمال الصالحة، وثمرها: الأخلاق الحميدة الزكية، فإذا كانت هذه

(١) مفاتيح الغيب ٢٦/ ٤٥١. ٧٢٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٩١.

الأمور مطابقة لأمر الله بأن يكون العلم موافقًا لمعلومه الذي أنزل الله به كتابه، وكان الاعتقاد مطابقًا لما أخبر الله به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله، وكان الإخلاص قائمًا في القلب، والأعمال موافقة للشرع، علم أن شجرة التوحيد في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء، وإن كان الأمر بالعكس علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فكما أن هذه الشجرة الخبيثة ليس لها أصل ثابت، ولا فرع ثابت، ولا فائدة فيها، فكذلك الشرك ليس له أصل يأخذ به المشرك ولا برهان، ولا يقبل الله مع الشرك عملًا، ولا يصعد إلى الله، فليس له أصل في الأرض ولا فرع في السماء[1].

ومنها قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت: ٤١].

فذكر سبحانه أنهم ضعفاء وأن الذين اتخذوهم أولياء، أضعف منهم، فهم في ضعفهم وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت اتخذت بيتًا، وهو أوهن البيوت وأضعفها، ويفيد هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حيث اتخذوا من دون الله أولياء، فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء إلا ضعفًا، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ [مريم: ٨١].

وقال أيضًا: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨٢].

وقال أيضًا: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [يس: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس: ٧٥].

وقال بعد أن ذكر هلاك الأمم المشركين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ [هود: ١٠١].

فهذه مواضع في القرآن تدل على أن من اتخذ من دون الله وليا يتعزز به ويتكثر به ويستنصر به لم يحصل له به إلا ضد مقصوده، وفي القرآن أكثر من ذلك، وهذا من أحسن الأمثال وأدلها على بطلان الشرك وخسارة صاحبه وحصوله على ضد مقصوده[2].

(١) انظر: إعلام الموقعين، ابن القيم ١/ ١٦٧.

(٢) انظر: الأمثال في القرآن، ابن القيم، ص ١٣.

الآثار المترتبة على الشرك

إن التوحيد ما فطر الله عليه الإنسان السوي، وهو الذي يستقيم به الكون وحياة الإنسان، بينما الشرك الذي يقع فيه الإنسان له آثاره الوبيلة في دنياه وآخرته، سواء أكان الواقع فيه فردًا أم جماعة، وفيما يلي تفصيل ذلك.

أولًا: الآثار المترتبة على الشرك في الدنيا:

١ . فقد الطمأنينة والأمن.

فالمشرك لا يتمتع بالطمأنينة التي يتمتع بها المؤمن؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد: ٢٨]. فشركه أفقده طمأنينته.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام: ٨٢].

٢ . العقوبة العاجلة في الدنيا.

فالمشرك قد تعجل له العقوبة في الدنيا؛ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢﴾ [النحل: ١١٢].

٣ . الاضطراب والتشتت.

فالمشرك يضطرب بين المعبودات وتتشتت به الأهواء بينما الموحد يعرف من يعبد، والطريق إليه طريق واحد.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

٤ . القضاء على عزة النفس.

فالمشرك يذل لجميع طواغيت الأرض كلها؛ لأنه يعتقد أنه لا معتصم له إلا هم، فيذل ويخضع لمن لا يسمع ولا يرى، ولا يعقل، فيعبد غير الله، ويذل له، وهذا غاية الإهانة، أما العزة الحقيقة هي التي تستمد من الإيمان بالله الواحد.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

٥ . الشرك أعظم الظلم والافتراء.

فمن أشرك فقد ظلم نفسه.

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: ١٣].

بل وافترى إثمًا عظيمًا.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

٦ . الانحراف عن غاية الخلق.

فقد خلق الله الإنس والجن للعبادة.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا

﴿لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦][1].

ثانيًا: الآثار المترتبة على الشرك في الآخرة:

٧. خسارة الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١١].

٨. خسارة أهله مع نفسه.

قال تعالى: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥].

٩. براءة الله ورسوله.

قال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٣].

١٠. الشرك الأكبر لا يغفره الله إذا مات صاحبه قبل التوبة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

١١. محبط لجميع الأعمال.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقال أيضًا: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

١٢. يوجب النار لصاحبه ويحرم عليه الجنة.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

١٣. خلود صاحبه في النار.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ [البينة: ٦][2].

موضوعات ذات صلة:

الإخلاص، الإلحاد، الأوثان، التوحيد، الرياء، الضلال

---

(١) انظر: الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله، عبد الله الجربوع ١/ ١٢.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٧٢٤.



شُعَيبٌ عليه السلام

عناصر الموضوع



التعريف بشعيب عليه السلام

أولًا: اسمه ونسبه:

هو نبي الله شعيب عليه السلام، وشعيب تصغير شعب أو شعب بكسر الشين وفتحها[1].

وقيل: هو اسم مرتجل، وهو ابن نويلى أو نويب بن رعويل بن عيفا بن مدين : ومدين هو ابن إبراهيم عليه السلام[2].

وقد اختلف المفسرون في الذي زوج ابنته موسى عليه السلام، فبينما يرى جمع أنه ليس هو شعيب النبي ، ويجزم ابن عاشور بأنه هو ، وأن موسى قد تزوج ابنته المسماة صفوره[3].

وإلى مثله ذهب الدكتور عبد الكريم زيدان حيث قال: (أرسل الله تعالى رسوله شعيبا إلى مدين، ثم استشهد بقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ ﴾ [القصص: ٢٣].

وقال: وهم أصحاب الأيكة، فدعاهم شعيب عليه السلام إلى عبادة الله وحده)[4].

وهذا فيه نظر ؛ فإن موسى قد جاء بعد شعيب عليهما السلام بعشرات السنين[5].

وقد فصل الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى هذه المسألة في رسالة خاصة بقصة شعيب عليه السلام، فبعد أن نقل الأقوال عن كتب التفسير وغيرها قال: فهذه كتب التفسير التي تروي بالأسانيد المعروفة عن النبي صلى الله عليه وسلم والتابعين لم يذكر فيها عن أحد أنه شعيب النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن نقلوا بالأسانيد الثابتة عن الحسن البصري أنه قال:

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢٤٨.

(٢) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ٤٠٧ ذكر أولاد إبراهيم الخليل عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، ونقل عن محمد بن إسحاق أنه شعيب بن ميكيل بن يشجر، قال: واسمه في السريانية : يثرون.
انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٧٠.
وذهب إلى هذا الدكتور أحمد الكبيسي في كتابه القصص القرآني ص ١١١ حيث قال: إنه الابن الرابع لإبراهيم عليه السلام وقد تزوج مدين من ابنة لوط عليه السلام فكثر الله نسله.
وقد شكك الدكتور فضل عباس رحمه الله تعالى في كون مدين ابنا لإبراهيم عليه السلام، وقال ص ٤٥٤ في كتابه قصص القرآن: إن القضية تحتاج إلى تحقيق تأريخي، لذا فإني لا أستريح إلى ما رجحه صاحب المنار رحمه الله، لكني لا أجزم برأي؛ لأن الجزم يحتاج إلى تحقيق، وذكر بأن إبراهيم قد رزق إسماعيل وإسحاق عليهم السلام على كبر، فمتى تزوج هذه المرأة، وولدت له هذا العدد من الأولاد؟ أقول: وقد نقله رشيد رضا عن الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات كما سيأتي.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ٢/ ٢٤٠/ ٨.

(٤) انظر: المستفاد ١/ ٢٣٧.

(٥) انظر: القصص القرآني، الخالدي ص ١١.



يقولون : إنه شعيب ، وليس بشعيب ، ولكنه سيد الماء يومئذٍ[(١)] .

فالحسن يذكر أنه شعيب عمن لا يعرف ، ويرد عليهم ذلك ، ويقول : ليس هو شعيب، وإن كان الثعلبي قد ذكر أنه شعيب فلا يلتفت إلى قوله ؛ فإنه ينقل الغث والسمين[(٢)] .

فمن جزم بأنه شعيب النبي فقد قال : ما ليس له به علم وما لم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن الصحابة ولا عمن يحتج بقوله من علماء المسلمين ،وخالف في ذلك ما ثبت عن ابن عباس والحسن البصري ، مع مخالفته أيضًا لأهل الكتابين، فإنهم متفقون على أنه ليس هو شعيب النبي، فإن ما في التوراة التي عند اليهود والإنجيل الذي عند النصارى أن اسمه يثرون، وليس لشعيب النبي عندهم ذكر في التوراة.

وقد ذكر غير واحد من العلماء أن شعيبًا كان عربيًا، بل قد روي عن أبي ذر مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم رواه أبو حاتم وغيره: (أن شعيبًا كان عربيًا، وكذلك هود وصالح)[(٣)] .

وموسى كان عبرانيًا، فلم يكن يعرف لسانه، وظاهر القرآن يدل على مخاطبة موسى للمرأتين وأبيهما بغير ترجمان[(٤)] .

وذكر القرطبي أن اسم شعيب بالسريانية بيروت، ونقل أقوالا في نسبه، واختلافًا في اسم أبيه، وكذا فعل الشوكاني وغيرهما من المفسرين، ولسنا بحاجة إلى الوقوف عند هذا طويلًا، مع أن الكثيرين عدوه من ولد مدين بن إبراهيم عليهم السلام[(٥)] .

وبعد أن نقل رشيد رضا رحمه الله تعالى ما في الأسفار من أقوال في اسمه ونسبه قال: وأما علماؤنا فقال بعضهم كأبي عبيدة من حملة اللغة والبخارى من المحدثين والمؤرخين: إن مدين بلدٌ[(٦)] .

وإن قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ فيه حذف المضاف : إلى أهل مدين، وهو غلطٌ. وأما

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، ٩/ ٢٩٦٥، رقم ١٨٣٣ .

(٢) قال الثعلبي في الكشف والبيان ٧/ ٢٤٤ : فقال مجاهد والضحاك والسدي والحسن: هو شعيب النبي صلى الله عليه وعلى جميع الأنبياء.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه مطولاً من حديث أبي ذر رضي الله تعالى عنه، كتاب البر والإحسان، باب ذكر الاستحباب للمرء أن يكون له من كل خير حظ ٢/ ٧٦-٧٧، رقم ٣٦١، بلفظ: (وأربعة من العرب هود وشعيب وصالح ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم).

(٤) انظر: جامع الرسائل ١/ ٦٣.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢٤٧-٢٤٨.

(٦) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٨/ ٢٦٢-٢٦٣.

شعيبٌ فقد قال النووي في تهذيب الأسماء واللغات: هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم عليه السلام[1].

وقيل: إن جده يشجر بن لاوى بن يعقوب عليهم السلام ،وقال الحافظ في الفتح: هو شعيب بن ميكيل بن يشجر بن لاوى بن يعقوب. كذا قال ابن إسحاق ، ولا يثبت.

وقيل: هو شعيب بن صفور بن عنقا بن ثابت بن مدين ، وكان مدين ممن آمن بإبراهيم لما أحرق.

وروى ابن حبان في حديث أبي ذرٍ الطويل: «أربعةٌ من العرب : هودٌ وصالحٌ وشعيبٌ ومحمدٌ». فعلى هذا هو من العرب الخلص[2].

ولا يترتب على هذا الخلاف كبير فائدة ولا عظيم أهمية، إذ لا تأثير لذلك على ما نحن بصدده من بيان هدايات هذه القصة.

وذكر بعض المفسرين في وصفه بالضعف في قوله تعالى حكاية عن قومه: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود: ٩١]: أنه كان ضرير البصر أعمى، أو أنه كان ناحل البدن، قال ابن عطية بعد أن نقل قول من قال بذلك: وهذا كله ضعيف، ولا تقوم عليه حجة بضعف بصره أو بدنه، والظاهر من قولهم: ﴿ضَعِيفًا﴾ أنه ضعيف الانتصار والقدرة، وأن رهطه الكفرة كانوا يراعون فيه[3].

وقد كان شعيب عليه السلام من المرسلين المؤيدين بالمعجزة، كما قال صلى الله عليه وسلم: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)[4].

واختلف في معجزته؛ لأن الله تعالى لم يذكرها صراحة، لكنه قال على لسانه: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

فما هي هذه البينة؟ الظاهر أنها معجزة قامت بها الحجة عليهم لم يذكرها القرآن الكريم، كما أنه لم يذكر معجزة هود ونوح عليهم السلام.

---

(١) انظر: تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٢٤٦.

(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٤٦٧، فتح القدير ٢/ ٢٢٤ ، فقد نقل الشوكاني طرفا من تلك الأقوال.

(٣) انظر: المحرر الوجيز ٧/ ٣٨٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، ١١/ ١٩٣، رقم ٤٩٨١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس، رقم ١٥٢ .

ونبي الله شعيب هو خطيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد جاء ذلك في حديث مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم عن محمد بن إسحاق قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فيما ذكر لي يعقوب بن أبي سلمة ـ إذا ذكر شعيبا قال: (**ذاك خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه، فيما يرادهم به**)[١].

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن وهب قال: سمعت مالكا يقول: كان شعيب عليه الصلاة والسلام خطيب الأنبياء[٢].

وهذه فضيلة مهمة لسيدنا شعيب عليه السلام، لاسيما في باب النصح الذي اتسمت به دعوته، ولا يخفى ما للخطيب المفوه من قدرة على إقناع المستمعين، وإقامة الحجة على المعاندين، بحيث لا يجدون فكاكا عن أحد الأمرين، إما الإيمان به وإجابته، وإما إلزامهم بصدق دعوته.

ثانيًا: قوم شعيب:

نجد في قصة شعيب عليه السلام التي ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم ذكر أهل مدين وأصحاب الأيكة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٧٧].

ونظرائها من الآيات.

فهل أهل مدين هم أصحاب الأيكة، أم هما قومان، وأن شعيبا عليه السلام قد أرسل إليهما؟

اختلف العلماء في ذلك على قولين، فمنهم من يرى الأول ،ومنهم من يرى الثاني، ولكل دليله على ما ذهب إليه، وسنختصر القول في ذلك، إذ لا يترتب على هذا الخلاف كبير ثمرة في ما نحن بصدده من عرض قصة شعيب عليه السلام، وبيان دعوته وأمانته في تبليغ رسالة ربه، فهو قد صدق في النصح لقومه سواء كانوا أمة واحدة أم أمتين مختلفتين ، فنقول:

ذهب الإمام الطبري إلى أنهما أمتان ، وأن شعيبا أرسل إليهما ، فكفرتا ، فعذبهما الله تعالى بعذابين مختلفين، أهل مدين بالصيحة، وأصحاب الأيكة بالظلة[٣]، كذا نقله ابن عطية

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره، رقم ١٤٨٦٩، عن ابن إسحاق.
(٢) أخرجه في تفسيره، رقم ٦٦٢، ١/ ٣٦٣.
(٣) انظر: جامع البيان ١٧/ ١٢٤، وفيه: ذكر لنا أنه سلط عليهم الحر سبعة أيام، لا يظللهم منه ظل، ولا

عن الطبري وسكت عنه، فكأنه ارتضاه[1].

ويستفاد من كلام الرازي أنه يقول بذلك، فإنه بعد أن بين أن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٩] يعود إلى أصحاب مدين والأيكة ، لأن شعيبا كان مبعوثا إليهما ، قال: فإن قيل: هلا قال :أخوهم شعيب ، كما في سائر المواضع؟ جوابه: إن شعيبا لم يكن من أصحاب الأيكة[2].

وقال في تفسير سورة الشعراء: وروي أن شعيبا بعث إلى أمتين أصحاب مدين وأصحاب الأيكة[3].

وبعد أن بين الألوسي معنى الأيكة وأنها الغيضة التي تنبت ناعم الشجر ، قال: وهي غيضة من ساحل البحر إلى مدين يسكنها طائفة، وكانوا ممن بعث إليهم شعيب عليه السلام ، وكان أجنبيا منهم، ولذلك قيل ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ولم يقل أخوهم، وقيل: الأيكة الشجر الملتف ، وكان شجرهم الدوم ، وهو المقل، وعلى القولين أصحاب الأيكة غير أهل مدين، ومن غريب النقل عن ابن عباس أنهم هم أصحاب مدين[4].

وانتصر لهذا ابن عاشور فبعد أن نقل بعض أقوال العلماء في ذلك قال: «والأظهر أن أهل الأيكة قبيلة غير مدين، فإن مدين هم أهل نسب شعيب ، وهم ذرية مدين بن إبراهيم من زوجه (قطورة)، سكن مدين في شرق بلد الخليل ، كما في التوراة ، فاقتضى ذلك أنه وجده بلدا مأهولا بقوم فهم إذن أصحاب الأيكة، فبنى مدين وبنوه المدينة، وتركوا البادية لأهلها، وهم سكان الغيضة»[5].

وذكر الدكتور أحمد الكبيسي تحت عنوان رسالة جديدة: «إن الله بعد أن أهلك مدين ونجا شعيبا عليه السلام أرسله مرة أخرى إلى أصحاب الأيكة، وكان غريبا عنهم ، لذا لم يقل تعالى ، أخوهم شعيب، وكانت أخلاقهم كأخلاق أهل مدين من تطفيف المكيال والميزان،

يمنعهم منه شيء، فبعث الله عليهم سحابة، فحلوا تحتها يلتمسون الروح فيها، فجعلها الله عليهم عذابا، بعث عليهم نارا فاضطرمت عليهم فأكلتهم، فذلك عذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم.

(١) انظر: المحرر الوجيز ٨/ ٣٤٥.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب ١٩/ ٢٠٩.

(٣) المصدر السابق ٢٤/ ١٦٣.

(٤) انظر: روح المعاني ١٠/ ١١٦.

وما نقله عن ابن عباس أخرجه ابن جرير ١٧/ ١٢٤ من طريق حجاج عن ابن جريج قوله: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ قال: قوم شعيب، قال ابن عباس: الأيكة ذات آكام وشجر كانوا عليها.فقوله من قوم شعيب ، من كلام ابن جريج ـ كما ترى ـ وليس من كلام ابن عباس رضي الله تعالى عنهما.

(٥) التحرير والتنوير ١٩/ ١٨٣.

ويخس الناس أشياءهم، والإفساد في الأرض»[١].

ويستفاد من كلام الشوكاني أنهما أمة واحدة، حيث قال في تفسير سورة الحجر: وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب ،وقد تقدم خبرهم، واقتصر الله سبحانه على وصفهم بالظلم، وقد فصل ذلك الظلم فيما سبق، ثم قال في عود الضمير ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ بعد أن ذكر قول الجمهور أنه يعود على قوم لوط وأصحاب الأيكة، وقيل: الضمير للأيكة ومدين ، لأن شعيبا كان ينسب إليهما[٢].

وأيد هذا الدكتور صلاح الخالدي حيث قال: فالراجح أن شعيبا عليه السلام بعث إلى أهل مدين ، ومدين هم أنفسهم أصحاب الأيكة، وأن الله دمر مدين أصحاب الأيكة بعذاب واحد، هو الرجفة والصيحة والظلة[٣].

ثم أيد ما ذهب إليه بالتفصيل الذي ذكره الحافظ ابن كثير، وخلص منه إلى أنهما أمة واحدة، وأنها أهلكت بأنواع من العذاب[٤].

ومما قال ابن كثير: وإنما لم يقل ههنا : أخوهم شعيب ؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة ، وقيل: شجر ملتف كالغيضة كانوا يعبدونها، فلهذا لما قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لم يقل : إذ قال لهم أخوهم شعيب، وإنما قال ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسبا، ومن الناس من لم يفطن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيبا عليه السلام بعثه الله إلى أمتين[٥].

أقول: ولعل هذا هو الراجح في هذه المسألة، ويمكن أن نفصل ذلك بأنهما أمة واحدة غير أن بعضا منهم - وهم أهل مدين - كانوا يسكنون المدينة، وأن بعضا آخر - وهم أصحاب الأيكة - كانوا يسكنون الغيضة، ومما يرجح أنهما أمة واحدة أن الله تعالى قد ذكر عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين ـ كما يقول ابن كثير ـ من التطفيف في المكيال والميزان[٦].

---

(١) انظر: القصص القرآني ١١٥.
(٢) انظر: فتح القدير ٣/ ١٤٠.
(٣) القصص القرآني ٢/ ٣٧.
(٤) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير ص ١٩٣-١٩٤.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٥٢.
(٦) انظر: المصدر السابق.

فنقرأ في سورة الأعراف قوله تعالى في نصيحة أهل مدين: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقوله تعالى في سورة الشعراء في نصيحة أصحاب الأيكة: ﴿۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [الشعراء: ١٨١-١٨٣].

ومما يدل على أن أهل مدين هم أصحاب الأيكة : ما أخرجه الحاكم عن وهب بن منبهٍ قال: إن الله بعث شعيبًا إلى أهل مدين ، وهم أصحاب الأيكة ، فكانت الأيكة من الشجر الملتف، وكانوا أهل كفرٍ بالله وبخسٍ للناس في المكاييل والموازين، وإفسادٍ لأموالهم، وكان الله تعالى وسع عليهم في الرزق وبسط لهم في العيش ؛ استدراجًا منه لهم مع كفرهم به ، فقال لهم شعيبٌ: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ فكان من قول شعيبٍ لقومه وجواب قومه له ما قد ذكر الله في كتابه.[1]

ونكتفي بهذا القدر فكما قلنا : إن الذي يهمنا هنا هو ما نستخلصه من الدروس والعبر والعظات من قصة شعيب عليه السلام وصدقه في نصح قومه، وذلك يتأتى من كونه عليه السلام مرسلا إلى أمة واحدة أو إلى أمتين، إذ الصدق والإخلاص حاصل في هذا وفي ذاك. والله تعالى أعلم.

[انظر: مدين: التعريف بمدين]

(١) أخرجه الحاكم رقم ٤٠٧٣، وسكت عنه الذهبي ٢/ ٦٢٠.

ذكر شعيب عليه السلام في القرآن

ورد ذكر (شعيب) عليه السلام في القرآن الكريم (١١) مرة في (٤) سور.

وأما قصته عليه السلام فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
الأعراف	٨٥-٩٣
هود	٨٤-٩٥
الشعراء	١٧٧-١٩١
العنكبوت	٣٦-٣٧

معجزة شعيب عليه السلام

المعجزة كما عرفها العلماء: أمر خارق للعادة سالم من المعارضة ، يجريه الله تعالى على يد نبي من أنبيائه على سبيل التحدي[1].

وهي بمثابة قول الله تعالى: صدق عبدي فيما يبلغ عني.

وما من نبي من أنبياء الله تعالى إلا أيده الله تعالى بمعجزة، تظهر صدقه وتدل على نبوته، كما تقدم في قول النبي المصطفى صلى الله عليه و سلم: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر) الحديث[2].

ولكنا وجدنا أن الله تبارك وتعالى قد قص علينا نبأ بعض الأنبياء عليهم السلام، ولم يذكر لنا معجزاتهم، من مثل: نوح وهود وشعيب عليهم السلام، والذي يهمنا أن نقف عنده في هذا البحث هو شعيب عليه السلام، فهل له معجزة؟ وما هي؟

لم نقرأ في قصته التي حكاها الله تعالى في كتابه الكريم على شيء من ذلك إلا قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

فهل هذه البينة هي المعجزة؟ أم له معجزة لم يخبرنا الله تعالى بها؟

من العلماء من يرى أن البينة المذكورة هي المعجزة، ومن هؤلاء الإمام الكسائي فيما نقله القرطبي عنه[3]، وابن عطية حيث قال: (والبينة إشارة إلى معجزته، وإن كنا نحن لم ينص لنا عليها)[4].

وبذلك جزم الرازي حيث قال رحمه الله تعالى: (ويجب أن يكون المراد من البينة ههنا المعجزة، لأنه لا بد لمدعي النبوة منها، وإلا لكان متنبئًا لا نبيًّا)[5].

بينما ذهب القرطبي - بعد ما نقل عن الكسائي ما تقدم - إلى أن الله تعالى لم يذكر له معجزة في القرآن.

وأما الطبري فيرى أن البينة علامة دالة على صدقه حيث قال: «يقول: قد جاءتكم علامة وحجة من الله بحقيقة ما أقول، وصدق ما أدعوكم إليه»[6].

وإلى نحو هذا ذهب ابن عاشور، فذكر أنها حجة أقامها على بطلان ما هم عليه من الشرك وسوء الفعل، وعجزوا عن مجادلته فيها فقامت عليهم الحجة، فهي علامة على

---

(١) انظر: الإتقان ٤/ ٣، وانظر: كبرى اليقينيات الكونية ص ٢١٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، ١١/ ١٩٣، رقم ٤٩٨١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس، رقم ١٥٢.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢٤٨.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٥٧٤.

(٥) مفاتيح الغيب ١٤/ ١٨٠.

(٦) جامع البيان ١٢/ ٥٥٥.



صدق شعيب عليه السلام[1].

وللإمام الألوسي تفصيل في ذلك، فقد فسر البينة بالمعجزة، حيث قال: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: أي: معجزة عظيمة ظاهرة من مالك أموركم، وقال: ولم تذكر معجزته عليه السلام في القرآن العظيم كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم والأنبياء عليهم السلام فيه، ثم بين غلط من ذهب إلى أن شعيبا لم تكن له معجزة وعلل ذلك بأن الفاء في قوله سبحانه: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ لترتيب الأمر على مجيء البينة، وقال: واحتمال كونها عاطفة على (اعبدوا) بعيد، وإن كانت عبادة الله تعالى موجبة للاجتناب عن المناهي التي معظمها بعد الكفر البخس، فكأنه قيل: قد جاءتكم معجزة شاهدة بصحة نبوتي أوجبت عليكم الإيمان بها والأخذ بما أمرتكم به، فأوفوا.. إلخ.

ودلل على ذلك بأنه لو ادعى مدع النبوة بغير معجزة لم تقبل منه، لأنها دعوى أمر غير ظاهر، وفيه إلزام للغير، ومثل ذلك لا يقبل من غير بينة، وقال: ومن الناس من زعم أن البينة نفس شعيب. ومنهم من زعم أن المراد بالبينة: الموعظة، وأنها نفس ﴿فَأَوْفُوا﴾ إلخ، وليس بشيء كما لا يخفى[2].

وقال القاسمي: «ولا يخفى أن البينة أعم من المعجزة بعرفهم، فكل من أبطلت شبهة ضلاله، وأظهرت له حجة الحق الذي يدعى إليه فقد جاءته البينة؛ لأن حقيقة البينة كل ما بين الحق فاحفظه»[3].

وسكت عن هذا الدكتور فضل عباس حيث قال: «فقد جاءتهم المعجزة الدالة على صدقه عليه السلام، والقرآن لم يبين لنا نوع هذه الآية التي جاءتهم، فنسكت عما سكت عنه»[4].

وإلى مثله ذهب الدكتور عبدالكريم زيدان وقال: «وإن كنا جازمين بأن الله تعالى قد أيده بآية هي البينة التي دلت على أنه رسول من رب العالمين، وبها قامت الحجة على قومه»[5].

وذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم: **(ما من الأنبياء نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر)** الحديث، وقد سبق الاستدلال به[6].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ٨/ ٢٤١.

(٢) انظر: روح المعاني ٤/ ٤١٣.

(٣) محاسن التأويل ٧/ ٢٠٦.

(٤) قصص القرآن الكريم ص ٤٥٥.

(٥) انظر: المستفاد ١/ ٢٣٨.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، ١١/ ١٩٣، رقم ٤٩٨١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس، رقم ١٥٢.

والدكتور الخالدي فقد اكتفى بقوله: «﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾ المراد بالبينة هنا الآية والدليل والبرهان، على أن شعيبا عليه السلام هو رسول الله إليهم، وأنه يجب عليهم اتباعه»[1].

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر المعجزة بعد ذكر البينة ، كما في قوله تعالى في قصة صالح عليه السلام: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣].

وفي قصة موسى عليه السلام: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ إلى أن قال: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأعراف: ١٠٥-١٠٧].

أقول: ولعل الراجح في هذه المسألة، قول من قال: إن في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إشارة إلى معجزة شعيب عليه السلام، وأنها كانت آية ظاهرة لا لبس فيها و لا غموض، دالة بلا امتراء على صدق من جاء بها، والأولى أن نسكت عن الجزم بها ؛ لأن الله تعالى سكت عن ذكرها، ولم يكشف عنها في كتابه الكريم، فنجزم أن شعيبا عليه السلام قد أيده الله تعالى بمعجزة، والله تعالى أعلم بها.

وأما من قال: إن الحجة قامت عليهم بمجرد عجزهم عن مجادلته ففيه نظر، إذ لو كان ذلك كافيا في إثبات نبوته، لثبتت نبوة كثيرين، فكم من صاحب دعوى يعجز الآخرون عن مقارعة حجته!! والله تعالى أدرى بأسرار كلامه.

---

(١) القصص القرآني ٢/ ١٥.

معالم دعوة شعيب عليه السلام

أولًا: آفاق النصيحة في القرآن الكريم:

لا يخفى أن الله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

ولما علم سبحانه وتعالى أن أمور الخلق لا تستقيم، وأن تلك العبادة لا تتحقق بدون أن يكون هناك تعليم منه وإرشاد، أرسل الرسل وأنزل الكتب، وبذلك قامت حجة الله على عباده.

ولفظ النصح ومشتقاته من الألفاظ الدائرة في الكتاب العزيز، فقد ورد على ألسنة جمع من خلق الله تعالى، من ذلك إحدى عشرة آية جاءت على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، مما يدل على أهمية النصيحة في حياة كل أمة.

وقد كان من أولى مهمات الرسل عليهم الصلاة والسلام أن ينصحوا أممهم، ويدعوهم إلى توحيد الله وعبادته، وقد ساروا جميعا في هذا الطريق غير مبالين بما أصابهم في سبيل ذلك من نكبات، وما اعترضهم من عقبات، مبلغين رسالات ربهم على أتم وجه وأكمله، حتى ختمت تلك الرسالات بمسك الختام، سيدنا ونبينا محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام، ذلك النبي الخاتم الذي جاء بالكتاب العظيم الخاتم، (فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم)[(١)].

وقد حكى الله تعالى لنا فيه نصح الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم، فمن ذلك ما حكاه الله تعالى عن نوح عليه السلام في نصح قومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف: ٦٢].

ومثله قول هود لقومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف: ٦٨].

---

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الترمذي من حديث الحارث الأعور عن علي رضي الله عنه، أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن ٥/ ١٧٢، رقم ٢٩٠٦.
والحديث وإن كان في سنده مقال، إلا أن الوصف صادق، وهو بتمامه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ألا إنها ستكون فتنة).فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: (كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن:٢] من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم) خذها إليك يا أعور.قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال.

وقول صالح: ﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وقول شعيب: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ۝٩٣﴾ [الأعراف: ٩٣].

والنصيحة: من نصح ينصح نصحا ونصاحة ونصاحية، وهو ناصح ونصيح، والاسم النصيحة، فالنون والصاد والحاء ـ كما يقول ابن فارس ـ أصل يدل على الملائمة بين شيئين وإصلاح لهما، وهي خلاف الغش، ونصحت له ونصحته بمعنى[(١)].

وفي الصحاح: وهو باللام أفصح، قال الله تعالى: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمۡ﴾[(٢)].

وقال الزجاج: وفي الكلام: نصحت لك أكثر من نصحتك[(٣)].

فأصل النصح في اللغة: الخلوص، فالنصيحة: كلمة يعبر بها عن جملة، هي إرادة الخير للمنصوح له، وليس يمكن أن يعبر هذا المعنى بكلمة واحدة تجمع معناه غيرها[(٤)].

وهي الدعاء إلى ما فيه الصلاح، والنهي عما فيه الفساد، والنصح: إخلاص العمل عن شوائب الفساد[(٥)].

قال الأصمعي: الناصح الخالص من العسل وغيره مثل الناصع، وكل شيء خلص فقد نصح[(٦)].

وقد كثرت أقوال العلماء في تعريفها وبيان حقيقتها، وخلاصة ذلك أنها: إرادة الخير للمنصوح والإخلاص في ذلك.

وإذا علمنا أن النصح يعني الإخلاص والصدق والنقاء وأنه نقيض الغش، كما تقدم في المعنى اللغوي، فقد كان الأنبياء عليهم السلام كلهم كذلك.

وقد حدثنا القرآن الكريم أنهم أخلصوا النصح لقومهم في آيات بينات واضحات، تقدم ذكر بعضها، فلم يكن شعيب عليه السلام بدعا من الرسل في ذلك، لقد بذل جهده في نصح قومه، لاسيما وأنه خطيب الأنبياء عليهم السلام، ولا يخفى ما للخطابة من ميزة في حسن العرض وجودة التعبير، مما يكون أثر بالغ في إيصال المقصد الأعظم من الرسالة.

فقد أدى المهمة التي أرسل من أجلها على أتم وجه وأكمله.

قال تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٣٥، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٥٠٠.
(٢) الصحاح، الجوهري ١/ ٤١٠.
(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه ٤/ ١٣٨.
(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥/ ٦٣.
(٥) التعريفات، الجرجاني ص ٣٠٩.
(٦) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ٤١١.

﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

[الأنعام: ٤٨-٤٩].

وهكذا صنع شعيب عليه السلام مع قومه، كما أنهم كانوا فريقين تجاه دعوته، ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

[الأعراف: ٨٧].

لقد اشتمل نصح شعيب عليه السلام لقومه على دروس متعددة، وفيه عبر وعظات متنوعة، تستفيد منها الأجيال على مر الدهور وتعاقب العصور، فقد كان نصحا صادقا، صادرا من مخلص مستجمع لما يجب أن يكون عليه الناصحون، ومن حكم الشعر[1]:

فما كُل ذي نُصحٍ بمؤتِيك نُصْحَهُ
ولا كل مُؤتٍ نُصْحَه بلبيب
ولكن إذا ما استجمعا عند صاحب
فحق له من طاعةٍ بنصيب

فكان حريًا بقومه أن يسمعوا ويطيعوا، ولكن أغلبهم كان على خلاف ذلك، وهكذا هو شأن من لا يحبون الناصحين.

(١) انظر: ديوان أبي الأسود الدؤلي ظالم بن عمرو بن سفيان ص٦.

ثانيًا: الدعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته.

إن الإيمان بالله تعالى وتوحيده وإفراده بالعبادة، مقصد مهم من مقاصد خلق الإنسان، ذاك أن الله تعالى هو الذي أنعم على هذا الإنسان وأخرجه بفضله من العدم، ولأهمية العبادة في حياة الإنسان، فقد توجه ربنا تبارك وتعالى بنداء جميع خلقه ، وأمرهم بذلك بلا استثناء، فإنه بعد أن ذكر أصناف الناس في صدر سورة البقرة، أردف ذلك بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١].

«والإيمان لغة: التصديق، وشرعًا: تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به عن ربه»[2].

«والإيمان بالله تعالى هو التصديق القاطع الجازم بوجود الله تعالى، كما أخبر سبحانه وتعالى به، واطمئنان القلب وسكون النفس إلى ذلك، بحيث لا يبقى في القلب أدنى مرض وظلمة، ولا في العقل أقل شبهة أو ريبة في وجود الله جل جلاله ووجوب الإيمان به سبحانه، فلو زالت الجبال من مواضعها ما زال إيمان المؤمن عن قلبه، ولو ضل الناس عن الإيمان به سبحانه ثبت هو

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١/ ١١٢.

على إيمانه»[١].

فقوله: «ما جاء به عن ربه»، ومثله «كما أخبر سبحانه وتعالى به»، يخرج ما كان عليه المشركون من الاعتراف بوجود الله وإشراكهم غيره معه ، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

«والإيمان بالله عز وجل أساس مسائل العقيدة كلها، وعنه تتفرع بقية الأمور الاعتقادية التي يجب إنهاض العقل للتأمل فيها ، ثم الإيمان بها، وبتعبير آخر نقول: إن ما تراه من حقائق الكون كلها، إنما هو فيض عن حقيقة واحدة كبرى، ألا وهي ذات الله عز وجل، ومن المحال أن تدرك ما هية الحقائق المتفرعة الصغرى قبل أن تدرك منبعها وأصلها الأول، فكان لابد إذًا لكي تستطيع التعرف على الكون من أن تعرف خالقه أولًا»[٢].

ومن هنا فإن الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده وإفراده بالعبادة، كانت من أبرز مهمات الرسل عليهم الصلاة والسلام، فهي سمة ظاهرة، وقدر مشترك بين جميع الأنبياء من لدن آدم إلى محمد صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين، فقد كانت هذه الدعوة من الألفاظ الدائرة في الكتاب العزيز على لسان الأنبياء جميعا، من ذلك قوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥] ونظائرها.

وقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

ولدى تتبع ما جاء عن شعيب عليه السلام في الكتاب الكريم، نجد أن لنصح شعيب دعائم يقوم عليها، وهي جملة من الأوامر والنواهي، تنظم لقومه شؤون حياتهم في الدنيا على أمن وسلام وطمأنينة، وتكفل لهم سعادة ونجاة وفوزا في الحياة الآخرة، وإن من أهم تلك الدعائم: توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة.

وعند تأمل هذه الدعامة في قصة شعيب عليه السلام، نجد أنها جاءت متعددة متنوعة في أكثر من سورة من سور القرآن الكريم، ففي سورتي الأعراف وهود وردت بلفظ: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥] و [هود: ٨٤].

وفي سورة الشعراء وردت بلفظ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾﴾ [الشعراء: ١٧٧ - ١٧٩].

وفي سورة العنكبوت وردت بلفظ: ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

ويلاحظ أن شعيبًا عليه السلام قد ابتدأ الدعوة بالإيمان ؛ لأن به صلاح الاعتقاد

---

(١) أركان الإيمان، وهبي غاوجي ص ١٣.
(٢) كبرى اليقينيات الكونية ص ٧٧.

والقلب، وإزالة الزيف من العقل[1]، وذلك أمر مهم لتلقي ما بعده.

وآيتا الأعراف وهود صريحتان في الدعوة إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، وتأتي الآيات في سورة الشعراء، مكملة لذلك بالدعوة إلى تحقيق التقوى والطاعة المطلقة لله ولرسوله شعيب عليه السلام، وذلك شامل للرسالة كلها، ذاك أن التقوى على مراتب أدناها اتقاء الشرك بالله، ثم امتثال الأوامر واجتناب النواهي[2].

وأما آية العنكبوت فنجد فيها التذكير باليوم الآخر: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

ذاك لأن العبادة هي سر وجود الإنسان، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومن ضيع سر وجوده فقد ضاع منه كل شيء، ومن حكم الشعر:

لكل شيء إذا ضيعته عوض
وليس لله إن ضيعت من عوض

وأمره إياهم بأن يرجوا اليوم الآخر يدل على أنهم لم يكونوا مؤمنين بالبعث، لأن المراد بالرجاء هنا: الترقب واعتقاد الوقوع في المستقبل[3]، ولأن عبادة الله تعالى يرجى منها الخير في الدارين[4]، فمن آمن بالبعث وباليوم الآخر صح رجاؤه[5].

ثالثًا: إقامة القسط في الكيل والميزان:

إن من أهم مقاصد رسالة شعيب عليه السلام ومن أبرز أهدافها بعد الدعوة إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة: تصحيح ما كان عليه قومه من تطفيف الكيل والميزان، بل إن الدعوة إلى إقامة القسط في الكيل والميزان مما تميز به شعيب عليه السلام، وهو ظاهر في دعوته، بل هو أظهر شيء وأهمه بعد التوحيد كما ذكرنا.

وفي هذا يقول الله تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿۞ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ۝١٨١ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ۝١٨٢ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝١٨٣﴾ [الشعراء: ١٨١-١٨٣].

ونظائرها من الآيات التي تحدثت عن قصة شعيب مع قومه.

لقد كان هذا الخلق السيء ديدن قوم شعيب، وقد كان ذلك أمرا مألوفا عندهم، لا يرون فيه بأسًا ولا غضاضة، به طبعوا، وعليه درجوا، ولذا فقد رفضوا دعوة شعيب هذه، وقابلوها بالإعراض والإنكار، فقالوا ما حكاه الله تعالى عنهم: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢٤١.
(٢) انظر: دعائم السلوك الأمثل ص ٧١.
(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ٢٤٧.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٦٦.
(٥) انظر: المحرر الوجيز ١١/ ٣٨٨.

﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ۝٨٧﴾ [هود: ٨٧].

وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ قالوه على طريق الاستهزاء، فهم ينكرون على شعيب منعه لهم عن التطفيف ؛ لأن تلك أموالهم فهم يفعلون بها ما يشاءون!

والبخس هو النقص في آلة الكيل والوزن، وهو جرم اجتماعي، ويكون في السلعة بالتعييب والتزهيد فيها، أو المخادعة عن القيمة، والاحتيال في التزيد في الكيل والنقصان منه ـ كما يقول القرطبي ـ وكل ذلك من أكل المال بالباطل، وذلك منهي عنه في الأمم المتقدمة والسالفة على ألسنة الرسل صلوات الله وسلامه على جميعهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل[١].

ودعامة إقامة القسط في الكيل والميزان دعامة هامة جدًا في تماسك النظام الاقتصادي، وإن الإخلال بها يؤدي إلى اضطراب في المجتمع، ويفقده الأمن والاستقرار، وبه تظهر الطبقية والاستبداد، وعن طريقه تؤكل أموال الناس بالباطل، ولذا فقد جاءت شريعتنا – وهي شريعة الكمال – آمرة بما أمر به شعيب عليه السلام، فقال تعالى في الوصايا العشر في أواخر سورة الأنعام: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

والملاحظ أن هذه الوصية أدرجت ضمن وصايا عظيمة ، ابتدأها ربنا بالنهي عن الشرك والأمر ببر الوالدين، وبذلك تدرك موقع هذه الوصية ومدى خطورتها، ولا يخفى أن من أسباب عاصفة الأزمة الاقتصادية التي مرت بالناس هذه السنوات اختلال ميزان العدل الذي وضعه الله تعالى لعباده.

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن: ٧-٩].

والأمر والنهي هنا شامل للبشرية جمعاء، ذاك أن رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم عامة شاملة، ولا شيء عند الله تعالى أقبح من الظلم ، ولذا فقد حرمه على نفسه سبحانه وتعالى ، كما في الحديث القدسي عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: **(يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا)** الحديث[٢].

لقد أوضح شعيب عليه السلام لقومه كيفية بناء الاقتصاد السليم، على أسس من الرزق الحلال، وترك المحرمات التي نهانا

(١) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢٤٨.

(٢) وهو حديث طويل، أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم، ١٧/ ١٢٤-١٢٥، رقم ٢٥٧٧ ، عن أبي ذر رضي الله عنه.

الله عز وجل عنها، ومن ذلك نستفيد في بناء اقتصادنا العملي -كما يقول الدكتور نواف الحليسي- بأن نبتعد عن كل ما نهى الله تبارك وتعالى عنه على ضوء تاريخنا الاقتصادي من خلال قصة شعيب عليه السلام، وبذلك تتضح لنا القواعد الأساسية في حياتنا الاقتصادية[1].

وأعلمهم بأن قليل الحلال خير وأعظم بركة من كثير الحرام ، دل على هذا قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [هود: ٨٦].

فكم جر الحرام على أصحابه من نكبات وويلات، ومن يقف على بعض دواعي الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالعالم هذه الأيام يدرك سر ذلك.

وإن نصح شعيب عليه السلام ليعد الدرس الأول في الاقتصاد التطبيقي من ناحية الوزن والكيل، الذي يؤثر في حياة الناس اليومية، وتعاملهم الاقتصادي والمالي والتجاري في مختلف المجالات التي تحتاج إلى إيفاء من الكيل والميزان، كي تستقيم المعاملات بين الناس[2].

رابعًا: النهي عن الفساد في الأرض:

لم يكن تطفيف الكيل والميزان هو الذنب الوحيد الذي كان عليه قوم شعيب عليه السلام بعد الشرك بالله، بل ثمة ذنوب أخرى لا تقل جرما عن ذنب التطفيف، لقد كان التطفيف والبخس والإفساد في الأرض، والصد عن سبيل الله أمورًا متلازمة، يقوم بها قوم شعيب عليه السلام، وكلها أمراض خطيرة، متى ما استشرت في قوم أفسدتهم، وألحقت الدمار بهم، ولذا فقد حذر شعيب الشفيق على قومه من مغبة ذلك، وبالغ في النصح لهم، وأمرهم بالكف عن هذه المساوئ.

قال تعالى على لسانه: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٥-٨٦].

والفساد -كما يقول الراغب- خروج الشيء عن الاعتدال، قليلًا كان الخروج عنه أو كثيرا، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة، يقال: فسد فسادًا وفسودًا، وأفسده غيره[3].

فهي إذًا كلمة جامعة لصنوف الشر، فشملت الصد عن سبيل الله تعالى، والسلب

(١) انظر: المنهج الاقتصادي في المكاييل والموازين لنبي الله شعيب عليه السلام ص ١٨.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ٢٠-٢١.

(٣) مفردات القرآن ص ٦٣٦.

وقطع الطريق، وأكل أموال الناس بالباطل، فقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا﴾ نهي عام عن دقيق الفساد وجليله ـ كما يقول ابن عطية ـ وكذلك الإصلاح عام[1]، فكل أعمالهم التي نهاهم شعيب عليه السلام عنها كانت من الفساد في الأرض، فهي شاملة لإفساد نظام المجتمع بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل، وإفساد الأخلاق بارتكاب الفواحش، وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام[2]، وكل ذلك مما يمقته الله ولا يحبه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شرط لحصول الخير والنفع الذي وعدوا به، وإلا فلا ينفع عمل دون إيمان[3]، ومن هنا ندرك سر ابتداء شعيب عليه السلام تبليغ رسالة ربه بالدعوة إلى الإيمان والتوحيد كما تقدم، كما هو شأن سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

موقف قوم شعيب عليه السلام منه

أولًا: التكذيب والاستهزاء:

لقد أخلص شعيب عليه السلام النصح لقومه كما تقدم، ومن أهم ذلك أن ذكرهم بنعم الله تعالى، وأمر هذه الدعامة عظيم، ذاك لأن الشكر سبب مهم في دوام النعم وازديادها، كما أن الكفر سبب في انمحاقها واضمحلالها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧].

وقد كان قوم شعيب عليه السلام في نعمة سابغة، لاسيما نعمة الأولاد الذين كثروا بهم بعد قلة، فخشي عليهم زوال تلك النعمة بما كانوا عليه من الاعوجاج والكفر والطغيان، فقال لهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦].

ومن المعلوم أن الشكر ليس قولا باللسان، إنما يقوم على دعامتين هما: نسبة النعم إلى المنعم جل جلاله، والاجتهاد في استعمالها في طاعته.

فما كان من قومه بعد هذا النصح والتذكير إلا أن يقابلوه بالسخرية والاستهزاء، وتكذيبه فيما جاء به من ربه، بل واتهموه بالسحر، تلك التهمة التي لم يسلم منها نبي من أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام، قال

---

(١) انظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥٧٤.
(٢) انظر: التفسير المنير ٨/ ٢٨٨.
(٣) انظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥٧٤.

تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

ومن ذلك قول قوم شعيب له عليه السلام: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝١٨٦﴾ [الشعراء: ١٨٥-١٨٦].

وما كان من شعيب في الوقت نفسه إلا أن يقابل ذلك بالثبات على ما جاء به، والصبر على أذية قومه، وهذه سمة ظاهرة في حياة الأنبياء جميعا، وفي مقدمتهم أولو العزم من الرسل، وعلى رأسهم سيدنا النبي المصطفى صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين، فقد شاءت حكمة الله تعالى أن تكون هذه الحياة دار ابتلاء، وأن الكفر لم يزل يصارع الإيمان.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فلم يكن شعيب عليه السلام بِدْعًا من الرسل في هذا، فلاقى من أذى قومه ما لاقى إخوانه الأنبياء عليهم السلام، وصبر كما صبروا.

قال تعالى: ﴿۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۝٨٨ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ۝٨٩﴾ [الأعراف: ٨٨-٨٩].

ويلاحظ هنا تفويض شعيب الأمر إلى الله، حيث قال: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾، وفي هذا إشارة إلى أن الأمر كله لله، إنه ليس ثمة خلود إلى الرجاء، ولكنه المزج بينه وبين الخوف، ثم يعلن عن اعتماده على الله تعالى وحده، ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾، إنه التوكل الصادق، بعيدا عن العجب والغرور، إنه التعويل على فضل الله، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٢١].

هكذا كان شعيب عليه السلام وأتباعه، إنهم يعولون على فضل الله، غير متعلقين بشيء سواه.

ثم ما كان من شعيب عليه السلام بعد أن استنفذ كل ما يمكنه من وسائل النصح إلا أن يتوجه إلى الله تعالى ويصدق في اللجوء إليه ، ويطلب الإغاثة منه بأن يفصل بينه وبين قومه الذين أصروا على العناد ، فقال: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

وذلك بعد أن تبجح قومه فقالوا: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾، ثم زاد

تعنتهم وبالغوا في التكذيب والاستهزاء حتى سألوا العذاب، وقالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء: ١٨٧].

هنالك دعا شعيب عليه السلام ربه، فكان دعاء صادقا، اتسم بتفويض الأمر لله، ليقضي سبحانه وتعالى بما يشاء، وهذا ما وضحه بقوله: ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الشعراء: ١٨٨].

ذلك هو دعاء شعيب، لم يعرف أنه دعا بنزول عذاب معين، بل ولا حتى نزول العذاب، ولكنه أحال الأمر إلى العزيز الحكيم، فكان فتحا مبينا ونصرا عظيما له ولمن آمن به، حيث قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف: ٩١-٩٢].

وهكذا ينتصر الله تعالى للصادقين من عباده، كما قال تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

كما سيأتي توضيحه في المبحث الرابع إن شاء الله تعالى.

ومما ينبغي أن يذكر هنا: أن قوم شعيب عليه السلام لم يكونوا كلهم كذلك، بل إن منهم طائفة قد آمنت بشعيب عليه السلام، وصدقت في اتباعه، إلا أنهم كانوا قلة.

قال تعالى على لسان شعيب: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأعراف: ٨٧].

ثانيًا: الصد عن سبيل الله تعالى:

لم يكتف قوم شعيب عليه السلام بالتكذيب والاستهزاء، إنما عمدوا إلى مسلك خبيث آخر، ألا وهو الصد عن سبيل الله تعالى، والوقوف بوجه كل من أراد الإيمان بشعيب واتباعه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦].

لقد كان من بغي قوم شعيب ومزيد تعنتهم أن لم يكتفوا بتكذيب نبيهم شعيب عليه السلام والإعراض عن قبول ما جاءهم به عن ربهم، ولم يكتفوا بالضلال الذي كانوا عليه، ولكنهم عمدوا إلى إضلال الآخرين، بل ومنعهم من الإيمان بشعيب عليه السلام، وتهديدهم بالقتل إن هم فعلوا ذلك، وهذا غاية الظلم ونهاية الإجرام، وحين علم شعيب بذلك نهاهم عن ذلك البغي بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ يعني :لا تجلسوا بكل طريق

-وهو الصراط- توعدون المؤمنين بالقتل.

قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وكانوا، فيما ذكر، يقعدون على طريق من قصد شعيبًا وأراده ليؤمن به، فيتوعدونه ويخوفونه، ويقولون: إنه كذاب[1]!

وذكر عدة آثار تدل على ذلك منها:

حدثنا بشر بن معاذ قال: حدثنا يزيد قال:حدثنا سعيد، عن قتادة ﴿بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ قال: كانوا يوعدون من أتى شعيبا وغشيه فأراد الإسلام[2].

وذكر ابن كثير أن شعيبا عليه السلام كان ينهاهم عن قطع الطريق الحسي والمعنوي، بقوله ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾، أي :تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم، قال السدي وغيره: كانوا عشارين[3].

وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾: أي : تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه.

قال ابن كثير: والأول أظهر، لأنه قال: ﴿بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾ وهو الطريق، أما المعنى الثاني فهو مستفاد من قوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، أي: تصرفون من يريد الإيمان عن دين الله، وتودون أن تكون سبيل الله عوجا مائلة[4].

ثالثًا: همهم بإخراج شعيب عليه السلام ورجمه:

لقد دعا شعيب قومه إلى أعدل خطة، ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة، نقطة الانتظار والتريث والتعايش بغير أذى، وترك كلٍ وما اعتنق من دين، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَٱصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[الأعراف: ٨٧].

لكن الطواغيت لا يرضيهم أن يكون للإيمان في الأرض وجود ممثل في جماعة من الناس لا تدين للطاغوت[5].

لذا لم يكتفوا بما كانوا عليه من التكذيب والاستهزاء بنبي الله شعيب عليه السلام، وإنما هموا بأمر خطير، وارتكاب أمر قبيح، ألا وهو إخراج شعيب ومن آمن به من قريتهم، لا لشيء إلا أنهم لم يعبدوا الأصنام مثلهم، وهذا ديدن أهل الكبر والطغيان

(١) انظر: جامع البيان ١٢/ ٥٥٦.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) قوله «عشارين»: جمع عشار، وهو الذي يأخذ العشر من أموال الناس، ويسمى الضريبة، وهي التي يأخذها الماكس بغير حق. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ٢٣٨، ٥/ ٣٤٩.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٧٠. وانظر: التفسير المنير ٨/ ٢٩٣.
(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣١٨.

متى ما غلبوا في البرهان وقامت عليهم الحجة عمدوا إلى مثل هذا ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، ذاك أن وجود جماعة مسلمة في الأرض، لا تدين إلا لله، ولا تعترف بسلطان إلا سلطانه، ولا تحكم في حياتها شرعًا إلا شرعه، ولا تتبع في حياتها منهجًا إلا منهجه، إن وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت حتى لو انعزلت هذه الجماعة في نفسها، وتركت الطواغيت لحكم الله حين يأتي موعده[1].

فتعجب شعيب من صنيعهم وسألهم: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ العود في ملتكم التي أنقذنا الله منها؟ فقالوا له: نعم، فقال: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم﴾أي : قد اختلقنا على الله كذبًا إن دخلنا في دينكم ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ أي : بعد أن أكرمنا الله تعالى بالإسلام، وأنقذنا من ملتكم، يقال: معناه ، كنا كاذبين مثلكم لو دخلنا في دينكم بعد إذ نجانا الله تعالى من ذلك[2].

وهذا هو إصرار الصادقين، وثبات الموقنين، وتمسكهم بالمبدأ الذي هم عليه حتى لو كلفهم ذلك التضحية بالنفس أو الوطن أو ما يملكون.

غير أن شعيبا عليه السلام وإن كان لا يشك في أنه كان على الحق، وخصومه على الباطل، إلا أنه فوض الأمر إلى الله تعالى، فقال: ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

ثم إن قوم شعيب عليه السلام لم يكتفوا بهذا التهديد، وهو الإخراج من الأرض والإبعاد عن الوطن، إنما عمدوا إلى تهديد من نوع آخر هو أشد من هذا وأنكى، فبعد أن دعاهم إلى الاستغفار والتوبة، وذكرهم بعفو الله تعالى ورحمته ولطفه بهم إن تابوا وأنابوا ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠﴾ [هود: ٩٠].

إنه يدعوهم ويذكرهم برفق ولين، ويحاورهم بلطف وهدوء، ولكنهم يقابلون ذلك بصلف وعناد، بعد هذا الرفق واللطف عمدوا إلى التهديد فـ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝٩١﴾ [هود: ٩١].

وقد تقدم بيان المراد بالضعف بأنه كان ضعيف الانتصار والقدرة، وأما الرهط فهو جماعة الرجل، والرجم إما أن يراد به الرجم بالحجارة وهو الظاهر، وإما أن يراد به السب، وسواء أريد هذا أم ذاك، فهم غير عابئين بشعيب عليه السلام، وهذا ما دلت عليه فاصلة الآية: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٥٣٣.

أي: لست بذي منعة وعزة ومنزلة في نفوسنا[1].

ولكن الله تعالى الذي أرسل شعيبا قد تكفل بحفظه وحمايته، فلم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا مما هددوه به، حتى بلغ رسالة ربه على أتم وجه وأكمله.

وبعد هذا التعنت من قوم شعيب ما كان منه عليه السلام إلا أن يخوفهم مغبة ما هم عليه من الصلف والعناد، فيقول لهم بأسلوبه الهادئ الذي اتسم به: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾ [هود: ٩٣].

فماذا كانت النتيجة؟

هذا ما نبينه في المبحث القادم إن شاء الله تعالى.

[انظر: مدين: موقف قوم مدين من رسولهم عليه السلام]

عاقبة قوم شعيب عليه السلام

أولًا: دعاء شعيب عليه السلام ربه عز وجل:

الدعاء سلاح ماض، وهو يمثل حاجة العبد إلى مولاه، وشدة فاقته إلى عونه ونصرته، ولأهمية الدعاء أمر به ربنا تبارك وتعالى، ووعد بإجابة الداعي حيث قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وفي الوقت نفسه حذر من ترك الدعاء، وأوعد من كان كذلك بالعقاب الأليم، لما فيه من الإعراض عن الله تعالى، وإظهار الاستغناء عنه جل وعلا، وذلك مخالف للحقيقة، ومجانب للواقع، فقال تعالى في تمام الآية السابقة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

والمراد بالعبادة هنا الدعاء، فقد أخرج ابن جرير من طريقه عن السدي، إن معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ قال: عن دعائي، ومعنى: ﴿دَاخِرِينَ﴾ قال: صاغرين[2].

وبما أن الرسل عليهم السلام هم صفوة الخلق، وأعرفهم بربهم تبارك وتعالى، فقد كان الدعاء ديدنهم في الرخاء والشدة، وفي السر والعلن، ومن جملة الدعاء الذي كانت الرسل تقوله : الدعاء على أقوامهم،ولكن

(١) انظر: المحرر الوجيز ٧/ ٣٨٥.

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره، ٢١/ ٤٠٨.

هذا السلاح ما كانوا يستعملونه إلا بعد أن يستنفذوا كل ما بوسعهم من النصح والإرشاد، والتحذير والإنذار، فيصدق فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

وكذلك فعل شعيب عليه السلام، في دعائه على قومه، وقد ورد دعاء شعيب عليه السلام صراحة في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

والملاحظ على دعاء شعيب عليه السلام أنه لم يصرح فيه بطلب نزول العذاب أو حلول سخط الله تعالى على قومه، بل اتسم بالتفويض والتوكل على الله جل في علاه، وقد ظهر هذا التفويض والتوكل على الله تعالى جليا أيضا فيما حكاه الله تعالى عنه من قوله: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الشعراء: ١٨٨].

والملاحظ أن الدعاء الصريح جاء بعد ذكر من آمن من قومه ومن كفر، وموضع التفويض الأول جاء بعد ما حكاه الله تعالى من قوله: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾، والثاني[1] جاء بعد ما حكى الله تعالى من قول قومه: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء: ١٨٧].

وبهذا يتسم دعاء شعيب عليه السلام بصدق اللجوء إلى الله تعالى، وتفويض الأمر إليه وحده جل في علاه.

ثم إنه لما فوض الأمر إلى ربه جل وعلا ليحكم بينه و بين قومه، ويقضي بالقضاء الفاصل، مع يقينه بأن الله تعالى عالم بما يعمل قومه، وما هم عليه من عبادة الأصنام، وفعل المنكرات، ومن أبشعها الصد عن سبيل الله جل في علاه، لما كان ذلك كذلك كان الجواب هو حكم الله العادل الذي لا يتخلف، وهو نصرة المظلومين وقمع الظالمين، فحل بقوم شعيب ما حل بمن سبقهم من الظالمين.

ثانيًا: إهلاك قوم شعيب عليه السلام:

بعد أن بلغ شعيب عليه السلام قومه

---

(١) يلاحظ أن قوله: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾، وقوله: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وإن لم يكن بصيغة الدعاء المعروفة، إلا أنه يفيد ذلك؛ لما فيه من التفويض ورد الأمر لله، وذلك غاية الدعاء، ومما يؤيد هذا أن الله تعالى قد انتصر له والله تعالى أعلم.
قال الألوسي رحمه الله تعالى في روح المعاني ٤١٥/١ عند قوله: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾: خطاب للكفار ووعيد لهم، وقال ١١٨/١٠ عند قوله: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: أي: هو تعالى أعلم بأعمالكم من الكفر والمعاصي، وبما تستوجبون عليها من العذاب، فسينزله عليكم حسبما تستوجبون في وقته المقدر له لا محالة.

رسالة ربه، وبذل جهده في نصحهم، واجتهد في تحذيرهم وتذكيرهم، وقال لهم على طريق الإشفاق عليهم والرفق بهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ [هود: ٨٩].

وبعد أن أصروا على التكذيب والبغي والعناد، حل بهم ما حذرهم منه، وتحققت سنة الله تعالى فيهم، فأصابهم الله تعالى بثلاثة أنواع من العذاب، وهي التي أخبرنا الله تعالى بها في كتابه الكريم، وهي قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف: ٩١-٩٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود: ٩٤-٩٥].

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء: ١٨٩].

وهذا التنوع في العذاب (الرجفة والصيحة والظلة)، كان أحد أسباب اختلاف المفسرين رحمهم الله تعالى في كون أهل مدين وأصحاب الأيكة أمة أو أمتين، كما سبق بيانه، غير أن هذا التنوع لا يقتضي ذلك، إذ لا يمنع أن يتنوع العذاب على أمة واحدة، ولا مانع أن يكون كل ذلك في آن واحد.

وقد أثار الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى سؤالا وأجاب عنه فقال:

فإن قيل: الهلاك الذي أصاب قوم شعيبٍ ذكر تعالى في الأعراف أنه رجفةٌ، وذكر في هودٍ أنه صيحةٌ، وذكر في الشعراء أنه عذاب يوم الظلة.

فالجواب: ما قاله ابن كثيرٍ رحمه الله في تفسيره قال: وقد اجتمع عليهم ذلك كله أصابهم عذاب يوم الظلة ، وهي سحابةٌ أظلتهم فيها شررٌ من نارٍ ولهبٍ ووهجٍ عظيم، ثم جاءتهم صيحةٌ من السماء، ورجفةٌ من الأرض شديدةٌ من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام[(١)].

وأما ابن عاشور رحمه الله تعالى فقد فصل هذه الأنواع من العذاب حيث قال: «الرجفة التي أصابت أهل مدين هي صواعق خرجت من ظلة وهي السحابة، قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾. وقد عبر عن الرجفة في سورة هود بالصيحة، فتعين أن تكون من نوع الأصوات المنشقة عن قالع ومقلوع، لا قارع ومقروع

(١) انظر: أضواء البيان ٢/ ٣٦.

وهو الزلزال، والأظهر أن يكون أصابهم زلزال وصواعق، فتكون الرجفة الزلزال، والصيحة الصاعقة، كما يدل عليه: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾»[1].

وهذا توجيه حسن، ومنه نعلم أن أصحاب الأيكة هم أهل مدين كما تقدم، وإلى مثله ذهب الدكتور عبد الكريم زيدان حيث قال: فاستحقوا بكفرهم وإصرارهم الهلاك، وكان هلاكهم بأنواع العذاب: بالصيحة، وبالرجفة، وبعذاب يوم الظلة، واستشهد بالآيات الكريمة ، ثم قال: وهكذا اجتمع عليهم ذلك كله: أصابهم عذاب يوم الظلة وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت أرواحهم وخمدت أجسامهم[2].

وبهذا العذاب المدمر يكون قوم شعيب قد باءوا بالخسران الذي وصموا به شعيب عليه السلام ومن آمن معه إذ قالوا ما حكاه الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأعراف: ٩٠].

قال الله تعالى بعدها ردا عليهم: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف: ٩٢].

ويلاحظ أن الله تعالى كرر قوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا﴾، وذلك لتعظيم المذلة لهم وتفظيع ما يستحقون من الجزاء على جهلهم، وأيضا فإنهم لما قالوا: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾، بَيَّنَ تعالى أن الذين لم يتبعوه وخالفوه هم الخاسرون[3].

ثالثًا: عدم تأسف شعيب على هلاك قومه:

بعد أن رأى شعيب عليه السلام ما حل بقومه، وما أصابهم من نقمة ربه تبارك وتعالى، لم يكترث بما نزل بهم، ولم يأسف عليهم، بل أعرض عنهم وتركهم ماضيا في سبيله ،وهو يقول ما حكاه الله تعالى عنه: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: ٩٣].

وهذه الآية لها دلالات عظيمة:

منها: أن شعيبًا عليه السلام قد أقام الحجة على قومه بتبليغ رسالة ربه، وأنه قد نصح لهم، وصبر على أذاهم وسخريتهم، وهذا النصح شأن كل رسول، فهو لابد أن يكون مبلغا فصيحا ناصحا عالما بالله لا يدركه أحد من خلق الله في هذه الصفات، ولذا

(١) التحرير والتنوير ٩/ ١٣.
(٢) انظر: المستفاد ١/ ٢٤٧.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب ١٤/ ١٩٠.

فإن نبينا صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوم عرفة، وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعًا: (أيها الناس، إنكم مسئولون عني، فما أنتم قائلون؟) قالوا: نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكتها عليهم، ويقول: (اللهم اشهد، اللهم اشهد)[1].

وفي قوله: ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ بالجمع لإفادة التجدد؛ لأن كل تبليغ يتضمن رسالة بما بلغه[2]، أو المراد ما أوحي إلي في الأوقات المتطاولة أو في المعاني المختلفة من الأوامر والنواهي والمواعظ والزواجر والبشائر والنذائر، ويجوز أن يريد رسالاته إليه وإلى الأنبياء من قبله[3].

ومن ذلك: أنه لا ينبغي التأسف على هلاك الظالمين، لأنهم جراثيم تنخر في قلب المجتمع وتهدد استقراره، لا يصح المجتمع ولا يصلح إلا باجتثاثهم، ولنتأمل موقع الحمد بعد هلاك الظالمين في قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٥].

فما أجمل ما حكاه الله تعالى عن شعيب عليه السلام إذ يقول: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: ٩٣].

وعدم الأسى عليهم بعد الإعذار بالنصح لهم، سمة بارزة من سمات المرسلين عليهم الصلاة والسلام، وقد قال الله تعالى لنبينا صلى الله عليه وسلم: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

فليس من مهماتهم نتائج ذلك التبليغ، ولذا فهم بعد أن يؤدوا ما عليهم لا يتأسفون على ما حل بأقوامهم من العذاب والنكال، وهكذا كان شعيب مع قومه، قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: ٩٣].

وهكذا ينبغي أن يكون الدعاة، سائرين إلى الله على هدي النبوة، يدعون إلى الله على بصيرة، محاسبين أنفسهم على ذلك، هل أدوا النصح كما ينبغي؟ غير ناظرين إلى نتائج ما تسفر عنه تلك الدعوة، إذ الأمر لله من قبل ومن بعد ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

كما قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ١٢١٨.
وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٥٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٨/ ١٩٣.

(٣) انظر: الكشاف ٢/ ٨٦.

[القصص: ٥٦].

وقال له أيضا في الموضوع ذاته: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

ومعنى ﴿لَا تَهْدِي﴾: أي: لا تزرع الهداية في القلوب، ولا توصل إلى الإيمان المطلوب، ومعنى ﴿لَتَهْدِي﴾: أي: لتدل وترشد وتوضح الطريق، وبذلك يجمع ما بين الآيتين، ويزول ما قد يوهم التعارض بينهما.

[انظر: مدين: عاقبة قوم مدين]

الدروس المستفادة من قصة شعيب

وسنركز في هذا المبحث على طرف من تلك الفوائد والدرر التي اشتملت عليها هذه القصة المباركة، مراعين في ذلك ما تمس الحاجة إليه، لاسيما ما يحتاج إليه الدعاة والمرشدون ورجال التربية في أيامنا هذه، مما ينعكس على الأمة أمنا وسلاما ومحبة ووئاما، وذلك في نقاط معدودة على النحو الآتي:

١. أن التوحيد وتصحيح العقيدة أساس دعوة الأنبياء جميعا عليهم الصلاة والسلام، غير أن ذلك ليس بمعزل عن واقع الحياة، ولذا فإن شعيبا عليه السلام لم يقتصر على دعوتهم إلى التوحيد فحسب، بل أمرهم بإيفاء الكيل والوزن، وذلك لتنظيم الجانب الاجتماعي والاقتصادي في حياة الناس، والعدول عن النظام الاقتصادي القائم على الظلم والجشع، فينبغي على الدعاة والمصلحين مراعاة ذلك والاهتمام به.

٢. يعد البيان الناصع، وجودة التعبير، وحسن المنطق، وجزالة الأسلوب، وأدب الحوار، من الأمور الهامة للدعاة إلى الله تعالى، لما في ذلك من أثر فاعل في إيصال كلمة الحق إلى الناس

بأحسن طريق، كما قال تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨]. وبحسن مراجعة قومه سمي خطيب الأنبياء عليه وعلهم الصلاة والسلام.

٣. لقد كان الحرص على هداية الناس، وإيصالهم إلى الصراط المستقيم، وإصلاح أمورهم، واستقامة أحوالهم، من أهم مهمات الرسل عليهم الصلاة والسلام، وينبغي أن يتأسى بهم الدعاة المصلحون في كل عصر ومصر، وهكذا كان شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

٤. أن قليل الحلال خير وأعظم بركة من كثير الحرام ، دل على هذا قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [هود: ٨٦]. فكم جر الحرام على أصحابه من نكبات وويلات، وكم من دراهم قليلة من الحرام، أكلت كثيرا من دراهم الحلال !! ومن يقف على بعض دواعي الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالعالم هذه الأيام يدرك سر ذلك.

٥. يعد نصح شعيب عليه السلام لقومه الدرس الأول في الاقتصاد التطبيقي من ناحية الوزن والكيل، الذي يؤثر في حياة الناس اليومية، وتعاملهم الاقتصادي والمالي والتجاري في مختلف المجالات التي تحتاج إلى إيفاء من الكيل والميزان، كي تستقيم المعاملات بين الناس[1].

٦. للصلاة أثر كبير في تغيير سلوك الإنسان إلى الأحسن، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وقد أدرك قوم شعيب ذلك ، ولذا فقد: ﴿قَالُوا يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا﴾ [هود: ٨٧]. حيث لاحظوا أن تأثير الصلاة على شعيب وأتباعه قد غيرت أوضاعهم، وأدت إلى التحرر من عبادة غير الله، وترك الغش في المكاييل والأوزان، فكان أن تهكموا عليه بهذا القول، ؛لأنهم في قرارة أنفسهم لا يريدون تغيير ما هم فيه[2].

٧. (الشيء) في قوله تعالى: ﴿وَلَا

---

(١) انظر: المنهج الاقتصادي في المكاييل والموازين لنبي الله شعيب عليه السلام ص ٢٠-٢١.

(٢) انظر: مع الأنبياء في القرآن الكريم ص ٢٠٧.

﴿تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾[هود: ٨٥] يشمل الأنواع الحسية من كافة معاملات الناس التي تندرج تحت اسم المكاييل والأوزان، كما يشمل المعاني المعنوية من احترام الناس وتقديرهم حسب فضلهم ومعطياتهم وتضحياتهم للمجتمع، أو هضم حقوقهم المعنوية ، كالعلوم والمعرفة والمهارة بالصنائع بعدم الاعتراف بها، وعدم تنزيلهم المنزلة التي يستحقونها بموجبها[١].

٨. الهدف من تأكيد الوجوب بالإيفاء بالمكيال والميزان في المعاملات التجارية هو إقرار العدل حتى لا ينتشر الفساد ، وتعم الفوضى في البلاد، وتصل الأمور إلى الهاوية، ولذا فقد حذر شعيب عليه السلام قومه من الإفساد في الأرض والغش[٢].

٩. ينبغي الترفع عن مقابلة السفهاء بمثل سفاهتهم ، نلاحظ ذلك في الفرق الكبير بين خطاب قوم شعيب عليه السلام ورده عليهم، فتأمل حلمه وصبره ورده عليهم بعد طلبهم العذاب: ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨٨﴾ [الشعراء: ١٨٨].

١٠. ذكر شعيب عليه السلام قومه بأنعم الله عليهم ، فقال لهم : واذكروا إذ كنتم قليلا في عددكم، فكثركم بالنسل والتوالد حتى صار عددكم كبيرا، و في هذا إشارة إلى أن الكثرة نعمة عظمية لما فيها من المهابة والعزة والقوة[٣].

١١. الإيمان الصادق لا يزيد أصحابه إلا قوة وإصرارا على الحق ، وكذلك كان شعيب عليه السلام والذين آمنوا معه، وبه عرف الصادقون في كل زمان ومكان، على مر العصور وتعاقب الدهور.

١٢. من أهم ما يجب على الدعاة: أن يتحلوا بما يدعون إليه من الأخلاق والآداب، ويتصفوا بذلك، وهذا ما أعلن عنه شعيب عليه السلام بقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾، وهو أمر لا بد منه لحصول النفع للمدعو، والنجاة للداعي.

١٣. المسلم يتوكل على الله تعالى في كل شؤونه وأحواله، ويستعين به، ويصبر لأمره، ويدعو الله أن يثبته وينصره[٤].

١٤. إن النجاة في الصدق، وإن مآل الكاذب الفضيحة، وعاقبته وخيمة، وللتنبه على هذه الحقيقة قال شعيب

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٥٢٥، محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٢٠٧.
(٢) انظر: أحسن القصص ص ٨٩.
(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ٣/ ٦٠.
(٤) المصدر السابق ٣/ ٦١.

لقومه ما حكاه الله تعالى عنه: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣].

١٥. الصد عن سبيل الله ظلم سافر، وخلل في الفكر لا يقل ضرره عن الخلل الاقتصادي، ولذا فإن شعيبا قد حذر قومه من عاقبة ذلك ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦]. وقد شاهدنا في أيامنا هذه عاقبة أمثال هؤلاء سواء كانوا من أبناء جلدتنا أم من غيرنا.

١٦. مراعاة جناب الله تعالى أولى من كل شيء، وقد نبه شعيب عليه السلام قومه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: أتتركوني لأجل عشيرتي ولا تتركوني ولا تؤذونني؛ إعظاما لجناب الله تبارك وتعالى الذي أرسلني إليكم لتبليغكم رسالته؟[1]

١٧. الدعاء سلاح ماض، وقد استعمله الرسل عليهم السلام، ولكن بعد أن استنفذوا كل ما بوسعهم من النصح والإرشاد، فصدق فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]. وكذلك فعل شعيب عليه السلام، فقد دعا على قومه، ولكنه دعاء اتسم بالتفويض والتوكل على الله جل في علاه ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]. فكان دعاءً متميزًا، لم يظهر فيه طلب نزول العذاب أو استعجاله.

١٨. لقد تحققت سنة الله في قوم شعيب عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف: ٩١-٩٢]

١٩. ينبغي عدم التأسف على هلاك الظالمين، لأنهم معاول هدم في المجتمع تهدد أمنه واستقراره، لا يصح المجتمع ولا يصلح مع استمرار فسادهم وبغيهم، ولنتأمل موقع الحمد بعد هلاك الظالمين في قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٥]. فما أجمل ما حكاه الله تعالى عن شعيب عليه السلام إذ يقول: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ

---
(١) انظر: المستفاد ١/ ٢٤٦.

 [الأعراف: ٩٣].

موضوعات ذات صلة:

إبراهيم عليه السلام، صالح عليه السلام، موسى عليه السلام، هود عليه السلام، النبوة، نوح عليه السلام





عناصر الموضوع

المجلد التاسع عشر

مفهوم الشفاعة

أولًا: المعنى اللغوي:

يقول ابن فارس رحمه الله: «الشين والفاء والعين أصل صحيح يدل على مقارنة الشيئين، والشفع خلاف الوتر»[١].

وهي مشتقة من الشفع الذي هو خلاف الوتر[٢]، يقال: شفع الشيء: ضم مثله إليه فجعل الوتر شفعًا[٣].

وقال الزبيدي رحمه الله: «الشفاعة وهي: كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره، وشفع إليه: في معنى طلب إليه، وقال الراغب: الشفع: ضم الشيء إلى مثله، والشفاعة: الانضمام إلى آخر ناصرا له، وسائلا عنه، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى مرتبة إلى من هو أدنى، ومنه الشفاعة في القيامة، وقال غيره: الشفاعة: التجاوز عن الذنوب والجرائم، وقال ابن القطاع: الشفاعة: المطالبة بوسيلة أو ذمام، والشفعة، بضمتين: لغة في الشفعة في الدار والأرض»[٤].

فأصل كلمة الشفاعة تدل على ضم الشيء إلى مثله، وهي مشتقة من الشفع الذي هو ضد الوتر. قال القرطبي: «فالشفاعة إذًا ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك»[٥].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال ابن الأثير رحمه الله: «هي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم بينهم»[٦]، والمشفع الذي يقبل الشفاعة، والمشفع الذي تقبل شفاعته[٧].

ويقول ابن عاشور رحمه الله: «الشفاعة: الوساطة في إيصال خيرٍ أو دفع شرٍ، سواءٌ كانت بطلبٍ من المنتفع أم لا»[٨].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٢٠١.
(٢) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٩٤٧.
(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٤٨٧.
(٤) تاج العروس، الزبيدي ٢١/ ٢٨٧.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٩٥.
(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ١١٨٤، لسان العرب، ابن منظور ٨/ ١٨٣.
(٧) لسان العرب، ابن منظور ٨/ ١٨٣.
(٨) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور ٥/ ١٤٣.

وقال القرطبي رحمه الله: «فهي على التحقيق إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفع، وإيصال المنفعة إلى المشفوع له»[1].

فالشفاعة إذا لا تختص بدرء المفاسد فقط، وإنما هي شاملة لدرء المفاسد وجلب المصالح، في الدنيا في الأمور المشروعة، أو أمور الآخرة.

والعلامة ابن عثيمين رحمه الله يعرفها بقوله: الشفاعة في الاصطلاح: هي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة[2].

جلب منفعة مثل شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الجنة بدخولها، ودفع مضرة مثل لمن استحق النار أن لا يدخلها[3].

ويمكن القول بأن الشفاعة اصطلاحًا هي التجاوز عن الذنوب والجرائم بين طرفين من أجل إيصال الخير، ودفع الشر إظهارًا لمنزلة الشفيع عند المشفع، والله أعلم.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٩٥.
(٢) انظر: شرح العقيدة الواسطية، ابن عثيمين ص ١٦٩.
(٣) القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين ١/ ٣٣٠.

الشفاعة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (شفع) في القرآن الكريم (٣١) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٥	﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:٢٥٥]
المصدر	١٣	﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ:٢٣]
اسم الفاعل	٢	﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الشعراء:١٠٠]
الصفة المشبهة	١٠	﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾ [السجدة:٤]
اسم	١	﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾﴾ [الفجر:٣]

الأصل في الشفع: ضم شيء إلى آخر، ومنه الشفاعة؛ لأن فيها انضمام واحدٍ إلى آخر ناصرًا له ومسائلًا عنه[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٥٣٣-٥٣٦، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب القاف ص٩٢٢-٩٢٥.

(٢) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٢/ ٢٧٨-٢٧٩، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٨٩، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ٣٢٨-٣٢٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الوساطة:

الوساطة لغة:

مأخوذة من وسط الشيء، أي: ما بين طرفيه، فالوسيط: المتوسط بين المتخاصمين أو المتعاملين، وجمعه وسطاء[(١)].

يظهر لنا جليًا تعريف الشفاعة أنها بمعنى الوساطة، لكنها تكون بمعنى الشفاعة في الدنيا، وتكون بمعنى قول الله تبارك وتعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [النساء: ٨٥].

الوسيط قد يتوسط بأمر محمود فيه إحقاق حق، أو غير ذلك مما هو مشروع، فيكون بمعنى الشفاعة الحسنة ، ويثاب على فعله، وقد يتوسط في أمر محرم ، فهذا الفعل محرم، ويكون بمعنى الشفاعة السيئة.

الوساطة اصطلاحًا:

التوسط بين شخصين لقضاء حاجة، أو دفع مضرة.

الصلة بين الوساطة والشفاعة:

الشفاعة فيها يتوسط الشافع بين المستشفِع والمستشفَع، قال ابن عاشور رحمه الله: «والشفاعة: السعي والوساطة في حصول نفعٍ أو دفع ضرٍ، سواءٌ كانت الوساطة بطلبٍ من المنتفع بها أم كانت بمجرد سعي المتوسط، ويقال لطالب الشفاعة: مُسْتَشْفِعٌ، وهي مشتقةٌ من الشَّفع؛ لأن الطالب أو التائب يأتي وحده ، فإذا لم يجد قبولًا ذهب فأتى بمن يتوسل به، فصار ذلك الثاني شافعًا للأول، أي: مصيره شفعًا»[(٢)].

٢ الوسيلة:

الوسيلة لغة:

الوسيلة: ما يتقرب به إلى الغير، والجمع الوسيل، و الوسائل، والتوسيل و التوسل واحد، يقال: وسل فلان إلى ربه وسيلة بالتشديد، و توسل إليه بوسيلة إذا تقرب إليه بعمل[(٣)].

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ١٠٣١.
(٢) التحرير والتنوير ١/ ٤٨٦.
(٣) مختار الصحاح، ابن منظور ١/ ٧٤٠.

الوسيلة اصطلاحًا:

عرفها ابن كثير بقوله: والوسيلة: هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود[1].

الصلة بين التوسل والشفاعة:

الشفاعة في حقيقتها وسيلة يتوصل بها المستشفِع إلى رضا المستشفَع، فالشفاعة صورة من صور التوسل.

٣ الاستغاثة:

الاستغاثة لغة:

مصدر استغاث، وهو مأخوذ من الغوث بمعنى الإغاثة والنصرة عند الشدة[2].

الاستغاثة اصطلاحًا:

طلب الغوث في الشدائد والأزمات[3].

الصلة بين الاستغاثة والشفاعة:

الشفاعة والإغاثة يشتركان في أن كليهما معونة للطالب.

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٠٣.
(٢) انظر: الصحاح ١/ ٢٨٩، مقاييس اللغة ٤/ ٤٠٠، لسان العرب ٦/ ٣٣١٢.
(٣) انظر: الكليات، الكفوي ص١٥٩.



الشفاعة بين النفي والاثبات

وردت الشفاعة في القرآن الكريم في آيات كثيرة بعضها تنص على إثباتها وأخرى بنفيها، فالشفاعة التي أثبتها الله تبارك وتعالى لأهل الإسلام من أهل التوحيد ، فقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم سؤلًا في غاية الأهمية: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فأجاب عليه الصلاة والسلام: **(أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه أو من نفسه)**[١].

فأصل وقوع الشفاعة هو تحقيق التوحيد، ورضى الرب تبارك وتعالى عن الشافع والمشفوع له والمشفوع فيه.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ [يونس: ٣].

قال ابن القيم رحمه الله: «والشفاعة التي أثبتها الله ورسوله هي الشفاعة الصادرة عن إذنه لمن وحده، والتي نفاها الله هي الشفاعة الشركية، التي في قلوب المشركين، المتخذين من دون الله شفعاء، فيعاملون بنقيض قصدهم من شفعائهم، ويفوز بها الموحدون»[٢].

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب الحرص على الحديث، رقم ٩٩.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٣٤٩.

ويقول أبو جعفر الطبري رحمه الله: «من ذا الذي يشفع لمماليكه إن أراد عقوبتهم، إلا أن يخليه، ويأذن له بالشفاعة لهم، وإنما قال ذلك تعالى ذكره؛ لأن المشركين قالوا: ما نعبد أوثاننا هذه إلا ليقربونا إلى الله زلفى! فقال الله تعالى ذكره لهم: لي ما في السموات وما في الأرض مع السموات والأرض ملكا، فلا ينبغي العبادة لغيري، فلا تعبدوا الأوثان التي تزعمون أنها تقربكم مني زلفى، فإنها لا تنفعكم عندي ولا تغني عنكم شيئا، ولا يشفع عندي أحد لأحد إلا بتخليتي إياه والشفاعة لمن يشفع له، من رسلي وأوليائي وأهل طاعتي»[٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فأما إذا أذن له في أن يشفع فشفع؛ لم يكن مستقلا بالشفاعة بل يكون مطيعا له ، أي: تابعا له في الشفاعة ،وتكون شفاعته مقبولة، ويكون الأمر كله للآمر المسئول، وقد ثبت بنص القرآن في غير آية: أن أحدًا لا يشفع عنده إلا بإذنه، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾[سبأ: ٢٣].

وقال: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

(٣) جامع البيان ٥/ ٣٩٥.

وأمثال ذلك»[1].

فأهل السنة والجماعة يثبتون الشفاعة بشروطها، وهي: إذن الله تبارك وتعالى للشافع أن يشفع، ورضا الله تبارك وتعالى عن المشفوع له أن يشفع فيه، ثم إن الله تبارك وتعالى لا يرضى أن يشفع إلا لأهل التوحيد والسنة.

فقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم: **(لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعتي لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا)**[2].

فدل هذا الحديث العظيم على إثبات الشفاعة لأهل التوحيد، وإن كان من أصحاب الذنوب، ولو كان من أهل الكبائر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ومذهب سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة: إثبات الشفاعة لأهل الكبائر والقول بأنه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، وأيضا: فالأحاديث المستفيضة عن النبي صلى الله عليه وسلم في الشفاعة: فيها استشفاع أهل الموقف ليقضى بينهم، وفيهم المؤمن والكافر، وهذا فيه نوع شفاعة للكفار»[3].

بل ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم شفع لعمه أبا طالب، فأخرج إلى ضحضاح من نار، كما ثبت في الصحيح أنه قال: **(نعم، هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار)**[4].

وخالف أهل الحق والسنة طائفة من أهل البدع في إثبات الشفاعة، كالمعتزلة والخوارج والرافضة، واستندوا في نفيهم الشفاعة على بعض الآيات، فهموها على غير مرادها، وهي التي تنفي الشفاعة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «واحتج هؤلاء المنكرون للشفاعة بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨].

وبقوله: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

وبقوله: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨].

وجواب أهل السنة أن هذا يراد به شيئان: أحدهما: أنها لا تنفع المشركين، كما قال تعالى في نعتهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ١١٨.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب اختباء النبي صلى الله عليه وسلم دعوة الشفاعة لأمته، رقم ١٩٩.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ١١٦.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم ٣٨٨٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، رقم ٢٠٩.

إلى قوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٢-٤٨].

فهؤلاء نفي عنهم نفع شفاعة الشافعين؛ لأنهم كانوا كفارًا.

والثاني: أنه يراد بذلك نفي الشفاعة التي يثبتها أهل الشرك ومن شابههم من أهل البدع.

فأنكر الله هذه الشفاعة، فقال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦].

وقال عن الملائكة: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ ... وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام: ٥١]

فهذه الشفاعة التي أثبتها المشركون للملائكة والأنبياء والصالحين حتى صوروا تماثيلهم، وقالوا: استشفاعنا بتماثيلهم استشفاع بهم، وكذلك قصدوا قبورهم وقالوا: نحن نستشفع بهم بعد مماتهم ليشفعوا لنا إلى الله، وصوروا تماثيلهم، فعبدوهم كذلك، وهذه الشفاعة أبطلها الله ورسوله وذم المشركين عليها وكفرهم بها»[1].

وقال البيضاوي رحمه الله في قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨]: «وقد تمسكت المعتزلة بهذه الآية على نفي الشفاعة لأهل الكبائر، وأجيب بأنها مخصوصة بالكفار»[2].

ويمكن الرد على نفاة الشفاعة الخوارج والمعتزلة بإيجاز بالآتي:

أولًا: الشفاعة ثابتة بالكتاب والسنة الصحيحة المتواترة.

ثانيًا: إجماع سلف الأمة على إثبات الشفاعة، وتلقي أخبار الشفاعة بالقبول والإذعان، كما سيأتي في كلام القرطبي رحمه الله لاحقًا.

ثالثًا: أن أهل العلم جمعوا بين الآيات الواردة بإثبات الشفاعة والآيات الواردة بنفي الشفاعة بأن الآيات الواردة بنفي الشفاعة، والشفيع المراد بالشفاعة للكفار[3].

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ١٤٩-١٥١.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٧٩.
(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ١٤٩، المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ٣/ ٣٥، فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٤٢٦.

والشفاعة المنفية هي التي تطلب من الأصنام والأنداد والأموات الذين لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعًا ولا ضرًا.

قال القرطبي رحمه الله: «مذهب أهل الحق أن الشفاعة حق ، وأنكرها المعتزلة وخلدوا المؤمنين من المذنبين الذين دخلوا النار في العذاب، والأخبار متظاهرة بأن من كان من العصاة المذنبين الموحدين من أمم النبيين هم الذين تنالهم شفاعة الشافعين من الملائكة والنبيين والشهداء والصالحين.... فعلمنا بهذه الجملة أن الشفاعة إنما تنفع المؤمنين دون الكافرين ، وقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ النفس الكافرة لا كل نفس»[1].

ثم إن ظاهر قوله تبارك وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨].

وقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣] العموم، أي: أن كل نفس يوم القيامة لا تنفعها شفاعة الشافعين، ولكن بالنظر إلى سياق الآيات يتبين أن المراد بالأنفس التي لا تنفعها الشفاعة هي الكافرة، التي أشركت وكفرت بخالقها تبارك وتعالى، والدليل على أن المراد من هذه الآية الكفار ما سبقها من آيات، والتي تبين أن المخاطب بها هم اليهود، قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

قال أبو جرير الطبري رحمه الله: «إن الله عز وجل خاطب أهل هذه الآية بما خاطبهم به فيها ؛ لأنهم كانوا من يهود بني إسرائيل، وكانوا يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه وأولاد أنبيائه، وسيشفع لنا عنده آباؤنا، فأخبرهم الله جل وعز أن نفسا لا تجزي عن نفس شيئا في القيامة، ولا يقبل منها شفاعة أحد فيها حتى يستوفى لكل ذي حق منها حقه»، عن عثمان بن عفان: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(إن الجماء لتقتص من القرناء يوم القيامة)**[2].

كما قال الله عز وجل: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧] الآية، فآيسهم الله جل ذكره مما كانوا أطمعوا فيه أنفسهم من النجاة من عذاب الله مع تكذيبهم بما عرفوا من الحق وخلافهم أمر الله في اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وما جاءهم به من عنده بشفاعة آبائهم وغيرهم من الناس كلهم، وأخبرهم

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/ ٣٧٨-٣٧٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٨٢، بلفظ(لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء).

أنه غير نافعهم عنده إلا التوبة إليه من كفرهم والإنابة من ضلالهم، وجعل ما سن فيهم من ذلك إماما لكل من كان على مثل منهاجهم، لئلا يطمع ذو إلحاد في رحمة الله، وأن قوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ إنما هي لمن مات على كفره غير تائب إلى الله عز وجل»[1].

ومن الآيات ما كان المخاطب بها المؤمنون والنفي فيها عامًا؛ كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤].

إلا أن هذا العموم مخصوص بأدلة صحيحة صريحة في العصاة أصحاب الكبائر، منها حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)[2].

ويمكن أن يقال: إن الشفاعة المنفية هي الشفاعة التي لا يأذن الله فيها، أما التي يأذن الله بها، فهذه ليست منفية بل مثبتة.

أما قوله سبحانه: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾ [مريم: ٨٧].

ففيها دليل على إثبات الشفاعة، وأنها ليست منفية بإطلاق، بل هي مشروطة بالإيمان، قال الإمام ابن جرير رحمه الله: «لا يملك هؤلاء الكافرون بربهم يا محمد، يوم يحشر الله المتقين إليه وفدًا الشفاعة، حين يشفع أهل الإيمان بعضهم لبعض عند الله، فيشفع بعضهم لبعض ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ في الدنيا ﴿عَهْدًا﴾ بالإيمان به، وتصديق رسوله، والإقرار بما جاء به، والعمل بما أمر به»[3].

ومن الآيات ما تثبت الشفاعة وتشترط شرطين هما : إذن الله تبارك وتعالى عن الشافع ، والمشفوع فيه ، كما تقدم في الكلام السابق.

وأخبر الله تبارك وتعالى أن الكفار الذين يعبدون الأوثان والأحجار ويأملون أن يشفعوا لكم، بأن ما يعبدون لا يملكون الشفاعة أصلًا، فقال سبحانه: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الزخرف: ٨٦].

والذي شهد بالحق هم أهل التوحيد.

وحكى الله تبارك وتعالى قول المشركين وهم في النار خالدون، كيف يتحسرون ويتندمون على ما فرطوا، فلا إيمان ينجيهم،

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ٦٣٦.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في الشفاعة، رقم ٤٧٣٩، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في الشفاعة، رقم ٢٤٣٥، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة، رقم ٤٣١٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٣٧١٤.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٦٣٣.

ولا عمل يخلصهم، ولا شافع يشفع لهم، ولا صديق ينقذهم، فتقطعت بهم السبل، وأحاط بهم اليأس، فقال: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١].

فالشفاعة ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع، وما كان ظاهره النفي فإنه محمول على نفي الشفاعة للكفار والمشركين، وكذلك التي لا تتحقق فيها شروط الشفاعة ، وهي رضى الله للشافع بالشفاعة ورضى الله عن المشفوع له.

الشفاعة في الدنيا

الشفاعة في الدنيا على نوعين:

أولًا: شفاعة مباحة:

هي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة، فمثلًا: شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الموقف أن يقضى بينهم ، هذه شفاعة بدفع مضرة، وشفاعته لأهل الجنة أن يدخلوها بجلب منفعة[1].

فهي باختصار: الشفاعة عند الآخرين لتخليص الحقوق أو دفع المظالم ودرئها، أو نحو ذلك من الحاجات المباحة.

وقد ورد في الشرع الحنيف ما يبين إباحة مثل هذا العمل وجوازه؛ كقوله تبارك وتعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾ [النساء: ٨٥].

قال ابن كثير رحمه الله: «وقوله: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ أي: من سعى في أمر، فترتب عليه خير، كان له نصيب من ذلك ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ أي: يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيته، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية، ابن عثيمين ص ١٦٩.

عليه وسلم قال: (اشفعوا، تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء)[1].

وقال مجاهد بن جبر: نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض.

وقال الحسن البصري: قال الله تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ ﴾ ولم يقل: من يشفع»[2].

وروي عن مجاهد في قوله: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً ﴾ قال: «شفاعة بعض الناس لبعض»[3].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الشفاعة الحسنة هي الإصلاح بين الناس، والشفاعة السيئة هي المشي بالنميمة بين الناس»[4].

وبين الإمام ابن القيم رحمه الله أن كل من أعان غيره على أمر بقول أو فعل فقد صار شفيعًا له، فقال: «وكل من أعان غيره على أمر بقوله، أو فعله فقد صار شفيعًا له، والشفاعة للمشفوع له هذا أصلها، فإن الشافع يشفع صاحب الحاجة فيصير له شفعًا في قضائها لعجزه عن الاستقلال بها، فدخل في حكم هذه الآية كل متعاونين على خير أو شر بقول أو عمل»[5].

وتستحب الشفاعة عند ولاة الأمور وغيرهم من أصحاب الحقوق المتوفرة فيهم الشروط.

وفي ذلك يقول الإمام النووي رحمه الله: «اعلم أنه تستحب الشفاعة إلى ولاة الأمر وغيرهم من أصحاب الحقوق والمستوفين لها، ما لم تكن شفاعةً في حدٍ، أو شفاعةً في أمرٍ لا يجوز تركه، كالشفاعة إلى ناظرٍ على طفل أو مجنونٍ أو وقفٍ أو نحو ذلك في ترك بعض الحقوق التي في ولايته، فهذه كلها شفاعةٌ محرمةٌ تحرم على الشافع، ويحرم على المشفوع إليه قبولها، ويحرم على غيرهما السعي فيها إذا علمها؛ ودلائل جميع ما ذكرته ظاهرةٌ في الكتاب والسنة وأقوال علماء الأمة، قال الله تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [النساء: ٨٥]»[6].

وقد جاء في السنة المطهرة ما يجوز وما لا يجوز من الشفاعة، فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم شفع عند بريرة كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن زوج بريرة كان عبدا يقال له: مغيث، كأني أنظر إليه يطوف خلفها يبكي، ودموعه تسيل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا، رقم ٦٠٢٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٦٨.
(٣) جامع البيان، الطبري ٨/ ٥٨١.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٥٦.
(٥) روضة المحبين، ابن القيم ص ٣٧٧.
(٦) الأذكار، النووي، ص ٥٢١.

على لحيته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعباس: (يا عباس، ألا تعجب من حب مغيث بريرة، ومن بغض بريرة مغيثا)، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لو راجعته)، قالت: يا رسول الله تأمرني؟ قال: (إنما أنا أشفع)، قالت: لا حاجة لي فيه)[١].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال: (اشفعوا فلتؤجروا ، وليقض الله على لسان نبيه ما أحب)[٢].

قال الإمام النووي رحمه الله في شرح الحديث: «فيه استحباب الشفاعة لأصحاب الحوائج المباحة سواء كانت الشفاعة إلى سلطان ووال ونحوهما ، أم إلى واحد من الناس ، وسواء كانت الشفاعة إلى سلطان في كف ظلم أو إسقاط تعزير أو في تخليص عطاء لمحتاج أو نحو ذلك»[٣].

ويقول عليه الصلاة والسلام كما في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: (اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ما شاء)[٤].

يستفاد منه فوائد ، منها : استشفاع الإمام والعالم والخليفة في حوائج الرعية، والساعي فيه مأجور وإن لم تنقض الحاجة[٥].

وكذلك تجوز الشفاعة في الحدود مالم تبلغ السلطان ، لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (تعافوا الحدود فيما بينكم ، فما بلغني من حد فقد وجب)[٦].

ولما روي عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: «اشفعوا في الحدود ما لم تبلغ السلطان ، فإذا بلغت السلطان فلا تشفعوا»[٧].

فصاحب الشفاعة الحسنة يثاب عليها ولو لم تقبل شفاعته، لأنه قد بذل ما في وسعه.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في زوج بريرة، رقم ٥٢٨٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام، رقم ٢٦٢٧.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم، النووي ١٦/ ١٧٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها، رقم ١٤٣٢.

(٥) انظر: عمدة القاري، العينى ٢٠/ ٢٦٩.

(٦) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الحدود، باب العفو عن الحدود ما لم تبلغ السلطان، رقم ٤٣٧٦، والنسائي في سننه، كتاب قطع السارق، باب ما يكون حرزا وما لا يكون، رقم ٤٨٨٥.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢٩٥٤.

(٧) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، رقم ١٧٣٩٧.

ثانيًا: شفاعة محرمة:

الشفاعة المحرمة تشمل التوسل إلى الأضرحة والقبور والأصنام والأنداد وجعلهم وساطة بينهم وبين الله تبارك وتعالى، وهي أيضًا كل شفاعة أو وساطة في إبطال حق من الحقوق، أو إقرار باطل أو تعطيل حد من حدود الله تبارك وتعالى.

وقد ورد ما يفيد تحريمها في الشرع الحنيف، في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، أن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيدٍ، حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكلمه أسامة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(أتشفع في حدٍ من حدود الله)**، ثم قام فاختطب، ثم قال: **(إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمدٍ سرقت لقطعت يدها)**[(١)].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وفي هذا الحديث من الفوائد منع الشفاعة في الحدود، وقد تقدمت في الترجمة الدلالة على تقييد المنع بما إذا انتهى ذلك إلى أولي الأمر، واختلف العلماء في ذلك ، فقال أبو عمر ابن عبد البر: لا أعلم خلافًا أن الشفاعة في ذوي الذنوب حسنة جميلة ما لم تبلغ السلطان، وأن على السلطان أن يقيمها إذا بلغته، وذكر الخطابي وغيره عن مالك أنه فرق بين من عرف بأذى الناس، ومن لم يعرف ، فقال: لا يشفع للأول مطلقًا سواء بلغ الإمام أم لا، وأما من لم يعرف بذلك فلا بأس أن يشفع له ما لم يبلغ الإمام»[(٢)].

وقال النووي رحمه الله مبينًا حكم الشفاعة في الحدود: «وأما الشفاعة في الحدود فحرام، وكذا الشفاعة في تتميم باطل، أو إبطال حق ونحو ذلك ، فهي حرام»[(٣)].

وقال أيضًا: «وقد أجمع العلماء على تحريم الشفاعة في الحد بعد بلوغه إلى الإمام لهذه الأحاديث، وعلى أنه يحرم التشفيع فيه، فأما قبل بلوغه إلى الإمام فقد أجاز الشفاعة فيه أكثر العلماء إذا لم يكن المشفوع فيه صاحب شر وأذى للناس، فإن كان لم يشفع فيه، وأما المعاصي التي لا حد فيها وواجبها التعزير فتجوز الشفاعة والتشفيع فيها سواء بلغت الإمام أم لا؛ لأنها

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم ٣٤٧٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود، رقم ١٦٨٨.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١٢/ ٩٥.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٦/ ١٧٨

أهون ثم الشفاعة فيها مستحبة إذا لم يكن المشفوع فيه صاحب أذى ونحوه»[1].

وورد ما يدل على تحريمها إذا بلغ الحد إلى السلطان حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله)[2].

فمما سبق يتبين لنا عدم جواز الشفاعة في الحدود بعد بلوغ السلطان، وكذلك إبطال الحقوق، أو إقرار باطل، والله أعلم.

(١) المصدر السابق ١١/ ١٨٦.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأقضية، باب فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها، رقم ٣٥٩٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٦١٩٦.

الشفاعة في الآخرة

أولًا: أنواع الشفاعة في الآخرة:

يوم القيامة يوم عصيب يشتد فيه البلاء بالخلق ويطول عليهم الوقوف فيه ، مع ما يحصل لهم من المعاناة من حر وأهوال وكربات، فيتجه الناس للبحث عمن يخلصهم فيأتون إلى أبيهم آدم عليه السلام فيعتذر ، ثم ينتقلون إلى نوح عليه السلام فيعتذر، ثم يأتون إلى إبراهيم عليه السلام فيعتذر، ثم موسى ، ثم عيسى عليهم السلام وكلاهما يعتذر، ثم بعد ذلك ينتقلون إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم فيقول: أنا لها ، أنا لها، فيشفع لأهل الموقف لفصل القضاء بينهم ، وذلك هو المقام المحمود الذي وعده ربه تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ [الإسراء: ٧٩].

قال أكثر أهل العلم: ذلك هو المقام الذي يقومه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم[3].

روى الإمام الطبري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: المقام المحمود: مقام الشفاعة[4]، ونقل ابن كثير عن ابن عباس

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٣
(٤) المصدر السابق ١٥/ ٤٤.

أنه قال: « إن ربك سيبعثك مقاما محمودًا، وهي الشفاعة، وكل «عسى» في القرآن فهي واجبة»[1].

وروى الإمام الطبري عن مجاهد والحسن بأن المراد بالمقام المحمود شفاعة محمد يوم القيامة[2].

وقال قتادة: «هي الشفاعة، يشفعه الله في أمته»[3].

وقال القرطبي رحمه الله: « اختلف في المقام المحمود على أربعة أقوال: الأول -وهو أصحها-: الشفاعة للناس يوم القيامة، قاله حذيفة بن اليمان، وفي صحيح البخاري عن ابن عمر قال: إن الناس يصيرون يوم القيامة جثا كل أمة تتبع نبيها تقول: يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود. وفي صحيح مسلم عن أنس قال حدثنا محمد صلى الله عليه وسلم قال: **(إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض، فيأتون آدم ، فيقولون له : اشفع لذريتك، فيقول: لست لها ، ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله، فيأتون إبراهيم ، فيقول: لست لها ، ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله، فيؤتى موسى، فيقول: لست لها ، ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمته، فيؤتى عيسى فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم، فأوتى فأقول: أنا لها)**[4] وذكر الحديث.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٢١.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٥.
(٣) انظر: المصدر السابق ١٥/ ٤٦.

وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ سئل عنها قال: **(هي الشفاعة)**[5].

إذا ثبت أن المقام المحمود هو أمر الشفاعة الذي يتدافعه الأنبياء عليهم السلام، حتى ينتهي الأمر إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فيشفع هذه الشفاعة لأهل الموقف ليعجل حسابهم ويراحوا من هول موقفهم، وهو الخاصة به صلى الله عليه وسلم، ولأجل ذلك قال: **(أنا سيد ولد آدم**

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، رقم ٧٥١٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدني أهل الجنة منزلة فيها، رقم ١٩٣.
(٥) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة بني إسرائيل، رقم ٣١٣٧. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٦٣٩.

ولا فخر)[1]»[2].

وقال ابن بطال رحمه الله: «والجمهور على أن المراد بالمقام المحمود: الشفاعة، وبالغ الواحدي فنقل فيه الإجماع»[3]، ورجح ذلك الحافظ ابن حجر رحمه الله بعد أن ذكر أقوال أئمة التفسير[4].

فالشفاعة ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع، وهي واقعة لمن أذن الله تبارك وتعالى له ورضي عنه وعن المشفوع له، قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

قال القرطبي رحمه الله: «وتقرر في هذه الآية أن الله يأذن لمن يشاء في الشفاعة، وهم الأنبياء والعلماء والمجاهدون والملائكة وغيرهم ممن أكرمهم وشرفهم الله، ثم لا يشفعون إلا لمن ارتضى، كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

قال ابن عطية: والذي يظهر أن العلماء والصالحين يشفعون فيمن لم يصل إلى النار وهو بين المنزلتين، أو وصل، ولكن له أعمال صالحة»[5].

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع عنده إلا بإذنه له في الشفاعة، كما في حديث الشفاعة: (آتي تحت العرش، فأخر ساجدًا، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع رأسك، وقل تسمع، واشفع تشفع)، قال: (فيحد لي حدًا فأدخلهم الجنة)[6]»[7].

ثم إن العلماء اختلفوا في شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم إلى أقوال متعددة، فذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الواسطية أن شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث شفاعات، فقال رحمه الله: «أما الشفاعة الأولى؛ فيشفع في أهل الموقف حتى يقضى بينهم بعد أن يتراجع الأنبياء؛ آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ابن مريم عن الشفاعة حتى تنتهي إليه، وأما الشفاعة الثانية؛ فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة، وهاتان الشفاعتان خاصتان له، وأما الشفاعة الثالثة؛ فيشفع فيمن استحق النار، وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم، فيشفع فيمن استحق

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة، رقم ٤٣٠٨.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١٥٧١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٠٩-٣١٠.

(٣) نقله عنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١١/ ٤٢٦.

(٤) انظر: المصدر السابق ١١/ ٤٢٧.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٢٧٣.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قول الله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، رقم ٤٤٧٦.

(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٧٩.

النار أن لا يدخلها، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها، ويخرج الله من النار أقواما بغير شفاعة؛ بل بفضله ورحمته»[1].

وقال القرطبي رحمه الله: «إذا أثبت أن المقام المحمود هو أمر الشفاعة الذي يتدافعه الأنبياء عليهم السلام حتى ينتهي الأمر إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فيشفع هذه الشفاعة العامة لأهل الموقف مؤمنهم وكافرهم ليراحوا من هول موقفهم، فاعلم أن العلماء اختلفوا في شفاعاته وكم هي؟، فقال النقاش: لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث شفاعات: العامة، وشفاعة في السبق إلى الحنة، وشفاعة في أهل الكبائر، وقال ابن عطية في تفسيره: والمشهور أنهما شفاعتان فقط : العامة ، وشفاعة في إخراج المذنبين من النار ، وهذه الشفاعة الثانية لا يتدافعها الأنبياء ، بل يشفعون ويشفع العلماء.

قال القاضي عياض شفاعات نبينا صلى الله عليه و سلم يوم القيامة خمس شفاعات:

الأولى: العامة.

الثانية: إدخال قوم الجنة بغير حساب.

الثالثة: في قوم من أمته استوجبوا النار بذنوبهم ، فيشفعه فيهم نبينا صلى الله عليه وسلم، و من شاء أن يشفع ويدخلون الجنة ، وهذه الشفاعة هي التي أنكرتها المبتدعة الخوارج والمعتزلة، فمنعتها على أصولهم الفاسدة ، وهي الاستحقاق العقلي المبني على التحسين والتقبيح.

الرابعة: فيمن دخل النار من المذنبين، فيخرج بشفاعة نبينا وغيره من الأنبياء والملائكة وإخوانهم من المؤمنين.

الخامسة: في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها و ترفيعها. قال القاضي عياض: وهذه الشفاعة لا تنكرها المعتزلة ، و لا تنكر شفاعة الحشر الأول»[2].

وذكر ابن أبي العز الحنفي في شرحه على الطحاوية بأن الشفاعة ثمانية أنواع[3]، ومنها ما هو خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم، وذكر الشيخ حافظ الحكمي رحمه الله أن الشفاعة ستة أنواع[4]، وكذلك الشيخ عمر الأشقر[5]، فإذا تقرر هذا فإن الشفاعة في الآخرة أنواع:

النوع الأول: الشفاعة العامة.

وهي التي يتدافعها الأنبياء آدم إلى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، كل واحد يحيل على الآخر إلى

(١) شرح العقيدة الواسطية، محمد خليل هراس ص ٢١٥.

(٢) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي ص ٦٠٦-٦٠٧.

(٣) شرح العقدية الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، ص ١٣٢-٢٣٣.

(٤) أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة ص ٧٥.

(٥) القيامة الكبرى، عمر الأشقر ص ١٨٩.

أن يصلوا إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، كما تقدم الكلام عليها باختصار في بداية المطلب، وهي المقام المحمود الذي يحمده عليه الأولون والآخرون.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ [الإسراء: ٧٩].

وثبت عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض، فيأتون آدم، فيقولون له: اشفع لذريتك، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام، فإنه خليل الله، فيأتون إبراهيم فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسى عليه السلام، فإنه كليم الله، فيؤتي موسى فيقول: لست لها، ولكن عليكم بعيسى عليه السلام، فإنه روح الله وكلمته، فيؤتي عيسى فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم، فأوتى، فأقول: أنا لها، فأنطلق فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، فأقوم بين يديه فأحمده بمحامد لا أقدر عليه الآن يلهمينه الله، ثم أخر له ساجدًا، فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه واشفع تشفع، فأقول: رب أمتي أمتي، فيقال: انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة، أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل، ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجدًا، فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: أمتي أمتي، فيقال لي: فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل، ثم أعود إلى ربي فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدًا، فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار، فأنطلق فأفعل)[(١)].

قال النووي رحمه الله: «والحكمة في أن الله تعالى ألهمهم سؤال آدم ومن بعده صلوات الله وسلامه عليهم في الابتداء ولم يلهموا سؤال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هي، والله أعلم - إظهار فضيلة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإنهم لو سألوه ابتداء لكان يحتمل أن غيره يقدر على هذا ويحصله، وأما إذا سألوا غيره من رسل الله تعالى وأصفيائه فامتنعوا، ثم سألوه فأجاب وحصل غرضهم فهو النهاية في ارتفاع المنزلة وكمال القرب وعظيم الإدلال

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، رقم ٧٥١٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم ١٩٣.

والأنس، وفيه تفضيله صلى الله عليه وسلم على جميع المخلوقين من الرسل والآدميين والملائكة، فإن هذا الأمر العظيم ، وهي الشفاعة العظمى لا يقدر على الإقدام عليه غيره صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين، والله أعلم»[(١)].

فالحكمة من جعل الناس يترددون على غير النبي صلى الله عليه وسلم فيه بيان إظهار فضله عليه الصلاة والسلام، كما يقول السفاريني رحمه الله: «وحكمة إلهام الناس التردد إلى غير النبي صلى الله عليه وسلم قبله، ولم يلهموا المجيء إليه من أول وهلة لإظهار فضله وشرفه صلى الله عليه وسلم»[(٢)].

النوع الثاني: شفاعته صلى الله عليه وسلم في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فيشفع ليدخلوا الجنة.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «وظهر لي بالتتبع شفاعة أخرى ، وهي الشفاعة فيمن استوت حسناته وسيئاته أن يدخل الجنة، أرجح الأقوال في أصحاب الأعراف أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم»[(٣)].

وقال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: «شفاعته صلى الله عليه وسلم في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة، وفي أقوام آخرين قد أمر بهم إلى النار أن لا يدخلونها»[(٤)].

النوع الثالث: شفاعته صلى الله عليه وسلم في قوم قد أمر بهم إلى النار أن لا يدخلوها[(٥)].

النوع الرابع: شفاعته صلى الله عليه وسلم في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم[(٦)].

ودليل هذا النوع عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: (دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي سلمة وقد شق بصره، فأغمضه، ثم قال: (إن الروح إذا قبض تبعه البصر)، فضج ناس من أهله، فقال: (لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون)، ثم قال: (اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره، ونور له فيه)[(٧)].

وعن أبي موسى رضي الله عنه، قال: دعا النبي صلى الله عليه وسلم بماء فتوضأ به، ثم

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ٣/ ٥٦.
(٢) لوامع الأنوار البهية، السفاريني ٢/ ٢٠٨.
(٣) فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٤٢٨.
(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٢٩.
(٥) انظر: المصدر السابق ص ٢٨٨، القيامة الكبرى، عمر الأشقر ص ١٨٩.
(٦) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص٢٢٩.
(٧) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حضر، رقم ٩٢٠.

رفع يديه فقال: (اللهم اغفر لعبيد أبي عامر)، ورأيت بياض إبطيه، فقال: (اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس)[1].

قال القرطبي رحمه الله: «شفاعته صلى الله عليه وسلم في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها وترفيعها»[2].

النوع الخامس: شفاعته صلى الله عليه وسلم في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب[3].

ويستدل لهذا النوع بحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ويدخل من أمتي الجنة سبعون ألفًا بغير حساب)، فقال رجل: يا رسول الله! أدع الله أن يجعلني منهم، قال: (اللهم اجعله منهم)، ثم قام آخر فقال: يا رسول الله! أدع الله أن يجعلني منهم، قال: (سبقك بها عكاشة)[4].

ووجه الدلالة منه دعاؤه لعكاشة بن محصن أن يجعله من أولئك السبعين ألفًا فدعاؤه صلى الله عليه وسلم شفاعة له[5].

النوع السادس: الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه، كشفاعته صلى الله عليه وسلم في عمه أبي طالب أن يخفف عنه عذابه[6].

ودليله ما في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر عنده عمه أبو طالب فقال: (لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من نار، يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه)[7].

قال القرطبي في التذكرة بعد ذكر هذا النوع: «فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾ [المدثر: ٤٨].

قيل له: لا تنفعه في الخروج من النار، كما تنفع عصاة الموحدين، الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة»[8].

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «(لعله تنفعه شفاعتي) ظهر من حديث

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الوضوء، رقم ٦٣٨٣.

(٢) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي ص ٦٠٨.

(٣) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص٢٣٢، شرح العقيدة الواسطية، سعيد بن وهف القحطاني ص ٤٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب، رقم ٦٥٤٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم ٢١٦.

(٥) مباحث العقيدة في سورة الزمر، ناصر الشيخ ص ٣٠٧.

(٦) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص٢٣٣.

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم ٣٨٨٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، رقم ٢١٠.

(٨) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي ص ٦٠٨.

العباس وقوع هذا الترجي، واستشكل قوله صلى الله عليه وسلم: (تنفعه شفاعتي) بقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾.

وأجيب بأنه خص ، ولذلك عدوه في خصائص النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل: معنى المنفعة في الآية يخالف معنى المنفعة في الحديث والمراد بها في الآية الإخراج من النار، وفي الحديث المنفعة بالتخفيف»[(١)].

وهذه الشفاعة خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم.

النوع السابع: شفاعته صلى الله عليه وسلم في أن يؤذن لأهل الجنة في دخولها[(٢)].

ومن أدلة هذا النوع ما جاء في صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(أنا أول الناس يشفع في الجنة ، وأنا أكثر الأنبياء تبعًا)**[(٣)].

وفي حديث آخر عنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **(آتي باب الجنة يوم القيامة ، فأستفتح ، فيقول الخازن : من أنت؟ فأقول: محمد ، فيقول: بك أمرت ، لا أفتح لأحد قبلك)**[(٤)].

وهذه الشفاعة خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم، وذلك أن أهل الجنة إذا عبروا الصراط، وقفوا على قنطرة فيقتص بعضهم من بعض، وهذا القصاص غير القصاص الذي يكون في عرصات القيامة، بل هو أخص يطهر الله سبحانه فيه القلوب، ويزيل ما فيها من أحقاد وضغائن، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، ولكنهم إذا أتوا إلى الجنة وجدوها مغلقة لا تفتح لهم الأبواب حتى يشفع لهم الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم.

النوع الثامن: الشفاعة في أهل الكبائر من هذه الأمة ممن دخل النار ، فيخرجون منها، ولكن هذا مقيد بأن يكون سالمًا من الشرك والكفر.

ودليل هذا النوع ما روي عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)**[(٥)].

(١) فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٤٣١.
(٢) مباحث العقيدة في سورة الزمر، ناصر الشيخ ص ٣٠٨.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في قول النبي صلى الله عليه وسلم: أنا أول الناس يشفع في الجنة ،وأنا أكثر الأنبياء تبعا، رقم ١٩٦.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في قول النبي صلى الله عليه وسلم: أنا أول الناس يشفع في الجنة ، وأنا أكثر الأنبياء تبعا، رقم ١٩٧.
(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في الشفاعة، رقم ٤٧٣٩، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في الشفاعة، رقم ٢٤٣٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٣٧١٤.

وروي عنه رضي الله عنه في حديث الشفاعة الطويل، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ثم أرجع فأقول: يا رب ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن، ووجب عليه الخلود، قال النبي صلى الله عليه وسلم: يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله ، وكان في قلبه ما يزن من الخير ذرة)[1].

وروى مسلم عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة)[2].

والأحاديث في هذا كثيرة جدًا.

قال الإمام ابن خزيمة رحمه الله: «إن شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم التي ذكرت أنها لأهل الكبائر، وأنها لمن قد أدخل النار، من غير أهل النار والذين هم أهلها أهل الخلود فيها، بل لقوم من أهل التوحيد ارتكبوا ذنوبًا وخطايا ، فأدخلوا النار لتصيبهم سفعًا منها»[3].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ثبت بالسنة المستفيضة بل المتواترة واتفاق الأمة: أن نبينا صلى الله عليه وسلم الشافع المشفع، وأنه يشفع في الخلائق يوم القيامة، وأن الناس يستشفعون به، يطلبون منه أن يشفع لهم إلى ربهم، وأنه يشفع لهم. ثم اتفق أهل السنة والجماعة أنه يشفع في أهل الكبائر ، وأنه لا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد»[4].

فالشفاعة فضل من الله ومنة على عباده، ولكن عليهم ألا يتكلوا فيقعوا في الذنوب والمعاصي، فرب عمل عملته سخط الله عليك به، ولم يرض عنك، نسأل الله أن يوفقنا لطاعته ورضاه.

ثانيًا: الشافعون في الآخرة:

كما تقدم أن الشفاعة ثابتة بالكتاب والسنة، والإجماع، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة، فكذلك دل القرآن على بعض أنواع الشفاعة، كما في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء: ٧٩].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾، رقم ٧٤١٠.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم ١٩٣.
(٣) التوحيد، ٢/ ٦٥٩.
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ١٠٨.

وجمهور المفسرين على أن هذه الشفاعة هي الشفاعة العظمى ، وهي خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم، وهناك شفعاء آخرون دلت على شفاعتهم السنة النبوية ، وهم كالتالي:

١ . النبي صلى الله عليه وسلم.

والأدلة على شفاعته صلى الله عليه وسلم كثيرةٌ جدًا، فقد ثبت أيضًا في السنة النبوية أن سكنى المدينة والصبر على لأوائها وشظف العيش فيها سبب في شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من أمتي إلا كنت له شفيعا يوم القيامة أو شهيدا)**(١).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إني أحرم ما بين لابتي المدينة أن يقطع عضاهها أو يقتل صيدها ، وقال: المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، لا يدعها أحد رغبة عنه إلا أبدل الله فيها من هو خير منه ، ولا يثبت أحد على لأوائها وجهدها إلا كنت له شفيعًا أو شهيدًا يوم القيامة)**(٢).

وفي رواية أن أبا سعيد مولى المهري جاء إلى أبي سعيد الخدري ليالي الحرة، فاستشاره في الجلاء من المدينة ، وشكا إليه أسعارها وكثرة عياله ، وأخبره أن لا صبر له على جهد المدينة ولأوائها، فقال له: ويحك لا آمرك بذلك ، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(لا يصبر أحد على لأوائها فيموت إلا كنت له شفيعا أو شهيدا يوم القيامة إذا كان مسلما)**(٣).

وثبت أن طلب الوسيلة للنبي صلى الله عليه وسلم بعد الأذان سبب في شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة)**(٤).

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: **(إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما**

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب الترغيب في سكن المدينة والصبر على لأوائها، رقم ١٣٧٨.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم فيها بالبركة وبيان تحريمها وتحريم صيدها وشجرها وبيان حدود حرمها، رقم ١٣٦٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب الترغيب في سكن المدينة والصبر على لأوائها، رقم ١٣٧٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب الدعاء عند النداء، رقم ٦١٤.

يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة)[1].

والأدلة على شفاعته صلى الله عليه وسلم كثيرة جدًا قد تقدمت في المطالب السابقة فليرجع إليها.

٢. الملائكة.

والدليل على ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨].

عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم-أو قال بخطاياهم-فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا فحما، أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر، فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل)[2].

وعن عطاء بن يزيد، قال: كنت جالسا إلى أبي هريرة، وأبي سعيد، فحدث أحدهما حديث الشفاعة والآخر منصت، قال: فتأتي الملائكة فتشفع وتشفع الرسل، وذكر الصراط، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فأكون أول من يجيز، فإذا فرغ الله عز وجل من القضاء بين خلقه وأخرج من النار من يريد أن يخرج أمر الله الملائكة والرسل أن تشفع، فيعرفون بعلاماتهم، إن النار تأكل كل شيء من ابن آدم إلا موضع السجود، فيصب عليهم من ماء الجنة، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل)[3].

٣. القرآن الكريم.

والدليل على شفاعة القرآن لأصحابه العاملين به ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (سورة من القرآن ثلاثون آية تشفع لصاحبها حتى يغفر له ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١])[4].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يسأل الله له الوسيلة، رقم ٣٨٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار، رقم ١٨٥.

(٣) أخرجه النسائي في سننه، كتاب التطبيق، باب موضع السجود، رقم ١١٤٠.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب في عدد الآي، رقم ١٤٠٠. وحسنه الألباني في صحيح أبي داود، رقم ١٢٦٥.

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (القرآن شافع مشفع ، وما حل مصدق ، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار)[1].

٤ . الشهيد.

والدليل على أن الشهيد يشفع لأقاربه حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له في أول دفعة ، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه)[2].

٥ . الصيام.

وثبت في السنة أن الصيام يشفع لصاحبه يوم القيام، كما في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي رب، منعته الطعام والشهوات بالنهار، فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل، فشفعني فيه)، قال: (فيشفعان)[3].

٦ . المصلون على الجنازة إذا كانوا أكثر من أربعين.

ومن فضل الله تبارك وتعالى أنه جعل الصلاة على الجنازة سببًا في شفاعة المصلين للمصلى عليه إن بلغوا الأربعين، وفي بعض الروايات يبلغون مائة.

فقد ثبت عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من ميت تصلي عليه أمة من المسلمين ، يبلغون مائة ، كلهم يشفعون له إلا شفعوا فيه)[4].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أنه مات ابن له بقديد أو بعسفان، فقال: يا كريب انظر: ما اجتمع له من الناس، قال: فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا له، فأخبرته فقال: تقول : هم أربعون؟ قال: نعم، قال:

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، رقم ١٠٤٥٠.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٠١٩.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب فضائل الجهاد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، في ثواب الشهيد، رقم ١٦٦٣، وابن ماجه في سننه، كتاب الجهاد، باب فضل الشهادة في سبيل الله، رقم ٢٧٩٩.
وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح، رقم ٣٨٣٤.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٦٦٢٦، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم ١٨٣٩.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٩٨٤.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب من صلى عليه مائة شفعا فيه، رقم ٩٤٧.

أخرجوه ، فإني سمعت رسول الله عليه وسلم يقول: (ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا إلا شفعهم الله فيه)[1].

فهذا بعض ما وقفت عليه مما دلت عليه النصوص في إثبات أنهم يشفعون في الآخرة، وشفاعتهم كلها مقيدة برضى الله تبارك وتعالى لهم بالشفاعة ورضاه عن المشفوع له، نسأل الله تبارك وتعالى رضاه والجنة.

ثالثًا: المشفوع لهم:

لقد ورد في كتاب الله تبارك وتعالى أن الشفاعة لها شروط أساسية ، منها رضا الله تبارك وتعالى لشافع أن يشفع، ومنها رضاه عن المشفوع.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقال: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦].

وقد ثبت في أحاديث كثيرة أن هناك من يشفع كالنبي صلى الله عليه وسلم وغيره، كما تقدم في المطلب السابق، وهنا سيكون الحديث حول لمن تكون الشفاعة؟

وقد ثبت أن الشفاعة تكون يوم القيامة تكون لفضل القضاء وتخفيف هول الموقف، وكذلك تكون لأقوام تساوت حسناتهم وسيئاتهم، وتكون كذلك لأهل المعاصي الذين دخلوا النار ولكنهم موحدون، فإنه لا يبقى في النار موحد، وإنما هي دار المشركين الكافرين، وتكون أيضًا لمن رضي الله عنه من أهل الكبائر، فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال كما في حديث أنس رضي الله عنه: (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)[2].

قال الإمام ابن خزيمة رحمه الله: إن شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم التي ذكرت أنها لأهل الكبائر»، وأنها لمن قد أدخل النار، من غير أهل النار والذين هم أهلها أهل الخلود فيها، بل لقوم من أهل التوحيد ارتكبوا ذنوبًا وخطايا فأدخلوا النار، لتصيبهم سفعًا منها»[3].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه عن

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب من صلى عليه أربعون شفعوا فيه، رقم ٩٤٨.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في الشفاعة، رقم ٤٧٣٩، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في الشفاعة، رقم ٢٤٣٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٣٧١٤.

(٣) التوحيد ٢/ ٦٥٩.

النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يخرج قومٌ من النار بعد ما مسهم منها سفعٌ، فيدخلون الجنة، فيسميهم أهل الجنة: الجهنميين)[1].

فالشفاعة هي لأهل الكبائر الذي دخلوا النار أن يخرجوا منها ، ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لكل نبي دعوة، فأريد إن شاء الله أن أختبي دعوتي، شفاعة لأمتي يوم القيامة)[2].

وعن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يدخل الله أهل الجنة الجنة، يدخل من يشاء برحمته، ويدخل أهل النار النار، ثم يقول: انظروا من وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه، فيخرجون منها حمما قد امتحشوا، فيلقون في نهر الحياة، أو الحيا، فينبتون فيه كما تنبت الحبة إلى جانب السيل، ألم تروها كيف تخرج صفراء ملتوية؟)[3].

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال : لا إله إلا الله، وفي قلبه وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال :لا إله إلا الله، وفي قلبه وزن ذرة من خير)[4].

فهذه الأحاديث دليل على خروج أهل الكبائر الموحدين الذين دخلوا النار بعد أن يعذبوا بقدر ذنوبهم، ويكون خروجهم بالشفاعة أو برحمة أرحم الراحمين تبارك وتعالى ، سواءً كانوا من أهل الكبائر أو دون ذلك من الذنوب التي هي دون الشرك، فالذنوب وإن عظمت غير الشرك لا توجب لصاحبها الخلود في النار.

قال ابن القيم رحمه الله في عصاة الموحدين من أهل الكبائر: «هؤلاء هم القسم الذين جاءت فيهم الأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنهم يدخلون النار ، فيكونون فيها على مقدار أعمالهم: فمنهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه النار إلى أنصاف ساقيه، ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه ويلبثون فيها على قدر أعمالهم، ثم يخرجون منها، فينبتون على أنهار الجنة ، فيفيض عليهم أهل الجنة من الماء حتى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم ٦٥٥٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب في المشيئة والإرادة: وما تشاءون إلا أن يشاء الله، رقم ٧٤٧٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب اختباء النبي صلى الله عليه وسلم دعوة الشفاعة لأمته، رقم ١٩٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار، رقم ١٨٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، رقم ٤٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم ١٩٣.

تنبت أجسادهم، ثم يدخلون الجنة، وهم الطبقة الذين يخرجون من النار بشفاعة الشافعين، وهم الذين يأمر الله سيد الشفعاء مرارًا أن يخرجهم من النار بما معهم من الإيمان»[(١)].

وقال الطحاوي رحمه الله: «وأهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحدون وإن كانوا غير تائبين»[(٢)].

وكذلك ورد في الشرع كثير من الأعمال يحصل بسببها الشفاعة لأصحابها، نذكر بعض من ورد النص بالشفاعة له، فمنهم:

- أهل التوحيد المجانبين للشرك.
- أقارب الشهداء.
- صاحب القرآن العامل به.
- صاحب الصيام.
- من سكن المدينة وصبر على شدتها ولأوائها.
- من صلى على جنازته أكثر من أربعين.
- من التزم الدعاء بعد الأذان بطلب الوسلية للنبي صلى الله عليه وسلم.
- وكل هذا لم يرد عليه دليل من القرآن الكريم، وإنما ثبت في السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم ص ٣٨٥.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي ٢/ ٥٢٤.

رابعًا: المشفوع فيه:

الشفاعة ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع عند أهل السنة والجماعة ولم يخالفهم في ذلك إلا أهل البدع والضلال، وهي نائلة كل موحد لله تبارك وتعالى، ومن أذن الله له بالشفاعة، ولا يبقى في النار إلا الكفرة وأهل الشرك، فإن من أشرك بالله وكفر به فإنه مخلد في النار لا يخرج منها، بخلاف من كان موحدًا وإن كان من أصحاب الذنوب والمعاصي، فإنه يعذب في النار على قد معاصيه ثم يخرج إلى الجنة.

وقد أخبر الله تبارك وتعالى أهل الكفر وأنهم مخلدون، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ۝١٦٧﴾ [البقرة: ١٦٧].

قال ابن جرير رحمه الله تعالى: «وفي هذه الآية الدلالة على تكذيب الله الزاعمين أن عذاب الله أهل النار من أهل الكفر منقضٍ، وأنه إلى نهاية، ثم هو بعد ذلك فانٍ؛ لأن الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء الذين وصف صفتهم في هذه الآية، ثم ختم الخبر عنهم بأنهم غير خارجين من النار، بغير استثناء منه وقتًا دون وقت. فذلك إلى غير حد ولا نهاية»[(٣)].

وقال القرطبي رحمه الله: «قوله تعالى:

(٣) جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٩٩.

﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ دليلٌ على خلود الكفار فيها وأنهم لا يخرجون منها، وهذا قول جماعة أهل السنة، لهذه الآية، ولقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾[الأعراف: ٤٠]»[(١)].

فهذه الآية دليل على خلود الكفار في النار، وظاهر هذا التركيب يفيد الاختصاص ، كما يقول الشوكاني رحمه الله[(٢)].

وقال ابن عادل الدمشقي: «احتج به على أن أصحاب الكبائر من أهل القبلة يخرجون من النار، فقالوا: لأن قوله: ﴿وَمَا هُم﴾ تخصيص لهم بعدم الخروج على سبيل الحصر؛ فوجب أن يكون عدم الخروج مخصوصا بهم، وهذه الآية الكريمة تكشف عن المراد بقوله: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ۝١٦﴾ [الانفطار: ١٤-١٦].

فبين أن المراد بالفجار ها هنا الكفار؛ لدلالة هذه الآية الكريمة عليه ، والله أعلم»[(٣)].

قال الشنقيطي رحمه الله: «دل القرآن أن أصحاب النار هم الكفار ، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٣٩﴾ [البقرة: ٣٩].

والخلود لا خروج معه ، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾، إلى قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ۝١٦٧﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٧].

وكقوله في سورة الهمزة: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨﴾ [الهمزة: ٣-٨] أي: مغلقةٌ عليهم»[(٤)].

فظهر بأن الكفرة وأهل الشرك مخلدون في النار أبد الآبدين، قد أغلقت عليهم ، ففيها يتقلبون ، ومن عذابها يتجرعون ويعذبون.

ثم إن للشفاعة أركانًا، فالمشفوع فيه أحد أركانها ، وهو المنتفع بها ، ولا بد من خلوها من الموانع الشرعية تدل بها الشفاعة، حتى تقبل فيه وهذا إن كان في الدنيا فمثل الشفاعة في الحدود إذا لم تبلغ السلطان أو كان في القصاص من القصاص إلى الدية، وإن كان في الآخرة فمثل الشفاعة في الذنوب والمعاصي مع خلو صاحبها عن الشرك والأكبر المحبط للأعمال.

ولا بد من توافر بعض شروط في المشفوع فيه حتى تقع له الشفاعة وينتفع بها

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٠٧.
(٢) فتح القدير ١/ ٢٥٦.
(٣) اللباب في علوم الكتاب ٣/ ١٥٠.
(٤) أضواء البيان ٨/ ٦٠.

وهي:

١. إذن الله تبارك وتعالى أن يشفع فيه ورضاه عنه.

فإذن الله تبارك وتعالى للشافع أن يشفع وللمشفوع أن يشفع له شرط أساسي في وقوع الشفاعة ، قال رب العزة والجلال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: ٣].

وقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٣].

قال القرطبي رحمه الله: «أي: أن الشفاعة لا تكون من أحد هؤلاء المعبودين من دون الله من الملائكة والأنبياء والأصنام، إلا أن الله تعالى يأذن للأنبياء والملائكة في الشفاعة ، وهم على غاية الفزع من الله»[1].

وقال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فلا يستطيع أحد أن يشفع إلا بإذنه، ورضاه سبحانه له بالشفاعة، ولا ينتفع أحد بشفاعة أحد إلا برضا الله تبارك وتعالى عنه.

٢. أن يكون المشفوع فيه من أهل التوحيد.

فهذا شرط أساسي لقبول الشفاعة؛ وذلك لورود الأدلة الصريحة الصحيحة بذلك، فالشفاعة في يوم الآخرة لا تكون إلا لأهل التوحيد المؤمنين، لأن الله تبارك وتعالى لا يرضى عن المشركين الكافرين، فهؤلاء قد أخبر عنهم بأن الشفاعة لا تنفعهم ، فقال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨].

وكذلك الآيات التي تبين أن الشفاعة لا تكون إلا بإذن الله ورضاه ، فالله سبحانه لا يرضى عن المشركين والكافرين ، ولا يأذن بالشفاعة لهم، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه؛ لأن الشفاعة إنما تنجع إذا كان المحل قابلا ، فأما من وافى الله كافرا يوم القيامة فإنه له النار لا محالة، خالدا فيها»[2].

وقال القرطبي رحمه الله: «هذا دليل على صحة الشفاعة للمذنبين، وذلك أن قوما من أهل التوحيد عذبوا بذنوبهم، ثم شفع فيهم، فرحمهم الله بتوحيدهم والشفاعة، فأخرجوا من النار، وليس للكفار شفيع يشفع فيهم»[3].

فهنا الشفاعة منفية عن الكافرين الذين لم يكونوا من أهل التوحيد، ولم يكونوا من

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٩٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٧٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٨٨.

أهل الأعمال الصالحة.

فالأصل في وقوع الشفاعة وتحققها هو التوحيد، ومخالفة المشركين، وهذه الشفاعة من أهم الأمور التي يتميز بها أهل التوحيد عن غيرهم، والله تبارك وتعالى لا يرضى عن المشركين ، وإنما رضاه لمن استقام على كتابه وسنة نبيه ووحده وأفرده بالعبادة وحده دون سواه.

خامسًا: آثار الشفاعة في الآخرة:

لا خلاف بين أهل السنة والجماعة على ثبوت الشفاعة في الآخرة، بل ووجوب الإيمان بها، وذلك لما تقدم من الآيات والأحاديث الواردة في إثبات ذلك، وبناء على ذلك فإن للشفاعة آثارًا وفوائد في الآخرة منها:

١ . رحمة أرحم الراحمين.

ويدل على ذلك إذنه لمن شاء من خلقه بالشفاعة : النبي صلى الله عليه وسلم والملائكة والمؤمنون والشهداء وغيرهم، وشفاعته هو سبحانه، كقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وكما ثبت في الصحيحين في الحديث الطويل وفيه: **(فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ، ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضةً من النار ، فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط ، قد عادوا حممًا ، فيلقيهم في نهرٍ في أفواه الجنة، يقال له: نهر الحياة ، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل)**[1] .

إن كثيرًا من عصاة المؤمنين يغفر لهم قبل إدخالهم النار ، إما بشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وإما برحمة الله عزوجل على عباده المسلمين، فيخرج طائفة كثيرة من عصاة الموحدين لا يعلم عدتهم إلا الله تبارك وتعالى ، وذلك برحمته لا بشفاعة الشافعين.

وقد ثبت عند مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعا وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة)**[2] .

٢ . كمال شفقة النبي صلى الله عليه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب فضل السجود، رقم ٨٠٦، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخرجه مسلم في صحيحه، في حديث الشفاعة الطويل عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم ١٨٣، واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم ٢٧٥٢.

وسلم.

في يوم القيام تظهر شفقة النبي صلى الله عليه وسلم بأمته ورحمته بهم، وذلك عندما يرى الناس في ذلك اليوم العصيب حين يموج الناس بعضهم إلى بعض، فيأتي الناس إلى آدم ، فيقولون له: اشفع لذريتك، ثم يأتون إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، ثم يوتى محمد صلى الله عليه وسلم فيقول: أنا لها، فيستأذن على ربه فيؤذن له، فيقوم بين يديه ويحمده بمحامد يلهمه الله ، ثم يخر ساجدًا تحت العرش ويناجي ربه ، فيقال له كما ثبت في الصحيحين: (يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك، وسل تعطه ، واشفع تشفع، فيقول: رب أمتي أمتي، فيقال: انطلق ، فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة، أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها ، فأنطلق فأفعل، ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخر له ساجدًا فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع، فأقول: أمتي أمتي، فيقال: لي فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها ، فأنطلق فأفعل ، ثم أعود إلى ربي، فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخر له ساجدًا، فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار ، فأنطلق فأفعل)[1].

وفي هذا الحديث كذلك تتجلى أيضًا رحمة أرحم الراحمين تبارك وتعالى، وكمال شفقة النبي صلى الله عليه وسلم بأمته، فيخرج الله تبارك وتعالى من النار من كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان، ثم يخرج من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، ثم يخرج من كان في قلبه أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان، فلا يبقى في النار إلا من كان مشركًا بالله عز وجل، وذلك فضل الله.

٣. رفع درجات بعض أهل الجنة.

ومن آثار الشفاعة في الآخرة أن بعض أهل الجنة ترتفع منازلهم، ودرجاتهم في الجنة، ذكرها ابن أبي العز في شرح الطحاوية كما تقدم.

٤. دخول قوم الجنة ، وقد استوجبوا دخول النار.

هذه الشفاعة يشفعها النبي صلى الله عليه وسلم ومن شاء الله تبارك وتعالى من المؤمنين.

وتقدم قول ابن أبي العز الحنفي رحمه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، رقم ٧٥١٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدني أهل الجنة منزلة فيها، رقم ١٩٣.

الله: «شفاعته صلى الله عليه وسلم في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة، وفي أقوام آخرين قد أمر بهم إلى النار أن لا يدخلونها»[١].

وأنه لا يبقى في النار موحد، وإنما هي دار الكفار والمشركين بالله عز وجل، كما ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله ، وكان في قلبه ما يزن من الخير ذرة)[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ويخرج الله من النار أقواما بغير شفاعة؛ بل بفضله ورحمته، ويبقى في الجنة فضل عمن دخلها من أهل الدنيا، فينشئ الله لها أقواما فيدخلهم الجنة»[٣].

هذه آثار الشفاعة في الآخرة، وكلها من فضل الله وإكرامه على الخلق، وكلها بإذنه وتصرفه سبحانه، فهو رب كل شيء وخالقه، وكل شيء تحت تصرفه، إذا قال للشيء ، كن، كان كما أراد.

نسأل الله الإخلاص في القول والعمل وأن يجنبنا الزلل في القول والعمل، ونسأله أن يمن علينا برحمته ويكرمنا بفضله وواسع مغفرة، والحمد لله رب العالمين.

موضوعات ذات صلة:

الإيمان، التوحيد، محمد، الملائكة، النبوة

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٢٢٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، رقم ٤٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم ١٩٣.
(٣) شرح العقيدة الواسطية، الهراس ص٢١٥.





عناصر الموضوع

مفهوم الشكر

أولًا: المعنى اللغوي:

الشكر: عرفان الإحسان ونشره، وحمد موليه، ويقال: شكره وشكر له، يشكره شكرًا، بالضم، وشكورًا، كقعودٍ، وشكرانًا، كعثمان، وحكى اللحياني: شكرت الله، وشكرت لله، وشكرت بالله، وكذلك شكرت نعمة الله، وشكرت بها، وباللام أفصحها، والشكور، كصبورٍ: الكثير الشكر، والجمع شكرٌ وشكورون، والمفعول مشكور[(١)].

فالشكر: الثناء على المحسن بذكر إحسانه[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب: «هو عبارة عن معروف يقابل النعمة، سواء كان باللسان أو باليد أو بالقلب»[(٣)].

فالعبد يشكر الله، فيثني عليه بذكر إحسانه الذي هو نعمة، والله يشكر العبد، فيثني عليه بقبوله إحسانه الذي هو طاعته[(٤)].

وقيل: الشكر: تصور النعمة وإظهارها، قيل: وهو مقلوب عن الكشر، أي: الكشف، ويضاده الكفر، وهو: نسيان النعمة وسترها، ودابة شكور: مظهرة بسمنها إسداء صاحبها إليها.

فالشكر إذًا: عرفان الإحسان، والاعتراف بالنعمة، وأداء ما يترتب عليه، والقيام بحق مسديها[(٥)].

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٥/ ٢٩٢، تهذيب اللغة، الأزهري ١٠/ ١٠، أساس البلاغة، الزمخشري ١/ ٥١٦، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٤٢٣، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر ٢/ ١٢٢٥.

(٢) انظر: الكليات، الكفوي ص٥٣٥.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٦١.

(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٦١.

(٥) انظر: العين، الفراهيدي ٥/ ٢٩٢، جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٧٣٢، الصحاح، الجوهري ٢/ ٧٠٢، المخصص، ابن سيده ٣/ ٤٢٤.

الشكر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (شكر) في القرآن الكريم (٧٥) مرة[1].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤	﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل:٤٠]
الفعل المضارع	٣٥	﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [البقرة:٥٢]
الفعل الأمر	٧	﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان:١٢]
المصدر	٣	﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ:١٣]
اسم الفاعل	١٤	﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة:١٥٨]
صيغة المبالغة	١٠	﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ [إبراهيم:٥]
اسم المفعول	٢	﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء:١٩]

وجاء الشكر في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي الدال على الثناء على المحسن بذكر إحسانه.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الشين، ص٦٦٩-٦٧١.

الألفاظ ذات الصلة

١ الحمد:

الحمد لغة:

هو نقيض الذم[١].

الحمد اصطلاحًا:

الإخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه[٢].

الصلة بين الشكر والحمد:

الشكر يكون باللسان وغيره، أما الحمد فإنه لا يكون إلا باللسان، فالشكر من جهة ما يكون به أعم من الحمد، كما أن الشكر لا يكون إلا على النعم، وأما الحمد فإنه يكون على الصفات والأفعال والنعم[٣]، فالشكر من جهة ما يكون عليه أخص من الحمد، فبينهما عموم وخصوص، كما قرره المحققون من أهل العلم[٤].

٢ الثناء:

الثناء لغة:

ذكر ما يشعر بالتعظيم[٥]، وهو الذكر بالخير والكلام الجميل، ويستعمل في الوصف بمدح أو ذم، فيقال: أثنى عليه خيرًا أو أثنى عليه شرًا، لكن غلب استعماله في الخير، وقد طار ثناء فلان، أي: ذهب وانتشر بين الناس[٦].

الثناء اصطلاحًا:

«هو الإتيان بما يشعر التعظيم مطلقًا، سواء كان باللسان أو بالجنان أو بالأركان؛ وسواء كان في مقابلة شيء أو لا»[٧].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٠٠.
(٢) بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ٩٣.
(٣) انظر: غريب القرآن، ابن قتيبة ص ٢٠.
(٤) انظر: تفسير القرآن، أبو المظفر السمعاني ١/ ٣٥، الكشاف، الزمخشري ١/ ٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٢٨.
(٥) التعريفات، الجرجاني ص٧٢.
(٦) انظر: شمس العلوم، نشوان الحميرى ٢/ ٨٩٥.
(٧) الكليات، الكفوي ص٣٢٤.



الصلة بين الشكر والثناء:

الشكر يكون مقرونًا بنعمة أو معروف، بينما الثناء ليس شرطًا أن يكون على نعمة أو معروف، وقد يكون بشرٍ، وإن جاء في تعريفه أنه الذكر الحسن والوصف الجميل، فهو كذلك باعتبار الغالب[1].

٣ النكران:

النكران لغة:

الجحود، وعدم الاعتراف بالشيء[2].

النكران اصطلاحًا:

جحد النعمة، وعدم الاعتراف بها[3].

الصلة بين الشكر والنكران:

علاقة تضاد، فشكر النعمة إظهارها وعرفانها والثناء على المنعم، بينما نكران النعمة هو جحودها وإنكارها وعدم الاعتراف بها.

(١) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص٢٠١، التعريفات، الجرجاني ص١٢٨.
(٢) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٩٥٢، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر ٣/ ٢٢٨١.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٧٣.

اقتران الصبر والشكر

قرن الله سبحانه وتعالى بين الصبر والشكر في أربعة مواضع من كتابه، وأخبر فيهن بأن آيات الله ينتفع بها أهل الصبر، وأهل الشكر.

من هذه الآيات: ما جاء في سياق بيان الغاية من إرسال موسى عليه السلام إلى قومه والتي منها أن يذكرهم بنعم الله عليهم وإحسانه إليهم، وبأيامه في الأمم المكذبين، ووقائعه بالكافرين؛ ليشكروا نعمه وليحذروا عقابه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

أي: ذكرهم تذكير عظة بأيام الله، وبأيام الله: أيام ظهور بطشه وغلبه من عصوا أمره، وتأييده المؤمنين على عدوهم؛ فإن ذلك كله مظهر من مظاهر عزة الله عز وجل.

ولكون الآيات مختلفة، بعضها آيات موعظة وزجر، وبعضها آيات منة وترغيب، جعلت متعلقة بـ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ إذ الصبر مناسب للزجر؛ لأن التخويف يبعث النفس على تحمل معاكسة هواها خيفة الوقوع في سوء العاقبة، والإنعام يبعث النفس على الشكر[١].

في الآية دلالة على أن الصبار والشكور ينتفعان بالتذكير والتنبيه ويتعظان به.

ومنها: ما أخبر سبحانه وتعالى فيها أن في جري السفن في البحر لدلالات لكل صبار عن محارم الله، شكور لنعمه، قال سبحانه وتعالى: ﴿فِي ذَٰلِكَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: ٣١].

يخبر سبحانه وتعالى أنه هو الذي سخر البحر لتجري فيه الفلك بأمره، أي: بلطفه وتسخيره، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت؛ ولهذا قال: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾، أي: من قدرته، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، أي: صبار في الضراء شكور في الرخاء[٢]. ولما تقدم ذكر جري الفلك في البحر، وكان في ذلك ما لا يخفى على راكبه من الخوف، وتقدم ذكر النعمة، ناسب الختم بالصبر على ما يحذر، وبالشكر على ما أنعم به سبحانه وتعالى[٣].

وفي الآية دلالة على أن آيات الله الكونية إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر.

ومنها: ما أخبر سبحانه وتعالى بها في سياق الحديث عن سبأ وما حل بهم، وما في ذلك من عبرة لكل صبار على المكاره

(١) التحرير والتنوير ١٣/ ١٩١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣١٤.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٤٢٣.

والشدائد، شكور لنعم الله عز وجل.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩].

في الآية دلالة على أن قصص القرآن فيها آيات وعبرٌ لأهل الصبر وأهل الشكر.

ومنها: ما أخبر سبحانه وتعالى فيها بأن أحوال الفلك في البحر فيها عبرة لكل صبار شكور.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى: ٣٣].

جعل ذلك آية لكل صبار شكور؛ لأن في الحالتين خوفًا ونجاة، والخوف يدعو إلى الصبر، والنجاة تدعو إلى الشكر، وإنما جعل ذلك آية للمؤمنين؛ لأنهم الذين ينتفعون بتلك الآية فيعلمون أن الله منفرد بالألوهية ، بخلاف المشركين فإنها تمر بأعينهم فلا يعتبرون بها[(١)].

أساليب القرآن في الحث على الشكر

تنوعت أساليب القرآن في الحث على الشكر على النحو الآتي:

أولًا: أسلوب الأمر:

١ . الأمر بالشكر بصيغة المفرد.

أخبر الله سبحانه وتعالى أنه أعطى العبد الصالح لقمان الحكمة، وهي الفقه في الدين وسلامة العقل والإصابة في القول، وأمره أن يشكره على نعمه عليه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان: ١٢].

«أمره الله بشكره على ما هو محفوف به من نعم الله التي منها نعمة الاصطفاء لإعطائه الحكمة، وإعداده لذلك بقابليته لها، وهذا رأس الحكمة؛ لتضمنه النظر في دلائل نفسه وحقيقته قبل النظر في حقائق الأشياء، وقبل التصدي لإرشاد غيره، وأن أهم النظر في حقيقته هو الشعور بوجوده على حالة كاملة، والشعور بموجده ومفيض الكمال عليه، وذلك كله مقتضٍ لشكر موجده على ذلك»[(٢)].

وفي الآية تنبيه على أن الحكمة الأصلية والعلم الحقيقي هو العمل بهما، وعبادة الله والشكر له. وقال سبحانه وتعالى

(١) التحرير والتنوير ٢٥/ ١٠٦.

(٢) التحرير والتنوير ٢١/ ١٥٢.

حاثًا الإنسان على شكره عز وجل، وشكر والديه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

أي: «قلنا له أن اشكر لي ولوالديك. قيل: الشكر لله على نعمة الإيمان، وللوالدين على نعمة التربية»[١].

٢. الأمر بالشكر بصيغة الجمع.

جاء الأمر بالشكر بصيغة الجمع، قال سبحانه وتعالى آمرًا المؤمنين بشكره: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وهو أمر، وليس بإباحة. قيل: ولا يمكن القول بوجوب الشكر؛ لأنه إما أن يكون بالقلب، أو باللسان، أو بالجوارح[٢].

وأخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه أن إبراهيم عليه السلام أمر قومه بعبادة الله وشكره على نعمه عليهم، قال عز وجل: ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وأمر الله سبحانه وتعالى الأنبياء بشكره على نعمة النبوة والرسالة:

فأمر سبحانه وتعالى موسى عليه السلام بشكره على ما آتاه من النبوة والرسالة، فقال سبحانه وتعالى لموسى: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وأمر سبحانه وتعالى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أن يكون من الشاكرين له على نعمه، فقال: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٦].

أي: على ما أنعم به عليك، من أن جعلك سيد ولد آدم[٣].

ثانيًا: أسلوب الترغيب:

وعد الله سبحانه وتعالى من ثبت على الإيمان وشكره على نعمة الإسلام، بأنه سيجزيه أحسن الجزاء؛ وذلك ترغيبًا للمؤمنين للاقتداء بهم في ثباتهم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [آل عمران: ١٤٤].

أي: الذين صبروا وجاهدوا واستشهدوا[٤].

وهذا «وعد عظيم بالجزاء، وجاء بالسين التي هي في قول بعضهم: قرينة التفسير في الاستقبال، أي: لا يتأخر جزاء الله إياهم

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٦٤.
(٢) البحر المحيط ٢/ ١٠٩.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٤/ ١٤٢.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٢٦.

عنهم ، وظاهر هذا الجزاء أنه في الآخرة، وقيل: في الدنيا بالرزق، والتمكين في الأرض»[1].

ثالثًا: أسلوب المدح:

قال سبحانه وتعالى مادحًا إبراهيم عليه السلام؛ لشكره نعم الله عليه: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١].

«مدح لإبراهيم عليه السلام ، وتعريض بذريته الذين أشركوا وكفروا نعمة الله، مقابل قوله: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ [النحل: ١١٢]»[2].

رابعًا: أسلوب الاستفهام:

أخبر سبحانه وتعالى أنه اختص داود عليه السلام بأن علمه صناعة الدروع، يعملها حلقًا متشابكة، تسهل حركة الجسم؛ لتحمي المحاربين من وقع السلاح فيهم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

استفهام يتضمن الأمر، أي: اشكروا الله على ما أنعم به عليكم[3].

وكان العدول عن إيلاء (هل) الاستفهامية بجملة فعلية إلى الجملة الاسمية مع أن لـ (هل) مزيد اختصاص بالفعل، فلم يقل: فهل تشكرون، وعدل إلى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾؛ ليدل العدول عن الفعلية إلى الاسمية على ما تقتضيه الاسمية من معنى الثبات والاستمرار، أي: فهل تقرر شكركم وثبت؛ لأن تقرر الشكر هو الشأن في مقابلة هذه النعمة[4].

(١) البحر المحيط ٣/ ٣٦٥.
(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٣١٧.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٤٥٧.
(٤) التحرير والتنوير ١٧/ ١٢٢.

الشكر في حق الله تعالى

سمى الله تعالى نفسه بالشاكر والشكور، وقرن سبحانه وتعالى بين الشكر والعبادة؛ لارتباطهما ببعضهما ارتباطًا وثيقًا، وقرن بين الشكور والغفور، والشكور والحليم، والشاكر والعليم، وفي هذا المبحث نتناول الشكر في حقه عز وجل، واقتران أسماء الله (الشاكر، والشكور) ببعض أسمائه الحسنى:

أولًا: استحقاق الله للشكر:

يمتن الله سبحانه وتعالى على عباده بنعمه، ويدعوهم إلى شكرها ورؤيتها؛ وعدم الغفلة عنها.

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

هذه النعم الجسيمة يقابلها وجوب شكر المنعم المتمثل بعبادته وحده دون غيره من الأنداد؛ ولذلك قرن سبحانه وتعالى في مواضع من كتابه بين الشكر والعبادة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

فالشكر في هذه الآية، هو العمل الصالح، وهنا لم يقل: (حلالًا)؛ لأن المؤمن أباح الله له الطيبات من الرزق خالصة من التبعة؛ ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، أي: فاشكروه، فدل على أن من لم يشكر الله، لم يعبده وحده، كما أن من شكره، فقد عبده، وأتى بما أمر به، ويدل أيضًا على أن أكل الطيب، سبب للعمل الصالح وقبوله. والأمر بالشكر عقيب النعم؛ لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة، ويجلب النعم المفقودة[1].

وأمركم سبحانه وتعالى بالشكر له؛ لأنه الذي خلقها لكم، وسهل عليكم أسبابها، بأن تتبعوا سنته الحكيمة في طلب هذه الطيبات واستخراجها، وفي استعمالها فيما خلقت لأجله، وبالثناء عليه جل جلاله وعم نواله، واعتقاد أن هذه الطيبات من فضله وإحسانه، ليس لمن اتخذوا أندادًا له تأثير فيها.

ولذلك قال: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، أي: إن كنتم تخصونه بالعبادة، وتؤمنون بانفراده بالسلطة والتدبير، فاشكروا له خلق هذه النعم وإباحتها لكم، ولا تجعلوا له أندادًا تطلبون منهم الرزق أو ترجعون إليهم بالتحليل والتحريم؛ فإن ذلك له وحده، وإلا كنتم مشركين به كافرين لنعمه، كالذين من قبلكم، جهلوا معنى عبادة الله سبحانه وتعالى، فاتخذوا بينهم وبينه وسطاء في طلب الرزق، ورؤساء يشرعون لهم من الدين ما لم يشرعه، ويحلون لهم

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨١.

ويحرمون عليهم ما لم يشرعه لهم. ومن الشكر له سبحانه وتعالى استعمال القوى التي غذيت بتلك الطيبات في نفع أنفسكم وأمتكم وجنسكم[1].

فالآية توحي بأن الشكر عبادة وطاعة يرضاها الله من العباد.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤].

يقول سبحانه وتعالى آمرا عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب وبشكره على ذلك؛ فإنه المنعم المتفضل به ابتداء الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

أي: فالتمسوا عند الله الرزق لا من عند أوثانكم، تدركوا ما تبتغون من ذلك، وذلوا له واشكروا له على رزقه إياكم، ونعمه التي أنعمها عليكم[3].

فهذه الآيات ترشد إلى شكر الله؛ لأنه المتفضل على عباده بالنعم ابتداء دون طلب منهم، وهو المستحق لإفراده بالعبادة، لكن من الخلق من يعبد غيره، ويشكر غيره، كما جاء في الحديث الذي يستأنس به، عن أبي

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٧٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٢٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٧٥.

الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (قال الله عز وجل: إني والجن والإنس في نبأٍ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري)[4].

ثانيًا: معنى اسم الله الشاكر والشكور:

الله سبحانه وتعالى هو الشكور، وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره، بل يعيد الشاكر مشكورًا.

ومعنى الشكر المضاف إليه سبحانه وتعالى، «الرضا بيسير الطاعة من العبد والقبول له، وإعظام الثواب عليه»[5].

وقال الشيخ السعدي رحمه الله: «ومن أسمائه الشاكر والشكور، وهو الذي يشكر القليل من العمل الخالص النقي النافع، ويعفو عن الكثير من الزلل، ولا يضيع أجر من أحسن عملا، بل يضاعفه أضعافًا مضاعفة بغير عدٍ ولا حساب، ومن شكره أنه يجزي بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة»[6].

ثالثًا: اقتران اسم الله الغفور بالشكور:

اقترن اسم الله الغفور بالشكور في ثلاثة

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب ٢/ ١١/ ١، والطبراني في مسند الشاميين، ٢/ ٩٣/ ٩٧٤. وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، رقم ٢٣٧١.
(٥) شأن الدعاء ص٦٥-٦٦.
(٦) الحق الواضح المبين ص٧٠.

مواضع:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٠].

عن قتادة رحمه الله في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ إنه غفور لذنوبهم، شكور لحسناتهم[1].

وقال ابن عاشور رحمه الله: «فإن من صفاته الغفور الشكور، أي: الكثير المغفرة، والشديد الشكر.

فالمغفرة تأتي على تقصير العباد المطيعين؛ فإن طاعة الله الحق التي هي بالقلب والعمل والخواطر لا يبلغ حق الوفاء بها إلا المعصوم، ولكن الله تجاوز عن الأمة فيما حدثت به أنفسها، وفيما همت به ولم تفعله، وفي اللمم، وفي محو الذنوب الماضية بالتوبة. والشكر كناية عن مضاعفة الحسنات على أعمالهم فهو شكر بالعمل؛ لأن الذي يجازي على عمل المجزي بجزاء وافر، يدل جزاؤه على أنه حمد للفاعل فعله»[2].

وقال السعدي رحمه الله: «غفر لهم السيئات، وقبل منهم القليل من الحسنات»[3].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤].

«وصفوه سبحانه وتعالى بأنه يغفر الذنوب ويجازي على القليل من الأعمال الصالحة بالكثير من الثواب»[4].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣].

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ تذييل وتعليل؛ للزيادة لقصد تحقيقها بأن الله كثيرة مغفرته لمن يستحقها، كثير شكره للمتقربين إليه[5].

رابعًا: اقتران اسم الله الشكور بالحليم:

اقترن اسم الله الشكور بالحليم في موضع واحد، في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧].

قوله: ﴿حَلِيمٌ﴾، أي: لا يعجل بالعقوبة، بل يستر ويتجاوز عن الذنوب. ومجيء هذا التذييل هنا يشعر بالتوجيه في بعض نواحي إصلاح الأسرة، وهو أن يقبل كل من الزوجين عمل الآخر بشكر، ويقابل كل إساءة بحلم؛ ليتم معنى حسن العشرة؛ ولأن الإنفاق يستحق المقابلة بالشكر، والعداوة تقابل بالحلم[6].

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٦٤.
(٢) التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٠٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٨٩.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٠.
(٥) التحرير والتنوير ٢٥/ ٨٥.
(٦) أضواء البيان ٨/ ٢٠٦.

خامسًا: اقتران اسم الله الشاكر بالعليم:

اقترن اسم الله الشاكر بالعليم في موضعين من كتابه:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].

الشاكر والشكور، من أسماء الله سبحانه وتعالى، الذي يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه العظيم من الأجر، الذي إذا قام عبده بأوامره، وامتثل طاعته، أعانه على ذلك، وأثنى عليه ومدحه، وجازاه في قلبه نورًا وإيمانًا وسعة، وفي بدنه قوة ونشاطًا، وفي جميع أحواله زيادة بركة ونماء، وفي أعماله زيادة توفيق، ثم بعد ذلك، يقدم على الثواب الآجل عند ربه كاملًا موفورًا، لم تنقصه هذه الأمور.

ومن شكره لعبده : أن من ترك شيئا لله أعاضه الله خيرا منه، ومن تقرب منه شبرا، تقرب منه ذراعا، ومن تقرب منه ذراعا، تقرب منه باعا، ومن أتاه يمشي، أتاه هرولة، ومن عامله، ربح عليه أضعافا مضاعفة.

ومع أنه شاكر، فهو عليم بمن يستحق الثواب الكامل، بحسب نيته وإيمانه وتقواه، ممن ليس كذلك، عليم بأعمال العباد، فلا يضيعها، بل يجدونها أوفر ما كانت، على حسب نياتهم التي اطلع عليها العليم الحكيم[(١)].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

أي: مثيبًا موفيًا أجوركم. وأتى بصفة الشكر باسم الفاعل بلا مبالغة؛ ليدل على أنه يتقبل ولو أقل شيء من العمل وينميه، ﴿عَلِيمًا﴾ بشكركم وإيمانكم فيجازيكم. وفي قوله: ﴿عَلِيمًا﴾، تحذير وندب إلى الإخلاص لله سبحانه وتعالى. وقيل: الشكر من الله إدامة النعم على الشاكر[(٢)].

سادسًا: من صور شكره سبحانه وتعالى لعبده:

فالله سبحانه وتعالى يشكر عبده بقوله، بأن يثني عليه بين ملائكته وفي ملئه الأعلى، ويلقى له الشكر بين عباده، ويشكره بفعله، فإذا ترك له شيئًا أعطاه أفضل منه، وإذا بذل له شيئًا رده عليه أضعافًا مضاعفة.

نماذج من شكره سبحانه وتعالى لعباده:

لما عقر سليمان عليه السلام الخيل غضبًا لله؛ إذ شغلته عن ذكره، فأراد ألا تشغله مرة أخرى، أعاضه عنها متن الريح، قال سبحانه وتعالى واصفًا شغل سليمان عن ذكره، ثم عقره للخيل: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣١-٣٣].

ثم قال سبحانه وتعالى في تعويضه

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٦.

(٢) تفسير البحر المحيط ٤/ ١١٥.

لسليمان بتسخير الريح: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦].

ولما ترك الصحابة ديارهم وخرجوا منها في مرضاته، أعاضهم عنها أن ملكهم الدنيا وفتحها عليهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝﴾ [النور: ٥٥].

وقد حقق لعباده هذا الوعد، ودانت لهم البلاد والعباد، وننتظر متعبدين أن يحقق الله ذلك للمؤمنين في هذا الزمان.

ولما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن، شكر له ذلك بأن مكن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

ولما بذل الشهداء أبدانهم له حتى مزقها أعداؤه، شكر لهم ذلك، بأن أعاضهم منها طيرًا خضرًا أقر أرواحهم فيها، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها إلى يوم البعث، فيردها عليهم أكمل ما تكون وأجمله وأبهاه، روى أبو داود بسند حسن عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لما أصيب إخوانكم بأحدٍ، جعل الله أرواحهم في جوف طيرٍ خضرٍ، ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهبٍ معلقةٍ في ظل العرش)[١].

ولما بذل رسله أعراضهم فيه لأعدائهم، فنالوا منهم وسبوهم، أعاضهم من ذلك بأن صلى عليهم هو وملائكته، وجعل لهم أطيب الثناء في سماواته وبين خلقه، فأخلصهم بخالصة ذكرى الدار، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ [ص: ٤٦].

ومن شكره سبحانه وتعالى أن العبد من عباده يقوم له مقامًا يرضيه بين الناس، فيشكره له، وينوه بذكره، ويخبر به ملائكته وعباده المؤمنين، كما شكر لمؤمن آل فرعون ذلك المقام، وأثنى به عليه، ونوه بذكره بين عباده، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

وكذلك شكره لصاحب (يس) مقامه ودعوته إليه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠].

فهذه من صور شكره لعباده، والصور كثيرة لا يتسع المجال لاستقصائها.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في فضل الشهادة، رقم ٢٥٢٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٢٤، رقم ٥٢٠٥.

أنواع الشكر

للشكر أنواع ثلاثة، هي: شكر العمل، وشكر الاعتراف، وشكر التحدث.

أولًا: شكر العمل بالطاعة:

قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

أي: اعملوا بالطاعات في حال شكر منكم لله على هذه النعم، ويحتمل أن يكون نصبه على جهة المفعول، أي: اعملوا عملا هو الشكر، كأن الصلاة والصيام والعبادات كلها هي نفسها الشكر؛ إذ سدت مسده[١]. وفي الآية دلالة على أن الشكر يكون بالفعل، كما يكون بالقول والنية[٢]، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة
يدي ولساني والضمير المحجبا

قال أبو عبد الرحمن الحبلي: الصلاة شكر والصيام شكر، وكل خير تعمله لله عز وجل شكر، وأفضل الشكر الحمد. وعن ثابت البناني قال: كان داود عليه السلام قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة، فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي[٣].

وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وأحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود، كان يصوم يوما ويفطر يوما، ولا يفر إذا لاقى)[٤].

ثانيًا: شكر القلب بالاعتراف:

قال السعدي: «الشكر: اعتراف القلب بمنة الله تعالى وتلقيها افتقارًا إليها، وصرفها في طاعة الله تعالى وصونها عن صرفها في المعصية»[٥].

ثالثًا: شكر باللسان بالتحدث بالنعمة:

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ [الضحى: ١١].

أي: أخبر بما أنعم الله عليك؛ اعترافًا بفضله[٦]، فإن التحدث بنعمة الله، داع لشكرها، وموجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها؛ فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن[٧].

قال ابن القيم رحمه الله:

«في هذا التحديث قولان:

أحدهما: أنه ذكر النعمة والإخبار بها،

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٤٢.
(٣) المصدر السابق.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ٣٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، رقم ١٨٦، ١٨٧.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٧٦.
(٦) التحرير والتنوير ٣٠/ ٤٠٣.
(٧) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٢٨.

وقول العبد: أنعم الله علي بكذا وكذا.

قال مقاتل: يعني: أشكر ما ذكر من النعم عليك في هذه السورة من الإيواء مع اليتم، والهدى بعد الضلال، والإغناء بعد العيلة. والتحدث بنعمة الله شكر، كما في حديث جابر، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (من صنع إليه معروفٌ، فليجز به، فإن لم يجد ما يجزي به، فليثن عليه، فإنه إذا أثنى عليه، فقد شكره، وإن كتمه، فقد كفره، ومن تحلى بما لم يعط، كان كلابس ثوبين من زور)[١].

فذكر أقسام الخلق الثلاثة: شاكر النعمة المثني بها، والجاحد لها، والكاتم لها، والمظهر أنه من أهلها وليس من أهلها. فهو متحلٍ بما لم يفعله، قال النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر: (من لم يشكر القليل، لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس، لم يشكر الله. التحدث بنعمة الله شكرٌ، وتركها كفرٌ)[٢].

والقول الثاني: أن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية، هو الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته، وتعليم الأمة. قال مجاهد: هي النبوة. وقال الزجاج: أي: بلغ ما أرسلت به، وحدث بالنبوة التي آتاك الله.

وقال الكلبي: هو القرآن، أمره أن يقرأه على الناس.

والصواب: أنه يعم النوعين، إذ كل منهما نعمة مأمور بشكرها، والتحدث بها، وإظهارها من شكرها»[٣].

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب من صنع إليه معروف فليكافئه، رقم ٢١٥.
وصححه الألباني صحيح الأدب المفرد، ص٩٨.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٠/ ٣٩٠، رقم ١٨٤٤٩.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٣٠١٤.

(٣) التفسير القيم، ابن القيم ص٥٧٤.

العبد والشكر

أخبر الله في كتابه أن الشكر من عباده قليل، وأن الشاكرين لنعمه قليل.

أولًا: الشكر قليل:

ورد في كتاب الله آيات تدل على أن الشكر قليل من العباد.

منها: قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

يقول جل جلاله: ولقد وطأنا لكم -أيها الناس- في الأرض، وجعلناها لكم قرارا تستقرون فيها، ومهادا تمتهدونها، وفراشا تفترشونها، وجعلنا لكم فيها معايش تعيشون بها أيام حياتكم، من مطاعم ومشارب، نعمة مني عليكم وإحسانا مني إليكم، وأنتم قليل شكركم على هذه النعم التي أنعمتها عليكم لعبادتكم غيري، واتخاذكم إلها سواي[١].

والخطاب للمشركين خاصة؛ لأنهم الذين قل شكرهم لله سبحانه وتعالى؛ إذ اتخذوا معه آلهة. ووصف قليل يستعمل في معنى المعدوم، ويجوز أن يكون على حقيقته، أي: إن شكركم الله قليل؛ لأنهم لما عرفوا أنه ربهم فقد شكروه، ولكن أكثر أحوالهم هو الإعراض عن شكره، والإقبال على عبادة الأصنام وما يتبعها، ويجوز أن

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٧٣.

تكون القلة كناية عن العدم على طريقة الكلام المقتصد؛ استنزالا لتذكرهم[٢].

ومنها: قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣].

يخبر سبحانه وتعالى بمننه على عباده الداعية لهم إلى شكره، والقيام بحقه، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾؛ لتدركوا به المسموعات، فتنتفعوا في دينكم ودنياكم، ﴿وَالْأَبْصَارَ﴾؛ لتدركوا بها المبصرات، فتنتفعوا بها في مصالحكم، ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ التي تدركون بها الأشياء، وتتميزون بها عن البهائم، فلو عدمتم السمع، والأبصار، والعقول، بأن كنتم صمًا عميا بكما، ماذا تكون حالكم؟ وماذا تفقدون من ضرورياتكم وكمالكم؟ أفلا تشكرون الذي من عليكم بهذه النعم، فتقومون بتوحيده وطاعته؟! ولكنكم قليل شكركم، مع توالي النعم عليكم[٣].

(٢) التحرير والتنوير ٨ ب/ ٣٥.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٥٦.

ثانيًا: الشاكرون قليل:

قال سبحانه وتعالى مبينًا عداوة الشيطان للمؤمنين: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

أي: من جميع الجهات والجوانب، ومن كل طريق يتمكن فيه من إدراك بعض مقصوده فيهم، ولما علم الخبيث أنهم ضعفاء قد تغلب الغفلة على كثير منهم، وكان جازما ببذل مجهوده على إغوائهم، ظن وصدق ظنه، فقال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾، فإن القيام بالشكر من سلوك الصراط المستقيم، وهو يريد صدهم عنه، وعدم قيامهم به[(١)].

ولقد ظن إبليس ظنًا غير يقين أنه سيضل بني آدم، وأنهم سيطيعونه في معصية الله، فصدق ظنه عليهم، فأطاعوه وعصوا ربهم إلا فريقًا من المؤمنين بالله، فإنهم ثبتوا على طاعة الله، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

ولقد اتبع كثير من الناس إبليس فأضلهم، فلا تجد أكثرهم شاكرين لنعمه الجمة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

أي: ألم تسمع بهذه القصة العجيبة الجارية على من قبلكم من بني إسرائيل، حيث حل الوباء بديارهم، فخرجوا بهذه الكثرة، فرارًا من الموت، فلم ينجهم الفرار، ولا أغنى عنهم من وقوع ما كانوا يحذرون، فعاملهم بنقيض مقصودهم، وأماتهم الله عن آخرهم، ثم تفضل عليهم، فأحياهم، إما بدعوة نبي، كما قاله كثير من المفسرين، وإما بغير ذلك، ولكن ذلك بفضله وإحسانه، وهو لا يزال فضله على الناس، وذلك موجب لشكرهم لنعم الله بالاعتراف بها وصرفها في مرضاة الله، ومع ذلك فأكثر الناس قد قصروا بواجب الشكر[(٢)].

وأخبر سبحانه وتعالى أنه لذو فضل على خلقه؛ بتركه معاجلة من افترى عليه الكذب بالعقوبة في الدنيا وإمهاله إياه، ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله على تفضله عليهم بذلك.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [يونس: ٦٠].

وأخبر سبحانه وتعالى أنه تفضل على عباده بنعمة التوحيد والإيمان، ولكن أكثر

(١) المصدر السابق ص٢٨٤.

(٢) المصدر السابق ص٩٥١.

الناس لا يشكرون.

قال يوسف عليه السلام: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨].

وأخبر سبحانه وتعالى أنه وحده هو الذي جعل للناس الليل؛ ليسكنوا فيه، ويحققوا راحتهم، والنهار مضيئًا؛ ليصرفوا فيه أمور معاشهم، ولكن أكثرهم لا يشكرون.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: ٦١].

وذمه سبحانه وتعالى الأكثر غير الشاكر دلالة على مدح الأقل الشاكر، الذين قال مثنيًا عليهم: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

أي: قلنا ذلك لآل داود فعمل منهم قليل، ولم يعمل كثير، وكان سليمان من أول الفئة القليلة، والشكور: الكثير الشكر. وإذ كان العمل شكرًا أفاد أن العاملين قليل[١].

وهذا هو واقع البشر؛ لأن توفيقه الشكر نعمة تستدعي شكرًا آخر لا نهاية له؛ ولذلك قيل: الشكور من يرى عجزه عن الشكر[٢].

فالشكر من العباد يكون «بقدر الطاقة البشرية هو الواقع وقليل فاعله، وأما الشكر الذي يناسب نعم الله فلا قدرة عليه، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها»[٣].

وقد سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلًا يقول: اللهم اجعلني من القليل، فقال له عمر: ما هذا الدعاء؟ فقال الرجل: أردت قوله عز وجل: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾، فقال عمر رضي الله عنه: «كل الناس أعلم من عمر»[٤].

ثالثًا: منفعة الشكر عائدة إلى العبد:

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ [النمل: ٤٠].

أي: «ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن ربي غني كريم، فكل متقرب إلى الله بعمل صالح يجب أن يستحضر أن عمله إنما هو لنفسه يرجو به ثواب الله ورضاه في الآخرة، ويرجو دوام التفضل من الله عليه في الدنيا، فالنفع حاصل له في الدارين[٥]؛ إذ صان نفسه عن كفران النعمة، وفعل ما هو واجب عليه من شكر نعمة الله عليه»[٦].

فالعبد عند شكره لربه «إنما هو محسن إلى نفسه بالشكر، لا أنه مكافئ به لنعم الرب،

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ١٦٤.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٤٤.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٩٩.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠.
(٥) التحرير والتنوير ١٩/ ٢٧٢.
(٦) المحرر الوجيز ٨/ ٢٤١.

فالرب تعالى لا يستطيع أحد أن يكافئ نعمه أبدًا ولا أقلها ولا أدنى نعمة من نعمه، فإنه سبحانه وتعالى هو المنعم المتفضل الخالق للشكر والشاكر وما يشكر عليه»[1].

شكر المخلوق

الذي لا يشكر الناس لا يشكر الله، فشكر الإنسان على ما قدم له من إحسان سمت الصالحين، وعدم انتظار الشكر من المحسن إليه صفة الأبرار المتقين:

أولًا: شكر المحسن:

من أحق الناس بالشكر الوالدان؛ ولذلك قرن سبحانه وتعالى بين شكره وشكرهما في كتابه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤].

يقول سيد قطب رحمه الله: «وتوصية الولد بالوالدين تتكرر في القرآن الكريم، وفي وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم ترد توصية الوالدين بالولد إلا قليلا، ومعظمها في حالة الوأد، وهي حالة خاصة في ظروف خاصة؛ ذلك أن الفطرة تتكفل وحدها برعاية الوليد من والديه، فالفطرة مدفوعة إلى رعاية الجيل الناشئ لضمان امتداد الحياة، كما يريدها الله، وإن الوالدين ليبذلان لوليدهما من أجسامهما وأعصابهما وأعمارهما ومن كل ما يملكان من عزيز وغال، في غير تأفف ولا شكوى، بل في غير انتباه ولا شعور بما يبذلان! بل

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٢٥٢.

في نشاط وفرح وسرور، كأنهما هما اللذان يأخذان! فالفطرة وحدها كفيلة بتوصية الوالدين دون وصاة، فأما الوليد فهو في حاجة إلى الوصية المكررة؛ ليلتفت إلى الجيل المضحي المدبر المولى الذاهب في أدبار الحياة، بعد ما سكب عصارة عمره وروحه وأعصابه للجيل المتجه إلى مستقبل الحياة، وما يملك الوليد وما يبلغ أن يعوض الوالدين بعض ما بذلاه، ولو وقف عمره عليهما»[1].

وفي الآية دلالة على وجوب شكر الله على نعمة الإيمان، وشكر الوالدين على نعمة التربية.

وكل من أسدى من الخلق معروفًا استحق الشكر. روى أبو داود بسنده عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه**)[2]، أي: من أحسن إليكم أي إحسان فكافئوه بمثله، فإن لم تقدروا فبالغوا في الدعاء له جهدكم حتى تحصل المثلية[3].

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٨٨.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، باب عطية من سأل بالله، ٢/ ٥٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٦٠٢١.
(٣) فيض القدير، المناوي ٦/ ٥٥.

ثانيًا: عدم انتظار المحسن شكر من أحسن إليه:

أثنى الله على المؤمنين المحسنين إلى خلقه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨-٩].

قال ابن عباس ومجاهد رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾: على قلته وحبهم إياه وشهوتهم له[4]، وقال مجاهد رحمه الله في قوله: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾: إنهم لم يقولوا ذلك، لكن علمه الله منهم، فأثنى عليهم ليرغب في ذلك الراغبين[5]، ألا ترى أنهم كانوا يطعمون الأسارى، ولا يطمع من الأسارى المجازاة والشكر؛ ليعلم أنهم لم يقصدوا بها إلا وجه الله تعالى والتقرب إليه[6].

إن سبب ما فعله هؤلاء للمحتاجين «الرحمة الفائضة من القلوب الرقيقة الرفيقة، التي تتجه إلى الله تطلب رضاه، ولا تبتغي بها جزاء من الخلق ولا شكرًا، ولا تقصد بها استعلاء على المحتاجين ولا خيلاء، كما تتقي بها يومًا عبوسًا شديد العبوس، تتوقعه وتخشاه، وتتقيه بهذا الوقاء»[7].

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١٢٨.
(٥) النكت والعيون، الماوردي ٦/ ١٦٧.
(٦) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١٠/ ٣٦٣.
(٧) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٧٨٢.

مجالات الشكر

تنوعت مجالات الشكر في القرآن الكريم، ومنها:

أولًا: مجال الإيمان:

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

يقول عز وجل: من أراد الآخرة وإياها طلب، ولها عمل عملها الذي هو طاعة الله وما يرضيه عنه، وهو مؤمن مصدق بثواب الله، وعظيم جزائه على سعيه لها، كان عملهم بطاعة الله مشكورا، وشكر الله إياهم على سعيهم ذلك حسن جزائه لهم على أعمالهم الصالحة، وتجاوزه لهم عن سيئها برحمته[١].

فالذي يريد الآخرة لا بد أن يسعى لها سعيها، فيؤدي تكاليفها، وينهض بتبعاتها، ويقيم سعيه لها على الإيمان، وليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل، والسعي للآخرة لا يحرم المرء من لذائذ الدنيا الطيبة، إنما يمد بالبصر إلى آفاق أعلى، فلا يكون المتاع في الأرض هو الهدف والغاية، ولا ضير بعد ذلك من المتاع حين يملك الإنسان نفسه، فلا يكون عبدا لهذا المتاع.

وإذا كان الذي يريد العاجلة ينتهي إلى جهنم مذموما مدحورا، فالذي يريد الآخرة ويسعى لها سعيها ينتهي إليها مشكورا يتلقى التكريم في الملأ الأعلى؛ جزاء السعي الكريم لهدف كريم، وجزاء التطلع إلى الأفق البعيد الوضيء[٢].

وقد قرن سبحانه وتعالى الشكر بالإيمان وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به.

قال سبحانه وتعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

أي: ما يصنع الله -أيها المنافقون- بعذابكم، إن أنتم تبتم إلى الله ورجعتم إلى الحق الواجب لله عليكم، فشكرتموه على ما أنعم عليكم من نعمه في أنفسكم وأهاليكم وأولادكم، بالإنابة إلى توحيده والاعتصام به، وإخلاصكم أعمالكم لوجهه، وترك رياء الناس بها، وآمنتم برسوله محمد صلى الله عليه وسلم فصدقتموه، وأقررتم بما جاءكم به من عنده، فعملتم به. يقول: لا حاجة بالله أن يجعلكم في الدرك الأسفل من النار إن أنتم أنبتم إلى طاعته وراجعتم العمل بما أمركم به وترك ما نهاكم عنه؛ لأنه لا يجتلب بعذابكم إلى نفسه نفعا، ولا يدفع عنها ضرا؛ وإنما عقوبته من عاقب من خلقه جزاء منه له على جراءته عليه وعلى خلافه أمره ونهيه، وكفرانه شكر نعمه عليه، فإن أنتم شكرتم

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٥٣٧.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢١٨.

له على نعمه وأطعتموه في أمره ونهيه، فلا حاجة به إلى تعذيبكم، بل يشكر لكم ما يكون منكم من طاعة له وشكر، بمجازاتكم على ذلك بما تقصر عنه أمانيكم فلم تبلغه آمالكم[(١)].

وفي الآية استفهام إنكاري بين الله لنا به أنه سبحانه وتعالى لا يعذب أحدًا من عباده تشفيًا منه ولا انتقامًا بالمعنى الذي يفهمه الناس من الانتقام بحسب استعمالهم إياه فيما بينهم، وإنما ذلك جزاء كفرهم بنعم الله عليهم بالحواس والعقل والوجدان والجوارح، باستعمالها في غير ما خلقت لأجله من الاهتداء بها إلى تكميل نفوسهم بالعلوم والفضائل والأعمال النافعة، وكفرهم بالله سبحانه وتعالى باتخاذ شركاء له، وإن سماهم بعضهم وسطاء وشفعاء.

فبكفرهم بالله سبحانه وتعالى وبنعمه عليهم في الآفاق وفي أنفسهم تفسد فطرتهم، وتتدنس أرواحهم فتهبط بهم في دركات الهاوية، ويكونون هم الجانين على أنفسهم، ولو شكروا وآمنوا فطهرت أرواحهم من دنس الشرك والوثنية، وظهرت آثار عقولهم وسائر قواهم بالأعمال الصالحة المصلحة لمعاشهم ومعادهم، لعرجت بهم تلك الأرواح القدسية إلى المقام الكريم، والرضوان الكبير في دار النعيم، وقدم الشكر هنا على الإيمان؛ لأن معرفة النعم والشكر عليها طريق إلى معرفة المنعم والإيمان به.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ يثيب المؤمنين الشاكرين المصلحين على حسب علمه بحالهم، لا أنه يعذبهم، بل يعطيهم أكثر مما يستحقون على شكرهم وإيمانهم[(٢)].

«إن عذابه لجزاء على الجحود والكفران، وتهديد لعله يقود إلى الشكر والإيمان، إنها ليست شهوة التعذيب، ولا رغبة التنكيل ولا التذاذ الآلام، ولا إظهار البطش والسلطان، تعالى الله عن ذلك كله علوًا كبيرًا، فمتى اتقيتم بالشكر والإيمان فهنالك الغفران والرضوان، وهناك شكر الله سبحانه وتعالى لعبده، وعلمه سبحانه وتعالى بعبده، وشكر الله سبحانه وتعالى للعبد، يلمس القلب لمسة رفيقة عميقة.

إنه معلوم أن الشكر من الله سبحانه وتعالى معناه الرضا، ومعناه ما يلازم الرضا من الثواب، ولكن التعبير بأن الله سبحانه وتعالى: (شاكر) تعبير عميق الإيحاء. وإذا كان الخالق المنشىء، المنعم المتفضل، الغني عن العالمين يشكر لعباده صلاحهم وإيمانهم وشكرهم وامتنانهم، وهو غني عنهم وعن إيمانهم وعن شكرهم وامتنانهم، إذا كان الخالق المنشئ، المنعم المتفضل، الغني عن العالمين يشكر، فماذا ينبغي للعباد المخلوقين المحدثين المغمورين بنعمة

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٦٢٤.

(٢) المنار، محمد رشيد رضا ٥/ ٣٨٦.

الله تجاه الخالق الرازق المنعم المتفضل الكريم؟! ألا إنها اللمسة الرفيقة العميقة التي ينتفض لها القلب ويخجل ويستجيب»[1].

في الآية دلالة على أن الإيمان بالله وصفاته أول درجات شكر العبد ربه.

المقابلة بين الشكر والكفر:

قسم الله سبحانه وتعالى عباده في كتابه إلى شكور وكفور، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وقال نبيه سليمان عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤].

والشاكرون هم الذين ثبتوا على نعمة الإيمان، فلم ينقلبوا على أعقابهم، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

«فالكفر والشكر واقعان بمشيئته وقدره، وأحدهما محبوب له مرضٍ، والآخر مبغوض له مسخوط»[2].

ثانيًا: مجال الأحكام الشرعية:

أخبر سبحانه وتعالى أنه يريد بعباده اليسر والسهولة في شرائعه، ولا يريد بهم العسر والمشقة، ويريد منهم الشكر له على ما أنعم به عليهم من الهداية والتوفيق والتيسير في شرائعه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

يعني تعالى ذكره: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ ولتشكروا الله على ما أنعم به عليكم من الهداية والتوفيق، وتيسير ما لو شاء عسر عليكم[3].

فغاية الصيام «أن يشعر الذين آمنوا بقيمة الهدى الذي يسره الله لهم، وهم يجدون هذا في أنفسهم في فترة الصيام أكثر من كل فترة، وهم مكفوفو القلوب عن التفكير في

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٧٨٦.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٢٦٦.

(٣) جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٢٢.

المعصية، ومكفوفو الجوارح عن إتيانها. وهم شاعرون بالهدى ملموسًا محسوسًا؛ ليكبروا الله على هذه الهداية؛ وليشكروه على هذه النعمة؛ ولتفيء قلوبهم إليه بهذه الطاعة»[1].

وأخبر سبحانه وتعالى أنه يريد في أمر المؤمنين بالطهارة أن يحط بها عنهم أوزارهم، ويدخلون بها عليه، ويرفع به درجاتهم، لا أن يضيق عليهم بها؛ وأباح التيمم توسعةً عليهم، ورحمة بهم، إذ جعله بديلًا للماء في الطهارة، فكانت رخصة التيمم من تمام النعم التي تقتضي شكر المنعم بطاعته فيما أمر وفيما نهى.

قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ [المائدة: ٦].

فالله سبحانه وتعالى لا يريد أن يعنت الناس، ويحملهم على الحرج والمشقة بالتكاليف، إنما يريد أن يطهرهم، وأن ينعم عليهم بهذه الطهارة، وأن يقودهم إلى الشكر على النعمة؛ ليضاعفها لهم ويزيدهم منها. فهو الرفق والفضل والواقعية في هذا المنهج اليسير القويم[2].

وبين الله سبحانه وتعالى للمؤمنين حكم الأيمان والتحلل منها؛ ليشكروا له، وهذه عادة شرعه أن يكون بيانًا، قال سبحانه وتعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩].

أي: لا يؤاخذكم الله بالأيمان التي تحلفونها بلا قصد، كما يقول الرجل في كلامه بدون قصد : لا والله، وبلى والله، فلا مؤاخذة على مثل هذه بكفارة في الدنيا، ولا عقوبة في الآخرة، ولكن يؤاخذكم بما صممتم عليه من الأيمان وقصدتموه إذا أنتم حنثتم فيه، والذي يكفر عقد اليمين إذا نقض، أو إذا أريد نقضه بالحنث به هو إحدى هذه المبرات الثلاث على سبيل التخيير:

- إطعام عشرة مساكين، وجبة واحدة لكل منهم من الطعام الغالب الذي يأكله أهلوكم في بيوتكم.
- أو كسوة عشرة مساكين، وهي تختلف

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٧٢.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٨٥٠.

باختلاف البلاد والأزمنة.

❁ أو تحرير رقبة.

فمن لم يستطع واحدًا من الثلاثة المتقدمة فعليه أن يصوم ثلاثة أيام متتابعات أو متفرقات، فإن عجز عن ذلك لمرض، صام عند القدرة، فإن لم يقدر يرجى له عفو الله ورحمته إذا صحت نيته وصدقت عزيمته، ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾، فلا تبذلوها في أتفه الأمور وأحقرها، ولا تكثروا من الأيمان الصادقة فضلا عن الأيمان الكاذبة، على هذا النحو الشافي الوافي ، يبين الله لكم أعلام شريعته وأحكام دينه؛ ليعدكم ويؤهلكم بذلك إلى شكر نعمه على الوجه الذي يحبه ويرضاه، ويكون سببًا في المزيد من فضله وإحسانه[1].

وفي الآيات السابقة دلالة على أنه ينبغي للعبد أن يتدبر الحكم والأسرار في شرائع الله؛ ليزداد معرفة وعلما، ويزداد شكرا لله ومحبة له على ما شرع من الأحكام، التي توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة.

ثالثًا: مجال النعم:

أنعم الله على عباده بنعمة الأطعمة الحلال المستلذة؛ ليشكروه عليها، قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وأنعم على أهل مكة بجميع أنواع الثمار التي تجلب إليهم من مواطنها؛ ليشكروه عليها، فقال سبحانه وتعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وسخر لهم البحر؛ ليأكلوا مما يصطادون من سمكه لحمًا طريًا، ويستخرجوا منه زينة يلبسونها ، كاللؤلؤ والمرجان وغيرهما، وسخر لهم السفن العظيمة تشق وجه الماء تذهب وتجيء، ويركبونها؛ ليطلبوا رزق الله بالتجارة والربح فيها؛ ليشكروه على هذه النعم العظيمة، ولا يعبدوا غيره.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

وأنعم سبحانه وتعالى على عباده بوسائل الإدراك من السمع والبصر والقلوب؛ لعلهم يشكرونه على تلك النعم، وبتلك النعم،

(١) تفسير المراغي ٧/ ١٧.

ويفردونه سبحانه وتعالى بالعبادة، فقال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وسخر سبحانه وتعالى البدن؛ ليأكلوا منها ويطعموا منها الفقير الذي لم يسأل تعففا، والذي يسأل لحاجته؛ ويشكروا الله على هذه النعم الجليلة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج: ٣٦].

وجعل سبحانه وتعالى لعباده الليل ظلامًا؛ ليستقروا فيه وترتاح أبدانهم، وجعل النهار ضياء؛ ليطلبوا فيه معايشهم، وليشكروه على إنعامه وإفضاله، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣].

وأنعم سبحانه وتعالى على عباده المجاهدين بنعمة النصر على المشركين مع قلة عددهم وعددهم ، فقال سبحانه وتعالى في معرض المن عليهم، وأن هذا النصر سبب لشكره سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

يقول سبحانه وتعالى: فاتقوا ربكم بطاعته واجتناب محارمه؛ لتشكروه على ما من به عليكم من النصر على أعدائكم، وإظهار دينكم، ولما هداكم له من الحق الذي ضل عنه مخالفوكم[1].

وفي نسبة النصر إليه سبحانه وتعالى حض منه على اللجأ إليه وطلبه منه وحده سبحانه وتعالى؛ لأنه «لا ناصر لهم من أنفسهم ولا من سواهم، فإذا اتقوا وخافوا فليتقوا وليخافوا الله، الذي يملك النصر والهزيمة والذي يملك القوة وحده والسلطان، فلعل التقوى أن تقودهم إلى الشكر، وأن تجعله شكرًا وافيًا لائقًا بنعمة الله عليهم على كل حال»[2].

وأخبر سبحانه وتعالى على رغبة الزوجين في الذرية الصالحة، صلاحًا في الخلقة وصلاحًا في الخلق؛ ليشكروه عليها، فإذا آتاهم الله الولد صالحًا سليمًا كما أراده، صرفاه عن الفطرة إلى الشرك.

قال سبحانه وتعالى: ﴿۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ [الأعراف: ١٨٩].

فنعم الله على عباده لا تحصى و لا تعد، وهي سبيل من سبل معرفة الله وتعظيمه وإفراده بالوحدانية والعبادة.

(١) جامع البيان، الطبري ٦/ ١٦.
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٤٧٠.

رابعًا: مجال الشدائد:

لقن الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين: من ينقذكم من مخاوف ظلمات البر والبحر؟ أليس هو الله سبحانه وتعالى الذي تدعونه في الشدائد متذللين جهرًا وسرًا؟ تقولون: لئن أنجانا ربنا من هذه المخاوف لنكونن من الشاكرين بعبادته عز وجل وحده لا شريك له، قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦٣].

وأخبر سبحانه وتعالى أنه هو الذي يسير الناس في البر على الدواب وغيرها، وفي البحر في السفن، حتى إذا كانوا فيها وجرت بريح طيبة، وفرح ركاب السفن بالريح الطيبة، جاءت هذه السفن ريحٌ شديدة، وجاء الركاب الموج من كل مكان، وأيقنوا أن الهلاك قد أحاط بهم، أخلصوا الدعاء لله وحده، وتركوا ما كانوا يعبدون، وقالوا: لئن أنجيتنا من هذه الشدة التي نحن فيها، لنكونن من الشاكرين لك على نعمك.

قال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

خامسًا: الشكر والتفكر:

ينوع الله سبحانه وتعالى الحجج والبراهين ويضرب فيها الأمثال للشاكرين نعمه؛ لأنهم يرونها من أكبر النعم الواصلة إليهم من ربهم، فيتلقونها مفتقرين إليها فرحين بها، فيتدبرونها ويتأملونها ويعملون بمقتضاها.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].

أي: والبلد الطيبة تربته، العذبة مشاربه، يخرج نباته -إذا أنزل الله الغيث وأرسل عليه الحيا- بإذنه طيبا ثمره في حينه ووقته، والذي خبث فردؤت تربته وملحت مشاربه لا يخرج نباته إلا عسرا في شدة، كذلك نبين آية بعد آية، وندلي بحجة بعد حجة، ونضرب مثلا بعد مثل، لقوم يشكرون الله على إنعامه عليهم بالهداية وتبصيره إياهم سبيل أهل الضلالة، باتباعهم ما أمرهم باتباعه، وتجنبهم ما أمرهم بتجنبه من سبل الضلالة. وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالبلد الطيب الذي يخرج نباته بإذن ربه مثل للمؤمن، والذي خبث فلا يخرج نباته إلا نكدًا مثل للكافر[1].

وفي الآية دلالة على أن الشاكرين

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٥٨.

يتفعون بالآيات الكونية الدالة على وجود الصانع سبحانه وتعالى وقدرته وعظمته وتفرده بالتدبير.

والله سبحانه وتعالى يدعو عباده إلى معرفته بالنظر والتأمل في مصنوعاته في الكون:

ومن ذلك أنه سخر لعباده البحر؛ لتجري السفن فيه بأمره، وليبتغوا من فضله بأنواع التجارات والمكاسب؛ لعلهم يشكرونه على تسخيره البحر ويثنون عليه، ويهتدون إلى الصانع سبحانه وتعالى من خلال مصنوعاته، قال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢].

وفي الآية دلالة على أن من حكم تسخير البحر للناس: حملهم على الاعتراف لله بالعبودية، ونبذهم إشراك غيره فيها، وشكره والثناء عليه.

ومنها: أنه سبحانه وتعالى بين لعباده ما منحهم في آيات الليل والنهار من المصالح والمنافع؛ كي يتفكروا فيهما ويستدلوا بهما على وحدانيته وقدرته الباهرة؛ فيشكرونه ويثنون عليه ويفردونه بالعبادة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص: ٧٣].

ومن آياته الدالة على تفرده بالألوهية والتي انتفع بها الشاكرون، توجيه الرياح إلى بلد محتاج إلى المطر، فتحيا به البلاد والعباد.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦].

أي: «من آياته أشياء يقضي كل عقل بأنها لا مشاركة للأوثان فيها، وهو ما في الريح من المنافع ، وذلك أنها بشرى بالمطر، ويذيق الله بها المطر، ويلقح بها الشجر، وغير ذلك، ويجري بها السفن في البحر، ويبتغي الناس بها فضل الله في التجارات في البحر، وفي ذرو الأطعمة، وغير ذلك»[(١)].

فالشكر والتفكر قرينان، فالتفكر يغذي الشكر؛ لأنه يمد الشاكرين بدلائل الوحدانية والقدرة الباهرة، فيشكرون الرب ويفردونه بالعبادة.

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤١.

نماذج قرآنية في الشكر

أخبر سبحانه وتعالى في كتابه عن نماذج شكرت نعمه فأثنى عليها، وألقى في قلوب عباده المؤمنين الثناء عليهم، وأخبر عن الجاحدين نعمه وكيف سلبها منهم، وفي هذا المبحث نبين نماذج شاكرة لنعم الله، ونماذج غير شاكرة لنعمه؛ لنقتدي بالأولى، ونتجنب عاقبة الثانية:

أولًا: نماذج شاكرة:

أثنى الله سبحانه وتعالى على الرسل والأنبياء الشاكرين لنعمه بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم في كتابه الكريم؛ ليقتدي بهم المؤمنون في شكرهم ويتابعونهم عليه، ومن هؤلاء:

١ . نوح عليه السلام.

الذي أثنى الله عليه بأنه كان عبدًا شكورًا بقلبه ولسانه وجوارحه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

عن مجاهدٍ رحمه الله قال عن نوح عليه السلام: «لم يأكل شيئًا قط إلا حمد الله عز وجل، ولم يشرب شرابًا قط إلا حمد الله عليه، ولم يمش مشيًا قط إلا حمد الله عليه، ولم يبطش بشيءٍ قط إلا حمد الله عليه؛ فأثنى الله عز وجل عليه أنه كان عبدًا شكورًا»[(١)].

وفي هذا المعنى روى مسلم بسنده عن أنس بن مالكٍ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها)[(٢)].

وفي الآية دلالة على أن من يعبد الله فقد شكره، ومن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته.

٢ . إبراهيم عليه السلام.

أثنى الله على خليله إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١].

كان عليه السلام يخلص الشكر لله فيما أنعم عليه، ولا يجعل معه في شكره في نعمه عليه شريكًا من الآلهة والأنداد وغير ذلك، كما يفعل مشركو قريش[(٣)].

وفي الآية أوثر صيغة جمع القلة؛ للإيذان بأنه عليه السلام كان لا يخل بشكر النعمة القليلة، فكيف بالكثيرة؟![(٤)].

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ٦/ ٢٥٦، رقم ٤١٣٢.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب حمد الله سبحانه وتعالى بعد الأكل والشرب، ٢٧٣٤.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٩٣.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ١٤٩.

٣. موسى عليه السلام.

أمر سبحانه وتعالى موسى عليه السلام أن يأخذ ما أعطاه من أمره ونهيه، وأن يتمسك به، وأن يعمل به، وأن يكون من الشاكرين له سبحانه وتعالى على ما آتاه من رسالته، واختصاصه بكلامه، قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

«وأمر الله سبحانه وتعالى لموسى بأخذ ما آتاه، والشكر على الاصطفاء والعطاء، فهو أمر التعليم والتوجيه لما ينبغي أن تقابل به نعمة الله. والرسل صلوات الله وسلامه عليهم قدوة للناس، وللناس فيهم أسوة، وعلى الناس أن يأخذوا ما آتاهم الله بالقبول والشكر؛ استزادة من النعمة، وإصلاحًا للقلب، وتحرزًا من البطر، واتصالاً بالله»[1].

وقد قام عليه السلام لله مقامات عظيمة في مقابلة أعدى عدو له وهو فرعون، وصدع بأمره، وعالج أمتي القبط وبني إسرائيل أشد المعالجة، وتحمل في سبيل ذلك الأذى؛ وصبر عليه ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى، وكان الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم يصبر نفسه بما حدث لأخيه موسى عليه السلام ويقول: **(يرحم الله موسى؛ لقد أوذي بأكثر من هذا، فصبر)**[2].

٤ . محمد صلى الله عليه وسلم.

أمر الله الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بعبادة ربه وحده لا شريك له، وأن يكون من الشاكرين لنعمه، قال سبحانه وتعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٦].

فامتثل صلى الله عليه وسلم أمر ربه ، وقام بمقام الشكر حق القيام؛ ففي مقام العبادة قام بين يدي ربه حتى تورمت قدماه الشريفتان.

روى البخاري بسنده عن زيادٍ هو ابن علاقة أنه سمع المغيرة يقول: **(قام النبي صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه، فقيل له: غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر! قال: أفلا أكون عبدًا شكورًا)**[3].

وأوصى معاذًا فيما رواه أبو داود عن معاذ بن جبلٍ، أن رسول صلى الله عليه وسلم أخذ بيده، وقال: **(يا معاذ، والله إني لأحبك، والله إني لأحبك، فقال: أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاةٍ تقول: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك)**[4].

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٧٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليه السلام، رقم ٣٢٢٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب قيام النبي حتى تتورم قدماه، رقم ٤٤٥٩.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، باب الاستغفار،

وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباسٍ: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو: (رب أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي، واهدني ويسر الهدى إلي، وانصرني على من بغى علي، رب اجعلني لك شكارًا، لك ذكارًا)[(١)].

وفي تبليغ الرسالة: لما نزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ [المدثر: ١-٤].

شمر عن ساق الدعوة، وقام في ذات الله أتم قيام، ودعا إلى الله ليلا ونهارا، وسرا وجهارا، ولما نزل عليه: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤].

فصدع بأمر الله ، لا تأخذه فيه لومة لائم، فدعا إلى الله الصغير والكبير، والحر والعبد، والذكر والأنثى، والأحمر والأسود، والجن والإنس[(٢)].

وفي هذا المعنى يقول سيد قطب رحمه الله: «إنه النداء العلوي الجليل، للأمر العظيم الثقيل، نذارة هذه البشرية وإيقاظها، وتخليصها من الشر في الدنيا، ومن النار في الآخرة، وتوجيهها إلى طريق الخلاص قبل فوات الأوان، وهو واجب ثقيل شاق، حين يناط بفرد من البشر -مهما يكن نبيًا رسولا- فالبشرية من الضلال والعصيان والتمرد والعتو والعناد والإصرار والالتواء والتفصي من هذا الأمر، بحيث تجعل من الدعوة أصعب وأثقل ما يكلفه إنسان من المهام في هذا الوجود، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾، والإنذار هو أظهر ما في الرسالة، فهو تنبيه للخطر القريب الذي يترصد للغافلين السادرين في الضلال وهم لا يشعرون، وفيه تتجلى رحمة الله بالعباد، وهم لا ينقصون في ملكه شيئا حين يضلون، ولا يزيدون في ملكه شيئا حين يهتدون؛ غير أن رحمته اقتضت أن يمنحهم كل هذه العناية ليخلصوا من العذاب الأليم في الآخرة، ومن الشر الموبق في الدنيا، وأن يدعوهم رسله ليغفر لهم ويدخلهم جنته من فضله»[(٣)].

هذا غيض من فيض من شكره صلى الله عليه وسلم، وإلا فهو سيد الشاكرين.

ثانيًا: نماذج غير شاكرة:

هذان نموذجان لقرى غير شاكرة لأنعم الله، وبيان كيف سلب الله نعمه منهم:

.١٥٢٢

وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٩٦٩.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٢/ ٤٥٢، رقم ١٩٩٧.

وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٤٨٥.

(٢) زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ١٢.

(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٥٤.

١ . قرية كانت آمنة.

أخبر سبحانه وتعالى عن بلدة كانت في أمان من الاعتداء، واطمئنان من ضيق العيش، يأتيها رزقها هنيئًا سهلا من كل جهة، فجحد أهلها نعم الله عليهم، وأشركوا به، ولم يشكروا له، فعاقبهم الله بالجوع، والخوف.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

قال ابن عباس ومجاهد وابن زيد وقتادة رحمهم الله: «والقرية المضروب بها المثل مكة، كانت بهذه الصفة التي ذكر الله؛ لأنها كانت لا تغزى ولا يغير عليها أحد، وكانت الأرزاق تجلب إليها، وأنعم الله عليها برسوله، فكفروا بأنعم الله في ذلك وفي جملة الشرع والهداية، فأصابتهم السنون والخوف، وسرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم وغزواته»[١].

«وإن من أشنع ما كانوا يصنعون تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنه منهم، وذلك أظهر في معنى الإنعام عليهم والرفق بهم»[٢].

وفي الآية دلالة على أن عدم شكر نعم الله سبب لزوالها عن أهلها.

٢ . قبيلة سبأ.

قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٥-١٩].

سبأ قبيلة معروفة في أداني اليمن، ومسكنهم بلدة يقال لها : (مأرب)، ومن نعم الله ولطفه بالناس عمومًا، وبالعرب خصوصًا، أنه قص في القرآن أخبار المهلكين والمعاقبين، ممن كان يجاور العرب، ويشاهد آثاره، ويتناقل الناس أخباره؛ ليكون ذلك أدعى إلى التصديق، وأقرب للموعظة، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ﴾، أي: محلهم الذي يسكنون فيه ﴿ءَايَةٌ﴾، والآية هنا: ما أدر الله عليهم من النعم، وصرف عنهم من النقم، الذي يقتضي

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٦.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٣٠٨.

ذلك منهم، أن يعبدوا الله ويشكروه. ثم فسر الآية بقوله: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ وكان لهم وادٍ عظيم، تأتيه سيول كثيرة، وكانوا قد بنوا سدًا محكما، يكون مجمعًا للماء، فكانت السيول تأتيه، فيجتمع هناك ماء عظيم، فيفرقونه على بساتينهم، التي عن يمين ذلك الوادي وشماله. وتغل لهم تلك الجنتان العظيمتان من الثمار ما يكفيهم، ويحصل لهم به الغبطة والسرور، فأمرهم الله بشكر نعمه التي أدرها عليهم من وجوه كثيرة:

منها: هاتان الجنتان اللتان غالب أقواتهم منهما.

ومنها: أن الله جعل بلدهم بلدة طيبة، لحسن هوائها، وقلة وخمها، وحصول الرزق الرغد فيها.

ومنها: أن الله سبحانه وتعالى وعدهم -إن شكروه- أن يغفر لهم ويرحمهم؛ ولهذا قال: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

ومنها: أن الله لما علم احتياجهم في تجارتهم ومكاسبهم إلى الأرض المباركة -الظاهر أنها قرى صنعاء، قاله غير واحد من السلف، وقيل: إنها الشام- هيأ لهم من الأسباب ما به يتيسر وصولهم إليها، بغاية السهولة، من الأمن، وعدم الخوف، وتواصل القرى بينهم وبينها، بحيث لا يكون عليهم مشقة، بحمل الزاد والمزاد.

ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾، أي: سيرا مقدرا يعرفونه، ويحكمون عليه، بحيث لا يتيهون عنه ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾، أي: مطمئنين في السير في تلك الليالي والأيام، غير خائفين، وهذا من تمام نعمة الله عليهم، أن أمنهم من الخوف، فأعرضوا عن المنعم، وعن عبادته، وبطروا النعمة، وملوها، حتى إنهم طلبوا وتمنوا أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى، التي كان السير فيها متيسرًا، ﴿وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بكفرهم بالله وبنعمته.

فعاقبهم الله سبحانه وتعالى بهذه النعمة، التي أطغتهم، فأبادها عليهم، فأرسل عليها سيل العرم، أي: السيل المتوعر، الذي خرب سدهم، وأتلف جناتهم، وخرب بساتينهم، فتبدلت تلك الجنات ذات الحدائق المعجبة، والأشجار المثمرة، وصار بدلها أشجار لا نفع فيها، ولهذا قال: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ﴾، أي: شيء قليل من الأكل الذي لا يقع منهم موقعا ﴿خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾، وهذا كله شجر معروف، وهذا من جنس عملهم.

فكما بدلوا الشكر الحسن بالكفر القبيح، بدلوا تلك النعمة بما ذكر، ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾، أي: وهل نجازي جزاء العقوبة

-بدليل السياق- إلا من كفر بالله وبطر النعمة؟! فلما أصابهم ما أصابهم، تفرقوا وتمزقوا، بعدما كانوا مجتمعين، وجعلهم الله أحاديث يتحدث بهم، وأسمارًا للناس، وكان يضرب بهم المثل، فيقال: «تفرقوا أيدي سبأ»، فكل أحد يتحدث بما جرى لهم، ولكن لا ينتفع بالعبرة فيهم إلا من قال الله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

صبار على المكاره والشدائد، يتحملها لوجه الله، ولا يتسخطها ، بل يصبر عليها، شكور لنعمة الله سبحانه وتعالى يقر بها ويعترف، ويثني على من أولاها، ويصرفها في طاعته، فهذا إذا سمع بقصتهم، وما جرى منهم وعليهم، عرف بذلك أن تلك العقوبة جزاء لكفرهم نعمة الله، وأن من فعل مثلهم فعل به كما فعل بهم، وأن شكر الله سبحانه وتعالى حافظ للنعمة، دافع للنقمة، وأن رسل الله صادقون فيما أخبروا به، وأن الجزاء حق، كما رأى أنموذجه في دار الدنيا[(١)].

ثمرات الشكر

أطلق الله جزاء الشاكرين ولم يقيده، ففي سياق الحديث عن الذين ثبتوا على الإيمان حين أشاع الأعداء مقتل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قوله: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾، أي: الذين صبروا وقاتلوا واستشهدوا؛ لأنهم بذلك شكروا نعمة الله عليهم بالإسلام[(٢)]، فهم الذين يعرفون مقدار النعمة التي منحها الله لعباده في إعطائهم هذا المنهج، فيشكرونها باتباع المنهج، ويشكرونها بالثناء على الله، ومن ثم يسعدون بالمنهج؛ فيكون هذا جزاء طيبًا على شكرهم، ثم يسعدون بجزاء الله لهم في الآخرة، وهو أكبر وأبقى[(٣)].

وقد ذكر الطبري بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال في تفسير هذه الآية: (الشاكرون) الثابتون على دينهم، أبو بكر وأصحابه، وكان يقول: «أبو بكر أمير الشاكرين»، وهذه عبارة من علي بن أبي

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٧٧.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٤٤٢.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٨٦.

طالب رضي الله عنه إنما هي إلى صدع أبي بكر رضي الله عنه بهذه الآية في يوم موت النبي صلى الله عليه وسلم وثبوته في ذلك الموطن، وثبوته في أمر الردة.

وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قبض وشاع موته، هاج المنافقون وتكلموا، وهموا بالاجتماع والمكاشفة، أوقع الله سبحانه وتعالى في نفس عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقبض ، فقام بخطبته المشهورة المخوفة للمنافقين برجوع النبي صلى الله عليه وسلم، ففت ذلك في أعضاد المنافقين وتفرقت كلمتهم، ثم جاء أبو بكر بعد أن نظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فسمع كلام عمر فقال له: «اسكت»، فاستمر عمر في كلامه، فتشهد أبو بكر فأصغى الناس إليه، فقال: «أما بعد فإنه من كان يعبد الله تعالى فإن الله حي لا يموت ، ومن كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾»، وتلا الآية كلها.

فبكى الناس ولم يبق أحد إلا قرأ الآية، كأن الناس ما سمعوها قبل ذلك اليوم، قالت عائشة رضي الله عنها: «فنفع الله بخطبة عمر، ثم بخطبة أبي بكر»، فهذا من المواطن التي ظهر فيها شكر أبي بكر وشكر الناس بسببه[(١)].

وفي هذه الآية الكريمة إرشاد من الله سبحانه وتعالى لعباده أن يكونوا بحالة لا يزعزعهم عن إيمانهم أو عن بعض لوازمه فَقْدُ رئيسٍ ولو عَظُم، وما ذاك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه، إذا فقد أحدهم قام به غيره، وأن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله، والجهاد عنه، بحسب الإمكان، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس، فبهذه الحال يستتب لهم أمرهم، وتستقيم أمورهم.

وفي هذه الآية أيضًا أعظم دليل على فضيلة الصديق الأكبر أبي بكر، وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم هم سادات الشاكرين[(٢)].

ووعد سبحانه وتعالى من طلب بعمله الجزاء منه في الآخرة أن يمنحه ما طلبه، ويؤتيه جزاءه وافرًا مع ما له في الدنيا من رزق مقسوم؛ لأنه شكر الله بطاعته وجهاده.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

أي: من كان عمله للدنيا فقط نال منها ما قدره الله له، ولم يكن له في الآخرة نصيب،

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥١٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٥٠.

ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها مع ما قسم له في الدنيا، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

وقوله: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾، أي: سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم[(١)].

وليس المراد أن من أراد ثواب الدنيا وحظوظها يحرم من ثواب الآخرة وحظوظها؛ فإن الأدلة الشرعية دلت على أن إرادة خير الدنيا مقصد شرعي حسن، وهل جاءت الشريعة إلا لإصلاح الدنيا، والإعداد لحياة الآخرة الأبدية الكاملة.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾[التوبة: ٥٢].

أي: الغنيمة أو الشهادة، وجملة: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾، تذييل يعم الشاكرين ممن يريد ثواب الدنيا، ومن يريد ثواب الآخرة، ويعم الجزاء كل بحسبه[(٢)].

قال ابن فورك: وفيه إشارة إلى أنهم ينعمهم الله بنعيم الدنيا، ولا يقصرهم على نعيم الآخرة[(٣)].

أولًا: الثمرات الدنيوية:

١. الهداية إلى الحق.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

أي: ابتلينا واختبرنا وامتحنا بعضهم ببعض، ليقولوا: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان غالب من اتبعه في أول بعثته ضعفاء الناس، من الرجال والنساء والعبيد والإماء، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل، والغرض أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم، ويعذبون من يقدرون عليه منهم، وكانوا يقولون: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟! أي: ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير، لو كان ما صاروا إليه خيرًا لم يدعنا.

وقال في جوابهم: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾، أي: أليس هو

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١١٣.

(٢) التحرير والتنوير ٤/ ١١٥.

(٣) البحر المحيط ٣/ ٣٦٧.

أعلم بالشاكرين له، بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم، فيوفقهم ويهديهم سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم.

وكذلك ابتلى الله سبحانه وتعالى بعض عباده ببعض بتباين حظوظهم من الأرزاق والأخلاق، فجعل بعضهم غنيًا وبعضهم فقيرًا، وبعضهم قويًا وبعضهم ضعيفًا، فأحوج بعضهم إلى بعض اختبارًا منه لهم بذلك؛ ليقول الكافرون الأغنياء: أهؤلاء الضعفاء من الله عليهم بالهداية إلى الإسلام من بيننا؟! أليس الله سبحانه وتعالى بأعلم بمن يشكرون نعمته، فيوفقهم إلى الهداية لدينه؟[(١)].

في الآية دلالة على أن الله تعالى بحكمته يقيم العبد في مقامه الذي يليق به.

٢ . حفظ النعم من الزوال.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٥٣ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنفال: ٥٣- ٥٤].

«يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه سبحانه وتعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد، إلا بسبب ذنب ارتكبه، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

وقوله: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ أي: كصنعه بآل فرعون وأمثالهم، حين كذبوا بآياته، أهلكهم بسبب ذنوبهم وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم، من جنات وعيون وزروع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك ، بل كانوا هم الظالمين»[(٢)].

فقد أزال الله عنهم ما هم فيه من النعم والنعيم، بسبب ذنوبهم وتغييرهم ما بأنفسهم، فإن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم من نعم الدين والدنيا، بل يبقيها ويزيدهم منها، إن ازدادوا له شكرًا[(٣)].

ومن تأمل ما قص الله في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم، وجد سبب ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله، وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره، وما أزال الله عنهم من نعمه، وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب، فما حفظت نعمة الله بشيء قط مثل طاعته، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره، ولا زالت

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٣٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦٩.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٢٤.

عن العبد نعمة بمثل معصيته لربه؛ فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس، ومن سافر بفكره في أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له[1].

فشكر النعم وثيقة تأمين إلهية تحفظ النعم من زوالها.

٣. زيادة النعم.

في سياق الحديث عن إنجاء المؤمنين مع موسى عليه السلام.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

قال الربيع: أخبرهم موسى عن ربه أنهم إن شكروا النعمة زادهم من فضله، وأوسع لهم من الرزق، وأظهرهم على العالم[2].

قوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، أي: لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها، ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾، أي: كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إياهم على كفرها[3].

وعن علي رضي الله عنه قال: «إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر معلق بالمزيد، وهما مقرونان جميعًا، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد»[4].

«إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية، فالخير يشكر؛ لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعي في الفطرة المستقيمة، هذه واحدة، والأخرى أن النفس التي تشكر الله على نعمته، تراقبه في التصرف بهذه النعمة، بلا بطر، وبلا استعلاء على الخلق، وبلا استخدام للنعمة في الأذى والشر والدنس والفساد، وهذه وتلك مما يزكي النفس، ويدفعها للعمل الصالح، وللتصرف الصالح في النعمة بما ينميها، ويبارك فيها، ويرضي الناس عنها وعن صاحبها، فيكونون له عونًا، ويصلح روابط المجتمع؛ فتنمو فيه الثروات في أمان، إلى آخر الأسباب الطبيعية الظاهرة لنا في الحياة، وإن كان وعد الله بذاته يكفي لاطمئنان المؤمن -أدرك الأسباب أولم يدركها- فهو حق واقع؛ لأنه وعد الله»[5].

٤. النجاة من الهلاك.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ۝ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٤-٣٥].

أي: وكما أنبنا لوطا وآله، وأنعمنا عليه، فأنجيناهم من عذابنا بطاعتهم إيانا، كذلك

(١) التفسير القيم، ابن القيم ص٦٠٩.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١١٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤١٢.

(٤) انظر: الشكر، ابن أبي الدنيا ص١١.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٨٩.

نثيب من شكرنا على نعمتنا عليه، فأطاعنا وانتهى إلى أمرنا[1].

٥. الأمن من عذاب الله.

قال سبحانه وتعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

ما يصنع الله -أيها المنافقون- بعذابكم، إن أنتم تبتم إلى الله، فشكرتموه على ما أنعم عليكم من نعمه في أنفسكم وأهاليكم وأولادكم، بالإنابة إلى توحيده والاعتصام به، وإخلاصكم أعمالكم لوجهه، وترك رياء الناس بها، وآمنتم برسوله محمد صلى الله عليه وسلم فصدقتموه، وأقررتم بما جاءكم به من عنده ، فعملتم به. فلا حاجة بالله أن يجعلكم في الدرك الأسفل من النار إن أنتم أنبتم إلى طاعته، وعملتهم بما أمركم به، وترك ما نهاكم عنه؛ لأنه لا يجتلب بعذابكم إلى نفسه نفعًا، ولا يدفع عنها ضرًا، وإنما عقوبته من عاقب من خلقه جزاءً منه على خلافه أمره ونهيه، وكفرانه شكر نعمه عليه، فإن أنتم شكرتم له على نعمه، وأطعتموه في أمره ونهيه، فلا حاجة به إلى تعذيبكم، بل يشكر لكم ما يكون منكم من طاعة له وشكر، بمجازاتكم على ذلك بما تقصر عنه أمانيكم فلم تبلغه آمالكم[2].

ثانيًا: الثمرات الأخروية:

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

أي: ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ما وعده مع ما يجرى عليه من رزقه في دنياه[3].

ولما دخل أهل الجنة إلى منازلهم ورأوا نعيمها وما أعده الله لهم فيها، قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤].

قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ «ثناء على الله، شكروا به نعمة السلامة، أثنوا عليه بالمغفرة؛ لما تجاوز عما اقترفوه من اللمم وحديث الأنفس، ونحو ذلك مما تجاوز الله عنه بالنسبة للمقتصدين والسابقين؛ ولما تجاوز عنه من تطويل العذاب وقبول الشفاعة بالنسبة لمختلف أحوال الظالمين أنفسهم، وأثنوا على الله بأنه شكور؛ لما رأوا من إفاضته الخيرات عليهم ومضاعفة الحسنات مما هو أكثر من صالحات أعمالهم»[4].

موضوعات ذات صلة:

الجزاء، الحمد، المدح

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٤٨.
(٢) انظر: المصدر السابق ٧/ ٦٢٤.
(٣) المصدر السابق ٦/ ١٠٨.
(٤) التحرير والتنوير ٢٢/ ٣١٦.





عناصر الموضوع

مفهوم الشك

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الشين والكاف أصل واحد مشتق بعضه من بعض، وهو يدل على التداخل، ومن هذا الباب الشك، الذي هو خلاف اليقين، إنما سمي بذلك لأن الشاك كأنه شك له الأمران في مشك واحد، وهو لا يتيقن واحدًا منهما»(١).

وقال ابن منظور: «الشك: نقيض اليقين، وجمعه شكوك، وقد شككت في كذا وتشككت، وشك في الأمر يشك شكًا، وشككه فيه غيره»(٢).

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي للشك عن معناه اللغوي، الذي يدور حول اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما، وذلك قد يكون لوجود أمارتين متساويتين عند النقيضين، أو لعدم الأمارة فيهما(٣).

وعرفه الجرجاني بأنه: «التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك»(٤). وذكر أيضًا في تعريفه: «أنه ما استوى طرفاه، وهو الوقوف بين الشيئين لا يميل القلب إلى أحدهما»(٥).

وقال المناوي: «الشك: الوقوف بين النقيضين، وقيل: هو الوقوف بين المعنى ونقيضه، وضده: الاعتقاد»(٦).

(١) مقاييس اللغة ٣/ ١٧٣.
(٢) لسان العرب ١٠/ ٤٥١.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٦٥.
(٤) التعريفات، ص١٢٨.
(٥) المصدر السابق.
(٦) التوقيف على مهمات التعاريف، ص٢٠٧.



الشك في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ش ك ك) في القرآن الكريم (١٥) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المصدر	١٥	﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النمل:٦٦]

وجاء الشك في القرآن بمعناه اللغوي، وهو: التردد في أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر، أو اعتدال النقيضين في النفس وتساويهما[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٣٨٦-٣٨٧، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الشين ص ٦٧١.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ٣٣٢-٣٣٣، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٢/ ٢٨٥-٢٨٦، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص ٤٢٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الظن:

الظن لغةً:

الظاء والنون أصل صحيح يدل على معنيين مختلفين: يقين وشك، فأما اليقين فقول القائل: ظننت ظنًا، أي: أيقنت، والأصل الآخر: الشك، يقال: ظننت الشيء، إذا لم يتيقنه، ومن ذلك الظنة: التهمة. والجمع: الظنن[(١)].

الظن اصطلاحًا:

قال الراغب الأصفهاني: «اسم لما يحصل عن أمارة، ومتى قويت أدت إلى العلم، ومتى ضعفت جدًا لم يتجاوز حد التوهم»[(٢)].

وقال الجرجاني: «هو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض، ويستعمل في اليقين والشك، وقيل: الظن: أحد طرفي الشك بصفة الرجحان»[(٣)].

الصلة بين الظن والشك:

أن الشك استواء طرفي التجويز، والظن رجحان أحد طرفي التجويز، والشاك يجوز كون ما شك فيه على إحدى الصفتين، لأنه لا دليل هناك ولا أمارة، ولذلك كان الشاك لا يحتاج في طلب الشك إلى الظن والعلم، وغالبًا ما يطلبان بالنظر. ويجوز أن يقال: الظن قوة المعنى في النفس من غير بلوغ حال الثقة الثابتة، والشك ليس كذلك[(٤)].

٢ الريب:

الريب لغة:

الريب مأخوذة من مادة (ر ي ب) يدل على شك أو شك وخوف[(٥)].

الريب اصطلاحا:

قال ابن الأثير رحمه الله: «الريب هو الشك مع التهمة»[(٦)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٤٦٢، الصحاح، الجوهري ٦/ ٢١٦٠.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٣٩.
(٣) التعريفات، الجرجاني ص١٤٤.
(٤) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٩٩.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٤٦٣، لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٤٤١.
(٦) النهاية في غريب الأثر ٢/ ٢٨٦.



الصلة بين الشك والريب:

الريب يكون في علم القلب وفي عمله؛ بخلاف الشك فإنه لا يكون إلا في العلم فقط.

ثم الشك سبب الريب، كأنه شك أولًا ، ثم أوقعه شكه في الريب، فالشك مبدأ الريب، كما أن العلم مبدأ اليقين، فيوصف الشك بالريب، والشك المريب أقوى ما يكون من الشك، وأشده إظلامًا، وإنما وصف الشك بالمريب للمبالغة فيه، ولتقوية معنى الشك[1].

٣ الوهم:

الوهم لغة:

وهم إلى الشيء بالفتح يهم وهمًا، إذا ذهب وهمه إليه وهو يريد غيره، ووهم يوهم وهمًا -بالتحريك- إذا غلط [2].

الوهم اصطلاحًا:

هو الطرف المرجوح غير الجازم من المترددين، وهو أضعف من الظن ، وكثيرا ما يستعمل في الظن الفاسد [3].

الصلة بين الوهم والشك:

الشك استواء الطرفين، أما إن كان أحد الطرفين راجحًا، والآخر مرجوحًا، فالمرجوح يسمى وهمًا، والراجح يسمى ظنًا[4].

٤ الوسوسة:

الوسوسة لغة:

قال ابن منظور: «الوسوسة والوسواس: الصوت الخفي من ريح، والوسواس: صوت الحلي، والوسواس، بالفتح، الاسم ، مثل الزلزال والزلزال، والوسواس، بالكسر، المصدر. والوسواس، بالفتح: هو الشيطان، وكل ما حدثك ووسوس إليك، فهو اسم»[5].

الوسوسة اصطلاحًا:

قال الكفوي: «الوسوسة: القول الخفي لقصد الإضلال من وسوس إليه ووسوس له،

(١) انظر: الكليات، الكفوي ص٥٢٨.
(٢) الصحاح، الجوهري ٥/ ٢٠٤٥، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥/ ٢٣٤، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٦٤٣.
(٣) انظر: الكليات، الكفوي ص٩٤٣.
(٤) المصدر السابق ص٥٢٨.
(٥) لسان العرب، ٦/ ٢٥٤.

أي : فعل الوسوسة لأجله، وهي حديث النفس، والشيطان بما لا نفع فيه ولا خير»[1]، وقال الزبيدي: «الوسوسة: الكلام الخفي في اختلاط»[2]

الصلة بين الشك والوسوسة:

أن الشك ينشأ عن سبب معتبر معتد به، وأصل يبني عليه شكه بخلاف الوسوسة، فإن الموسوس يبني وسوسته من غير وجود أصل معتبر، وإنما تنشأ الوسوسة عن أوهام لا اعتبار لها.

والشك إذا كثر، وتكرر من الإنسان، فإنها تعد وسوسة.

والشك يزول بزوال سببه، وأما الوسوسة، فلا تزول إلا بجهد بالغ، ومشقة متناهية، وعزيمة قوية[3].

ج المرية:

المرية لغة:

المرية: بالكسر والضم، الشك والجدل، والامتراء في الشيء: الشك فيه، وكذلك التماري، والمراء: الممارة والجدل، والمراء أيضًا: من الامتراء والشك[4].

المرية اصطلاحًا:

«الامتراء: طلب التشكك مع ظهور الدليل، أو هو ظهور تكلف المؤنة ، وهي محاولة مستخرج السوء من خبيئة المحاولة من امتراء ما في الضرع ، وهو استئصاله حلبا»[5].

الصلة بين الشك والامتراء

«أن الامتراء هو استخراج الشبه المشكلة، ثم كثر حتى سمي الشك مرية وامتراء ، وأصله المري ، وهو استخراج اللبن من الضرع ، مرى الناقة يمريها مريًا، ومنه ماراه مماره ومراء إذا استخرج ما عنده بالمناظرة ، وامترى امتراء إذا استخرج الشبه المشكله من غير حل لها»[6].

---

(١) الكليات ص٩٤١.
(٢) تاج العروس، ١٧/ ١٢.
(٣) انظر: الوسوسة وأحكامها في الفقه الإسلامي، الجدعاني ص ٨١- ٨٥.
(٤) لسان العرب ١٥/ ٢٧٨.
(٥) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٦١.
(٦) الفروق اللغوية، العسكري ص٩٩.



اقتران الشك بالريب

وردت لفظتا (الشك، والريب) في كتب الترادف ضمن الألفاظ المترادفة المختلفة في اللفظ، المتفقة في المعنى.

وعرفنا أن الشك: تردد الذهن بين أمرين، وأما الريب فهو شك مع تهمة.

فعند اقتران لفظتي الشك مع الريب فإن المعنى بناءً على ما سبق يكون: التردد مع التهمة.

وقد جمعت بعض الآيات بين الشك والريب في سياقٍ واحد.

قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢].

بعد أن دعا صالح عليه السلام قومه لعبادة الله وحده، وذكرهم بقدرة الله عز وجل ونعمه عليهم، فيأتي الرد من قومه بأنه خاب رجاؤنا فيك، وصرت في رأينا رجلًا مختل التفكير، ولن نترك عبادة الأصنام التي كان يعبدها آباؤنا، وقالوا: ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ فإننا لفي شك كبير وريب عظيم من صحة ما تدعونا إليه، وهو شك موقع في التهمة وسوء الظن[1].

وبنفس هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠].

فقوم موسى ترددوا وشكوا فيما جاءهم به موسى عليه السلام، وفي نفس الوقت تبع هذا الشك التهمة لما جاءهم به.

وقال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾ [سبأ: ٥٤].

تتحدث هذه الآية عن مصير المشركين وما يلاقونه يوم القيامة، وذلك لأنهم كانوا يشكون في أمر هذا الدين، وفي نفس الوقت كانوا يتهمونه بتهم باطلة.

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣/ ١٨٣.

الإيمان والشك

الإيمان والشك خطان متوازيان لا يمكن أن يلتقيان بحال من الأحوال، والمؤمن كلما ارتقى في سلم الإيمان زاد بعدًا عن الشك، فالعلاقة بين الإيمان والشك علاقة طردية، فإذا زاد الإيمان قل الشك، والعكس صحيح، وكما جاء في تعريف الشك سابقًا بأنه تردد بين شيئين، كالذي لا يجزم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يكذبه، ولا يجزم بوقوع البعث ولا عدم وقوعه.

والإيمان لغة: مصدر آمن يؤمن إيمانًا فهو مؤمن[(١)]، وأصل آمن أأمن بهمزتين لينت الثانية[(٢)]، وهو من الأمن ضد الخوف[(٣)].

قال الراغب: «أصل الأمن طمأنينة النفس وزوال الخوف»[(٤)].

وقال شيخ الإسلام: «فإن اشتقاقه من الأمن الذي هو القرار والطمأنينة، وذلك إنما يحصل إذا استقر في القلب التصديق والانقياد»[(٥)].

والإيمان اصطلاحًا: «هو التصديق الجازم، والإقرار الكامل، والاعتراف التام؛ بوجود الله تعالى وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، واستحقاقه وحده العبادة، واطمئنان القلب بذلك اطمئنانًا ترى آثاره في سلوك الإنسان، والتزامه بأوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه»[(٦)].

والحديث عن الإيمان والشك يكون في النقاط الآتية:

أولًا: العلاقة بين الإيمان والشك:

من خلال تعريف كل من الإيمان والشك يتضح لنا أن معنى الإيمان على النقيض من معنى الشك، فالشك هو تردد بين نقيضين، أما الإيمان فهو تصديق جازم وإقرار كامل.

وقد ذكر علماء السنة أن من شروط لا إله إلا الله (اليقين المنافي للشك).

قال الشيخ حافظ حكمي: «بأن يكون قائلها مستيقنًا بمدلول هذه الكلمة يقينًا جازمًا، فإن الإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين لا علم الظن، فكيف إذا دخله الشك.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

فاشترط في الصدق إيمانهم بالله ورسوله كونهم لم يرتابوا، أي: لم يشكوا، فأما المرتاب فهو من المنافقين - والعياذ

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ٥١٣.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣/ ١٨٣.
(٣) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ١٥١٨.
وانظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ٢٠٧١.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٥.
(٥) انظر: الصارم المسلول، ابن تيمية ص٥١٩.
(٦) الإيمان حقيقته وخوارمه، الأثري، ص ١٣.

بالله- الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥].

فاشترط في دخول قائلها الجنة أن يكون مستيقنًا بها قلبه غير شاك فيها، وإذا انتفى الشرط انتفى المشروط»(١).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله موضحًا منزلة اليقين وأهميتها، ومعارضتها لكل شك وريب: «فاليقين روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال الجوارح، وهو حقيقة الصديقية، وهو قطب هذا الشأن الذي عليه مداره، ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نورًا وإشراقًا، وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط، ثم ذكر من تعريفات اليقين «المكاشفة، وهو على ثلاثة أوجه: مكاشفة في الأخبار، ومكاشفة بإظهار القدرة، ومكاشفة القلوب بحقائق الإيمان، ومراد القوم بالمكاشفة: ظهور الشيء للقلب بحيث يصير نسبته إليه كنسبة المرئي إلى العين، فلا يبقى معه شك ولا ريب أصلًا، وهذا نهاية الإيمان، وهو مقام الإحسان»(٢).

ثانيًا: كيف تحدث القرآن الكريم عن الإيمان والشك:

المتأمل للقرآن الكريم يلاحظ أن الله سبحانه وتعالى يؤكد على المسائل العقدية الكبرى التي يجب الإيمان واليقين بها بقوله: لا ريب فيه، فحينما حدثنا في بداية سورة البقرة عن القرآن قال: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

ويقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

وعن قيام الساعة يقول: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

ويقول أيضًا: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٥].

فهذه الآيات تؤكد على أهمية اليقين، وذم الشك والريب والتردد في أمور الدين والعقيدة ومسائل الإيمان، وأن نكون فيها جازمين ثابتين غير متزعزعين ولا متشككين.

وفي المقابل يقول الله جل وعلا عن حال أهل الإيمان واليقين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

(١) معارج القبول، ١/ ٣٧٨، ٣٧٩.
(٢) مدراج السالكين، ٢/ ٤١٣-٤١٥.

من صور الشك

تعددت وتنوعت صور الشك من قبل المشركين، فتارة يشكون في الله عز وجل، وتارة يشكون في الكتب السماوية ، وتارة يشكون في الرسل ورسالتهم ، وتارة أخرى يشكون في اليوم الآخر، هذا ما سنتعرف عليه من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الشك في الله جل جلاله:

أن الله تعالى عاب على المشركين شكهم في ربوبيته وألوهيته ، فقال سبحانه: ﴿رَبِّ السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩﴾ [الدخان: ٧-٩].

في هذه الآيات يخبر الله عز وجل بأنه رب السموات والأرض وما بينهما من سائر المخلوقات، وخالقها ومالكها وما فيها، بعد إثبات الربوبية لله أثبت الوحدانية، فهو الإله الواحد الذي لا إله غيره، وأثبت القدرة فهو المحيي والمميت، يحيي ما يشاء، ويميت ما يشاء، ثم أكد الربوبية على البشر بالذات، فهو ربكم أيها المخاطبون ورب آبائكم وأجدادكم الأولين، ومدبر شئونهم، فهو المستحق للعبادة، دون غيره من الآلهة المزعومة[(١)].

قال الإمام الألوسي رحمه الله: «قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ إضراب إبطالي، أبطل به إيقانهم لعدم جريهم على موجبه، وتنوين ﴿شَكٍّ﴾ للتعظيم، أي: في شك عظيم. ﴿يَلْعَبُونَ﴾ أي: لا يقولون ما يقولون عن جد وإذعان، بل يقولونه مخلوطًا بهزء ولعب، وهذه الجملة خبر بعد خبر لهم، والالتفات عن خطابهم لفرط عنادهم، وإهمال أمرهم»[(٢)].

ففي هذه الآية ينفي الحق سبحانه إيقانهم بأن خالق السموات والأرض هو الله، لعدم جريهم على ما يقتضيه هذا الإيقان، لأنهم لو كانوا موقنين حقا بذلك، لأخلصوا لله تعالى العبادة والطاعة[(٣)].

وقد أغلظ ابن حزم رحمه الله تعالى على من انتحلوا مذهب الشك فقال: «والله ما سمع سامع قط بأدخل في الكفر من قول من أوجب الشك في الله تعالى وفي صحة النبوة فرضًا على كل متعلم لا نجاة له إلا به، ولا دين لأحد دونه، وإن اعتقاد صحة التوحيد لله تعالى وصحة النبوة باطل لا يحل، فحصل من كلامهم أن من لم يشك في الله تعالى ولا في صحة النبوة فهو كافر، ومن شك فيهما فهو محسن مؤد ما وجب عليه، وهذه فضيحة وحماقة»[(٤)].

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ٣/ ٢٦٧.

(٢) روح المعاني، ١٣/ ١١٥.

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/ ١٦٣.



وبعد أن شك المشركون في الله عز وجل بقولهم: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ [إبراهيم: ٩].

جاءهم الجواب على ألسن رسله عليهم السلام بالاستفهام الإنكاري: ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

قال البغوي رحمه الله تعالى: «هذا استفهام بمعنى نفي ما اعتقدوه»[١]، وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «هذا استفهام إنكار، والمعنى: لا شك في الله، أي: في توحيده»[٢].

ثانيًا: الشك في الكتب السماوية:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ [الشورى: ١٤].

قال الزحيلي: «أي: وإن الجيل المتأخر من أهل الكتاب الذين توارثوا التوراة والإنجيل عمن سبقهم لفي شك من كتابهم ودينهم وإيمانهم، وهو شك مقلق موقع في الريب بشدة، لأنهم لم يتبعوا الحق، وإنما قلدوا رؤساء الدين المتأخرين الذين صوروا لهم الدين بصورة مغايرة لحقيقته الأولى، واتبعوا الآباء والأسلاف بلا دليل ولا برهان، وهم في حيرة من أمرهم، ولذلك لم يؤمنوا برسالة خاتم الأنبياء، وأصبحوا مكذبين القرآن ومحمدا صلى الله عليه وسلم الذي صدق كتابهم في أصله الأول»[٣].

وعندما شك المشركون في القرآن الكريم جاءهم الرد من الله عز وجل بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]

يخبر تعالى أن ما أنزله على عبده ورسوله من قرآن يمثل كتابًا عظيمًا لا يحتمل الشك، ولا يتطرق إليه احتمال كونه غير وحي الله وكتابه، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

قال الإمام ابن كثير: «هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور ولا بسورة من مثله لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته واشتماله على المعاني الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله تعالى الذي لا يشبهه شيء في ذاته ، ولا في صفاته، ولا في أفعاله ولا في أقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين»[٤].

ثالثًا: الشك في الرسل ورسالاتهم:

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم

(١) معالم التنزيل ٣/ ٣٢.
(٢) زاد المسير، ٢/ ٥٠٦.
(٣) التفسير المنير، ٢٥/ ٤١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٢٦٨.

﴿مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦١-٦٢].

بعد أن دعا صالح عليه السلام قومه لعبادة الله وحده، وذكرهم بقدرة الله عز وجل ونعمه عليهم، فيأتي الرد من قومه بقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا﴾ قالوا : يا صالح ، لقد كنت فينا رجلًا فاضلًا نرجوك لمهمات الأمور فينا ، لعلمك وعقلك وصدقك، قبل أن تقول ما قلته، أما الآن وبعد أن جئتنا بهذا الدين الجديد فقد خاب رجاؤنا فيك، وصرت في رأينا رجلا مختل التفكير، ثم ختموا ردهم عليه بقولهم: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي: لن نترك عبادة الأصنام التي كان يعبدها آباؤنا، وإننا لفي شك كبير وريب عظيم من صحة ما تدعونا إليه، وهو شك موقع في التهمة وسوء الظن[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠].

يخبر الله عز وجل عن اختلاف قوم موسى عليه السلام في شأن التوراة التي أنزلها على نبيهم لهدايتهم، إذ منهم من آمن بها ، ومنهم من كفر بها، ثم يوضح الله عز وجل بقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: وإن هؤلاء المختلفين في شأن الكتاب لفي شك منه، وهذا الشك قد أوقعهم في الريبة والتخبط والاضطراب، وهذا شأن المعرضين عن الحق، لا يجدون مجالا لنقده وإنكاره، فيحملهم عنادهم وجحودهم على التشكيك فيه، وتأويله تأويلا سقيما يدعو إلى الريبة والقلق[2].

قال الشيخ محمد الطنطاوي شيخ الأزهر: «وبعض المفسرين يرى عودة الضمير في قوله ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ إلى قوم موسى، وفي قوله ﴿مِّنْهُ﴾ إلى كتابهم التوراة، وبعضهم يرى عودة الضمير الأول إلى قوم النبي صلى الله عليه وسلم والثاني إلى القرآن الكريم، والذي يبدو لنا أن الرأى الأول أظهر في معنى الآية، لأن الكلام في موسى عليه السلام وقومه الذين اختلفوا في شأن كتابهم التوراة اختلافًا كبيرًا، وعود الضمير إلى المتكلم عنه أولى بالقبول، وهذا لا يمنع أن بعض المكذبين للرسول صلى الله عليه وسلم كانوا في شك من القرآن، أوقعهم هذا الشك في الريبة والحيرة، فتكون الجملة الكريمة من باب التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما قاله بعض المشركين في

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣/ ١٨٣.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٢/ ١٦٠.

شأن القرآن الكريم»[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤].

قال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يعني: أهل مصر، قد بعث الله فيهم رسولًا من قبل موسى، وهو يوسف عليه السلام كان عزيز أهل مصر، وكان رسولا يدعو إلى الله أمته القسط، فما أطاعوه تلك الساعة إلا لمجرد الوزارة، والجاه الدنيوي، ولهذا قال: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ أي: يئستم فقلتم طامعين: لن يبعث الله من بعده رسولًا، وذلك لكفرهم وتكذيبهم»[2].

فالكلام في هذه الآية جاء على لسان مؤمن آل فرعون، يحذر قومه من الشك في دعوة موسى عليه السلام، كما فعل أجدادهم من قبل مع يوسف عليه السلام، ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ أي: فما زال آباؤكم في شك مما جاءهم به من البينات والهدى، كشأنكم أنتم مع نبيكم موسى عليه السلام[3].

رابعًا: الشك في اليوم الآخر:

قال تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦].

قال البغوي رحمه الله تعالى: «يعني: هم اليوم في شك من الساعة»[4].

وقال الشنقيطي رحمه الله تعالى: «فهذا الذي كانوا يشكون فيه في دار الدنيا، ويعمون عنه مما جاءتهم به الرسل، يعلمونه في الآخرة علمًا كاملًا لا يخالجه شك عند معاينتهم لما كانوا ينكرونه من البعث والجزاء»[5].

وقال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾ [سبأ: ٥٤].

قال الطبري رحمه الله تعالى: «إنهم كانوا قبل في الدنيا في شك من نزول العذاب الذي نزل بهم وعاينوه»[6].

والمعنى: لقد فعلنا بهم كما فعلنا في أمثالهم ونظرائهم من كفار الأمم الماضية، إنهم كانوا جميعا في الدنيا في شك مغرق في الريبة في أمر إثبات البعث والجزاء في الآخرة[7].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا

(١) التفسير الوسيط، ٧/ ٢٨١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ١٤٣.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٣٦.
(٤) معالم التنزيل ٣/ ٥١١.
(٥) أضواء البيان، ٦/ ١٢٢.
(٦) جامع البيان، ٢٠/ ٤٣٢.
(٧) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢٢/ ٢١٦.

﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

قال طنطاوي في هذه الآية: «وقال الكافرون المنكرون للبعث والحساب، قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم على سبيل الإنكار والاستبعاد: أإذا كنا يا محمد، عظامًا بالية، ورفاتًا يشبه التراب في تفتته ودقته، أإنا لمعادون إلى الحياة مرة أخرى، بحيث تعود إلينا أرواحنا، وتدب الحياة فينا ثانية، ونبعث على هيئة خلق جديد، غير الذي كنا عليه في الدنيا؟»[١].

وبنفس هذا المعنى في آيات عديدة منها، قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

وقوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣].

وقد أكد الحق سبحانه في غير موضع من القرآن الكريم نفي الشك في وقوع البعث والجزاء:

قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٥].

أي: فكيف يكون حالهم إذا جمعناهم لجزاء يوم لا ريب في مجيئه وحصوله[٢].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧] أي: الله الواحد الأحد الفرد الصمد والذي لا معبود بحق سواه، كتب على نفسه أنه ليبعثنكم من قبوركم وليحشرنكم إلى الحساب في يوم القيامة الذي لا شك في حصوله ووقوعه، فقررت الآية أن يوم الحساب آت لا شك فيه مهما أنكره الملحدون[٣].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ [الكهف: ٢١].

أي: أن القيامة آتية لا ريب فيها، ولا شك في حصولها[٤].

وبنفس المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ [غافر: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية: ٢٦].

الشك في الوعد والوعيد:

قال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

في هذه الآية يأتي رد قوم هود على نبيهم

(١) التفسير الوسيط، ٨/ ٣٦٩.
(٢) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ١/ ٣٠١.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٩١.
(٤) انظر: المصدر السابق ص٤٧٣.

عليه السلام بعدما دعاهم لعبادة الله وحده، بالاستهزاء والإنكار: أجئتنا يا هود لأجل أن نعبد الله وحده، ونترك ما كان يعبد آباؤنا من الأوثان والأصنام ؟! إن هذا لن يكون منا أبدًا ، فأتنا بما تعدنا به من العذاب إن كنت من الصادقين فيما تخبر به، فهم استعجلوا العذاب ؛ لأنهم كانوا يشكوا في وقوعه[1].

وبنفس المعنى في قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف: ٢٢].

وفي قوله تعالى أيضًا: ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [هود: ٣٢].

أي: لقد سئمنا مجادلتك لنا ومللناها، فأتنا بالعذاب الذي تتوعدنا به، إن كنت من الصادقين في دعواك النبوة، وفي وعيدك لنا بعقاب الله، فإننا مصرون على عبادة آلهتنا، وكارهون لما تدعونا إليه[2].

أسباب الشك

الأسباب التي توقع الإنسان في الشك كثيرة ومتنوعة، ومن أهمها:

أولًا: الكفر:

الشك في الله عز وجل وفي اليوم الآخر وغيرها من صور الشك من أبرز أسبابها الكفر.

قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴾ [إبراهيم: ٩].

في هذه الآية يتضح أن السبب وراء شك أولئك الأقوام بما جاءت به رسلهم هو الكفر، فبعد أن جاء كل رسول إلى قومه بالحجج الواضحات، وبالمعجزات الظاهرات، الدالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه، كان الجواب منهم: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴾.

قال الجمل: «فإن قيل: إنهم أكدوا كفرهم بما أرسل به الرسل، ثم ذكروا بعد ذلك أنهم شاكون مرتابون في صحة قولهم فكيف ذلك؟ فالجواب: كأنهم قالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به أيها الرسل ، فإن لم نكن

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٨/ ٢٦.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤/ ٢٠٤.

كذلك، فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين في صحة نبوتكم، أو يقال: المراد بقولهم ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أي: بالمعجزات والبينات، وبقولهم: ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ وهو الإيمان والتوحيد، أو يقال: إنهم كانوا فرقتين: إحداهما جزمت بالكفر، والأخرى شكت»[1].

والشك الذي وقع من قوم صالح عليه السلام إنما كان سببه الكفر، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢].

بعد أن دعا صالح عليه السلام قومه لعبادة الله وحده، وذكرهم بقدرة الله عز وجل ونعمه عليهم، فيأتي الرد منهم بالعناد والكفر، فقالوا: يا صالح لقد كنت فينا رجلًا فاضلًا نرجوك لمهمات الأمور فينا لعلمك وعقلك وصدقك، قبل أن تقول ما قلته، أما الآن وبعد أن جئتنا بهذا الدين الجديد فقد خاب رجاؤنا فيك، وصرت في رأينا رجلا مختل التفكير، ثم ختموا ردهم عليه بقولهم: ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي: لن نترك عبادة الأصنام التي كان يعبدها آباؤنا، وإننا لفي شك كبير وريب عظيم من صحة ما تدعونا إليه[2].

(١) حاشية الجمل على الجلالين، ٢/ ٥١٦.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣/ ١٨٣.

ثانيًا: النفاق:

النفاق من أبرز الأسباب المؤدية للشك.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥].

أي: إنما يستأذنك - يا محمد - في القعود عن الجهاد أولئك الذين من صفاتهم أنهم لا يؤمنون بالله إيمانا كاملًا، ولا يؤمنون باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب إيمانا يقينيا، وبجانب عدم إيمانهم بالله واليوم الآخر، رسخ الريب في قلوبهم فصاروا يشكون في صحة ما جئت به - أيها الرسول الكريم -، ويقفون من تعاليمك وتوجيهاتك، موقف المكذب المرتاب لا موقف المصدق المذعن، وأضاف الشك والارتياب إلى القلوب، لأنها محل المعرفة والإيمان[3].

قال طنطاوي: «وأوثرت صيغة الماضي (ارتابت) للدلالة على تحقق الريب وترويخهم، وأصل معنى التردد: الذهاب والمجيء. والمراد به هنا التحير على سبيل المجاز؛ لأن المتحير لا يستقر في مكان، ولا يثبت على حال، فهم في شكهم الذي حل بهم يتحيرون»[4].

وقال تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟﴾

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ١٥٨.
(٤) التفسير الوسيط ٦/ ٣٠٦.

رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٠].

تكشف هذه الآية عن حال المنافقين بعد أن فضح الله نواياهم بما أرادوه من بناء المسجد الذي سماه الله عز وجل بمسجد الضرار، والمعنى: لا يزال ما بناه هؤلاء المنافقون موضع ريبة وقلق في نفوسهم في كل وقت وحال إلا في وقت واحد، وهو وقت أن تتمزق قلوبهم بالموت ، فهم لا يزالون في قلق وحيرة، والسبب في أن هذا البناء كان مثار ريبتهم وقلقهم حتى بعد هدمه، أنهم بنوه بنية سيئة، ولتلك المقاصد الأربعة الخبيثة التي بينتها الآية الأولى، فكانوا يخشون أن يطلع الله نبيهم على مقاصدهم الذميمة، فهذه الخشية أورثتهم القلق والريبة، فلما أطلع الله تعالى نبيه على أغراضهم، وتم هدم مسجد الضرار، وانهار الجرف المتداعي المتساقط، استمر قلقهم وريبهم ؛ لأنهم لا يدرون بعد ذلك ماذا سيفعل المؤمنون بهم[1].

ثالثًا: الجهل:

قال تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ [النساء: ١٥٧].

الجهل هو أحد أسباب الوقوع في الشك، وهذا ما حدث لبني إسرائيل بعدما وقعت حادثة رفع عيسى عليه السلام إلى السماء، فالذين اختلفوا في شأن عيسى من أهل الكتاب لفي شك دائم من حقيقة أمره، فهم في حيرة وتردد، ليس عندهم علم ثابت قطعي في شأنه، أو في شأن قتله، ولكنهم لا يتبعون فيما يقولونه عنه إلا الظن الذي لا تثبت به حجة. ولا يقوم عليه برهان، وهذا الشك أساسه الجهل الذي وقع منهم، حين قالوا : إنه ابن الله، وادعوا أن في عيسى عنصرًا إلهيا مع العنصر الإنساني، وأن الذي ولدته مريم هو العنصر الإنساني، ثم أفاض عليه بعد ذلك العنصر الإلهي، فالشك هنا أساسه وسببه جهل بني إسرائيل بما حدث لعيسى عليه السلام[2].

وقال تعالى: ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ [الدخان: ٩].

صدر هذا الكلام من الكافرين نتيجة جهلهم بقدرة الله عز وجل وعظمته، فهؤلاء الكفار لم يكونوا موقنين بأن رب السموات والأرض وما بينهما هو الله، بل قالوا ما قالوا في ذلك على سبيل الشك واللعب[3].

---

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٣١٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٦/ ١٨.

(٣) انظر: تفسير الوسيط، الزحيلي ٣/ ٢٣٧٩.

رابعًا: الكبر:

يصرح المشركون أن السبب الحقيقي الذي حال بينهم وبين الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، وهو الحقد والحسد والكبر، وإنكار أن يختص الله تعالى رسوله من بينهم بالرسالة، فقالوا كما حكى القرآن عنهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص: ٨].

والاستفهام للإنكار والنفي، أي: كيف يدعي محمد صلى الله عليه وسلم أنه قد أنزل عليه القرآن من بيننا، ونحن السادة الأغنياء العظماء، وهو دوننا في ذلك؟ إننا ننكر وننفي دعواه النبوة من بيننا[١].

قال الزمخشري: «أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم وينزل عليه الكتاب من بينهم، كما قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد على ما أوتي من شرف النبوة من بينهم»[٢].

وقال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ [الكهف: ٣٥-٣٧].

انتقل صاحب الجنتين من غرور إلى غرور أشد، فهذا الكافر لم يكتف بتطاوله على صاحبه المؤمن، بل سار به نحو جنته حتى دخلها ، وهو ظالم لنفسه بسبب كفره وجحوده وكبره، ثم ختم هذا الكافر محاورته لصاحبه بقوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي: كائنة ومتحققة، فهو قد أنكر البعث وما يترتب عليه من حساب بعد إنكاره لفناء جنته، ثم أكد كلامه بجملة قسمية، فقال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي: والله لئن رددت إلى ربي على سبيل الفرض والتقدير ، كما أخبرتني يا صاحبي بأن هناك بعثا وحسابا ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أي: من هذه الجنة منقلبًا أي: مرجعا وعاقبة، وكل هذا الكلام الذي صدر من صاحب الجنة الكافر ما صدر إلا نتيجة الكبر والغرور[٣].

خامسًا: وسوسة الشيطان:

يبين الحق عز وجل أن إغواء الشيطان ووسوسته من الأسباب التي أدت الشك.

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ [سبأ: ٢٠-

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ٤/ ٤٣٥.
(٢) الكشاف، ٤/ ٧٤.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ١٥٧، الدر المصون، الحلبي، ٧/ ٤٨٨.

[٢١].

قال طنطاوي: «لفظ ﴿صَدَّقَ﴾ قرأه بعض القراء السبعة بتشديد الدال المفتوحة، وقرأه البعض الآخر بفتح الدال بدون تشديد، والمعنى على القراءة بالتشديد: ولقد صدق عليهم إبليس ظنه في قدرته على إغوائهم، وحقق ما كان يريده منهم من الانصراف عن طاعة الله تعالى وشكره، فاتبعوا خطوات الشيطان، بسبب انغماسهم في الفسوق والعصيان، إلا فريقًا من المؤمنين، لم يستطع إبليس إغواءهم ، لأنهم أخلصوا عبادتهم لخالقهم عز وجل، واستمسكوا بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، والمعنى على القراءة بالتخفيف: ولقد صدق إبليس في ظنه أنه إذا أغواهم اتبعوه، لأنه بمجرد أن زين لهم المعاصي أطاعوه، إلا فريقا من المؤمنين لم يطيعوه»[١].

ثم بين سبحانه أن إغواء الشيطان لأهل سبأ ولأشباههم من بنى آدم، لم يكن عن قسر وإكراه، وإنما كان عن اختيار منهم ليتميز الخبيث من الطيب ، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ أي: وما كان لإبليس عليهم من سلطان قاهر يجعلهم لا يملكون دفعه، وإنما كان له عليهم الوسوسة التي يملكون صرفها ودفعها متى حسنت صلتهم بنا، ونحن ما أبحنا لإبليس الوسوسة لبنى آدم، إلا لنظهر في عالم الواقع حال من يؤمن بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب وحساب، ولنميزه عمن هو منها في شك وريب وإنكار[٢].

قال الشوكاني رحمه الله: «والاستثناء في قوله ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ منقطع أي: لا سلطان له عليهم، ولكن ابتليناهم بوسوسته لنعلم، وقيل: هو متصل مفرغ من أعم العلل، أي: ما كان له عليهم من تسلط بحال من الأحوال، ولا لعلة من العلل، إلا ليتميز من يؤمن ومن لا يؤمن، لأنه سبحانه قد علم ذلك علما أزليًا، وقال الفراء: إلا لنعلم ذلك عندكم. والأولى حمل العلم هنا على التمييز والإظهار»[٣].

(١) التفسير الوسيط، ١١/ ٢٧٨.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ١٣٠.

(٣) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٧١.

علاج الشك

الشك هو داء خطير خصوصًا إذا ما أصاب المسلم، ولكن لكل داء دواء، وفيما يأتي أهم أدوية الشك:

أولًا: الثبات على الإيمان.

وستتعرف على أهم الوسائل التي تعين المسلم على الثبات على الإيمان، وبالتالي تبعده عن الشك، وفيما يلي بعض هذه الوسائل:

١ . الإقبال على القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢-٣٣].

أي: أنزلناه كذلك منجمًا ومفرقًا لحكمة عالية وهي تقوية قلبك وتثبيته؛ لأنه كالغيث كلما أنزل أحيا موات الأرض وازدهرت به ونزوله مرة بعد مرة أنفع من نزول الغيث دفعة واحدة[١].

فإذا كان القرآن الكريم مثبتًا للنبي صلى الله عليه وسلم، فكيف بنا نحن الضعاف؟ كيف بنا نحن المقصرين؟ إذًا القرآن الكريم، الإقبال عليه؛ تلاوةً، وحفظًا، وفهمًا، وتدبرًا، وتطبيقًا، هو أحد الوسائل الفعالة لثباتك على الإيمان وبالتالي البعد كل البعد عن الشك.

٢ . التزام شرع الله عز وجل والعمل الصالح.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦].

في هذه الآية بيان للنتائج الطيبة التي تترتب على امتثال شرع الله عز وجل، أي: ولو ثبت أن هؤلاء الذين أمرناهم بطاعتنا ﴿فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ أي: ما أمرناهم به من اتباع لرسولنا صلى الله عليه وسلم وانقياد لحكمه؛ لأنه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى، فلو ثبت أنهم فعلوا ذلك لكان ما فعلوه خيرًا لهم في دنياهم وآخرتهم. ولكان أشد تثبيتًا لهم على الحق والصواب، وأمنع لهم من الشك والضلال[٢].

وقال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

والمعنى: يثبت الله تعالى الذين آمنوا بالقول الثابت، أي: الصادق الذي لا شك فيه، في الحياة الدنيا، بأن يجعلهم متمسكين بالحق، ثابتين عليه دون أن يصرفهم عن ذلك ترغيب أو ترهيب، ويثبتهم أيضا بعد

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ٤/ ٤٣٥.

(٢) الكشاف، ٤/ ٧٤.

مماتهم، بأن يوفقهم إلى الجواب السديد عند سؤالهم في القبر وعند سؤالهم في مواقف يوم القيامة[1].

٣. تدبر قصص الأنبياء.

ذكرنا سابقًا كيف قابلت الأقوام أنبياءهم بالكفر والجحود والشك فيهم وفي رسالتهم، فتدبر هذه القصص من الوسائل الفعالة على الثبات على الإيمان، فيبين سبحانه أهم الفوائد التي تعود على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلينا من وراء إخباره بأحوال الأنبياء السابقين مع أقوامهم.

قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]

أي: وكل نبأ من أنباء الرسل الكرام السابقين نقصه عليك -أيها الرسول الكريم- وعلى أمتك، فالمقصود به تثبيت قلبك، وتقوية يقينك، وتسلية نفسك ونفوس أصحابك عما لحقكم من أذى في سبيل تبليغ دعوة الحق إلى الناس[2].

ثانيًا: سؤال أهل العلم:

قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

المراد بأهل الذكر في هذه الآية، علماء أهل الكتاب أي: لقد اقتضت حكمتنا أن يكون الرسول من البشر في كل زمان ومكان، فإن كنتم في شك من ذلك -أيها المكذبون- فاسألوا علماء أهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى، فسيبينون لكم أن الرسل جميعا كانوا من البشر ولم يكونوا من الملائكة، فمادامت قد بلغت بكم الجهالة أن تشكوا أن يكون الرسول بشرا فاسألوا أهل العلم في ذلك، فسيبينون لكم أن الرسل السابقين لم يكونوا إلا رجالًا[3].

وفي قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى أنهم كانوا يعلمون أن الرسل لا يكونون إلا من البشر، ولكنهم قصدوا بإنكار ذلك الجحود والمكابرة، والتمويه لتضليل الجهلاء، ولذا جيء في الشرط بحرف (إن) المفيد للشك، وجواب الشرط لهذه الجملة محذوف، دل عليه ما قبله. أي: إن كنتم لا تعلمون، فاسألوا أهل الذكر[4].

فيفهم من الآيات السابقة أن الرجوع إلى أهل العلم وسؤالهم عن الأمور التي ربما يعتريها الشك، هو السبيل الوحيد للابتعاد عن الشك وما يترتب عليه من عواقب وخيمة.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ١٥٧، الدر المصون، الحلبي، ٧/ ٤٨٨.
(٢) التفسير الوسيط، ١١/ ٢٧٨.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي، ١٥/ ٩٤٨٦.
(٤) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٥/ ١١٦.

عاقبة الشك

الشك له عواقب وخيمة تعود على صاحبة في الدنيا والآخرة، في هذا المبحث ستتعرف على أهم العواقب التي تنتج عن الشك.

١ . الانغماس في الضلالة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

الكلام في هذه الآية جاء على لسان مؤمن آل فرعون، يحذر قومه من الشك في دعوة موسى عليه السلام كما فعل أجدادهم من قبل مع يوسف عليه السلام، ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ أي: فما زال آباؤكم في شك مما جاءهم به من البينات والهدى، كشأنكم أنتم مع نبيكم موسى عليه السلام[١].

ثم بين لهم عاقبة ومصير الذي يستمر في الشك في الأنبياء، الانغماس في الضلالة بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أي: مثل ذلك الإضلال الفظيع، يضل الله تعالى من هو مسرف في ارتكاب الفسوق والعصيان، ومن هو مرتاب في دينه، شاك في صدق رسوله، لاستيلاء الشيطان والهوى على قلبه[٢].

٢ . الوقوع في الاختلاف.

من عواقب الشك، الوقوع في الاختلاف لا سيما حول ما أنزل الله عز وجل، كما حدث الاختلاف حول التوراة التي أنزلها الله عز وجل على موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [فصلت: ٤٥]

أي: ولقد آتينا نبينا موسى عليه السلام كتابه التوراة ليكون هداية ونورًا لقومه، فاختلفوا في شأن هذا الكتاب، فمنهم من آمن به، ومنهم من صد عنه[٣].

٣ . العذاب في الآخرة.

عواقب الشك لا تقتصر على الدنيا فقط بل إنها تمتد للآخرة، فمن عواقب الشك في الآخرة العذاب والفناء والهلاك، كما في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦].

قال طنطاوي: «التدارك بمعنى الاضمحلال والفناء، وأصله التتابع

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٣٦.

(٢) انظر: الوجيز، الواحدي ص٩٤٥.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٥٦٨.

والتلاحق، أي: بل تتابع علم هؤلاء المشركين بشئون البعث حتى اضمحل وفنى، ولم يبق لهم علم بشيء مما سيكون فيها قطعا مع توافر أسبابه ومباديه من الدلائل، ومنهم من يرى أن التدارك هنا التكامل، فيكون المعنى: بل تكامل علمهم بشئون الآخرة، حين يعاينون ما أعد لهم فيها من عذاب، بعد أن كانوا ينكرون البعث والحساب في الدنيا، ويبدو لنا أن الآية الكريمة تتسع للقولين، على معنى أن المشركين اضمحل علمهم بالآخرة لكفرهم بها في الدنيا، فإذا ما بعثوا يوم القيامة وشاهدوا العذاب، أيقنوا بحقيقتها، وتكامل علمهم واستحكم بأن ما كانوا ينكرونه في الدنيا. قد صار حقيقة لا شك فيها، ولا مفر لهم من عذابها»[1].

قال الألوسي: « قوله: ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ والمعنى: بل تتابع علمهم في شأن الآخرة، التي ما ذكر من البعث حال من أحوالها، حتى انقطع وفنى، ولم يبق لهم علم بشيء مما سيكون فيها قطعا، مع توفر أسبابه »[2].

موضوعات ذات صلة:

الإيمان، الظن، النفاق، اليقين

(١) التفسيير الوسيط، ١٠/ ٣٤٩.
(٢) روح المعاني، ١٠/ ٢٢٤.